

بيان مرهم نزيهه لجنه مو ظفي دمشق = بغت ضعا بالبا
افتتاح مهرجان الكرمه الخامس في الس

العالم

جريدة يومية

بجاس لعرني يتابع الاستماع الى دفاع المتهمين في قسه
لهمون يدافعون عن انفسهم ويتنصلون من المؤامرة ويطلبون
بجاس لعرني يرفع جلسانه الى يوم الاحد
بجاس لعرني يرفع جلسانه الى يوم الاحد

٨ صفحات
١٥ قشور سوريا
١٥ مليتا مصر
١٥ فلسا عراقي
السنة الأولى
بجاس لعرني يرفع جلسانه الى يوم الاحد

السياسية
تصديق
مؤسسه الوحده
الطائفة والنشر التوزيع
دمشق
السياسية
تصديق
مؤسسه الوحده
الطائفة والنشر التوزيع
دمشق

حياتي والإعدام

محمد إبراهيم العلي

الجزء الثاني 2003

تعاون ثقافي وجغرافي واف
١٥ قشور سوريا
١٥ مليتا مصر
١٥ فلسا عراقي
السنة الأولى
بجاس لعرني يرفع جلسانه الى يوم الاحد

حياتني والإعصاه

الجزء الثاني

محمد إبراهيم العلي

حياتي والإعطاء

الجزء الثاني

2003

- حياتي والإعدام - ثورة 8 آذار
- الجزء الثاني
- محمد إبراهيم العلي
- الطبعة الأولى - دمشق - 2003
- رقم موافقة الطباعة / 360 /
- تاريخ: 2003/5/17
- حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
- تصميم الغلاف: د. علي سليمان
- تنضيد وإخراج: إيمان العاصي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرَ﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾

صدق الله العظيم

الإهداء

كلما تشابكت الظروف وتعقدت في الوطن العربي حول الصراع العربي - الصهيوني.. أتذكر (معركة خيبر) وقد تشابكت الظروف وتعقدت بين المسلمين واليهود آنذاك أيضاً، وكاد المسلمون أن يتركوا المعركة.. فاستندوا إلى الآية الكريمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة،
إن الله مع الصابرين﴾. فثبتوا وانتصروا.

إلى الرجل الصابر، الثابت على المبدأ..

السيد الرئيس بشار الأسد

أمل العرب في معركة الإرادة، والشرف، والكرامة..

أهدي كتابي هذا.. تقديراً، واعتزازاً، ومحبةً.

محمد إبراهيم العلي



السيد الرئيس بشار الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية

عندما خاف المسلمون في معركة خيبر من قائد اليهود (مرحب)،

صاح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

• أنا له يارسول الله .

ونزل من دون أن يرتدي عُدّة الحرب ، فصاح به الرسول

محمد ﷺ :

• تدرع ، يا علي ، إنه مرحب !

فأجابه الإمام علي :

• إن لي من أجلي درعاً تحميني .

المرسوم رقم ١٥٧

ان رئيس الجمهورية

بناءً على احكام الدستور

وعلى الحكم الصادر عن محكمة امن الدولة العليا المؤرخ في ٢١ شعبان ١٣٨٢ و ١٧ كانون الثاني ١٩٦٣ رقم ١ لسنة ١٩٦٣ القاضي باعدام الملازم اول محمد بن ابراهيم العلي والعسكري المتطوع محمد بن مصطفى يوسف .

وبعد استطلاع رأي مجلس الدفاع العسكري ورأي القضاة المكلفين بتدقيق احكام محاكم امن الدولة وفاقا للمادة ١٦ من القانون ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ ورأي قضاة الدائرة القانونية في رئاسة الجمهورية .

وبناءً على اقتراح وزير الدفاع

يرسم ما يلي :

المادة ١ - ينفذ حكم الاعدام الصادر عن محكمة امن الدولة العليا بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٨٢ و ١٧ كانون الثاني ١٩٦٣ رقم ١ لسنة ١٩٦٣ بالملازم اول محمد بن ابراهيم العلي والعسكري المتطوع محمد بن مصطفى يوسف .

المادة ٢ - ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم

دمشق في ٩ / ٩ / ١٣٨٢ و ٢٩ / ١ / ١٩٦٣

رئيس الجمهورية

عبد الرحمن رئيس الجمهورية

رئيس مجلس الوزراء

وزير الدفاع

٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

* فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون *

صدق الله العظيم



الملازم الأول محمد إبراهيم العلي

هذه المذكرات...!!

❖ سئل الجنرال جياب، أحد أبرز القادة الفيتناميين، حين صدرت مذكراته، لماذا كتبتَ مذكراتك، وأنت الرجل الذائع الصيت في طول البلاد وعرضها، وأنت الذي تُورخُ له المواقعُ، والمعاركُ، والقيادةُ الحكيمة...؟!
أجاب: أريد أن أخرج رأسي من الأحداث لكي أراها!

هذه القولة للجنرال جياب، خطرت ببالي حين فرغت من كتابة الجزء الثاني من مذكراتي، والتي لا أريد من ورائها الشهرة، أو تأثير الأمجاد، أو غمط حقوق الآخرين وأفعالهم، أو التقول على حياة قادة ومناضلين صار تاريخهم جزءاً من تاريخ سورية، كما لا أريد تقديم نفسي على الآخرين، أو قود الكلام إلى أنساب شريفة أو نبيلة لم تكن لي، أو

التقرب من المراتب العليا، أو رسم الأدوار وصوغها على غير حقيقتها.. إطلاقاً، ما أردته من هذه المذكرات هو أن أخرج رأسي من الأحداث لأراها بعيني وليس بعيون الآخرين، ولأسجل بالكلمة الصادقة، والمشاعر الحساسة.. أدق تفاصيلها، وأسحب من الأمانة الظليلة المتواري منها الذي ظل طوال سنوات وسنوات مستودعاً للأسرار، الاقتراب منه يعني الموت، والخوض فيه يعني التهور غير الحميد..!! كما كتبت هذه المذكرات لأنصف رفاقاً لي كانوا هم سياجي مثلما كتبت سياجهم، هؤلاء الذين اختاروا طرقاتاً ودروباً أخرى لكي يحبوا بها الوطن ويخلصوا له، هؤلاء الذين كانوا مثلاً نادراً للشجاعة الكلية، والوطنية العريضة، والروح المجبولة على البذل والفداء.. أردت حقيقة أن أنصف الذين ابتعدوا عن دائرة الأضواء، والحوار، والمشاهدة، ليس خجلاً، أو ضعفاً، أو إقصاءً وتحيية.. وإنما ابتعدوا استجابة لدوافع ذواتهم الصادقة في تربيتها الوطنية والقومية والإنسانية. أردت أن أتحدث عن هؤلاء الرفاق لأنصفهم قبل إنصاف نفسي؛ لأنهم أصحاب تاريخ مشرف كانوا هم صنّاعه؛ خصوصاً في العقود الأربعة الماضية من القرن العشرين. حاولت أن أكتب وأقدم المعلومة التي أعرفها شخصياً عنهم، وأن آخذ بالمعلومات التي قالها بعض الرفاق عنهم وهي محل تقاطع واشتراك في المصداقية والثقة، كما سعيت إلى أن أقدم شهادات بخط بعض من هؤلاء الرفاق الذين كان لي شرف العمل والتنفيذ معهم في كل المحاولات والوثبات التي هدفت إلى إعلاء شأن الوطن ليظل عزيزاً على الدوام، تخليصاً من زمر الانفصال والتفوق القطري، ووصولاً إلى هدفنا الأسمى، أي تحقيق الوحدة العربية..

في كل ذلك الجولان الروحي مع أحداث تاريخنا الوطني.. كنت أحسّ بذوبان الذات، والفردية، والمصالح الضيقة.. أمام الحس الجماعي،

والروح الجماعية، ونهوض الوطن بكل طبقاته وفئاته، ومذاهبه، ورؤاه. فنحن حين ذهبنا إلى مصر العزيزة من أجل قيام الوحدة.. كنا نعرف جيداً بأن عدداً غير قليل من المصريين سيأخذون أدواراً عديدة من الممكن للسوريين أن يقوموا بها.. ومع ذلك رضينا بهذا، بل رضينا بأكثر من هذا، من أجل التمسك بالوحدة، واستدامة ظلّها على الأرض السورية والمصرية لتكون مشروعاً أكبر وأوسع وأعم يشمل بلاد العرب.. أوطاني!

إنني، وقد انتهيت من كتابة مذكراتي، أصارح القارئ الكريم بأنني أعيش، وأرى، وأسمع، وأحسُّ بكل لحظة عشتها منذ كنت طالباً في المرحلة الابتدائية، أجوب حافياً الدروب الشائكة، جائعاً عطشاً، خائفاً من الوحوش ليلاً، والبشر (قطاع الطرق) نهاراً كي أعلم، كي أعلو في نظر أُمي التي اعتبرها المثال المجسّد للوطن بعامه، ومنذ كنت طالباً يودّ أخذ شهادة (السرتفিকা) في مدينة حماة، لا أعرف كيف أتقي نظرات أترابي أبناء الصف، وأنا لا أملك ثياباً مثل ثيابهم أو حذاءً مثل أحذيتهم، أو حينما أصبحت طالباً في ثانوية ابن رشد، في القسم الداخلي لا أرى أهلي وأصدقائي إلا في أوقات محددة، ومنذ أخذتني الحياة كمعلم وحيد مع البدو، إلى مقاتل مجند على نهر الشريعة، إلى طالب ضابط في الكلية الحربية في حمص والقاهرة.. إلى جعل أحلامي في الوحدة واقعاً في مستهل الستينيات.. إلى سائر المسؤوليات التي اضطلعت بها. إنني أحسُّ وأشعر بجدوى ما قمتُ به، وأنا الذي لم أكرّ على المدينة - العاصمة بكتاب توصية إلى ولاية الأمور، وأنا الذي لا يعرف أحداً فيها، لا جاء ولا مال يدفعني للعيش في المدينة، هي الأقدار وحدها التي دفعتني إلى العمل والاجتهاد لأعلو في نظر والدي أولاً، ثم في نظر رفاقي ثانياً، ثم في نظر الآخرين عامة.. ثالثاً.

كنتُ، ومنذ يفاعتي، كائناً برياً شبيهاً بأشجار الصنوبر، أو السنديان، وحيداً أتعلم من الكتب، وتجارب الناس، ومدرسة أمي وأبي، لذلك لم أتماه مع أحد، كنت على الدوام أترك مسافة بيني وبين الآخر أياً كان شأنه، مسافة لأراه ويراني، ومسافة لكي أحترمه ويحترمني، مسافة لا تطوي الكرامة.. ولا تقود إلى مطبات الهوان والمذلة لا سمح الله.. كنت قريباً من لؤي الأتاسي وهو في أوج حضوره، ومكانته.. بل كنت الأقرب إليه، ومع ذلك حافظت على شخصيتي وآرائي، لأنني، وفي غير مرة اختلفت معه في تشخيص بعض الأمور وتأويل الأحداث على الرغم من أن رتبتي كانت صغيرة قياساً إلى رتبته الكبيرة، وقد كان الرجل موضع احترامي دائماً لصدقه، وصفائه، وشهامته، وإيثاره الآخرين على نفسه.. لكن لؤي الأتاسي اقتدى بشكري القوتلي، فترك كل شيء راضياً غير شامت، ومحافظاً على علاقاته مع الآخرين الذين أحسّ بوطنيتهم وصدقهم!

كما كنت قريباً من عبد الناصر، هذا الرجل الاستثنائي؛ قريباً منه إلى درجة أنني كنت موضع حسد وغيره، أو ربما غبطة، من أعضاء القيادات العسكرية، والحزبية، والمدنية السورية في أثناء لقاءاتنا مع عبد الناصر في مصر، ومع ذلك ظللت على مسافة من الرجل، لم أقبل أن أكون رفيق دربه الشخصي، حارسه، لإحساسي بأنني لم أخلق لمهمة كهذه المهمة..

كما كنت قريباً من الرئيس حافظ الأسد طوال أربعة عقود، معاشة وحواراً، وتحملاً للمسؤوليات التي كلفني بها. هذا الرجل الاستثنائي في تاريخ سورية، الذي أحبيته لما فيه من نبل وكرامة وغيره على رفاقه ووطنه وأمته.

وقد كانت رغبات الرئيس حافظ الأسد عندي أوامر؛ وذلك لقناعتي بأنه أحد أبرز الرجال الوطنيين الكبار الذين عرفتهم سورية عبر تاريخها القديم والحديث معاً. وللرئيس حافظ الأسد جملة لاتزال ترنُّ في أذني، وهي: يا محمد أنت أحد إخوتي المخلصين لي، قالها لي منذ بدايات تسلمه للمسؤولية الأولى في وطننا العزيز سورية. وقد ظلَّت هذه الجملة منهاجاً لعلاقتي مع السيد الرئيس ونهجه الوطني والقومي أيضاً.

وهكذا طوال حياتي كنت قريباً جداً من الرجال الذين تسلموا مواقع المسؤولية الأولى في الوطن.. وظللت على مسافة منهم، مسافة تحافظ على المحبة، والتقدير، والرؤى مجتمعةً. هل قلتُ إنني أحسُّ بروح الكائن البري تجول بين جانبي.. بلى، هي ذي حالي!

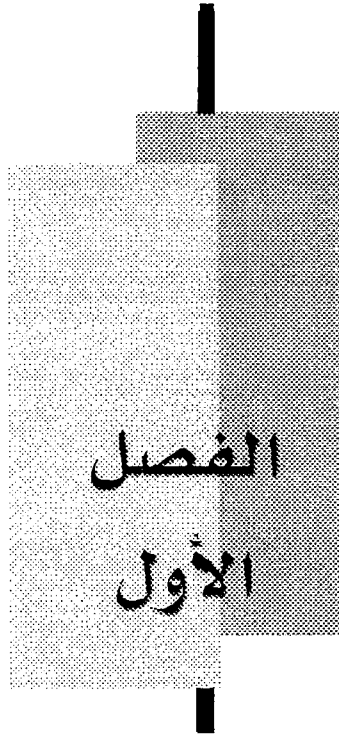
أما حرائق الروح، فهي كثيرة، وعديدة، لم تكن أولها ظروف أسرتي الصعبة والمعقدة في الترحال، والتهجير والطرْد من جندمة العثمانيين.. إلى سطوة الإقطاعيين ومحاولاتهم الدائبة لتدجين أهلي. غير أن الإحساس الدائم بالكرامة والمحافظة عليها هما معاً من جعل والدي نهياً للترحيل، والإقصاء.. من قرية إلى أخرى، لعل الوالد هو من أورثني هذه الروح العصية على التدجين، وبها أفخر!

وحرائق الروح الكثيرة، تعدادها يسير، بدءاً من رؤيتي للأسلحة الفاسدة في الجبهة عند نهر الشريعة، وقرب جسر بنات يعقوب، والانقلابات التي تلت فاجعة الفلسطينيين ونكبتهم، مروراً بالانفصال، وفشل محاولات إعادة الوحدة مع مصر، أو إقامتها مجدداً مع دول عربية أخرى، وصولاً إلى هزيمة عام 1967. وآثارها التي تركت ندوباً على صفحات أرواحنا، ثم مجازر أيلول، والظلم المركب الذي وقع على الفلسطينيين الذين أعادوا الصحوة إلى العرب في أعقاب هزيمة 1967،

فأشعلوا فتيل النخوة العربية مرة أخرى.. كل هذه الحرائق حرائق
مشتركة مع الآخرين شعرت بها كما شعروا بها، ولكن هنالك حرائق أخرى
هي لذاتي وروحي لامستها وأشرت إليها لمحااً بين تضاعيف هذه
المذكرات.. ولا أعتقد أن العين الرائية تُخطئها، وإن كنت أغفلتها شرحاً
وتوثيقاً وبياناً.. فذلك يعود إلى أنني مهوم بالروح الجماعية، روح
الوطن.. لا بالروح الشخصية وجولانها.. مخافة أن تحيد الروح أو تنزلق
إلى أحيازها الخاصة.

لم أكن أشعر في يوم من الأيام.. إنني أعيش من أجل مشروع
شخصي، وإنما أعيش من أجل مشروع عام، لهذا إن أردت توريث أحد ما
هو الأعلى عندي، فإنني لن أوريث أحداً مالاً أو أرضاً، أو أطياناً، أو
مسؤوليات.. ما سأوريثه هو سمعتي، وأفعالي، ومحبة الآخرين فقط!





الفصل

الأول

من الطفولة إلى ثانوية ابن رشد

في الزنزانة رقم (7)

أشعر الآن،

وقد أصبحت داخل زنزانة إفرادية، بأن الحياة موقف، ورحلة شهامة
مهما امتدت أو قصرت آجالها. صحيح أنني لم أكن أتوقع أن يصبح مصيري
إلى هذه النهاية، أن أحاكم، وأن يصدر بحقي حكم إعدام، ولكن كنت مهيباً
نفسي لأي مصير سأواجهه، وأنا أناضل في سبيل قناعاتي ووطني!

في السجن كان لي عزاء متعدد الوجوه، الأول: هو أنني محتجز في زنزانة
بأئسة لا تحقق أي شرط من شروط الإنسانية، ولكن بقربي في العنابر،
والزنازين رفاق لي كان مصيرهم هو المصير ذاته الذي أواجهه. فنحن مجموعة
من الضباط الذين تنادينا إلى إعادة الوحدة ما بين مصر وسورية مرة ثانية،
وعلى أسس وطنية وقومية مدروسة، كما تنادينا إلى إنصاف الضباط الذين
سرحوا إبان حكم الانفصال عام 1961 بسبب ميولهم الوجدية والقومية،
وبسبب مواقفهم الوطنية الراضية للانفصال وممارسات من قاموا به. هؤلاء
الرفاق الذين يحيطون بي من جوانب عديدة، أحس بأنهم يمدونني بالقوة،
والشجاعة، والمناعة، صحيح أنني لا أراهم ولا أجتمع بهم ولا أخاطبهم، ولكنني
أشعر بهم. أحس بأصواتهم، وأنفاسهم، وهمماتهم تشد من عزيمتي، وتصلب
إرادتي.

والوجه الثاني: أهلي. فلقد أبدوا شجاعة كبيرة، وصبراً عظيماً حين
سمعوا بأنني أخذت إلى السجن، وأن محاكمتي قد بدأت، وأن مصيري انتهى
إلى الإعدام. لقد أبدى والدائي، أبي وأمي، شجاعة نادرة، ولكم شعرت بالفخر
حين سمعت بأن أُمي تقول:

لن أذهب إليه في السجن، لن أراه سجيناً. إن خرج فسأرفع رأسي عالياً

بأنني أم بطل حاول مع رفاقه إعادة الوحدة مع مصر، وإن أُعدم، فسأرفع رأسي عالياً أيضاً لأنني أم بطل دفع حياته ثمناً للوحدة، ولم يكن أبي أقل صلابة وشجاعة من أمي. وكذلك كانت زوجتي، رغم صغر سنها، فقد أبدت شجاعة كبيرة ورفضت الذهاب إلى أهلها وبقيت مع والدتي، وأخوتي وعائلتي في مدينة حماة.

والوجه الثالث: الشعب. فلقد كنت أمتلئ بالعزة والفخر في كل جلسة من جلسات المحاكمة الطويلة. فقد كان الناس، ومن كل شرائح الشعب الاجتماعية يجمعونني، ويشدون من عزيمتي كي لا أضعف أو ألين أمام أسئلة القضاة والمحامين، لقد أحسست بأن الناس الذين كانوا يحضرون جلسات المحاكمة الدورية هم أهلي أيضاً، وهم راضون عن عملي الذي قمت به مع رفاقي من أجل إعادة الوحدة مع مصر.

والوجه الرابع: المحامون الذين تطوعوا، بالمجان، للدفاع عني وعن رفاقي لإيمانهم بالوحدة، والقومية العربية.

والوجه الخامس: قناعاتي الأكيدة بأنني قمت بعمل وطني وقومي جبار هدفه الصالح العام للبلاد، وليس المنفعة الشخصية. لذلك حين صدر حكم الإعدام بحقي تقبلت ذلك بنفس راضية، وقلت: فلتكن هذه الروح في سبيل الوطن والوحدة العربية، وأحلام الفقراء!

أتذكر هذا..

وأنا في وحدتي، في الزنزانة التي أحسها بأنها راحت تتسع عليّ، ربما لأنني ألفتها. بعدما شعرت بها لأول وهلة، حين قذفوني فيها، بأنها قبر أو شبيهة بالقبر، أو أنها بئر عمقها الحقيقي يعلوني، فأبدو في داخلها، كأنني في قاع بئر حقيقية. لا، إنها الآن تتسع خصوصاً بعدما صدر حكم الإعدام. فلقد شحنت بعاطفة قوية من قبل رفاقي الضباط السجناء معي في «سجن المزة العسكري» وقد أجمعوا جميعاً على وعد هو بأنني لن أعدم، وأنهم سيفعلون

المستحيل كي لا أعدم. ومع ذلك قلت لهم:

لقد عملت ما أملاه عليّ ضميري. وقد تساوت عندي الحياة والموت مادامت الأولى في سبيل الوطن، ومادام الثاني في سبيل الوحدة العربية.

الآن، في هذه الزنزانة، أتساءل أسئلة غريبة تدور جميعها حول النهاية التي وصلت إليها، حول الواقع الذي عاشته أسرتي، حول الأهداف والمبادئ التي تعلمتها في المدرسة، والحزب، والكلية الحربية، والخدمة العسكرية.. أتساءل، وقد تعبت كثيراً في حياتي، أهكذا تنتهي الحياة وأنا ابن ثمانية وعشرين عاماً؟! وأجيب أحياناً عن هذه الأسئلة، وأحياناً لا أقوى على الإجابة إطلاقاً! ولكي أتخلص من مشاعر الضغط على نفسي وروحي. أعود القهقري، أتذكر تاريخ أسرتي وواقع أهلي، ورحلة العذاب التي عاشوها مع الإقطاعيين من جهة، ومع جندرمة العثمانيين من جهة ثانية.. ذلك التاريخ الأسود الذي طحنهم طحناً، فلم تبقَ مقاومة وممانعة سوى أرواحهم الصابرة والمجاهدة أيضاً.

أرى ذلك العذاب كله.. فتهون عليّ مشكلتي، وأطمئن إلى أن القدر هو الذي رسم حياتي، وقادني إلى كل أفعالي، فالتربية على حب الوطن، والعروبة، وكره الإقطاع والمستعمرين والمحتلين.. لا بد أنها ستقود إلى المواجهة مهما كانت وسائل الفرد بسيطة وعادية.

أسرتي ورحلة العذاب.. والفرحال!

أذكر بأن والدي إبراهيم العلي حدثني، وفي أوقات عديدة عن تاريخ أسرتنا، كما كانت والدتي تحدثني عن تلك الرحلة التي أسميتها برحلة العذاب..

يبدأ ذلك التاريخ من المواجهة الحامية التي خاضتها أسرتي الصغيرة مع

جندرمة الأتراك في قرية «العرقوب» منطقة الشيخ بدر، حيث كنا نعيش، وقد قتل في تلك الحادثة أحد الأتراك الأمر الذي أدى إلى هروب أسرتي ليلاً من القرية والبحث عن ملجأ آمن لها.

كانت الأسرة مؤلفة من جد أبي «علي محمد يوسف العلي» وزوجته فاطمة وأربعة أولاد، أربعة ذكور وبنت واحدة. تركت الأسرة قرية «العرقوب» وهي قرية قريبة من قرية «الشيخ بدر» في محافظة طرطوس. فمرت بقرى عديدة في أثناء هروبها شرقاً، إلى أن استقر بها المطاف في قرية «السنديانة» الواقعة إلى شرق «وادي العيون». كان الوقت شتاءً عاصفاً، والأحوال الاقتصادية سيئة جداً. وسبب المواجهة ما بين أجدادي وجندرمة الأتراك يعود إلى أن أحد الأتراك أراد التحرش بزوجة جدي الأكبر «علي محمد يوسف العلي» وقد كانت جميلة جداً، فهب الرجل ودافع عن عرضه، فقتل التركي، ولذلك كان لابد من الفرار من القرية والبحث عن مكان آمن له ولزوجته وأولاده، وقد تستر أهالي قرية «العرقوب» على هروب أجدادي، فنفوا إن كانوا يعرفون طريق هروبهم أو الجهة التي ذهبت إليها الأسرة.

وحقيقة الأمر أن الأهالي ما كانوا يعرفون القرية التي قصدها جد أبي هرباً من وجه الجندرمة التركية. كان ذلك في حوالي عام 1870. وربما يعود سبب تلك المواجهة إلى الأحداث العاصفة التي شملت لبنان وسورية عام 1860، وحوادث القتل والتهجير التي جرت آنذاك. ولقد رأيت بأنه توجد بيوت عدة في قرية «العرقوب» مازال حتى يومنا هذا مهدمة منذ ذلك التاريخ، ولعلها هي بيوت أجدادي الذين فروا هاربين من الظلم التركي. [[وحتى الآن، كلما مررت بذلك المكان أقول هنا وقع الظلم على أهلي]].

في تلك الرحلة مات الابن الرضيع لجد أبي في قرية «الشميسة» الواقعة جنوب مصياف، ولم تقم الأسرة طويلاً في قرية «السنديانة» بسبب الخوف والحذر.. فمضت إلى قرية «الشميسة» القريبة من مصياف أيضاً، ثم تركتها بعد فترة قصيرة، وذهبت إلى قرية «القبو» واستقرت فيها بسبب وجود رجل

من أقرباء جدي علي، كان يعمل فيها راعياً للمواشي. وقد مات جدي في تلك القرية بعد وصوله إليها بيومين، حيث دفن بجانب مقام الشيخ طراف المعروف، وقيل إن رجلاً «غريبياً» - أي أنه قَدِمَ من الغرب - وصل فمات، فسميت العائلة ببيت الغريبى، وأصبح هذا اللقب معروفاً وشائعاً بين الأهالي.

وقد قام بالبحث عن جدي شقيق زوجته يوسف من أجل المعرفة وتتبع أخباره وأحواله، ولكي يطمئن عليه بالتعاون مع أحد أقربائنا «سلمان العلي جد المجاهد الشيخ صالح العلي» المشهور حيث ذهب يوسف والشيخ سلمان العلي إلى مصياف، ثم مدينة حماة، ونزلا ضيفين عند الشيخ صالح جعلوك، ولا بد أن أشير هنا إلى أن أغلب سكان حماة عندئذ كانوا شيعة وعلويين.

وأيضاً توفي الشيخ سلمان العلي، وقد كان متقدماً في السن، في بيت الشيخ صالح جعلوك، فنقل جثمانه إلى قرية «بيصين» حيث دفن فيها وصار له فيها مقام يعرف باسم الشيخ سلمان بيصين. (وهو جد الشيخ صالح العلي قائد الثورة في الساحل، ضد الفرنسيين).

أما خال الأولاد يوسف فقد كان عمره أربعين عاماً، قوي البنية، تابع البحث عن العائلة، فوجدها. عندئذ التحق الأولاد بخالهم، فاحتضنهم ورباهم. حيث زوج البنت لأحد أبناء عائلة سليمان في قرية «السويدة» الواقعة على طريق مدينة مصياف الحالية.

أما الأولاد الثلاثة، ووالدتهم فاطمة وهم: محمد، وحسن، وسليمان، فقد اتجهوا إلى الشرق ليعملوا في الأرض العائدة للإقطاعيين، وقد استقروا بهم المطاف في قرية «الحمرات» وهي قرية واقعة على أطراف البادية.

وقد جاؤوا إلى هذه المنطقة ليباعدوا عن سلطة الأتراك المباشرة، فعملوا فلاحين ورعاة مع والديهم فاطمة في تلك القرى، وقد رغبت فاطمة أن تزوج ابنها محمد، فبحثت له عن فتاة من أقربائها، وفي هذه المحنة الصعبة، كان يقف إلى جانبهم رجل اسمه الشيخ محمد إبراهيم وهو أيضاً من ضمن

العشيرة، وكانت شقيقته واسمها بحر في سن الزواج، فتم زواج محمد من هذه الفتاة - وبالمناسبة من عادة البدو أن يبدلوا الأسماء، فكان أن غير البدو اسم فاطمة إلى اسم فرزات.

توفيت فاطمة في قرية «مريود» ودفنت في الجنوب منها، وصار لها مقام فيها يُعرف باسم (فرزات). محمد زوج بحر، هو جدي المباشر والد والدي، وبحر هي أم والدي، وقد ولدت له عمي علي، وهو أكبر من والدي، ثم جاء بعده والدي في سنة 1886 تقريباً، ثم ولدت ثالث أولادها واسمه عبد الله في سنة 1896. وقد عاشوا حياة صعبة جداً على أطراف البادية، مع البدو، فتعلموا عاداتهم وتقاليدهم، وقد كانت الهجرات تتوالى من الساحل باتجاه شرق حماة وذلك بسبب الأحوال المعيشية الصعبة من جهة، وبسبب الهروب من الجندية في الجيش التركي من جهة ثانية، وذلك لأن أبناء البدو ما كانوا يجندون في الجيش التركي.

وحيث مات جدي محمد ترك أولاده الثلاثة علي، وإبراهيم، وعبد الله، وهم دون العشرين، مع أمهم بحر، وأيضاً ترك شقيقه حسن، وسليمان. لذلك كانت تتهددهم مشكلة تجنيدهم في الجيش التركي، حاولوا أن يهربوا منها لكنهم أخفقوا، لذلك اقتيدوا إلى المعرة ضمن الأفواج الذاهبة إلى الجندية التركية، ومن «المعرة» نقلوا إلى حلب، ثم أعيدها إلى «المعرة» مرة ثانية بحجة أنهم تابعون «للمعرة» وقد كان الأخ الأصغر عبد الله ابن أربع عشرة سنة يركب على بغله، ومعه الطعام والشراب، فحيثما يقفون للاستراحة يقدم لهم الطعام والشراب.

والدي ينفذ الموقف...!!

ويروي أبي فيقول:

لقد خطرت لنا فكرة لكي تنجو من الجندية التركية، ومن المشاركة في

الحرب العثمانية ضد البلقان، التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

طرحتها على عمي سليمان، قلت له ليذهب أحدنا إلى أخت الشيخ أبو الهدى الصيادي، وقد كان مفتياً عاماً في السلطنة العثمانية، وصاحب مكانة رفيعة جداً عند السلطان، وأيضاً صار لأخته نفس المكانة، واسمها عائشة، وتلقب بعُوَيْش، ويرجوها أن تتوسط لنا بأننا نحن من البدو، ولها عندنا اكرامية كبيرة. فوافق عمي وأخي علي على هذا الاقتراح.

فذهب عبد الله إليها، وأخبرها بقصتنا فوافقت على الفور. أركبها عبد الله على الفرس، وأخذها معه إلى «المعرّة» وهناك أقنعت الجندرمة الأتراك بأننا بدو، فأخلوا سبيلنا، وكتبوا بجانب أسمائنا بأننا من البدو الحديديين. وقد أخذت عُوَيْش أربع ليرات ذهبية لقاء ذلك عن كل منا.

ورجع بذلك الأخوة الثلاثة مع عمهم إلى قرية «قصر بيت علي» وهي تابعة لعرب الحديديين. ثم انتقلوا بعد فترة إلى قرية «السماقة» وهناك تزوج والدي وقد تقدم به العمر، تزوج من ابنة عمه فاطمة بنت سليمان، ولم ينجب منها مباشرة، وقد أراد الأقرباء تزويجه من امرأة أخرى إلا أنه رفض، وكان أن رزق بأول أولاده فكنت أنا بكره وسماني على اسم جدي محمد بعد ستة عشر سنة من الزواج.

((في عام 1900 تزوج عم أبي حسن من امرأة اسمها حُسن من منطقة السلمية وبعد شهور عدة من زواجه أصيب بالمغص وتوفي فوراً وبقيت حُسن وكان عمرها حوالي عشرون سنة، وجرى نقاش بين أفراد العائلة هل يعيدون المرأة إلى أهلها أو يتزوجها أحد أفراد العائلة، وقد أجمع أفراد العائلة أن يتزوجها أخوه الأصغر سليمان، وفعلاً تم ذلك بعد ست شهور أو عام من وفاة حسن زوجها الأول. وحملت هذه المرأة وولدت بنتاً سموها فاطمة على اسم جدتها فاطمة، وبعد عدة شهور توفيت والدتها حُسن. لقد ولدت فاطمة في عام 1903، وتزوجها والدي في عام 1918، وكانت صغيرة، بينما كان والدي

يكبرها بكثير، فقد كان من مواليد 1885، وتزوج والدها سليمان مرة ثانية بعد سنة من امرأة من ريف حمص الشرقي وفي عام 1910 ولدت له ولداً اسمه يوسف. توفي والدها سليمان بعد زواجها بسنوات عدة، أي في نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي عام 1934 أو 1933 ولدت، وقد كان عمرها حوالي ثلاثين سنة، في ذلك الوقت كانت المرأة التي تلد في الثلاثين تعد متأخرة جداً لأنه كان متوسط الأعمار خمس وأربعين سنة. كان عمر والدي عندما ولدت حوالي 48 سنة. وكان والدي شخصاً محبوباً، وجميلاً))

الميلاد.. والطفولة!

أظن بأنني ولدت في الفترة الواقعة ما بين عامي 1933 و1934، والتاريخ هنا ليس محدداً بالضبط، فقد كانت أعمار أولاد الريف تقدر تقديراً وتوضع لهم تواريخ لها علاقة بالمواسم، كأن تقول ولد فلان في موسم الحصاد، أو في (الثلجة) الكبيرة، أو في أول موسم الفلاحة، أو في (الشتوة) الأولى إلى ما هنالك من مسميات، وقد كان يؤرخ لتواريخ الولادة بالمناسبات الدينية أيضاً، كيوم عاشوراء، أو ليلة النصف من شعبان، أو في رمضان.. الخ.

المهم أنني أبصرت النور في ليلة النصف من شعبان في تلك الفترة في أيام برد وصقيع شديدين في قرية «السماقة» وهي قرية تابعة لمدينة حماة، وتقع على الطريق الواصل ما بين قرية «الحمرات» ومدينة حماة. أي أنها تبعد عن حماة حوالي (50) كم في الشمال الشرقي للمدينة.

ولم يطل بنا المقام في قرية «السماقة» فرحل أهلي، وأنا طفل رضيع إلى قرية اسمها «قصر أبو سمرة» لمدة سنة واحدة، ثم رحلوا إلى عدة قرى أذكر منها أم حارتين - قراح - مريود - المبطن - أم الخلاخيل - أبو منسف - المضبعة.

وسبب تنقل عائلتي الكثير من قرية إلى قرية يعود إلى أن أهلي -

وخصوصاً والدي . لم يكونوا معتادين على الظلم، ولم يتقبلوا المهانة والمذلة اللتين يريد ممارستهما الإقطاعيون وأولادهم، أو وكلاء الإقطاعيين. وفي إحدى المرات اضطرت عائلتي للسكن في البادية مع البدو، وأذكر أن أهلي كانوا يقصون عليّ وعلى أخوتي معاركاتهم الصغيرة مع الإقطاعيين، ومنها خلافهم الشديد مع أحد الإقطاعيين، واضطرارهم إلى مغادرة قرية «قصر أبو سمرة» إلى قرية «قصر بيت علي» وهي تقع إلى الشمال من «السماقة» حيث كان إقيم فيها خالي، ولكن القرية لم تعجب والدي فكان أن رحلت العائلة مرة أخرى إلى قرية «أم الخلاخيل» وهي شرق المعرة على الخط الحديدي، وهناك اجتمعت العائلة كلها واستقرت في قرية قريبة من قرية «أم الخلاخيل» اسمها «أم حارتين» وهي من أملاك بيت الكيلاني ومن المعروف أن منطقة حماة وريفها كانت موزعة بين عائلات إقطاعية من أشهرها عائلة العظم، وعائلة البرازي، وعائلة الكيلاني. أذكر أن والدتي كانت تقول لي إن خالي اصطاد طائراً صغيراً ملوناً، وأنه قصّ ريشه الطويل، وربط رجله بطرف خيط، والطرف الثاني من الخيط ربطه بيدي، وأتني رحت ألعب مع الطائر. كان عمري تقريباً حوالي سنتين أو أقل، وقد ارتبطت هذه الحادثة في ذهني وذهن والدتي لأن الطائر كان يقفز بسرعة عجيبة وأنا أريد اللحاق به، فوقعت على الأرض، أو ربما على صخرة وجرحت، فحزنت أمني وبكت لأن دمي سال، وقد رحت أبكي بألم. وكانت الوالدة تقص عليّ بعض القصص التي لها علاقة بالحياة الصعبة التي عشناها في رحلة التنقل بين القرى، قالت لي مرة: إنها وضعتني في الخرج، وركبت هي ووالدي على البغلة، وقد خافت عليّ كثيراً عندما كنت أحاول مدّ يدي أو إخراج رأسي من الخرج، كي لا أقع من فوق البغلة على الأرض، لأنني لو وقعت فعلاً لانتهدت حياتي، وأنا وحيدةا فهي لم تتجب بعدي آنذاك، وحتى طوال ثلاث سنوات تقريباً، تقول والدتي إنها في تلك المرة التي وضعتني فيها في الخرج كنا ذاهبين إلى زيارة مقام (زين العابدين). وزيارات مثل زيارة مقام (زين العابدين) لا تنتهي بسرعة، لأنها تكون بمثابة

جولة على الأقرباء والمعارف. تذكر والدتي أن جدتي (بحر) كانت معها في تلك الزيارة. وقد تقدم بها العمر قليلاً، اقترحت عليهم أن يمروا بقرية «مريود» حيث يسكن فيها الشيخ إبراهيم محمد وهو ابن أخيها، وقد كان وحيد أخيها الذي توفي قبل سنوات بعيدة، وقد كانت هذه القرية «مريود» تبعد عن حماة حوالي 20 كم إلى الشمال الشرقي منها، وسبب الزيارة إلى المقام، يعود إلى أن أمي نذرت نذراً بأنها لن تقص شعري لأول مرة إلا بعد أن تزور مقام (زين العابدين)، أما قص الشعر فقد نذرت بأنه سيكون في قرية الشيخ بدر التي فيها شيخ وجيه عارفة اسمه (الشيخ علي سلمان)، وهذه القرية فيها مقام قديم يعود إلى ما قبل 200 سنة، والشيخ علي سلمان هو والد الشيخ المجاهد صالح العلي، وقد كانت له مكانة دينية واجتماعية عالية.

في الشيخ بدر أخذ والدي خروفين، وقام بذبحهما كنذر للمقام، وتم توزيع لحمهما على الفقراء والمساكين وأهل القرية. وقد استمرت تلك الرحلة حوالي شهر، زار أهلي خلالها العديد من الأقارب، ثم عادت العائلة إلى قرية «أم حاريتين» ولم تطل إقامتنا في «أم حاريتين» بسبب خلاف نشب بين عائلتي ووكيل الإقطاعي فيها، فكان أن رحلت إلى قرية «مريود» التي يعيش فيها ابن خال أبي، وبقينا في هذه القرية حوالي ثلاث سنوات، وعندئذ صار عمري حوالي خمس سنوات.

الخطيب.. وحفظ القرآن!

كان في قرية مريود (خطيب) يعلم الأطفال حفظ القرآن الكريم، وبعض حروف الكلمات، فوضعتني والدتي عند الخطيب لأتعلم حفظ القرآن والكتابة، ولم يكن لها سواي آنذاك. وقد كنت أصغر طفل عند الخطيب، واسمه الشيخ يونس، وهو من قرية «حميين» التابعة لمحافظة طرطوس، وأذكر أن جدلاً طويلاً وقع بين أمي والخطيب، سببه أن أمي تريد وضعي عنده لأتعلم حفظ

القرآن، والخطيب لا يريد ضمي إلى التلاميذ لأنني صغير جداً، قال لها:

- هاتيه بعد سنة.

فقالت له:

- لقد جئت به الآن. وأريده أن يتعلم الآيات القرآنية.

قال لها:

- إنه صغير.

قالت:

- جريه فترة من الزمن. إن شعرت بأنه صار يفهم فليستمر، وإلا لنا

حديث آخر.

ورضخ الخطيب لرغبة أُمِّي وأبقاني مع التلاميذ الذين يسمون بأولاد الشيخ. أظن، والله أعلم، بأن والدتي طمعت الخطيب بخروف أو بشيء من هذا القبيل حتى وافق على ضمي إلى تلاميذه (أولاده). وفعلاً أبدت موهبة كبيرة في حفظ بعض آيات القرآن. الأمر الذي أعجب الخطيب كثيراً فأصبحت مضرب المثل في الفهم وسرعة الاستيعاب بين التلاميذ، وهذا جعلني أكون علاقات ندية وجيدة مع التلاميذ الذين هم أكبر سنّاً مني.

قبل هذه الفترة بحوالي سنتين (وكما حدثتني والدتي)، جرت حادثة أليمة وهي أن عمي علي ذهب في الصباح والدنيا برد ومطر لكي يبذر ويفلح، أخذ البذار، والحيوانات إلى الحقل، وهناك فاجأته حالة من المغص الشديد، وقد استنفرت العائلة بعد أن جاء من يخبرها بأن عمي علي (أبو موسى) يعاني من مغص شديد، وهو مطروح على الأرض، فذهب الجميع إلى الحقل ومعهم كل أنواع الحشائش اليابسة، والأنواع التي تغلى وتسقى للمريض مثل القرفة، والجنزبيل، والمليسة، والحبق البري، والبابونج.. الخ.

وهناك في الحقل حضروا هذه الأعشاب وسقوا عمي علي إلا أنه لم

يستفد منها، فقد مات بين أيديهم. يبدو (وهذا ما عرفناه فيما بعد، أقصد حين كبرنا، وتوسعت معلوماتنا الطبية) أن الزائدة الدودية انفجرت، ولم يكن آنذاك من يعرف بهذا الأمر، فمات عمي علي نتيجة انفجار هذه الزائدة وتسمم الجسم (واعتقد أن عمه حسن مات بالطريقة نفسها، ذهب إلى الحقل فأصيب بالمغص ومات).

وقد جاؤوا به إلى القرية، وقام الخطيب شيخ الكتاب في القرية، بغسله والصلاة عليه ودفنه، فرجعوا إلى البيت ورأينا جمهرة أهالي القرية، والجميع يبكون، فرحنا نبكي معهم. كان أولاد عمي علي صغاراً ومن بينهم موسى العلي، ربما كان عمره آنذاك سنة أو نحو ذلك. وهذه الحوادث من كثرة تكرارها من قبل أمي وأهلي وسماعي لها لم أعد أميز بين ما رأيته فعلاً وما تخيلته، وهل هي كانت قبل أن ألتحق بشيخ الكتاب أم بعد التحاقني بدروس الشيخ.

اجتمع الرجال داخل القبة، وقاموا بغسل عمي وتكفينه، والنساء يبكين وينوحن ويرددن الكلام الحزين بصوت عالٍ. وأخذ عمي علي إلى المقبرة في مشهد حزين أثر في نفسي كثيراً، وكأنه مطبوع بكل آثاره ومواجهه في روعي إلى يومي الراهن هذا. بعد هذه الحادثة بأربعين يوماً فقط مات جدتي بحر، وقد أثر موتها في نفسي كثيراً، فقد كانت تدلني، وتعطف عليّ مثلها في ذلك مثل أبة جدة في الريف.

الشيخ صالح العلي .. في بيتنا!

أذكر في تلك الفترة أيضاً حادثاً مهماً وخطيراً سيظل له تأثيره في نفسي وفكري، وهو أن الشيخ صالح العلي، قائد ثورة الساحل ضد الفرنسيين زارنا ونحن في قرية «مريود». كنا عند الخطيب عندما سمعنا بقدم الشيخ صالح العلي إلى القرية، فصرقنا الخطيب، واستعدّ لملاقاة الشيخ صالح العلي والترحيب به مع أهل القرية جميعاً. أذكر بأن زيارته للقرية، وللقري المجاورة

كانت حدثاً غير عادي لما كان للشيخ صالح العلي من مكانة ورفعة، فهو سيد الساحل السوري، وصاحب مكانة دينية بارزة، ورجل سياسي من الطراز الرفيع، وشاعر، وصاحب علاقات واسعة مع السياسيين السوريين وغير السياسيين، شيخ ثائر بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

لقد جاء إلى القرية بعربة تجرها الخيول، وهو يرتدي الطربوش الأحمر واللفة البيضاء، والجبّة الكحلية. كانت للرجل مهابة غير عادية، وكنا ننظر إليه كصاحب نفوذ ومقام ديني واجتماعي كبيرين. مرّ بيتنا أولاً، عند الصباح، وعرفنا أنه جاء للتعزية بعمنا الذي توفي، وبجدتي التي تبعته في الوفاة أيضاً. وأذكر أن أهل القرية جميعاً اجتمعوا في بيتنا حوله، أي من أجل رؤية الشيخ صالح العلي، ومن أجل الترحيب به. وقد سمعته يقول لأمي: الله يرزقك بولد آخر، فقد كنت وحيداً. وقد أخذني إلى حضنه، ومسح على رأسي بيده، وقرأ الفاتحة.

فأحسست بأنني أمتلك العالم كله، فالرجل الكبير صاحب الحظوة والمكانة، يخصني من بين جميع أولاد القرية ببركته، فيمسح على رأسي، ويقرأ الفاتحة، ويتمنى من الله أن ترزق والدتي بأخٍ لي. موقف مؤثر لا أنساه أبداً، وكأنه يحدث الآن.

وأذكر أنه قال لأمي التي دمعت عيناها:

. إن شاء الله تتوسمين الخير به، ثم التفت نحو والدي، وقال له:

. الله يبارك لك فيه يا إبراهيم، ويرزقك أخاً له، فقال والدي:

. لقد كبرنا يا شيخ صالح.

فقال له:

. ما في شيء صعب على رب العالمين، فهو الرزاق الوهاب.

وبالمناسبة فإن عمر والدي مقارب لعمر الشيخ صالح العلي. وسبب زيارة

الشيخ صالح العلي لأسرتنا هو الاطمئنان على أحوالنا، فقد عمل والدي، وعمي علي، وعمي عبد الله مع الشيخ صالح العلي في مقاومتهم للقوات الفرنسية، وقد كان والدي، ينقل الرسائل ما بين الشيخ صالح والمجاهد إبراهيم هنانو.

وأذكر أن الشيخ صالح العلي تناول طعام الإفطار في بيتنا، وكان من موجودات البيت لبن، وبيض مقلي، وقريشة، وأذكر أنه بعد أن فطر طلب ماءً، وحين جيء بالماء من الخابية، شرب، وقال لوالدي:

هذه هي المرة الأولى التي أشرب الماء من الخابية، ولو لم يكن من خابيتكم لما شربت.

الحقيقة لقد أدهشني هذا الموقف، وأنا طفل، فسألت والدي ووالدتي بعد أن ذهب الشيخ صالح العلي عن هذه الحادثة، أي لماذا قال هذا الكلام؟! فقالا لي:

- إنه يخاف السم. فهو رجل مهم، ويخاف أن يفتال بالسم.

لقد كان حذراً جداً، ورغم هذا الحذر مات الشيخ صالح العلي مسموماً. في تلك الزيارة، أذكر بأن صاحب القرية الإقطاعي (منذر بك العظم)، وأفراد عائلته مثل ظافر العظم. وعبد الحميد العظم، سمعا بزيارة الشيخ صالح العلي، لذلك جاؤوا بالعربات التي تجرها الخيول، قطعوا حوالي 20 كم من حماة إلى القرية من أجل السلام على الشيخ صالح العلي.

وقد أراد منذر بك العظم أن يأخذ الشيخ صالح إلى حماة ليقيم في داره باعتباره قائد الثورة في الساحل السوري، وأحد وجهاء مدينة حماة وريفها الكبار والمميزين. وأنا أود أن أشير إلى أن أولاد العظم وأهل حماة عموماً، كانوا من الناس المحترمين الذين يقيمون وزناً للشرف والقيم الأخلاقية العربية الرفيعة، وكانوا أيضاً من أصحاب النخوة الذين أمدوا الثورة السورية بالكثير

من المال والرجال، وتعاونوا مع الثورة في الساحل، وفي كل مكان. وهم بذلك وطنيون، وشجعان، ذادوا عن الوطن بكل ما يملكون من إمكانيات. وقد أراد منذر بك العظم أن يقيم وليمة للشيخ صالح، وقد أصبح الوقت ظهراً، إلا أن الشيخ صالح شكره بكل مودة، واعتذر منه لأن لديه برنامجاً للزيارات وتفقد أحوال الناس. وحين خرج الشيخ صالح من قريتنا ذهب مع نضر من بيت العظم، وركب في عربة ضمته مع منذر بك العظم مسافة قصيرة، ثم افترق الطرفان، الشيخ صالح العلي تابع طريقه إلى قرية «الطليسية» ومنذر بك ومن معه ذهبوا إلى حماة.

وقد ذهب والدي مع الشيخ صالح العلي وقضى ليلة برفقته في قرية «الطليسية» وهي من أملاك حكمت بك الحراكي بالمعرة، حيث بات الشيخ صالح العلي فيها عند الشيخ يوسف الحمدان.

طبعاً كان يرافق موكب الشيخ صالح العلي عدد كبير من الناس، فكلما مرّ بقرية رافقه نضر من أهلها في مسيره، وقد كانت القرى تجمع للشيخ صالح العلي القمح، وفي تلك الزيارة جمع له أكثر من (200) كيس من القمح باعتباره قائد ثورة، وشيخ دين، وزعيم عشيرة. وقد كان الشيخ يوزع الكثير من هذا القمح على الفقراء والمعدمين. لقد كان كريماً جداً، (كساب وهّاب). ومما لا أنساه إطلاقاً أن مجيء الشيخ صالح العلي إلى قريتنا، وإلى القرى الأخرى، استقبل بزغاريد النساء، والغناء، وبالرصاص أيضاً. فمن كان يملك (جفتاً) راح يطلق النار ترحيباً بقدوم الشيخ.

وقد أحدثت زيارته ارتباكاً عاماً لدى الفرنسيين فبعد أن غادر، جاءت القوات الفرنسية ودخلت القرى التي زارها، وراحت تسأل عن أسباب زيارة الشيخ صالح العلي، وعن البيوت التي جلس فيها أو أقام، واستجوبت الفلاحين عن علاقتهم بالشيخ صالح. وقد عرفنا فيما بعد أن الشيخ صالح العلي عاد عن طريق وادي الدورات شمال صوران، ثم ذهب إلى قرية «محددة»، وتناول طعام الغداء فيها مع مجموعة من رجال الدين المسيحي والإسلامي في بيت

البيطار، وبعد تناول طعام الغداء تابع سيره إلى قرية «أصيلة» الواقعة جنوب غرب مجردة، ونزل في بيت إبراهيم العلي، المطابق اسمه لاسم والدي، وهو من أقربائنا، وكان كثير الشبه لوالدي، وقد رافقه في هذه الجولة، والدي وعمي عبد الله، حتى عاد إلى قريته التي تدعى «بيت النبع» في منطقة القدموس.

ثم عاد أهلي كي ينقلوا الحبوب، بواسطة الإبل إلى بلد المجاهد الشيخ صالح العلي في بيت النبع. تلك الحوادث لا أنساها وأنا ابن خمس سنوات لا غير. حوادث مطبوعة في ذاكرتي كأنني أراها الآن تجري أمامي.

شيخ الكتاب.. والدق على المزهر!

وكان لنا أن انتقلنا إلى قرية جديدة اسمها قرية «قراح» وهي بلدة وعرة، وأذكر أنني بدأت التعلم على يدي شيخ الكتاب في القرية واسمه الشيخ سعدو من قرية «حلفايا»، ورحت أحفظ آيات القرآن، وأتلم الكتابة والقراءة، كما أتلم أحكام التجويد في القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وأسس العبادة. وقد كان هذا الشيخ متوراً، يحب المزاح، والغناء، مطلعاً، واسع المعرفة، وكان يدق بالمزهر وينشد الأذكار والأوراد، وقد علم التلاميذ الكبار الدق على المزهر، وإنشاد الأذكار. لقد كان يصفهم في حلقة شبيهة بحلقة المولوية، وأنا شخصياً تعلمت الدق على المزهر. وكان التلاميذ يدورون في الحلقة، ويغطون رؤوسهم بمناديل بيضاء، وهذه الطقوس كنا نقوم بها مع الشيخ في أوقات انحباس المطر، وإقامة صلاة الاستسقاء. يجمعنا الشيخ ونذهب إلى تلة في القرية، ونبدأ هناك بالدق على المزهر، وننشد، ندعو الله عز وجل من أجل إنزال المطر، ونقول هذه الأنشودة:

يا ربنا.. يا ربنا هات المطر لزرعنا

إذا الكبار أذنبوا نحن الصغار ما ذنبنا

أو من أجل إزالة الخسوف أو الكسوف، كان يقول لنا إن الحوت بلع قمرنا أو شمسنا. ويقوم بعض الأهالي ممن يملكون (الجفوت) بإطلاق النار نحو الحوت الذي ابتلع القمر أو الشمس. وكذلك كان يفعل من جهة أخرى رجال الشرطة.

والشيخ سعدو كان صاحب مواقف وطنية، فقد كان ضد الفرنسيين يحمس التلاميذ ضد فرنسا، ويقول لهم إنها عدوة، ومقاومتها واجب ديني، ولقد لاحقه الفرنسيون أكثر من مرة إلا أنه كان يتخفى في القرى هنا وهناك وتحت أسماء عديدة.

وأذكر أن ابن عمي مصطفى الذي أصبح شاباً، أخذني معه إلى قرية اسمها «تل خنزير» لرؤية شيخ فيها اسمه علي الجنيدي أو خضر الجنيدي ما عدت أذكر، وقد كان هذا الشيخ كما يقال (صاحب طريقة) يدق المزهري، ويقوم بأعمال صوفية عجيبة حقاً، كان يمسك الجمر بيديه دون أن يحترق، ويحمي الحديد على النار حتى يحمر فيمسكه بيده دون أن يتأذى فيتعجب الناس الذين يحيطون به، وقد كان الناس يتباركون به، ويجمعون له الخرفان، والسمن، وأنواعاً عديدة من ألوان الهدايا والطعام. ولقد صار لهذا الشيخ بعد أن توفي مقام يزوره البدو من جميع أنحاء البادية، والمناطق المجاورة. وأشير هنا إلى أن ابن عمي مصطفى، كان يأخذ دور الشيخ سعدو في أثناء غيابه، فقد كان مصطفى حافظاً للقرآن، ويعرف أصول الكتابة، وأشكال الخط العربي، وقد اخترع من النبات حبراً كان يخطط به على الجلود، ويضع الأختام الجلدية. كان يجمع زهر شقائق النعمان والصمغ ويصنع منهما خليطاً ينتج عنه حبراً أسود.

وقد فاتني أن أذكر أنني كنت أسمع من أهلي بأنه كانت بعض القرى في منطقة الساحل في طرطوس تحديداً تزرع الدخان، وكان يورد بعد أن يجفف إلى قريتنا، وقرى أخرى تحيط بها، ومنها يهرب إلى حماة وريفها، وإلى البادية، وذلك لأن السلطات الفرنسية حصرت زراعة الدخان في منطقة

الساحل السوري وجباله، وهي التي تمنح التراخيص للفلاحين بزراعته، وهي التي تسمح بالتسويق.

وقد قالت لي أمي إن الفرنسيين داهموا بيتنا ذات ليلة بحثاً عن الدخان، وكنا في قرية «أم حارتين» الواقعة على السكة الحديدية شمال مدينة حماة بـ (40) كم الذي كان يصل إلينا من الساحل، وكنا نوصله إلى حماة أو إلى البدو في البادية، وقد احترنا ماذا نفعل عندما سمعنا بقدوم الفرنسيين. وفي الفترة التي ذهب فيها الفرنسيون يبحثون عن المختار من أجل جلبه معهم إلى بيتنا. كما هي العادة. لتتم عملية مصادرة الدخان أمامه، قمنا برمي أكياس الدخان داخل بئر قديمة في أرض الدار، وأشعلنا النار في البئر، وبذلك تخلصنا من مشكلة تهريب الدخان. وعلى الرغم من أن رائحة الدخان شاعت في الفضاء إلا أن الفرنسيين كانوا يبحثون عن دليل ملموس من أجل اعتقال والدي أو أحد أعمامي.

ولما عجزوا عن الوصول إلى الدليل، بحثوا في جوار بعض الحيطان الخارجية لبيتنا فوجدوا بعض نثرات الدخان المقصوفة التي تركها بعض الرجال الذين كانوا يقعدون في الظل ويفرمون أوراق الدخان ويدخنونها. عثروا على بعض قطع الدخان الصغيرة، وبموجبها تم القبض على عمي علي، وسيق إلى السجن حيث بقي فيه مدة ستة أشهر. وقالت لي أمي بأن مسدس والدي رمته في طنجرة لبن رائب وغطتها، رغم أن قائد الدورية الفرنسية جلس على (المكبة) التي تغطي وعاء اللبن، وراح عناصر الدورية يفتشون البيت بدقة متناهية، ولم يخطر على بال أحد منهم أن المسدس موجود تحت قائد الدورية.

الشيخ سعدو.. يغيب عن القرية!

وبسبب خوف الشيخ سعدو من الفرنسيين راح ينقطع عن المجيء إلى

القرية، - نتيجة مواقفه الوطنية، وشعاراته ضد فرنسا - من أجل تعليمنا حفظ القرآن الكريم، وأحكام التجويد، وقواعد اللغة العربية، وقد ناب عنه في هذه المهمة ابن عمي الشيخ مصطفى الذي تعلم أموراً كثيرة على يد الشيخ خضر الجنيدي، مثل كتابة الحجب، كما اشتغل على الروحانيات كثيراً، كأن يفسر المنامات التي تشغل بال الناس. كان يتحدث كثيراً عن الأنس والجن، فيقول لكل إنسان تابع من الجن يسجل له أعماله الخيرة والشريرة. وقد كانت حالات مثل هذه منتشرة في المنطقة. كان هناك أيضاً الشيخ طاهر الخطيب من قرية «جيبول» في منطقة جبلة، وهو من أقربائنا، عرف باللطافة وحسن الأدب، وهو أحد المجاهدين والشجعان في ثورة الشيخ صالح العلي، قد كان شاعراً صوفياً أيضاً. هذا الرجل كان يضرب بالرمل. يقول له الشيخ مصطفى: يا عمي الشيخ طاهر. اضرب لنا بالرمل، فيستجيب له، يفرش منديلاً على التراب الناعم، ويأخذ بعدد من الحصى الصغيرة، ويجعلها على شكل مربعات، ويضع لكل مربع رقماً، ثم يطلب الاسم الثلاثي للشخص الذي يريد أن يخمن له، واسم أمه. والحالات المراد الحديث عنها معروفة في أغلب الأحيان فهي إما حالات زواج أو طلاق، أو سرقة شيء ما.

وبهذه ينظر الشيخ للشخص الذي يريد (ضرب الرمل) فيخمن مباشرة المشكلة أو الحالة التي يشكو منها، وبعد إجراء الحسابات يقول الشيخ ما يراه مناسباً، ثم يكتب حجاباً، وينصح بحمل الحجاب في الكتف اليمنى، ويقول أيضاً إذا لم يأت الحجاب بنتيجة فليعد الشخص إليه مرة ثانية. ومثل هذه الأمور كانت تلاقي إقبالاً كبيراً وحضوراً عند البدو والفلاحين في القرى..

وأذكر أنه في السنة ذاتها وفي فترة الربيع تقريباً لم يعد إلينا الشيخ طاهر الخطيب، وإنما جاء بدلاً منه ابنه حسين فأقام معنا، نحن التلاميذ، وراح يتابع تعليمنا قواعد النحو، وقد بقي معنا فترة طويلة ينام عندنا في البيت، شأنه شأن الشيخ مصطفى ابن عمي، وكأنه واحد منا.

أيام الحصاد.. والنعب الجميل!

ومن أفعال الطفولة التي كنا نقوم بها في أوقات الحصاد، أننا كان نتتبع طريق العربات التي تجرها الخيول وهي تنقل أعمار القمح إلى البيادر من أجل درسها فتلتقط السنابل الساقطة من العربات، ونجمعها، ثم نقوم بدقها، وجمع حب القمح ونعطيها إلى صاحب الدكان من أجل شراء (راحة، أو تمر، أو ملابس، أو نمورة ومشبك) تلك الكميات القليلة من القمح كنا نسميها (شرية) أي أنها تمكن الطفل من الشراء مرة واحدة، وأذكر أنه في مواسم الحصاد كان يأتي للقرية بائع من شمال حماة اسمه (عبده) محملاً حماره بالقماش والفساتين و(القليبات) وكان الناس لا يستطيعون شراءها بالنقود لأنها غير متوفرة، فيشترونها بالقمح. وكان هذا الرجل يدين الناس من موسم إلى موسم قادم..

ومن الأمور التابعة لموسم الحصاد أيضاً هو مجيء الحلاق إلى القرية الذي قد يأتي إليها بين شهر وآخر، ولكن في موسم الحصاد يكثر مجيئه.

كان يحلق للعديد من الناس دفعة واحدة. أذكر أنه كان يحلق للأطفال على شكل دوائر، ويترك خصلة شعر طويلة. أما أنا فقد رغبت أُمي أن تترك شعري طويلاً، فتجدله لي، بل إن العديد من رجال القرية كان شعرهم طويلاً ومجدلاً أيضاً.

وأذكر أن هذا الحلاق، واسمه (سالم) يأتي إلينا من مدينة حماة على حمار أبيض، كان يقطع الأضراس أيضاً، ويركب أضراس عظم ملابس بالذهب أو ما يشبه الذهب، وهذه العادة كانت شائعة في القرى كثيراً. وقد كان الدفع يتم مع موسم البيادر.

ومن الأشياء التي أتذكرها في طفولتي أن بيوت القرية كانت مبنية من حيطان سميكة جداً، وعريضة، وقد كان الفلاحون يحفرون فيها طاقة يخبثون

فيها أسلحتهم بعيداً عن أعين الفرنسيين. تلك الطاقة لا يستطيع أحد كشفها إلا من صنعها لأنها شبيهة بكل أجزاء الحائط، ومن ينظر إلى الحائط لا يستطيع أن يحزر مكانها إطلاقاً.

كانت أغلب الأشياء الثمينة والمطلوبة من قبل الفرنسيين تخبأ في هذه الطاقة.

وقد كان من الصعب على غير أهل البيت أن يعرفوا مكان هذه الطاقة، حتى ولو بدؤوا فعلاً بحفر الحيطان أو الدق عليها.

تلك بعض الحوادث والأحداث التي اخترنتها ذاكرتي حين كنت طفلاً ابن عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة، يوم كانت الحياة زراعة، وفلاحة، وحصاداً، وبيادر، ودكاكين، وباعة متجولين للأقمشة والثياب، وحلاقين يدورون على البيوت والبيادر من أجل أن يقوموا بحلاقة جماعية لكل أبناء القرية ورجالها. ويوم كان الفرنسيون ورجال الدرك يعيشون فساداً في القرى، وقد تحالفوا مع الإقطاعيين من أجل نهب المواسم والمحاصيل، والسطو على الأملاك وشل حركة الناس، ووآد الحركات الوطنية وشلها.

في تلك الفترة أتذكر ما كان يحدث في أيام الحصاد، حيث يكون الحصاد مدار الحديث في القرى جميعاً، بل حديث شيخ الكتاب يشمل الحصاد أيضاً لأنه ينتظر أن يأخذ نصيباً من الموسم، فهو في كل سنة يخرج بعض التلاميذ الذين يحفظون أجزاء من القرآن، فتقام لهؤلاء حفلة أشبه بحفلات التخرج الرسمية، فيولم أهل التلميذ ويحتفلون بآبنهم، وعادة تلف له لفة صغيرة من قماش أبيض كدليل على تحصيله الدراسي، أو كإشارة على تخرجه من عند شيخ القرية.

في مواسم الحصاد تلك كان يجتمع خلق كثيرون يأتون من جهات كثيرة من أجل العمل في الحصاد، غالبية هؤلاء كانوا يأتون من الساحل، يأتون جماعات، يقولون لهم اذهبوا واحصدوا في قرية فلان، فيذهبون ويعملون على

ضمانة الرجل الذي أرسلهم، وقد كانوا يأكلون ويشربون على حساب صاحب الحقل، بعضهم يأتي مع بناته ونسائه وأولاده الكبار، وبعضهم الآخر يأتي وحيداً، بمعنى آخر كان يأتي للحصاد من كان قادراً عليه. وقد كان الأب يأخذ (أمان، وتعني خطين متوازيين من الحصاد) أي خط كامل من الحصاد، ويعطي لابنه الصغير نصف (أمان) بنصف الأجرة، وقد كانت الأجور آنذاك حوالي ثلاثة أرباع الليرة لليوم الواحد من الحصيد، وقد كان الحصادون ينامون على الحصيد التي تمد لهم في باحة الدار، يضعون أحذيتهم تحت رؤوسهم كوسائد وينامون. وبسبب الحالة الاقتصادية الصعبة كانت تحدث معاركات صغيرة بين الحصادين على أشياء تافهة، وكنا نعي بأن الفقر هو السبب المباشر لتلك المعاركات، فبعض الحصادين تركوا أسرهم خلفهم وهم لا يدرون ماذا حدث لها، وبعضهم الآخر جاء بأسرته وترك بيته وهو لا يدري ماذا حدث في قريته.. وهكذا أصبح أعصاب الفلاحين متوترة ومشحونة في كل لحظة، لذلك كان المرء يتوقع أن تقوم مشادات بين الحصادين. بل قد تقوم المناوشات بين الزوج وزوجته، أو بين الأب وابنه لأتفه الأسباب.. وأذكر أن معاركة كبيرة قامت بسبب أكلة (السيالة) وهذه أكلة عبارة عن خبز رقيق يُخبز على الصاج ثم ينقع بالسمن ويرش عليه السكر، وعادة ما تتم هذه الأكلة عند نهاية الحصاد، ويبدو أن أحد المزارعين لم يوف بما وعد الحصادين به من هذه الأكلة، فحدثت مشاجرة كبيرة.

ومن الأمور التي أتذكرها أيضاً والتي تخص موسم الحصاد، أن البدو كانوا يأتون إلينا من أجل العمل كحصادين، لكن هؤلاء كانوا غير مهتمين بالمحاصيل، فخبيرتهم قليلة، واهتمامهم قليل أيضاً، لذلك كانوا غير مرغوبين من قبل أصحاب الحقول. فهم يخربون أكثر مما يعملون، ويسرقون قسماً من القمح أو الشعير أو العدس، ويدوسون بأقدامهم قسماً من الذي حصده.. الخ. وأذكر أن أحد الحصادين الذين كانوا يحصدون معنا، وقد جاؤوا إلينا من ريف طرطوس، ضربته الشمس فمات، وقد احترنا كيف ندفنه، كان معه أمه

وأبوه، وقد حزنا جميعاً على الشاب الذي توفي، وقد شيعناه إلى مقبرة القرية ودفناه فيها، لأنه كان من الصعب جداً أخذه إلى ريف طرطوس من أجل دفنه مخافة أن تتفسخ الجثة من حرارة الشمس. وقد بقيت أم هذا الشاب مدة يومين أو ثلاثة أيام عندنا في البيت من دون عمل. وقد كانت تذهب إلى المقبرة لزيارة قبر ابنها في الصباح. كانت المرأة حزينة جداً، وواهنة القوة، لكنها ورغم ذلك ذهبت في اليوم الرابع إلى الحصاد.

في تلك الأيام: ولد أخي أحمد(*) فأولم له والدي، لاسيما وأنه جاء في صبيحة أول أيام عيد الضحى، ذبح أبي كبشاً كبيراً، ودعا أهل القرية فاحتفلوا بالمولود الجديد، وباركوا لنا بقدومه. وكان أن حدث مثل هذا الطقس بعد عامين مع قدوم أخي حسين الذي ولد صباح أول أيام عيد الفطر السعيد، وكان آخر العنقود لأن والدتي بلغت من العمر حوالي (45) سنة أو ما يقارب ذلك.

أيام الحصاد كنت أقوم بأخذ الطعام والماء إلى الحصادين، أركب على (الكديشة) ويوضع في الخرج جرتا ماء مغلفتان بالخيش المبلول بالماء لكي تظلا باردتين. وحين أصل إلى الحقل، كانت الجرتان توضعان في (غمار القمح)، أي في الفئ (الظل)، وكنت أقدم للحصادين الماء حين يطلبه أي منهم. وفي إحدى المرات اعترض طريقي، وأنا أركب فوق (الكديشة)، ذئب، كان يقف بمحاذاة الدرب، راح ينظر إليّ بشراسة واضحة.

كنت أعرف كيف التعامل معه. فقد علمني والدي درساً حول هذا

(*) أحمد العلمي، شقيقي، تطوع في الجيش ضابطاً، ثم ترك الجيش بناء على طلبه، تابع دراسته، وحصل على شهادة الدكتوراه من موسكو عام 1976، عمل أستاذاً في معهد العلوم السياسية في مدينة التل. ثم نائباً لفرع حزب البعث العربي الاشتراكي في مدينة حماة. وعضواً في مجلس الشعب لدورتين متتاليتين. له ولد وبناتان — يدعى أبا غياث، كان أخاً وصديقاً، وله مكانة كبيرة في نفسي. انتقل إلى رحمة الله تعالى في 26/7/2001 إثر إصابته بمرض السكر. بعد أن سجل نضالاً مشرفاً.

الموضوع وملخصه: أولاً: ألا أنفعل أبداً أو أخاف حين أرى الذئب، ثانياً: ألا أشد (رسن الكديشة) لأنني حين سأشد الرسن ستجفل (الكديشة) وستوقعني على الأرض، وعندئذ سيهجم الذئب عليّ ويترك (الكديشة) المهم في الأمر قال: يجب أن أرخي (رسن الكديشة)، فتصرف هي وتهاجم الذئب، فلا يتجاسر الذئب على التقدم نحوها لأنه يخاف منها. وفعلاً ظلّ الذئب ينظر إليّ دون أن يبادر إلى المهاجمة، بل ولّى هارباً، يبدو أنه كان شبعان، ولا يريد أن يخسر الرهان. وحين أخبرت أمي بالأمر، سألتني كيف تصرفت، فأخبرتھا، فأثنت عليّ، كنت آنذاك في حوالي العاشرة أو الحادية عشرة من عمري.

وأرى أنه لابدّ من التوضيح بأن والدي قد مرّ بكل التسميات التي كانت سائدة في تلك الفترة وهي - باطولي - فلاح - مرابع - خماس - ثم أصبح عضواً في الهيئة الاختيارية.

والمعروف أن (الفلاح المربع) هو الذي يقدم جهده وتعبه للأرض مقابل أن يأخذ الخمس من الموسم. و(الفلاح الخماس) فهو الذي يقدم كل شيء للأرض مقابل أن يأخذ ثلاثة أرباع الموسم. و(الفلاح الباطولي) هو الذي يزرع (شكارة، والمقصود فيها زراعة قطعة صغيرة من الأرض تكفي لمعيشة الفلاح الفقير خوفاً من أن يتحول إلى قاطع طريق أو مجرم) ومن ثم يمكنه أن يعمل أي عمل آخر في مكان آخر. و(الفلاح الإجير) هو الذي يعمل مقابل الطعام والكساء والشراب فقط، ويمكن أن يعطيه الإقطاعي قسماً قليلاً من منتوج الأرض.

في هذه الفترة التي أتحدث عنها الآن حصلت معنا القصة التالية:

كان والدي (باطولياً) يزرع (شكارة) عند أحد الإقطاعيين أصحاب الأرض، كما يعمل في حراسة المحاصيل خصوصاً من البدو الذين كانوا يغيرون على الزرع مع ماشيتهم التي تأكل الزرع، كما أنهم كانوا يسرقون (غمار) القمح. والدي كان يحرس المحاصيل ليل نهار. يركب على ظهر (الكديشة) ويتفقدھا.

كان البدو يغيرون على الحقول، أي على الزرع، ليلاً مع مواشيهم. يربطون أجراس الغنم والماعز كي لا ترن ويغيرون على الزرع، فتأكل المواشي الزرع لأنها كانت في حالة جوع دائم. كان والدي يطردهم، ويمنعهم من دخول الحقول المزروعة، وقد كان معه رجلان يسمى كل منهما بالوقاف،

دورية فرنسية.. في القرية!!

في هذه الفترة، تقريباً على ما أظن في عام 1944، وفي وقت الربيع، حدث أن جاء إلى القرية مجموعة من الجنود الفرنسيين، جاؤوا في وقت الغداء. وقد استقبلوا في المضافة، ولم يكن أحد من الرجال في القرية سوى (العسكري واسمه نهار) فقام بالترحيب بهم، وربط خيولهم في (حوش) الدار، وقدم لها التبن والشعير. كانت المضافة واسعة، لكن المختار لم يكن موجوداً، ولا أحد من الرجال موجوداً أيضاً، والكل تغيّبوا أو هربوا من مقابلة الجنود الفرنسيين. وقد وقعت القرية في ورطة لأن الجنود الفرنسيين لم تقدم لهم الضيافة كما ينبغي.

وقد أنقذ الموقف إلى حد ما، الحارس (العسكري)، عندما طلب من والدتي أن تجهز غداء لهم. وقد كانت وجبة الطعام الرئيسية في تلك الأيام عبارة عن (متبلة، وهي مصنوعة من قمح مطبوخ مع اللبن، وشوربة عدس، مع برغل، وبصل أخضر، وخبز من تنور القرية) ولم تكن والدتي تعرف أن هؤلاء الضيوف على درجة كبيرة من الأهمية وأنهم بحاجة إلى طعام دسم ومدعوم. وأيضاً لم تكن تعرف أنهم يمثلون السطوة الفرنسية على رقاب العباد، وإن كان كلاً منهم من دولة، لكنه، في النتيجة تابع للإمبراطورية الفرنسية كمرتزق. (جزائري - مغربي - سنغالي.. الخ).

وحين أخبرها الحارس نهار عن أهميتهم، وقال لها: إذا لم يكرموا أفضل تكريم!! فسوف تلقى القرية الويل!! عندئذٍ أضافت أمي إلى الوجبة الرئيسية

حوالي (30) بيضة، قامت بجمعها من جاراتها ثم قلتها بالسمن، ووضعت كذلك طنجرة لبن رائب، وقُدم الطعام للضيوف، طبعاً كان الحارس هو من يقدم الطعام، وأنا أساعده في تنظيم المائدة. وضعت أمامي إبريقاً مملوءاً بالماء، وحملتُ على كتفي (بشكيراً) حتى إذا ما انتهوا من الطعام، أسكب الماء على أيديهم، وأنا في غاية السعادة، كوني أصبحت أتحمل مسؤولية، وأستقبل الناس، وأقوم بالضيافة.

وحين رأى الفرنسيون الطعام وقد اصطففت الطناجر أمامهم (متبلّة، شوربة عدس، بيض مقلي، خبز، بصل أخضر، لبن) وتوزعت ملاعق الخشب بين الطناجر وتدعى الواحدة (خاشوقة). نظروا إلى بعضهم البعض أولاً، ثم نظروا إلى الطعام ثانية، وهمهموا بكلمات فرنسية، وسألوا عن المختار، فقبل لهم: إنه مسافر إلى صوران، وسألوا عن الهيئة الاختيارية، فقبل لهم: إنها خارج القرية، والله لا نعلم أين ذهبوا عندئذٍ هزّ (الشفيف) رئيس الدورية برأسه وصاح بلغة عربية مكسرة:

- (عسسي هذا طعام قيمة شيف!!)

وأظن أن هذا الشيف من أصل جزائري. ثم تقدم باتجاه الطعام المفروش على أطباق من القش فوق الحصير، وضرب بجزمته طنجرة شوربة العدس، وقلبها فوق الحصير، ثم داس على جميع الصحن الأخرى وقلبها ثم نادى العسسي، وطلب منه أن يمسح جزمته التي توسخت بعباءته، وهو يردد (هذا طعام قيمة شيف!!)، ثم خرجوا جميعاً إلى خيولهم، ركبوا ومضوا مسرعين وهم يتوعدون المختار، وأعضاء الهيئة الاختيارية، وأهل قرية (قراح) كافة بالويل والعقاب الشديد.

وقد خاف العسسي نهار وهو بدوي؛ خاف أن يقتلوه، لذلك اختبأ في أحد البيوت، بل إن العديد من الرجال الذين كانوا متخفين في القرية، خافوا من ردة فعل الفرنسيين الذين خرجوا غاضبين. وفعلاً، لقد قتلوا عدداً من رؤوس

الماشية وهم في طريقهم بين الحقول. قتلوا المواشي كدلالة أو علامة على أنهم كانوا يريدون ضيافة مميزة فيها لحم وشواء. لقد قتلوا بقرتين وحوالي (20) رأس غنم، وقتلوا (كديشة) أيضاً، وقد حدث هرج ومرج في القرية، وفي الحقول التي امتلأت بالفلاحين لاسيما وأن أصوات إطلاق الرصاص أوحى للجميع كأن معركة حدثت. وقد جاء في أعقاب ما حدث صاحب القرية محمد السفاف يركب سيارة (دوج) كان قد اشتراها من الجنود الإنكليز الذين كانوا يبيعون السيارات في فترة الحرب العالمية الثانية. جاء إلى القرية وسأل المختار والعسسي نهار عن الذي حدث فأخبراه القصة كاملة، والتي فحواها أن الطعام الذي قدم للفرنسيين لم يعجبهم، أي كانوا يريدون الدجاج، والخرفان.. ولكن لم يقدم لهم سوى الموجود من الطعام فثارت ثائرتهم، قلبوا الطعام على الحصير، وراحوا يطلقون النار على المواشي الموجودة في الطريق وبين الحقول.

ويبدو أن الرجل كان ذكياً ومسايراً للسلطات المحلية بقصد دفع البلاء عن نفسه وعن القرية، [وكانت القوة الفرنسية آنذاك مكونة من سرية من الجيش الفرنسي ومن مختلف الدول التابعة له. وكانت تتمركز هذه القوة في قرية «الطامة» التابعة لمدينة حلب، وتبعد عن قرية «قراح» حوالي 15 كم شمال شرق، وهي قرب سكة الحديد التي تصل بين حماة وحلب،] فقام وجمع من القرية بعض (تنكات) السمن، وعدداً من الخراف، ونقلها للفرنسيين، أما خيولهم فقد جمع لكل حصان تنكة شعير و(شوال) تب، وأخذ هذا كله في عربات تجرها الخيول إلى قائد السرية واعتذر منه لأن رجال القرية كانوا في الحقول، والنساء معهم، والمختار غائب في سفره إلى صوران. والقرية لا أحد فيها سوى العجائز والأطفال.. وهاهم أهل القرية، وحين علموا بما حدث، يقدمون هذه الهدية المتواضعة لكم هي تسعة خراف، وسمن، وقمح، وشعير، وتبن، وقد قبل الاعتذار..

هذه الحادثة أذكرها من أجل التدليل على الواقع المؤلم الذي كان يعيشه أهل القرية، وحالات السمسرة التي كان يقوم بها بعض الوسطاء الناشطين ما

بين الأهالي والجنود الفرنسيين ورجال الدرك المتعاونين معهم.

ورغم أن الاعتذار قُبِلَ، فقد قام صاحب القرية، بزيارة قائد السرية الفرنسية، وطلب منه الصفح والسماح، وقبلوا ضيافته لهم جميعاً في قصره، وفعلاً ذهب الجميع إلى قصر صاحب القرية في اليوم الثاني، فذبح لهم العديد من الخراف، واستدعى بعضاً من (الفجر) نساءً ورجالاً، من أجل أن يرقصوا ويغنوا لهم بمصاحبة الطبل والزمر، وقد كانت تكاليف هذه الحفلة على حساب أهل القرية، والعجيب أن أهل القرية لأموا أمي لأنها قدمت للفرنسيين (المتبلة، والعدس.. الخ) بدلاً من اللحم، لأن زعل الفرنسيين كلف القرية الكثير الكثير.

[وهنا لابد أن أذكر أن أحد عناصر الدورية الفرنسية كان من الساحل واسمه صايفي، قد عمل حاصوداً مع أهلي سابقاً قبل أن ينضم إلى الجيش الفرنسي وقد جاء ليمارس غطرسته مع الفرنسيين، عندئذٍ قالت أمي: «هلق صايفي الحاصود ما عاد يعجبه، (شورية، ومتبلة) بعد ما صار مع الفرنسيين. والله كثير عليه خبز يابس مع بصل»].

وقد كانت أمي ترد على الجميع: بأن شورية العدس، والمتبلة كثيرة على الفرنسيين ورجال الدرك لأنها كانت تكرههم من كل قلبها.

فدماي الجافيتار.. والأفعى!

ومن الأمور المتعلقة بالحصاد، والعالقة بذاكرتي كطفل أذكر أنني كنت مع الراعي، أمشي حافياً. (وبالمناسبة لم أتعرف على الحذاء إلا في الصف الخامس) وإذ بي أدوس على شيء طري، وحين نظرت إلى أسفل قدمي رأيت أفعى سوداء كبيرة تهتم بالالتفاف حول رجلي وعضي، لكن صرختي المفاجأة جعلت الراعي ينتبه للأمر، فطارد الأفعى وحاصرها إلى أن قتلها. وقد أثرت في تلك الحادثة كثيراً إلى درجة أنني مرضت من شدة الخوف بعدما سخن

جسمي، وقد أحضرت لي والدتي دواء من عند الشيخ، أو لعلها أوهمتني بأن الدواء شاف وهو مبارك كونه من عند الشيخ، وقد قرأ عليه الأدعية والتبريك لكي أقتنع بأهميته.

ومن الأمور التي أذكرها أنه وقبيل الحصاد بقليل كان أهالي القرية يتصيدون الحيوانات مثل الضباع، وقد اصطاد أحد الرعيان ضبعاً، فجاؤوا به إلى القرية، وذبحوه كما تذبح النعاج، وأوصوا بأن يؤكل القسم الأيمن منه استجابة لحديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، هكذا فهم حديث الرسول (ص) لكنني أتصوره بشكل آخر. وهو إن أَكَلَ ضَبْع من طبق طعام من الجهة اليسرى للطبق، فقالوا: يا رسول الله لقد أكل الضبع من يسار الطبق، فهل نقذف به ونرميه، لأنه أصابه مكروه؟ قال: لا. كلوا من يمينه، وأرى أن يأكل الناس من يمين الطبق، وهي قد فسرت بأن يأكل الناس يمين الضبع، ولا يأكلوا من باقي جسمه. وأصبح القول الشائع أن يمين الضبع (أكله حلال). كما أن هذا الراعي اصطاد أفعى كبيرة جداً، وقد كان مختار القرية يخاف الأفاعي كثيراً، ولا يحب رؤيتها، وقد أراد الراعي أن يخوف المختار ويرعبه بالأفعى المقتولة فجعلها مختفية قرب مجلسه، وحين راح الرجال الجالسون ينظرون بريية وحذر إلى المختار، صاح بهم: ماذا هناك؟ ما الخبر؟ فقال الراعي: يا مختار كآني أرى تحتك أفعى!!

فجمد المختار وتسمّر في مكانه وغاب عن الوعي قبل أن يشاهد الأفعى. فقام الرجال ودلقوا عليه سطلاً من الماء البارد حتى عاد إلى وعيه، وأخبروه أن الراعي يمزح معه، وأن الأفعى مقتولة.

ومن الحوادث الطريفة التي أذكرها أيضاً، أنه حدث ذات يوم ربيعي أن قام صاحب القرية ونسميه الحجي، وهو لم يذهب إلى الحج آنذاك، ولكن من باب التكريم، بجمع أهالي القرية، نساءً ورجالاً، صغاراً وكباراً، جمعهم في منطقة ملأى بأعشاب النجيل الأخضر، ووضع أمامهم بعض كراسي القش، وفوقها وضع راديو كبير، وبعض البطاريات الخاصة به، وقد كان أهل القرية

يرون الراديو لأول مرة وحين فتح الراديو سمعنا صوت مطربة تغني، فقام بعض الحضور بالدوران حول الكراسي ليروا أين تختبئ المطربة، وسمعنا المذيع يقول هنا إذاعة الشرق الأدنى، ثم قدم نشرة الأخبار، وكانت كلها تتحدث عن أخبار الحلفاء والمحور وأحداث الحرب العالمية الثانية، بعد ذلك عادت المطربة لتغني من جديد، وفجأة صاح العسسي:

- من أين تغني هذه المطربة؟!

قال الحجي:

- إنها تغني من قبرص.

وأردف العسسي:

- إذا كان كلامك صحيح، فدع الفجرية نوحاً تغني من قرية خسفين،

وخسفين أقرب من قبرص.

فصاح الحضور:

- صحيح كلام العسسي دع نوحاً تغني من خسفين، وضحك الجميع.

تلك الحادثة كانت جديدة ليس بالنسبة لنا نحن الأطفال، وإنما بالنسبة

لأهل القرية جميعاً.

ابن عمي صار شيوعياً!!

ومن الأمور النادرة الحدوث أيضاً أن أحد أبناء عمي وقعت بين يديه مجلة عنوانها (المدار) وهي مجلة شيوعية، وجد في داخلها قسيمة مكتوب عليها، املاً هذه القسيمة تحصل على الأعداد القادمة من مجلة (المدار) وقد ملأ القسيمة فعلاً، فجاءت المجلة على عنوانه، الذي كتبه على القسيمة. طبعاً كان البريد يأتي إلى المخفر أولاً، ويقوم رجال الدرك بتوزيعه على أصحابه،

وحين جاءت هذه المجلة إلى المخفر ومكتوب عليها الاسم الثلاثي لابن عمي، طلبوه وراحوا يحققون معه حول علاقته بالشيوعية، وهو الذي لم يكن يعرف الشيوعية من الرأسمالية. كل ما يعرفه أنه ملأ القسيمة من أجل أن يحصل على المجلة ليتباهى بها أمام أبناء القرية، بأن المجلة تصل إليه من مدينة موسكو. وراحوا يسألونه عن تاريخ انتسابه للحزب الشيوعي، والشيوعية، وماذا يعرف عنه، ومن هم الذين نظموا في الحزب الشيوعي، ومن هم رفاقه، وأين يجتمعون.. الخ من هذه الأسئلة التي هدمت حياته في القرية، لأن الأهالي راحوا يتذمرون منه، لأنه شيوعي، وكافر، وزنديق، وملحد، وأنه لا يحلل ولا يحرم، وأنه قد يتزوج من أمه أو أخته، وهو قليل الأخلاق. وفي المخفر، بعد القتل والضرب، اعترف ابن عمي واسمه (خليفة) بأنه بينما كان ذاهباً مع والده إلى «صوران»، إلى المطحنة، رأى المجلة في الطاحونة، فأخذها وأحضرها معه إلى القرية، ووجد فيها القسيمة فملأها ووضعها في مغلف وأرسلها بالبريد، وبعد فترة، وصلت إليه المجلة..

وبذلك صار ابن عمي شيوعياً عن طريق الجهل، واهتمت الدولة به وكان عمره أقل من خمس عشرة سنة، وبذلك أصبح مدار بحث وتندر بين أصحاب القرى ورجال الأمن والفرنسيين بأن هناك نشاطاً شيوعياً في المنطقة!!

تاج الدين الحسيني يشتم في حملة..!!

هذه الحادثة كانت تروى في القرية، وهي تتعلق برئيس الدولة آنذاك تاج الدين الحسيني، فقد جاء أحد الشبان إلى القرية من أجل زيارة أقرباء له. فتعرف إليه الأطفال الصغار، فطلب منهم أن يرددوا وراءه نشيداً، حسبوه يومها نشيداً وطنياً.

كانت كلماته تقول:

الشيخ تاج يا بومة
يا أبو لفة مبرومة
أعطيني شعرة من ذقنك
لنخيطها التاسومة(*)

ولم يعرف الصغار أن هذا النشيد كان عبارة عن شتيمة للشيخ تاج الدين الحسيني رئيس سورية، وفي إحدى المرات كان الشيخ تاج الدين الحسيني يزور حماة، فوقف معلم مدرسة وهو الأستاذ أدهم عكاش. والدنيا احتفال وعراضات ترحيب بالشيخ تاج. وصاح الأستاذ أدهم بالتلاميذ وهو محمول على الأكتاف من أجل أن يحيي ويمجد بالشيخ تاج، وأشار إليهم بيده أن اهتفوا، فأنشد الصغار بغفوية: وهم لا يدرون ماذا يقولون:

الشيخ تاج يا بومة

إلى آخر هذه الشتيمة، والمعلم يصرخ بهم يكفي.. يكفي بعد أن يبس الدم في عروقه، وتحشرج صوته لكن لم ينقذه شيء، لأنه اعتقل فوراً، وسادت الفوضى الحفل، وحدثت بلبلة كبيرة، وأراد الشيخ تاج أن يعاقب أهالي حماة على هذه الفعل، فعين لهم حسني البرازي وزيراً للمعارف، والكل يعرف أن حسني البرازي كان مشهوراً بتجارة المخدرات. رجل مغامر سلوكه عكس سلوك نجيب البرازي الذي كان من الرجال الوطنيين. فقد كان حسني البرازي يملك قرية اسمها «تقسيس» راح يزرعها بالحشيشة، ويضع الحشيشة في مدينة حماة، ويبيعها ويوزعها في المناطق المختلفة. لقد جاؤوا به وزيراً للمعارف من أجل تأديب مدينة حماة، ولإغاظة أهلها.

وبسبب من الحملة التشهيرية الكبيرة ضد حسني البرازي التي قام بها أهل مدينة حماة، قام رجال الدرك وضبطوا كميات من الحشيش في بيت الوزير، وصار الناس يقولون: مهرب حشيش ووزير، أين يحدث مثل هذا الأمر

(*) التاسومة: حذاء يلبس في الرجل.

في العالم). وقد نشرت أخبار تجارته بالحشيش في الجريدة.

سكة الحديد والقطارات...!!

أذكر في تلك الأثناء أحداثاً عديدة عن سكة الحديد التي كانت تمر بجوار القرية، والتي لم تكن تبعد عنها سوى (100) متر تقريباً. ومن تلك الحوادث أن قطاراً وصل إلى قريتنا ليلاً، وهو قادم من حلب باتجاه حماة، وقد كان محملاً بالأسلحة والمعدات الحربية، والخيول، وإذ بقطار ثانٍ قادم من حماة باتجاه حلب، وهو محمل أيضاً بالجنود، والذخائر والخيول، وكاد يحدث تصادم فظيع بين القطارين إلا أن ذلك التصادم تمّ تفاديه بسبب وجود أنواع من السكة الحديدية، وقد توقف القطاران ببطء شديد ولم يتصادما وقد بقي بينهما مسافة أمتار فقط، وكان أن حدثت مشادة بين المشرفين على القطارين، وكثر الصياح والصراخ بين الطرفين. وتمّ تفتيش القطارين تفتيشاً دقيقاً، وتخوفاً من وضع قنبلة أو أي شيء آخر متفجر مؤقت قد ينفجر بالقطار، ولكن التفتيش لم يسفر عن شيء، وبعدها مباشرة تم وصل قاطرات القطارين وبحيث صار الاثنان واحداً، وعاد القطاران باتجاه (محطة كوكب) التي تبعد عن قريتنا «قراح» حوالي (3) كم باتجاه حماة، وكان سكان القرية نساء، ورجالاً وأطفالاً يتفرجون على هذه الحادثة وكنت واحداً منهم. وكان قد حدث سابقاً تصادم كبير جداً ما بين قطارين على هذه السكة أيضاً، أحدهما قادم من حلب والثاني قادم من حماة، وفي منبسط من سهل قرية «أم رجييم» تصادم القطاران، وقتل خلق كثير، وقد نهب القطار من قبل البدو، وسكان القرى المجاورة حيث استولى هؤلاء على الكثير من الأسلحة والذخائر ومواد أخرى، لذلك كانت رقابة الفرنسيين شديدة على خط السكة الحديدية، خصوصاً في محطة «أم رجييم» وفي تلك الفترة أي في عام 1943 أو عام 1944 وفي وقت الحصاد تقريباً، في الصيف، حدثت حادثة تتعلق بالسكة الحديدية، أيضاً في

قرية «قراح»، وقد كنت أخرج مع أمي إلى الأرض في وقت مبكر من النهار، من أجل الحصاد والصباح ندى. أذهب مع أمي وأنا صغير، أركب على الحمار، ونتجه نحو الأرض التي تبعد عن القرية نحو (1500) متر. كانت الشمس قد أشرقت، والطريق الذي نمشي فيه مواز تماماً لخط السكة الحديدية، وكان علينا أن نجتاز وادياً صغيراً، ثم نصعد إلى هضبة قليلة الارتفاع، وبعدها هضبة أخرى نزرع فيها حقلاً من الشعير. حين صرنا فوق الهضبة الأولى ونبعد عن السكة حوالي (300) متر رأينا القطار قادماً من حماة، وقد كان متأخراً، لأنه يمرّ في العادة في وقت الفجر، وقد نبهنا إليه صوت صفارته الذي كان يبعد الحيوانات القريبة من السكة الحديدية أو الواقفة فوقها، ومن عجب أن الحمار توقفت، وما عادت تمشي، وأمي تنهرها لكنها لم تمش ورحت أراقب أنا وأمي القطار، وهو يجتاز الوادي فوق عبارة صغيرة، وإذا به يخرج عن خط السكة الحديدية، وخرجت وراء رأس القطار حوالي سبع مقطورات، وقد كان مؤلفاً من حوالي عشرين مقطورة، سقطت المقطورات السبع في الوادي، وعلا صياح الجنود، كما تعالى صوت صهيل الخيول التي لاقت حتفها أيضاً، وقد دهشت فعلاً من المنظر، فقد كنت أنظر إلى القطار بدهشة لكنه، فجأة، هوى في الوادي، وبدأت أمي تبتعد عن المكان غريباً، وراحت الحمار ترعى بالقرب منا، وظللت أنا بجانب أمي أراقب القطار، فقد جاءت لنجدة من فيه، عربات حديدية على شكل قطار صغير نسّميه (أوتومتريس) من حلب وحماة معاً، فيها أطقم نجدة، وأطباء للإسعاف، وبدؤوا بنقل الجرحى والقتلى، ثم جاء قطار سريع يتألف من قاطرتين، نقل الجرحى إلى حلب، ثم جلبوا مجموعة من الجيش الفرنسي، وبدؤوا يمشطون المنطقة. أما ركاب القطار الذين نجوا فقد نزلوا، وتجمعوا قرب قريتنا. وقد حدثت ضجة كبيرة، الأمر الذي جعل أمي تترك الحصاد، وتعود بي إلى القرية بعدما رأت أن الفرنسيين راحوا ينزلون في القرية، وحين وصلنا إلى القرية، ولم تكن المسافة بعيدة كما قلنا، طلب صاحب القرية واسمه الحاج محمد السفاف، من نساء القرية أن

يخبزن للجنود الفرنسيين - ركاب القطار - الذين نزلوا في القرية، وبالمناسبة كان في القطار ركاب مدنيون أيضاً، وقد قامت نساء القرية بتقديم الخبز، واللبن، والبرغل لهم، كما قام الرجال بذبح الخراف أيضاً.

قطار.. يدمره الثوار!

وقد استفاد أهالي القرية من الخشب الذي تكسر من المقطورات التي هوت في الوادي، وقد صنعنا نحن في البيت، طاولة صغيرة، ومشبك حامل للقرآن، من الخشب القوي الذي تكسر من الحافلات. كما قام الشيخ سعدو والشيخ مصطفى بمساعدة التلاميذ بصناعة العديد من الكراسي ومشابك القرآن، وقد صار لكل تلميذ تقريباً مشبك خاص به يضع عليه جزءاً من القرآن، وعلى الغالب (جزء عم). وقد بوشر في إصلاح القطار في اليوم التالي، واستمر العمل في الإصلاح حوالي أسبوع.

كانت القرية تقوم بالواجب اتجاه العمال الذين عملوا على إصلاح القطار بتوجيه من الحاج محمد السفاف صاحب القرية. وتكريماً له فقد أحدث الفرنسيون موقفاً للقطار في قريته، يستمر الوقوف فيها مدة خمس دقائق فقط، وقد جعلوا ذلك الموقف في قمة الهضبة، أي قبل وصول القطار إلى العبارة المبنية فوق الوادي، وأعتقد الآن، ومن خلال ذاكرتي الطفولية، أن العمل ضد هذا القطار كان عملاً وطنياً، وذلك لأنه من السهل جداً تخريب السكة الحديدية، الأمر يحتاج إلى أدوات بسيطة فقط، حيث تم فصل قضبان السكة الحديدية عن طريق فك البراغي التي تربطها فيما بينها. وأنا أتذكر جيداً أنه في الليلة السابقة على هذه الحادثة، جاء إلينا رجل لا أعرفه، جلس عند خالي يوسف، وكان يحدثه عن السكة الحديدية همساً، ثم خرج وإياه قاصدين عمي عبد الله، وخالي يوسف هذا كان أعزب وقوياً، وقلبه مثل الصوان (كما يقولون)، وأخذا عمي عبد الله معهما في الليل، إلى أين لا أدري، وقد أخبر

الجميع والدي الذي ذهب معهم أيضاً.

ولم نعلم ماذا فعلوا، لكن في الصباح هوى القطار في الوادي. لقد كان والدي وعمي عبد الله وخالي يوسف يعملون مع الثوار. طبعاً لم يتكلم أي منهم عن هذا الموضوع، ومن كان بإمكانه أن يعترف بعمل كالذي حدث. في تلك الفترة دمرت قوات المحور (ألمانيا) مطار معردس الذي يقع شمال مدينة حماة بحوالي (15) كم بعد أن احتل الألمان حلب، وقد كان المطار يبعد عن قريتنا حوالي (15) كيلومتر، وهو مطار فرنسي. وقد أخذ الأهالي غالبية الأثاث الذي كان موجوداً فيه، تقاسموه فيما بينهم، ولعنوا أجداد الفرنسيين والإنكليز معاً، فقد كان المطار يستخدم لكل طائرات الحلفاء. وقد تكاثرت غارات الطيران على خط السكة الحديدية من أجل تدميره لمنع الإمدادات الفرنسية من الوصول باتجاه حلب بعدما احتل الألمان حلب، وبنوا عدة مطارات منها: مطار رسم العبود، مطار النيرب، وقد كان الفلاحون يميزون ما بين طيران المحور، وطيران الحلفاء. فطيران الإنكليز والفرنسيين أسود تقريباً، وطيران الألمان أبيض، وقد رأيت وأنا طفل صغير، اشتباكات عديدة، بين طيران الطرفين، وقد سعى الألمان جاهدين إلى تدمير خط السكة الحديدية لقطع الإمدادات الفرنسية.

وأذكر أن أهالي القرية كانوا منقسمين ما بين الحلفاء والمحور، ولكن بالنتيجة، هم ضد الطرفين في وقت واحد، كانوا يقولون، بعد كل تقييماتهم، وانقساماتهم، الانحياز لجهة من الجهتين مثل الهارب من (الدلف إلى المزراب).

في المدرسة الرسمية...!!

في تلك الفترة، فكر والداي (أبي، وأمي) بإرسالني إلى المدرسة الرسمية بعدما كنت قد تعلمت سنوات عدة عند شيخ الكتاب، وقد كانت أمي أكثر حماساً من أجل هذا الأمر، فاقترحت على زوجة عمي أم موسى العلي أن

ترسلنا إلى ريف طرطوس أو ريف جبلة من أجل متابعة دراستنا وبشكل رسمي. لأن ريف حماة لم يكن فيه أية مدرسة آنذاك.

اتفقوا على أن يرسلونا فعلاً، وأن نسكن فعلاً عند إحدى العائلات التي نعرفها، كما اتفقوا على أن أسرة واحدة لا تستطيع تحمّل ومتاعب وطلبات ثلاثة أولاد، أنا، وموسى وصالح ابنا عمي، لذلك اقترحوا أن يقسمونا على أسرتين أو ثلاث أسر من أجل السكن عندها، والقيام بشؤوننا من طعام، وغسيل.. الخ.

وقرّر رأي أمي أن أذهب إلى بيت الخطيب في منطقة جبلة، وأدرس في مدرسة قرية «حمام القراحلي». وأن يذهب موسى العلي وصالح العلي إلى قرية «دوير بيت رسلان»، وهي تابعة لطرطوس، وفيها مدرسة اسمها المعمورة، وقد كانت هذه القرية بعيدة عن قرية «دوير بيت رسلان» حوالي ثلاثة كيلومترات. وفعلاً قرروا ذلك، واتفقوا على التنفيذ، فكان أن ذهبت إلى بيت الخطيب، أما موسى العلي وصالح العلي فذهبا إلى «دوير بيت رسلان»، إلى الشيخ الذي كان يعلمنا في الكتاب، وقد أصبح أستاذاً بعد أن نال شهادة (الكفاءة) الإعدادية، اسمه سلمان إبراهيم.

وللإشارة أذكر أن عمي عبد الله لم يقتنع بإرسال أولاده إلى المدارس الرسمية بسبب بعد المسافة، وقد ساندته في هذا الرأي زوجته التي قالت إنها لن ترسل أولادها إلى أمكنة بعيدة تنقطع عنها أخبارهم فلا تعرف أحوالهم وكيف يعيشون، وبأية طريقة.

حين ذهبنا إلى المدارس الرسمية أوصى بنا الأسرتين اللتين أقمنا عندهما، كما أوصونا أن نحترم البيت الذي سنعيش فيه وأن نحافظ عليه، وأنهم سيمرون بنا كل شهرين أو ثلاثة من أجل الاطمئنان على أحوالنا. وطلبوا من صاحب دكان في قرية «دوير بيت رسلان» أن يعطي موسى وصالح ما يشاءان من أغراض وحاجيات وأنهم سيسددون الدين في آخر السنة، وآخر

السنة عندهم نهاية الموسم. كما طلبوا من صاحب دكان يعرفه بيت الخطيب أن يعطيني ما أشاء، وما أطلبه من أغراض وحاجيات، وأنهم سيسددون الديون في آخر السنة أيضاً.

أفكار، وهواجس عديدة انتابتنا ليس خوفاً من الابتعاد عن جو الأسرة والبيت، وإنما خوف من المدرسة الرسمية الجديدة، ولا سيما أن أستاذاً، لا شيخاً هو من سيعلمنا.. رحنا نخمن ونتخيل أشياء كثيرة عن المدرسة الرسمية، كأنها خرافة أو أسطورة. كنا نتبادل الأفكار، والنقاش أنا وابنا عمي موسى وصالح إلى أن جاءت ساعة الجد، حين أعدت والدتي كيساً صغيراً فيه ملابس، وبعض الحاجيات ليلاً، من أجل الذهاب صباحاً مع والدي إلى بيت الخطيب. كأنني لم أتم أنني كنت متأهباً حين طلب والدي مني أن أستعد للسفر، أو لكأنني أنا من أيقظه. المهم ودّعت أمي وأخوتي وركبت وراء أبي على (الكديشة) وانطلقنا نحو العالم الجديد الذي أحلم به.

قطعنا وادي الدورات القريب «صوران»، ولم نمر بها، وهو واد يقع غربي قرية «قراح»، ثم قطعنا منطقة «سيجر»، ووصلنا إلى قرية «ساحب»، ووصلناها قبل غياب الشمس، فذهبنا إلى بيت الشيخ محمد عبد الرحمن حسن، وهو رجل دين، يعمل في بيع الدخان، وقد كان على معرفة واسعة مع والدي. تعشينا عند الرجل وسهرنا قليلاً، ثم نمنا. حدثه والدي بمقصدنا فرحب بالفكرة،

وقال لوالدي:

- ضروري يتعلم محمد، وضروري يكمل دراسته. العلم نور يا (أبو محمد).

كنت أعتقد أن والدي سيوصلني إلى بيت الشيخ طاهر الخطيب، إلا أنني في تلك السهرة وفي بيت الشيخ محمد عبد الرحمن حسن عرفت بأن هذا الرجل هو من سيقوم بأخذنا إلى بيت الشيخ طاهر الخطيب. عرفت ذلك عندما قال لأبي، عند أخي الصغير مع طفلين من القرية سأخذهم جميعاً،

وبذلك نصير أربعة وفي الصباح الباكر ركب والدي راحلته وعاد نحو قرينتنا، بينما قام الشيخ محمد عبد الرحمن بأخذنا معه. حيث ركب على (بغلته) وسرنا نحن الأطفال وراءه، عبرنا وادي جهنم، ومررنا بقرى عديدة، اشترينا تمرًا، وتينًا، وخبزًا، وأكلنا على الطريق قرب الينابيع. ولم نصل إلى بيت الشيخ طاهر الخطيب إلا قبيل الغروب بقليل. وحين وصلنا بادره الشيخ محمد عبد الرحمن بقوله:

إبراهيم أبو محمد، يقصد والدي، يسلم عليك كثيراً، ويطلب منك أن تضع محمد في المدرسة مع أولادك، فسألني الشيخ طاهر: بأي صف أنت؟! فأجبت:

. في الصف الرابع.

قال:

. في الصباح نرى الأستاذ.

وفي الصباح، ذهبنا إلى قرية «حمام القراحلة» حيث كان فيها أستاذ اسمه الفقير، وهو من لواء اسكندرونة. قال للأستاذ:

. هذا ولد، ويهمني أمره. جاء إليك من شرق حماة، ونريد أن نضعه في الصف الرابع، تلبية لرغبة أهله.

فسألني الأستاذ:

. بأي مدرسة كنت تدرس.

فقلت:

. كنت أقرأ عند شيخ الكتاب.

قال:

. لا بأس (تستاهل أن أضعك في الصف الثالث فقط)!!

قلت:

- أنا أريد أن أكون في الصف الرابع.

قال:

- لا .. بالثالث.

قلت:

- لا .. بالرابع.

قال:

- مادام رأسك يابس، سأضعك في الصف الثاني. واختلفنا، ثم طردني وقال لي:

- هيا، لا مدرسة لك عندي.

فعدت إلى بيت الشيخ طاهر الخطيب. وقلت له: طردني الأستاذ، ولم يقبلني في الصف الرابع، فقال الشيخ طاهر: نأخذك إلى قرية «بسنديانا».

فداخني شعور بالفرح، فتحن نعرف الكثير من الفلاحين الذين كانوا يأتون من «بسنديانا» إلينا من أجل العمل في الأرض، وبالحصاد تحديداً، وذهبت إلى «بسنديانا» مع رجل اسمه مخير، كان يعرف والدي، قلت له مباشرة:

- عمي مخير أنا لا أدرس إلا في الصف الرابع. ولا أريد أن يصرخ الأستاذ في وجهي.

قال لي غاضباً:

- أنت تشترط سلفاً. انتظر حتى نرى الأستاذ.

قلت:

- أنا لا أريد إلا أن أدرس في الصف الرابع. يعني في الصف الرابع.

قال:

. بسيطة!

وذهبنا إلى قرية «بسنديانا». وقابلنا الأستاذ مباشرة. وسألني السؤال

نفسه:

. يا محمد في أي صف كنت.

فقلت له:

. كنت أدرس عن الشيخ في الكتاب.

قال:

. مصيبة. درست عند الشيخ، وتريد أن تدرس في الصف الرابع؟!

قال له مخيير:

. نريد أن يدرس في الرابع يعني في الرابع!!

قال الأستاذ:

. يا أخي (ما بيمشي الحال)، غداً يأتي (لمفتش) ويعمل لنا ألف مشكلة.

سأضعه في الصف الثاني إكراماً لك.

قال مخيير غاضباً:

. شو؟ بالصف الثاني؟!

قال الأستاذ:

. طيب نضعه في الصف الثالث، وهذا آخر كلام!

فسألني مخيير:

. شو يا محمد؟!

قلت:

. أنا أريد الصف الرابع!

فقال الأستاذ محتجاً:

. بالرابع مستحيل. وصرفني! وعدت إلى القرية، إلى الشيخ طاهر الخطيب مع مخيبر، ولم يكن في رأسي سوى تصميمي على أن أدرس في الصف الرابع، هكذا قالت لي أمي، لذلك قررت ألا أعود إلى أمي مهما تعذبت أو عانيت. فكان أن ذهبت إلى قرية اسمها «بتمان» وفيها أسرة من بيت عيد، وكنا نعرفهم، والدي على علاقة وقرابة متينة بهم.

فذهبت إلى بيت الشيخ عبد اللطيف عبد الحميد عيد، وقد كان يأتي إلينا يعمل في تهريب الدخان، ذهبت بمفردي. ولم يكن معي سوى كيس صغير فيه بعض ملابس، وبعض الكتب، والدفاتر والأقلام. قلت للشيخ عبد اللطيف: لقد جئت من أجل أن أدرس في الصف الرابع. وشرحت له القصة كاملة وما عانيته عند الأساتذة في مدرستي «حمام القراحلة» و«بسنديانا».

سألني متأكداً:

. أنت ابن إبراهيم. أم ابن أخيه؟!

قلت:

. أنا ابن إبراهيم.

قالت زوجته (اسمها هندية):

. هذا ابن إبراهيم الغربي، (ويسموننا بيت الغربي لأن والدي ذهب إلى شرق حماة قادماً من الغرب). وسكت زوجها، وراحت ترحب بي.

فقلت لها:

. أمي تريد أن أدرس في الصف الرابع.

فقالت:

. ستدرس في الرابع، وإذا كان عندك رغبة تدرس في الخامس، أضعك في الصف الخامس! كانت تتحدث بقوة وثقة الأمر، الذي جعلني أطمئن إلى لهجتها. فقد أحسست بصدقها وحرصها عليّ. قالت لي:

. تمام مع أولادي، وغداً نذهب إلى المدرسة. أنت واحد منهم!

وفي الصباح، ذهبنا إلى المدرسة، وقد كان أستاذها ومديرها يوسف علي من قرية اسمها «البرازين». ذهبت أنا مع زوجة الشيخ عبد اللطيف عبد الحميد عيد. سلّمتُ على الأستاذ، وقالت له بثقة غير عادية: انتبه لي يا أستاذ هذا الصبي جاء من شرق حماة، أهله أعزاء عندي، وأقربائي. (يعني من الغوالي جداً). وهو يريد أن يتعلم بالمدرسة. اعتبره ولداً من أولادي، وسوف ينام عندنا في البيت. فقال الأستاذ:

. على عيني!

فأضافت:

. أريدك أن تضعه في الصف الرابع. فانتبه الأستاذ، وسألني معك وثائق تثبت أنك في المدرسة سابقاً.

فأجابت هي عني باستغراب:

. (شو وثائق. ليس لديه شيء)!!

قال الأستاذ:

. على عيني. خلص سوف أضعه في الصف الرابع.

ففرحت. أخيراً تحقق مرادي. وستفرح أمي. وقد عرفت فيما بعد أن زوجة الشيخ عبد اللطيف كانت لها كرامة عند الأستاذ، ولها عليه فضل لأنه كان يتناول الطعام في بيتها وتكرمه.

حين أصبحت في الصف الرابع..!!

وبدأت الدراسة في الصف الرابع فعلاً. كنت قد جئت إلى المدرسة متأخراً حوالي شهر تقريباً.

وكنت أحس بفقر الناس وحالتهم العسرة. وظللت في الدراسة إلى شهر نيسان تقريباً، وفي تلك الفترة انتشر مرض الجرب فأصاب الناس جميعاً، وكنت واحداً منهم، لذلك قررت أن أقطع الدراسة، وأعود إلى قريتنا دون أن أخبر أحداً، لا الأستاذ، ولا المرأة التي تشرف عليّ (أقصد السيدة هندية) وقد كانت تعاملني كما تعامل أولادها تماماً، لم أسمع منها كلمة نايبة، ولم أرها في يوم من الأيام متدمرة من تصرفاتي. طبعاً لو كنت أخبرتها بأنني سأعود إلى القرية قبل أن تنتهي المدرسة بشهر واحد، لمنعتني. لكنني لم أخبرها.

تناولت طعام الغداء. واستأذنتها من أجل الذهاب إلى بيت الخطيب. فوافقت. طبعاً لم آخذ ثيابي معي إلى بيت الخطيب، ولا الأقلام والدفاتر. وإلا لو فعلت ذلك لكشفت أمري.

فقط سألتني متى ستعود: قلت لها يوم الجمعة مساءً، أي أنني سأغيب ليلة واحدة. فأوصتني ألا أتاخر يوم الجمعة، وأن أصل قبل غياب الشمس كي لا تقلق عليّ. كانت حريصة عليّ كثيراً. وفعلاً ذهبت إلى بيت الخطيب. وقلت لحبيب الخطيب: أريد أن أرجع إلى أهلي. أريد أحداً يوصلني إليهم. قال لماذا: قلت أريد أن أراهم عدة أيام فقط وأعود.

فوافقني، وجاء برجل قوي البنية، طويل عريض يرتدي سروالاً أسود، وحذاء عسكرياً متيناً. وهو يعمل في تهريب الدخان ما بين الساحل وحماة وريفها. وهو من قرية «بسنديانا» اسمه محمود.

قلت لـ محمود:

أريد أن توصلني إلى أهلي.

قال:

. وماذا ستعطوني مقابل ذلك.

قلت:

. أنت ماذا تريد؟!

قال:

. أريد (تكتين) قمح! يعني حوالي ثلاثين كيلو قمح.

قلت:

. تكرم، سيعطيك والدي ما تريد.

واتفقنا. في تلك الليلة، نمنا في بيت الخطيب، وكانت الدنيا تمطر.
أوصاني الرجل أن أستيقظ قبل الفجر لأن المسافة بعيدة وطويلة.

وعند الفجر، انطلقنا. وضعت لنا زوجة حبيب زوادة، فيها تين يابس،
وبضعة أرغفة، وخرجنا. كان الرجل يحمل معه حوالي ثلاثين أو أربعين (نصبة)
تين من أجل زراعتها. كان أحد معارفه في إحدى القرى التي سنمر بها قد
أوصاه من أجل جلبها له. وكانت معه عصا طويلة متينة. ربط عيدان التين
(النصبات) وراء ظهره، ومشى أمامي بهمة شديدة، وقال:

. الحقني!

وهكذا بدأت رحلة العودة المفاجئة إلى القرية! طبعاً، لم يتبع الطريق
الرسمي أو المعروف، وإنما اتخذ طريقاً يعرفه هو من أجل اختصار المسافة.

كان المطر يهطل، والأرض موحلة جداً، الأمر الذي أعاق حركتنا. لقد
امتلاً حذائي بالوحل، فنظفته مرات عدة، لكنني يأسست منه فخلعته، وحملته
مسافة طويلة، ثم تعبت منه، فرميته ومشيت حافياً بقية الطريق حوالي
(40) كم.

وبعد أن مشينا مسافة طويلة^(*)، كان يعرف أصحابه، قال لي: سنبيت هنا! وكان أن قمت بأول عمل هو غسل قدمي من الطين، والجروح التي أصابتهما. كنت مرهقاً جداً، ومنطفئاً من التعب. ومما أذكره أن صاحب البيت كان رجلاً طيباً، دمثاً، مضيافاً، حيث أسرع بتجهيز العشاء لنا، وقد رأى حالتنا المتعبة. فقدم لنا الأكلة الشعبية المعروفة (متبلة) مع الخبز والبصل، كما قدم لنا زبدة طازجة، مع خبز الصاج الذي خبزته زوجته حالما وصلنا. أكلنا، ونمنا مباشرة على اللباد، ولا أدري للآن بما غطونا، لأنني نمت دون أن أدرك بأن غطاءً ارتمى عليّ. كما يقولون (نمت دون هز).

لكنني لن أنسى بحياتي أبداً، وقت العشاء، حيث كانت تقف بالقرب منا بقرة حلوب، فبالت، فجأة، ونحن نأكل، فتطاير بولها بعد الارتطام، حط البول على الطعام ولم يتوقف أحد عن الأكل! بل كل ما في الأمر أن صاحب البيت بالولد وقال: يا ولد خذ البقرة إلى الداخل!!.

وفي الصباح، استيقظنا على نحو مبكر وانطلقنا مباشرة باتجاه القرية، كنا جنوب محردة على ما أعتقد، وواصلت السير حافياً أيضاً، وفي الطريق، وقبل أن تشتد حرارة الشمس علينا، مررنا بدكان واشترينا كمية من التمر، كيلو واحد أو أقل، أكلناها على الطريق. وواصلنا المسير إلى ما قبل غروب الشمس، وعندئذ أخذني الرجل محمود إلى بيت أحد معارفه أيضاً من أجل المبيت. كان قد حدثني عن الرجل الذي نقصده، لأنه يحمل له عيدان التين (النصابات) من أجل زراعتها. وحين وصلنا إلى بيت صاحبه في قرية «قمحانة» شمال حماة. قمت بغسل قدمي من الوحل، وقد رأيت تورمهما، والجروح التي

(*) قطعنا فيها الجبل الساحلي. ومررنا بوادي جهنم، واتجهنا نحو جنوب شرق أبو قبيس، ثم نزلنا من الجبل حتى بداية سهل الغاب، وكان الوقت عصراً، ثم سرنا باتجاه الجنوب الشرقي حوالي ثلاث ساعات، فوصلنا إلى قرية «ديمو» بعد الغروب مباشرة. حيث نزلنا في بيت البدو في هذه القرية، وهو مصنوع من القصب..

بدأت تظهر فيهما. كما قام الرجل محمود بغسل يديه ووجهه وقدميه، وجلسنا على اللباد الموضوع فوق الحصير. وراح الرجل صاحب البيت يرحب بنا. يبدو أن معرفته بمحمود كانت جيدة، لأنه كان يسأله عن فلان وفلان، وأحوال الزرع.. الخ والرجل محمود يجيبه ويسأل عن آخرين يعرفهم أيضاً، وقد فرح صاحب البيت حين أخبره محمود بأنه جاء إليه بعيدان التين (النصبات) من أجل أن يزرعها، وهي من النوع الجيد. المهم هو أن الرجل قدم لنا عشاءً دسماً جداً!! ليس (متبلّة)، وإنما كان عبارة عن برغل، وشورية ساخنة ولحم. فأكلنا بشهية غير عادية. وبينما نحن نأكل، قال صاحب البيت: لكما حظ من السماء. فسأله الرجل محمود: كيف؟!

فقال: لقد خرجت إلى الصيد صباحاً، فرأيت عدداً من الواويات بالقرب من القرية، وقرب التلال، فصوّبت عليها، واصطدت أحدها، وجئت بها، لم يكن ميتاً بعد، وكان صياحه عالياً، ذبحته، وسلخته، وسلقته زوجتي، وجعلته قطعاً مع الشورية التي نأكل منها الآن.

فوجئت أنا والرجل محمود في وقت واحد. فاللحم الذي نأكله هو لحم الواوي. ومع ذلك سأله محمود: يعني هذا اللحم (وأشار إليه) هو لحم واوي. فقال صاحب البيت بفرح وهو يضحك: نعم. وأجابه محمود: لحم واوي.. لحم واوي.. وهمهم بصوت منخفض، وواصل أكله.

أما أنا فما عدت أكل من اللحم، وإنما اكتفيت بالبرغل والشورية. كنا جوعانين جداً. ومن فرط التعب نمت مباشرة، ولم أنتظر الشاي الذي وعدنا به صاحب البيت، وراح هو محمود يدخنان بانتظار الشاي الذي سيأتي.

مواجهة.. قبل وصولي إلى البيت..!!

وفي الصباح، نهضنا من أجل مواصلة السير. كانت المسافة المتبقية بين

القرية التي مررنا بها، هي «قمحانة» وقريتنا حوالي (17) كيلومتراً، ثم من «قمحانة» إلى «معرّس» ثم إلى «كوكب». ومشينا بعزم، وفي الطريق إلى «كوكب» اعترضنا أحد البدو، وحمل علينا (منساس) الفلاحة، وهو عبارة عن عصا طويلة في نهايتها شفرة حديد حادة من أجل نخر الدابة التي تفلح من جهة، ومن أجل كشط وحل الفلاحة عن سكة المحراث من جهة ثانية، (يبدو أن هذا الرجل من قطاع الطرق) تقدم هذا الرجل، وييده المنساس، وهو طويل جداً، وطلب من صاحبي محمود أن يخلع حذاءه أولاً، وهو حذاء متين جداً، كما طلب منه أن يخلع سترته ثانياً، وبعض ثيابه الأخرى، وهنا جنّ جنون محمود!! حاول في البداية أن يسترضي البدوي. قال له: اتق الله يا رجل. نحن على باب الله. اتركنا بحالنا، ربي يوفقك. لكن البدوي كان شرساً وراح يناوشه بالمنساس تخويفاً، وتهويشاً، ويأمره بقسوة أن يخلع الحذاء. كان ملحاً في طلب الحذاء. وهنا التفت محمود إليّ، وكان خائفاً عليّ، وقال: أأستطيع أن تهرب. قلت: طبعاً، وإذا كنت موافقاً سأضربه بالحجارة، وكنت إذا رميت بالحجر أصيب الهدف المطلوب، أو المكان الذي أسدد عليه. قال: لا، المهم أن تهرب أنت، وتبتعد عنه. كان خلف البدوي عدد من رفاقه الذين راحوا يتفرجون على المشهد.

وبعد طول رجاء، رفض البدوي وظلّ مصراً على طلب الحذاء، والسترة من محمود. وهنا، تقدم نحوه محمود، وقد جنّ جنونه أكثر. ناوشه، وداوره، وحين لوح البدوي بالمنساس في دورة كبيرة، تقدم محمود منه، وبخفة غير عادية قبض عليه، ورماه على الأرض، وأخذ المنساس من يده، وداس بالحذاء على رقبته، وقال له: سأضغط على رقبتك حتى تخرج روحك من صدرك، ما قولك؟! فصرخ البدوي، وقال له: يا رجل كنت أمزح معك. فما كان من محمود إلا أن رفع رجله عن رقبته، وكسر المنساس تحت قدمه، وطرّد البدوي، وبذلك تخلصنا من شره. وحين حاول بعض البدو تهديد محمود، قال لهم: من يقترب مني، سأفلق عليه. أي أنه سيعريه بدلاً من (الثور).. فما تجاسر أحد منهم

على الاقتراب. ومضينا في طريقنا نحو القرية التي وصلنا إليها في وقت مبكر أي عند الظهر أو بعد الظهر بقليل، وكان أن رأيتني أُمي من بُعد، فتفاجأت. وحين وصلت إليها سلمت عليها، وهي تسألني بأسى: ما الذي جاء بك؟!

قلت مختصراً: لقد جئت! ولم تسألني أكثر من سؤالها هذا، ولم أر دموعها، فقد كانت أُمي صلبة، وجبارة. أخذتني، وغسلت لي قدمي من الوحل. غسلتهما بالماء الفاتر والملح. وأرادت أن تغسل لي جسمي، فرأت أعراض الجرب عليّ. غسلت جسدي، ولكن هذه الأعراض لا تزول بالماء لذلك ذهب والدي إلى حماة، وجلب لنا كمية من مادة الكبريت الذي حللناه بالماء الساخن، واغتسلت به مرات عدة حتى زالت أعراض الجرب.

في تلك الآونة، كان الناس جميعاً يشكون من مرض الجرب. المهم، عندما وصلنا أراد محمود أن ثمن تعبته عليّ فقال لوالدي:

يا إبراهيم، أنا تراهنت مع حبيب الخطيب على (تتكتين) من الحنطة مقابل جلب ابنك محمد معي من الساحل إلى هنا، وقد قال لي إنك رجل كريم. فرحب به والدي. وقال له: طيب استرح يا رجل الآن، وسوف نكرمك. والله بالنسبة للقمح، فهو نادر وجوده. لقد صادر الفرنسيون القمح. ومع كل هذا سوف أعطيك (تتكتين) من الشعير، وتكة واحدة من القمح. فوافق، وقبل الرجل هذا العرض، وشكر كل منهما الآخر.

وفي صباح اليوم التالي، حمل نصيبه من القمح والشعير بطريقته الخاصة، واتجه غريباً قاصداً قريته. بعد أن حمل (30) كيلو غرام مسافة (100) كيلومتر تقريباً. بعد شهر، عاد موسى العلي من مدرسته يحمل وثيقة الترفيع إلى الصف الخامس. وهنا كبر حزني، وأحسست بالخسارة لأنني لا أحمل وثيقة الترفيع إلى الصف الخامس أولاً، ولأنني لم أكمل دراستي إلى آخر السنة ثانياً. ومع ذلك أرادت أُمي أن تدرسني في الصف الخامس. وفي هذا العام 1946 حيث شمل الجفاف المنطقة بأسرها، وكان صعباً وقاسياً، وقد زاد

في الطين بلة صاحب القرية بعدما اختلف مع أهلي وأمر بترحيلنا وطرдна، وأصرّ على ذلك. فما كان منا إلا أن نذهب ونفتش عن قرية أخرى لنعيش فيها، وفعلاً ذهب والدي وعمي يبحثان عن مكان نرحل إليه، فوقع بهم المطاف عند قرية «مريود» لصاحبها منذر بك العظم.

وقد تم تهجيرنا في نهاية الموسم الزراعي كما هي العادة إلى قرية «مريود» التي تبعد عن حماة حوالي 20 كم شمال شرق، ولم نزل وقتها نسكن إلا في بيت واحد نحن وعائلة عمي جميعاً، نتقاسم الطعام، والشراب، حتى الثياب!! وخلال فترة قصيرة أصبحنا من تعداد سكان قرية «مريود».

العودة إلى المدرسة.. والوثيقة المففودة!

وفي شهر أيلول أخذني والدي إلى حماة، إلى عند الشيخ محمود الشقفة، صاحب مدرسة المحمدية الشرعية في حي الحاضر. ومعني موسى العلي. فقبل موسى لأنه يحمل وثيقة نجاح من الصف الرابع إلى الخامس. أما أنا فلا أحمل وثيقة، فلم أقبل. وقد أصرّ مدير المدرسة على إحضار وثيقة نجاح. واسمه الأستاذ محمد الشقفة وهو أخو صاحب المدرسة الشيخ محمود الشقفة، وقد كانت المدرسة ابتدائية وإعدادية. وهنا احتار والدي ماذا يفعل، لذلك قلت للمدير: أنا سأتي بالوثيقة! فقال: كيف؟ قلت: من المدرسة التي تعلمت فيها السنة الماضية.

قال: طيب. (لقد فكرت ملياً كيف سأجلب هذه الوثيقة التي تمثل مستقبلي حقيقة. ولقد وعدت المدير بها)

لقد خطر ببالي أن أجلب وثيقة ترفيع من الصف الرابع إلى الصف الخامس من المدرسة نفسها التي درس فيها ابن عمي موسى وذلك لأنني كنت أعرف مديرها، فقد كان يدرسنا في قريتنا كشيخ كتاب، قبل أن يأخذ (الكفاءة) أي الشهادة الإعدادية ويصير أستاذاً مُعيناً من قبل وزارة المعارف. قلت

سأذهب إليه وأطلب وثيقة منه، فهو لن يخجلني في هذا الأمر.

وفعلاً، ذهبت في اليوم الثاني في السيارة (البوسطة) من حماة إلى مصياف، ولم أخبر أحداً بذهابي، وصلت إلى مصياف، ومضيت مشياً نحو قرية «دوير بيت رسلان» التي تبعد عن مصياف حوالي (25) كم، وحين وصلت إلى القرية ذهبت إلى بيت رجل هو الشيخ محمد صالح، رحب الشيخ بي، وقد كان والدي على معرفة جيدة به. في ذلك المساء ذبح الشيخ لي (ديكاً)، وقلوا لنا بيضاً. وأخبرت الشيخ بما أريد، فقال: سأرسل للأستاذ لكي يأتي إلينا ويتعشى معنا.

وهذا ما حدث فعلاً. فقد جاء الأستاذ ورحب بي أيضاً، وذكرته بأنه كان أستاذاً وشيخاً في القرية، فقال: طبعاً. وسألني عن أهلي فقلت: بخير.

وبادره صاحب البيت الشيخ محمد صالح قائلاً: محمد يريد وثيقة ترفيع من الصف الرابع إلى الصف الخامس، لأنه يريد التسجيل في المدرسة المحمدية الشرعية في حماة، وقد طلبوا منه هذه الوثيقة. ومحمد سيشرح لك بالتفصيل ماذا يريد.

وفعلاً، شرحت للأستاذ كل شيء، وطلبت منه وثيقة. وهنا انتفض الأستاذ، وقال بغضب: يعني تريدني أن أزور لك وثيقة يا قليل الأدب، وصرخ بي! يبدو أنه تذكر نفسه عندما كان شيخاً في الكتّاب، وكيف كان يقسو علينا من أجل ضبطنا واستقامتنا، والحق أن هذا الأستاذ كان نظامياً جداً، وصعباً جداً أيضاً. وهنا حاولنا أن نهده من غضبه أنا والشيخ صاحب البيت غير أن الأستاذ ظل محتداً إلى أن هدأ عندما قلت له:

كنت أقصد أنك تعرفني يا أستاذ، وتعرف مقدرتي الدراسية، لهذا جئت إليك من أجل أن تعطيني هذه الوثيقة. وإذا كنت لا تريد فليس هناك من مشكلة قط. هدأ الأستاذ، وقال لي على أية حال تعال معي لنرى المدرسة. طبعاً المدرسة كانت قريبة من بيت الشيخ محمد صالح. فخرجت معه.

ووصلنا المدرسة التي هي عبارة عن غرفة واحدة فقط. دفع الباب دفعا ففتح، ودخلنا، كان في داخل الصف مقاعد عدة (نسميها رحالي) وطاولة خشبية صغيرة.

إذن هذه هي المدرسة، الإدارة والصف في غرفة واحدة. بحيث يجلس الطلاب حسب صفوفهم، الصف الأول في المقدمة ثم الثاني، فالثالث، فالرابع، فالخامس في آخر المقاعد. في هذه الغرفة خمسة صفوف يدرسه معلم وحيد، وأخبرني أنه يدرس حوالي (50) تلميذاً، ولا أدري كيف فتح درج الطاولة أمامي فرأيت الأوراق المكتوب في أعلاها وزارة المعارف، مديرية معارف اللاذقية (طبعاً كانت طرطوس في تلك الأيام تابعة لمحافظة اللاذقية). وبعد الشرح والحديث عن أحوال المدرسة وطلابها، خرجنا، فأغلق الباب بالشد أيضاً، ومن دون مفتاح أو قفل. (قلت في نفسي، طيب. يبدو أنني وجدت الحل).

ثم ذهبنا إلى بيت الشيخ محمد صالح وسهرنا قليلاً، وقد أراد الأستاذ أن يأخذني إلى بيته لكي أنام عنده، من أجل رفع سوء التفاهم الذي حدث فيما بيننا، لأنه اعتقد بأنه كسر خاطري، وإن كان على حق. وذلك اعترافاً منه بأن لأهلي فضلاً عليه، فقد أقام لدينا في البيت مدة سنة كاملة يأكل ويشرب، وأمي تغسل له ثيابه.. الخ ولكنني لم أذهب معه إلى بيته. قلت له: شكراً يا أستاذ، فأنا سأنام هنا عند الشيخ محمد صالح. وخرج الأستاذ مودعاً.

ووضعت لي فرشاة لكي أنام عليها، لكن كيف سأنام، وأنا لم آخذ الوثيقة؟! كنت قلقاً جداً. كيف سأعود إلى أهلي من دون الوثيقة، كيف سأدرس في المدرسة المحمدية الشرعية من دون الوثيقة أيضاً. لذلك قررت بقوة أن أحصل على الوثيقة بأية طريقة أو وسيلة، ومهما تكن النتائج. وبسرعة نهضت في عتمة الليل، وذهبت إلى المدرسة. دفعت الباب دفعا، فتحت الدرج، وأشعلت عود ثقاب لأرى الأوراق ولأميز الوثيقة من غير الوثيقة، وحين تبينت الوثائق أخذت كمية من الأوراق المكتوب في أعلاها وزارة المعارف، ورحت أختتمها بختم المدرسة، ختمت أكثر من سبع عشرة ورقة. أخفيتها في ملابسي، وخرجت

عائداً إلى بيت الشيخ محمد صالح. دسست جسدي في الفراش ونمت. وقبل أن يطلع الفجر استيقظت، فودعت الشيخ وزوجته، ومضيت مشياً من قرية «دوير بيت رسلان» إلى مصياف، مسافة (25) كم حتى وصلت إلى مصياف. كنت أركض طوال الطريق لأنني كنت فرحاً فلقد ظفرت بغايتي.

ومن مصياف ركب في السيارة (البوسطة) إلى حماة. وقد كان الوقت خريفاً، فشعرت بالبرد الشديد، وأنا لا ألبس سوى (القلابية) التي أشدها بمقلع من الصوف، وليس بيدي سوى عصا طويلة تحسباً لوحش، أو أفعى، أما رأسي فكانت ألقه بمنديل أبيض رقيق لا يحمي من البرد كثيراً. وحين وصلت إلى حماة ذهبت فوراً إلى المدرسة، بعد أن ملأت إحدى الأوراق المختومة بالخاتم بأن الطالب محمد إبراهيم العلي قد ترفع من الصف الرابع إلى الصف الخامس. وعندما رأني مدير المدرسة الأستاذ محمد الشقفة، سألتني: ماذا فعلت يا محمد، هل جئت بالوثيقة؟!

فقلت له:

. نعم أستاذ.

قال:

. هاتها.

فناولته إياها.

فقال، وهو يهز رأسه: يا بني يبدو أن هذا الأستاذ الذي منحك هذه الوثيقة جاهل (غشيم) ولا يعرف، ما هي الوثيقة النظامية، لأن الوثيقة لها أصول. وقلت له: أستاذ، أرجوك اكتب لي نموذجاً عن الوثيقة كما تريد أنت. لأن هذا الأستاذ لا يفهم كثيراً في الأمور الإدارية لأنه معلم معه (كفاءة) فقط، وهو جديد يعين لأول مرة. فكتب المدير محمد الشقفة لي صفحة كاملة كأنموذج رسمي للوثيقة، فأخذتها وقلت له: طيب أستاذ، سأعود بوثيقة مثل هذه الوثيقة، أي مثل الصفحة التي كتبها.

وخرجت من عنده، ملأت ورقة جديدة مختومة بالخاتم الرسمي، وعدت إليه في وقت قليل جداً، ربما لم يأخذ مني سوى نصف ساعة من الزمن. ودخلت إلى الإدارة، وناولت المدير محمد الشقفة الوثيقة الجديدة. فاستغرب كثيراً: قال لي: من أين جئت بهذه الوثيقة؟

قلت:

. من المدرسة!

قال:

. كيف، وأين تقع هذه المدرسة؟

قلت:

. بعد مصياف بحوالي 25 كم.

قال:

. خلال نصف ساعة قطعت كل هذه المسافة وعدت ومعك هذه الوثيقة!!

. هل ركبت البراق يا بني؟

يبدو أن التعب وحماستي الزائدة عن اللزوم جعلاني لا أدرك أهمية الزمن. ولم أجب! عندئذ، قال لي المدير وهو يبتسم: احك لي الحقيقة. وأنا شخصياً سأضعك في الصف الخامس وعلى مسؤوليتي، وما عدت أريد منك وثيقة. ولكي أطمئن نادى للشيخ محمد النبهان، فحضر، قال له: سجل لي هذا الطالب في الصف الخامس. فقال له: حاضر أستاذ. وأبقاني عنده.

قال لي: احك لي بالتفصيل ودونما خوف.

قلت: أستاذ أرجو أن أطمئن أولاً بأنني صرت في الصف الخامس. قال

لي:

. كن مطمئناً! الأمر انتهى أنت في الصف الخامس.

عندئذ قلت له كل ما حدث لي وبالتفصيل.

فسألني:

- هل بقي لديك من الأوراق المختومة.

قلت:

- خمس عشرة ورقة.

قال:

- هاتها. فناولته إليها. أخرجتها من داخل ملابسي وسلمتها له. فمزقها جميعاً، كما مزق الوثيقة التي كتبها. ثم نظر إليّ، وقال: إياك أن تفعل مثل هذا ثانية، بعد أن ضحك طويلاً وهز في رأسه مرات عدة وهو يقول يا بني اذهب إلى الصف الخامس فإنك تستحقه، اذهب إلى عند الأستاذ النبهان لكي يسجلك في الصف الخامس. وهكذا أصبحت في الصف الخامس.

وراح موسى العلي يسأل إن كنت قد جلبت الوثيقة، فنفيت، وقلت: المهم في الأمر، إن المدير محمد الشقفة وافق على وضعي في الصف الخامس.

لقد كنت مصراً على أن أتعلم هذا أولاً، وثانياً لأنني قلت للمدير إنني سأخذ المرتبة الأولى في الصف، ولأنني لا أملك ثمن الكتب، وقد وعدته بنقل ما فيها على الدفتر بالقلم الحبر. وهكذا درست في الصف الخامس في عام صعب ومرير، فقد كانت الحال عسرة جداً، قحط، وجفاف، وبرد من دون مطر. كان والدي يأتي إلينا كل أسبوع مرة تقريباً من أجل أن يأتي لنا بالموونة، بل أن زوجة عمي أم صالح وموسى جاءت وسكنت معنا حوالي شهرين أو ثلاثة لأن الدنيا كانت باردة جداً، وكانت تخاف علينا من أن نخرج، أو نبرد في الغرفة التي استأجروها لنا. عند امرأة متقدمة في السن اسمها موزي الصيني تأوي الفلاحين القادمين من الريف وليس لديهم مأوى، وقد سكن معنا أيضاً في هذه الغرفة الطالب علي النبهان وهو من قرية «صبورة»، الواقعة شرق السلمية، ووالده على معرفة بوالدي.

كنا في سنة 1946 آنذاك، فبعد أن استأجروا لنا غرفة في مدينة حماة. جاء والدي ببعض الأدوات الضرورية من أجل الطبخ، والأكل، فاشتري لنا بعض الصحن والطناجر، وبابور كاز، وفانوساً للإنارة ليلاً. وقد حذرنا والدي من جهة ووالدتي من جهة أخرى ألا نخرج ليلاً.

وقد كانت زيارات والدي إلينا مستمرة كل أسبوع يحمل إلينا الخبز، وبعض الأدام (الطبخ)، وكل ما يلزمنا من التموين. وكنا عندما تغلق المدرسة أبوابها في نهاية الأسبوع نذهب إلى القرية مشياً، فقد كانت قريتنا تبعد عن حماة حوالي عشرين كيلومتراً، كنا نقطع الطريق ركضاً، ومطاردة، ولعباً. نضع (قواميع) الحجارة فوق بعضها بعضاً، ونتسابق من أجل رميها وإصابتها أولاً.

أحياناً نضوب الحجارة إليها بالمقاليع عن بعد خمسين متراً أو ما يقارب ذلك، وأحياناً نرمي الحجارة بأيدينا عن بعد عشرة أمتار أو نحو ذلك. أعني قبل أن تغيب الشمس نكون قد وصلنا إلى القرية. وإذا ما أردنا العودة إلى المدرسة نبكر صباحاً بحيث نكون في تمام الساعة الثامنة داخل باحة المدرسة.

لقد بذلنا في تلك الفترة الكثير من الجهد من أجل أن نحوز على المراتب الأولى في صفنا، وهذا ما حدث فعلاً، فلقد نلت المرتبة الأولى على الصف، تماماً كما وعدت المدير محمد الشقفة حين سجلت في الصف الخامس في بداية العام. وكذلك نجح موسى العلي. ولأنني أخذت المرتبة الأولى في الصف الخامس منحوني مقعداً مجانياً في ثانوية ابن رشد، وقد كانت هذه الثانوية ذات نظام داخلي، يعني كطلاب ننام فيها، ونأكل ونشرب على حساب الدولة.

لولميساعدني الحظ لأكلت فنفضاً...!!

ومما أذكره جيداً عن تلك السنة (1946-1947) أنها كانت سنة قحط شديد، إلى الحد الذي جعل الناس يأكلون القنافذ، والضباع، والواويات، أو أي حيوان يصطادونه. ومن الطرائف أن الشيوخ حللوا أكل هذه الحيوانات على

الرغم من أنها كانت من أكلة (الفطائس). كان بالقرب منا جارة تسمى أم عرب، وهي من أصل تركماني، ومن باب التكريم سميت أم عرب، لأنها كانت تقول دائماً: أنا أم العرب جميعاً.

المهم قالت ذات مرة: يا محمد أنت في عطلة المدرسة، لو تساعدني في دراسة القمح، ومهمتك فقط أن تتركب على (الحيلان) (*)، وتدور حول كومة القش، وأنا سوف أقدم لك أجراً في نهاية النهار وعاء عدس. قلت لها: موافق.

وفعلاً كنت مسروراً جداً لأنني أقوم بعمل، ومقابله أجرة قد تساعدني في التغلب على ظروف الحياة الصعبة. ولم ينته النهار حتى علمت أن السيدة أم عرب قد أعدت لي طعاماً لذيذاً فسألت ما هذا الكرم يا أم عرب؟! أنا أكل لحماً! فتدخلت جارة أخرى لنا وقالت: يا محمد، لو تعلم ما هذا اللحم؟! إنه لحم قنفذ! ومثل البرق طارت رجلاي في الهواء، وأنا أصبح لن أكل لحم القنفذ.. لن أكل لحم القنفذ. يكفيني لحم الواوي في المرة الماضية.

مشكلة جديدة نعرض أهلي!!

كان صاحب الخان مثل كل سنة يدين الفلاحين، ويسترد دينه في وقت الموسم. وقد كانت مشكلة الفلاحين الكبيرة تتمثل في موت ماشيتهم أو فقدها، كأن تموت البغلة أو (الكديشة) أو (الثيران) عندئذ تحدث كارثة لأن الفلاح يغدو مضطراً لأن يستدين من صاحب الخان ثمن الحيوان الذي فقده، وقد كانت أسعار الحيوانات غالية جداً، وصاحب الخان هو الذي يتحكم بأسعارها عادة لأن له سلطة غير عادية على سوق الماشية في المدينة.

في تلك السنة، استدان والدي البذار، وعلف الدواب (بسبب قلة المطر

(*) الحيلان: هو مجموع قطع خشبية، وفي أسفلها منشار حديدي. صنعت من أجل تكسير القش، ويجرّه الحيوانات حول بيدر القش.

والقحط) ومؤونة البيت، واشترى بغلاً بمبلغ كبير أيضاً استدانه من صاحب الخان (الحجي) على أن يوفيه ديونه وقت حلول الموسم، لكن الموسم كان سيئاً جداً، لأن المطر كان شحيحاً كما قلنا، فقد يبس الزرع، وأكلته الدواب قبل أن يصير حصاداً، وقد أراد الفلاحون أن يضحووا بالموسم من أجل أن يريحوا مواشيهم من جهة، (ويعوض الله عن الزرع) ولأنهم كانوا يعتقدون بأن الزرع لن يحمل موسماً وقيراً لهم.

وقد كان في مدينة حماة رجل اسمه الحجي أحمد عبيدي معروف أنه بخيل جداً ومادي، وهو صاحب الخان، الذي يستدين منه والدي، كان يبيع فيه كل الأشياء، فهو أشبه بدكان كبيرة تحتوي على كل شيء من الإبرة إلى الألبسة والأحذية، والمأكولات، والجلود، والأواني، ويتبادل السلع مع الدكاكين المجاورة في حال عدم توفر المادة المطلوبة. ومع كساد الموسم يفاوض الفلاحون الحجي أحمد عبيدي صاحب الخان من جهة، وصاحب القرية منذر بك العظم من جهة ثانية لكي يؤجل الديون إلى الموسم القادم دون فوائد، وقد ينجح بعضهم، ويخفق بعضهم الآخر.

(والحق يقال: أن صاحب القرية منذر بك العظم كان رجلاً محترماً جداً، لا يعتدي على الفلاحين، ولا على نسايتهم، خلافاً لغيره من الأغوات).

مصائب الديون.. وشح المواسم..!

ومن المفارقات التي أذكرها أيضاً عن تلك السنة الصعبة.. تتمثل في أن الطيور التي تأتي إلى قرانا في موسم الشتاء لم تأت في تلك السنة، كأنها أحست بالقحط وسوء الأحوال.

المهم في الأمر أن الحاج صاحب الخان أحمد عبيدي صار له دين كبير على أهلي مقداره ألفا ليرة سورية، وهو رقم في تلك الأيام لا يحتمله العقل،

وأصبح أهلي في ظرف مادي صعب. وبدأت المفاوضات حول تأجيل الدين إلى مواسم قادمة، وأخفقت جميعها رغم تدخل الجاهات.

وعندما لم يستطع أهلي تسديد هذه الديون، لاحت في ذهن صاحب الخان فكرة، بعد أن طرحها على والدي وعمي، وتتمثل هذه الفكرة: أن الفتاة الوحيدة من عائلة العلي، وهي ابنة عمي ووالدها متوفى، وعمرها خمسة عشر عاماً وهي في سن الزواج أيضاً، يتم زواجها حتى ولو بالإكراه من شاب في القرية، وهو قريب لنا. وقادر على دفع المبلغ المطلوب، وبذلك يطالب الحاج الشاب بقيمة الديون، فتحل المشكلة. لكن والدي وعمي رفضا هذا الاقتراح جملة وتفصيلاً واعتبراه إساءة للشرف، وكأنه بيع سلعة. غير أن الحاج عبيدي، أصر على أن يتم هذا الزواج، واحتدم الحوار، وخرج عمي عن طوره، أي كيف يحصل هذا الزواج القسري. وقال: لن يستطيع أحد أن يفرض علينا قراراً مهيناً. وحاول الحاج ضرب عمي، ولكن عمي كان أسرع وأقوى، وسبقه بالضرب وكاد يودي بحياته، وعلم البيك صاحب القرية بهذا الأمر، وتوعد أهلي بالنفي والتهجير. وقال لوالدي وعمي: كيف تفعلان هذا؟! وأنا كفلتكما عند أحمد عبيدي. كما علم بالحادثة أهالي ريف حماة بأجمعه، وقد سرت الأخبار وانتشرت بأن فلاحين من قرية «مريود»، اعتدوا بالضرب على صاحب الخان، وتمردوا ضد البيك، والإقطاعي، والحجي، ولم يستطع حتى البيك أن يقمعهم بشكل مباشر، كونهم يمتلكون أسلحة، وقادرين على الدفاع عن أنفسهم، حتى ولو في وجه البيك. إذا ما اعتدى عليهم.

وكان رئيس المخفر المساعد عبد الله الشقفة، لا يحب الإقطاعيين، ومتعاطفاً مع الفلاحين، حاول أن يهدئ الأمر فأخفق، وأيضاً حاول قائد الدرك العام محمد علي إسماعيل غير أنه لم يستطع أن يلغي قرار البيك الذي صدر بترحيل أسرتنا من قرية «مريود» وقد نبّه البيك مخاتير القرى المجاورة كي لا يرحب أحد منهم بأسرتنا في قريته، كان قرار التهجير من البيك يشمل محافظة حماة كلها، حتى عائلة بيت السفاف التي تربطنا بها علاقة طيبة لم

تقبل أن تأوينا. وأذكر أنه، في وقت ترحيلنا، حاول بعض أنصار الحاج أحمد عبدي أن يأخذوا بعض الحيوانات الخاصة بنا، مثل (البغلة) لكن والدي وعمي حالاً دون ذلك.

وأشير هنا أن أهلي كانوا يتوقعون أمراً مثل هذا، لذلك، وفي الليلة السابقة قام عمي بإرسال بعض الحيوانات ليلاً إلى إحدى القرى القريبة من قريتنا، وأودعها عند أحد معارفه، وعاد في الليلة ذاتها.

لكن في النهار عادت المشكلة إلى التفاعل من جديد، وكادت تحدث اشتباكات دامية، عندما حاول أعوان أحمد عبدي مصادرة الحيوانات الخاصة بنا، والاستفسار عنها أين أودعت، لكن قائد الدرك الذي قلنا إنه تعاطف معنا أحضر (كميوناً) وفيه عدد كبير من عناصر الدرك لحمايتنا من جهة، ولحماية أحمد عبدي وأعوانه من جهة ثانية، أي باختصار لفض الاشتباك دون خسائر من الطرفين.

كما أحضر (كميوناً) آخر فارغاً من أجل ترحيل أسرتنا، حيث حط بنا المطاف في قرية «حورات عمورين»، وهذه القرية كانت تابعة إلى محافظة اللاذقية. كما كان الغاب كله تابع لمحافظة اللاذقية آنذاك. وأذكر أنه كان لدينا كلب، فأوصى عمي أن نأخذه معنا، وعندما سأئلناه لماذا؟! قال: أخشى أن يسموه باسمنا، إذا بقي في القرية.

الحديك مقابل بطالة شخصية..!!

ومن المفارقات التي أتذكرها في تلك الآونة أن العائلة بأجمعها لم يكن لها إضبارة نفوس، أي لم تكن لنا أية قيود مدنية، لذلك ذهب والدي إلى أمانة السجل المدني في مدينة حماة، إلى عند شخص اسمه حمد أفندي، كان هو من يقوم بالتسجيل، وأخبره بقصة عائلتنا التي ليس لها قيود، فقال له كاتب

النفوس هات جميع من هم في عمر أقل من عشرين سنة، أما النساء المتزوجات والرجال المتزوجون، فليس من الضروري أن يأتوا، وأنه سوف يقدر أعمارهم تقديراً وفقاً لما يخبره به أبي، وقد أشارت أمي على أبي أن يأخذ هدية معه إلى موظف السجل المدني، لأنه قد يتحجج بأمر ما فلا يسجل الأولاد، وبذلك لا تُستخرج لهم الهويات اللازمة، إذا لم يأخذ له هدية مناسبة. واتفقت معه أن يأخذ لكاتب النفوس حمد أفندي عدداً من طيور الدجاج، الديوك تحديداً، وهكذا اجتمعنا حوالي خمسة عشر طفلاً صغيراً وكبيراً في عربة تجرها البغال وذهبنا إلى سرايا حماة، طبعاً كان معنا عدد كبير من الديوك، ربما بمعدل ديك للولد الواحد.

ذهبنا إلى السرايا ودخلنا مباشرة إلى غرفة الأستاذ حمد أفندي الذي فوجئ بحضورنا على هذا الشكل، وأشار والذي إليه بأن الديوك في العربة، لأن الرجل لفت انتباهه صخب الديوك المربوطة. وقد فر بعضها من الرباط، وراح يقفز في ساحة السرايا من مكان إلى آخر، بعد أن أحدث ضجيجاً يثير الضحك والاستغراب، يعني (فضيحة)!!

لهذا طلب الرجل من أبي أن يأخذ الديوك إلى بيته وقال له: لو أرسلت الديوك إلى بيتنا مباشرة كان أفضل من أن تأتي بها إلى السرايا وتقضحنا. وأذكر أن أحد الطلاب في المدرسة كان يقول لي:

[البارحة سمعنا الديكة وهي (تقاقي) في ساحة السرايا].

المهم أنني رأيت حمد أفندي كان يلبس طربوشاً، ويضع في يديه قطعتين من القماش لونهما أسود، مشدودة كل فتحة منهما بخيط من المطاط، كان يربطهما على ساعديه فوق القميص الأبيض كي لا يتوسخ عندما يكتب بالحبر.

صفناً قرب الحائط في السرايا، وراح يقدر أعمارنا. يسأل طلاب المدرسة بأي صف أنت، ثم يقدر العمر، ويصرخ بنا: خلص عشرة.. خلص اثنتا

عشرة.. وهكذا.. الخ. أما من كانوا من أفراد العائلة خارج إطار المدرسة فقدّر أعمارهم بعشرين سنة. وأما النساء فقدّر أعمارهن بأن كل واحدة منهن أصغر من زوجها بعشر سنوات. طبعاً فعل ذلك دون أن يطرف له جفن، وهو يمسك بالمسطرة يقيس الأعمار بالأطوال، والطريف في الأمر كله هو أنه غير بعض أسمائنا، فابنة عمي كان اسمها منى، غيره إلى شمة، وأحد إخوتي اسمه جميل (سماه أبي على اسم جميل العظم) غير اسمه وجعله أحمد.. وهكذا، بدأ عهد جديد بالأسماء، لبعض أولاد العائلة، أي أنهم دخلوا بأسماء، وخرجوا بأسماء أخرى.

طبعاً أذكر هذا لأنه كان شديد العلاقة بدراستنا، فلقد طلبوا منا أن نأتي بوثائق تسجيل رسمية من أمانة السجل المدني في مدينة حماة، لكي نقدمها لإدارة المدرسة لتستخرج لنا بطاقة تقديم امتحان (السرتفিকা). وربما لولا هذه الشهادة لم يتم تجيلنا في أمانة السجل المدني.



الفصل
الثاني

وجهاً لوجه مع أكرم الحوراني..!

وجهاً لوجه مع أكرم الحوراني..!!

في تلك السنة، وحين دخلت إلى مدرسة ابن رشد الثانوية في حماة رحلت أسمع أنا وموسى العلي ابن عمي بالأعمال التي يقوم بها حزب الشباب الذي يقوده أكرم الحوراني، لذلك أصبحنا مع هذا الحزب بالعاطفة لأنه يقف ضد البيك ونحن كنا ضد أي بيك في العالم. طبعاً كانت هناك أحزاب أخرى. مثل الحزب السوري القومي، والحزب الشيوعي.. لكننا لم نقرب من أي منهما. تقربنا من حزب الشباب لأنه كان شديد الوضوح في معاداته للبيك والإقطاعيين. طبعاً كان الحزب الشيوعي ضد الإقطاعيين لكن كانت الأقاويل ضد هذا الحزب كثيرة، وسمعت في القرى والمدن من الناحية الاجتماعية والأخلاقية ليست جيدة. السؤال الذي يطرح نفسه هذا هو كيف انتسبت إلى حزب الشباب؟

في شهر شباط من عام 1947 ذهبت مع والدي إلى حي الحاضر في مدينة حماة، وتعرفت هناك من خلال هذه الزيارة على دكان قماش لرجل اسمه الحاج محمد الزكار، داخل سوق مغطى، ورجل آخر اسمه علي الهبرا، وهو أيضاً صاحب دكان كبير، يبيع فيها مختلف المواد التي يحتاج إليها الإنسان.

وصلت إلى دكان الحاج محمد الزكار، وأذكر أن اليوم كان يوم خميس والوقت كان بعد الظهر، أما البرد فكان قارساً جداً. ذهبت كي أستطلع حالة وأحوال أهلي وأقربائي في القرية، حيث كان الحاج الزكار مصدراً للمعلومات، ومركزاً للأخبار بين الريف والمدينة.

وأيضاً تعرفت إلى ابنه عادل الزكار في المكان نفسه، وهو شاب مثقف ومتحمس، يحمل وعياً سياسياً متفتحاً، وشعرت أنه ارتاح لحديثي وتساؤلاتي، بعدما راح يسألني أسئلة من قبيل: من أين أنت؟! وماذا تعمل في مدينة حماة؟ وما هي فكرتك عن الإقطاع، وأسئلة أخرى في هذا المضمار.. طبعاً كنت أجيبه

بشكل متزن وهادئ، وأسترسل في الحديث عن رؤيتي للمستقبل القادم.

قال:

. المهم أين تسكن الآن؟

قلت:

. لقد استأجر أهلي لنا غرفة، ويقيم معي فيها طالبان، الأول هو ابن عمي موسى العلي، والثاني: علي النبهان. وهو من قرية «صبورة» بالقرب من سلمية، وأيضاً تقيم معنا زوجة عمي من أجل رعايتنا، وخدمتنا في المأكل والملبس والمشرب، وهي أم موسى العلي. (يبدو أنه رأى أن اللقاء صعب في هذه الغرفة) لذلك أردف قائلاً:

. هل تمارسون الرياضة في المدرسة المحمدية الشرعية.

قلت:

. يعني إلى حد ما.

قال وقد نفذ صبره:

. هل سمعتم بالحزب السياسي المنتشر في مدينة حماة.

قلت:

. أي حزب تقصد.

قال:

. حزب الشباب!

وراح يشرح لي عن هذا الحزب، وعن مبادئه وأهدافه، وعن الوضع الاجتماعي المتردي الذي يسود الناس، وعن سيطرة الإقطاعيين وظلمهم للفلاحين. وقال:

. باختصار شديد هذا الحزب ضد الإقطاع، ضد الظلم، ضد السيطرة،

هو الذي يحقق العدالة، وينصف الفقراء والفلاحين، ومن خلال هذا الحزب ينضج الوعي السياسي لدى الشباب، وينهض المجتمع وترتقي الأمة.. الخ.

وما أن انتهى من شرحه عن هذا الحزب، حتى شعرت بأنني أمسكت بنقطة الضعف التي نعاني منها نحن أولاً والمتمثلة في ظلم الإقطاع لنا، وانطلقت أفكارى، نحو ما أصاب أهلي من عسف وتهجير لأتفه الأسباب من قرى عدة هي، أم حارتين، قراح، مريود، المبطن، أم الخلاخيل، قصر أبو سمرة، أبو منسف، المضبعة، ولم أبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً وقتئذٍ.

وثانياً: طموحي الشخصي بارتياح الآفاق من أجل اتساع معرفتي عن العالم الأرحب والأوسع.

ولم أغرق طويلاً في التفكير حتى قلت له:

. والله سوف أنتسب إلى هذا الحزب.

قال:

. غداً يوم الجمعة سوف نلتقي، وأحدثك أكثر وبالتفصيل، في المكان كذا والساعة كذا. وانطلقت بسرعة البرق إلى البيت كي أخبر ابن عمي موسى العلي بما حصل معي. وما إن سمع موسى العلي بهذا الكلام حتى خفّق وطار، وراح يركض بأقصى سرعة. فصحت به:

. إلى أين يا موسى؟

قال:

. حتى أمسك بالحزب، وأنتمي إليه قبل أن يهرب. (وللعلم كان عمر موسى أقل من عشر سنوات) ولقد ظن أن الحزب يتمثل برجل. إن استطاع أن يمسك به قضى على الإقطاع، وإذا لم يستطع، تمرد الإقطاع أكثر وازداد في غيبه وتسلطه.

فقلت له:

- مهلاً يا موسى، غداً سوف نلتقي مع رجل له ارتباط بهذا الحزب، وهو سيعرفنا إلى رجالاته، كما سيتحدث عن أشياء كثيرة، أي عن كيفية الانتساب لهذا الحزب. وبالفعل، ذهبنا في اليوم التالي ذهبنا إلى مكتب الحزب، وكان مركزه في السوق، في حي المرباط. حيث استقبلنا الأستاذ أدهم عكاش، وهو معلم ابتدائي ينتمي إلى طبقة فقيرة معدمة، رجل طويل القامة، شجاع، يحمل مسدساً بشكل دائم تحت إبطه يسمونها (الردينة)، والحقيقة هي أن هذا الرجل كان من أوائل الذين أسسوا حزب الشباب. وقد قال لي في معرض حديثه لنا - سوف أعلمك الرمي بالمسدس حتى تصبح رامياً ماهراً، تصيب أدق الأشياء. وإذا كلفناك بقتل أحد الإقطاعيين، تستطيع إصابته بسهولة، فلا تذهب طلقتك (بوراً).

إذا أصبح المسؤول الحزبي عنا الآن، هو الأستاذ أدهم عكاش، وعرفنا من خلال الحوار معه أنه عضو عامل في الحزب، وأمين خلية أيضاً.

ومن باب المصادفة، كان في هذا اللقاء الأستاذ أكرم الحوراني، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي به. وأذكر أن أكرم الحوراني قال لأدهم عكاش هؤلاء طلاب من الريف، عليك أن تهتم بهم، وبتعليمهم وبتثقيفهم، وأشار عليه أيضاً أن يأخذنا إلى نادي اسمه (اليقظة)، ونادي آخر اسمه (المجد) وهذان الناديان للنشاط الرياضي، ولكنهما مرتبطان بشكل مباشر بحزب الشباب. ومن المفارقات التي حصلت، عندما بدأ الأستاذ أكرم الحوراني يسألنا عن أسمائنا، وأهلنا، وسكننا، وعن أعمارنا، قال لابن عمي، موسى:

- ما اسمك.. واسم أبوك.. واسم أمك.. وكم عمرك؟!

وعندما أجابه موسى عن عمره!! قال الحوراني:

- يا بني، عشر سنوات، أنت قاصر.

فاحتج موسى العلي، وقال بصوت عالٍ:

- لا يا سيدي، أنا لست قصير، ها آنذا أنظر إلي، وقد راح موسى العلي

يقف على رؤوس أصابع رجليه. فضحك أكرم الحوراني وهز برأسه وقال:
- خلص يا بني اعتبر نفسك في الحزب إن كنت قصيراً أو طويلاً. ثم نظر
إلى أدهم عكاش وأوماً إليه بأن يسجل اسمه في قائمة المنتسبين للحزب.
ونظمت لنا استمارات بشكل رسمي، وأصبحنا من وقتها من تعداد حزب
الشباب بزعامة أدهم عكاش، وقد كلف عادل الزكار في تحديد مواعيد
الاجتماعات واللقاءات وإبلاغنا. وقد بثوا فينا القوة والإكبار، بأن لا نخاف من
أحد وشدوا من عزائمنا، حتى إذا ما اعتدى علينا أحد نقول له نحن من حزب
الشباب، يعني نحن قوة، وما علينا إلا إخبار عادل الزكار الذي سيتصرف
حسب المطلوب!

توزيع منشورات الحزب...!!

وبدأنا بخوض التجربة السياسية بشكل فعلي، فقد زدنا بالمنشورات
الخاصة الصادرة عن الحزب التي تفضح أساليب الإقطاع والاستعمار وما
يتعلق بالقضية الفلسطينية والأحلاف الاستعمارية التي تريد تطويق العرب
وتركيهم، وبتنا نعقد اجتماعات دورية مع الآخرين. ومن ثم انطلقنا باتجاه
الريف كي نبشر بأهداف الحزب على مسامع الفلاحين، ونقول لهم:

في مدينة حماة حزب اسمه حزب الشباب هدفه مقاومة الإقطاع، ورفع
الظلم عن الفقراء والفلاحين (ومن المعروف في ريف حماة أن من يقول: أنا
ضد الإقطاع يكون الفلاحون في صفه حتى ولو كان القائل هو الشيطان
الأزرق). جمعنا الفلاحين في قرية «مريود»، وحدثناهم عن حزب الشباب،
وأيضاً ذهبنا إلى قرية قراح، تحدثنا عن الحزب وأهميته، وما أن سمع
الفلاحون بأخبار هذا الحزب حتى تدفقوا باتجاه مدينة حماة زمراً وأفراداً،
ليستطلعوا ويستكشفوا بأنفسهم حقيقة هذا الأمر الذي قد يحقق لهم
الخلاص من الظلم (وذلك بسبب القهر الذي أصابهم من ظلم الآغا والبيك).

في تلك الفترة أطلق أدهم عكاش شعاراً معروفاً من قبل الجميع، وقد كان يحمل في المظاهرات على الأكتاف يقول فيه: (هاتوا القزما والكريك - لأنكش الآغا والبيك).

وبالمناسبة أذكر أن شعارات كثيرة كانت تطلق في تلك الفترة في مدينة حماة، ولم نشعر في يوم من الأيام بأية أنفاس طائفية أبداً على الرغم من أن حادثة جرت لنا في درس الديانة الأول في أول عهدنا بالمدرسة، فقد جاء مدرس الديانة واسمه الشيخ محمد الحامد، وهو متعصب جداً، كان لا ينظر إلى وجوهنا، دائماً كنا نراه ينظر إلى الأرض، أذكر أنه في الدرس الأول استدار نحو السبورة وقال بصوت عالٍ:

العلويون، والإسماعيليون، والمسيحيون يخرجون من حجرة الصف فوراً لكي نبدأ درس الديانة، وقد خرج الطلاب المسيحيون، والعلويون، والإسماعيليون من الصف فعلاً. وتأخرت أنا، وما أن وصلت إلى القرب منه حتى قلت بصوت عالٍ:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، واستدار نحوي مذهولاً فأضفت: والله سنحاسبك يوم القيامة بأنك أخرجتنا نحن المسلمون من درس الديانة. وحين رأيت الشرر يتطاير من عينيه هربت من أمامه، فخرج يجري ورائي وهو يلعن ويسب وكأننا في مسرحية، فضحك الطلاب جميعاً، وراح الطلاب من الصفوف الأخرى ينظرون إلينا، واستمرت المطاردة داخل باحة المدرسة، الأمر الذي جعل الطلاب يخرجون من صفوفهم، فبدأت الحالة وكأنها مظاهرة حقيقية. وقد استغل حزب الشباب هذه الحادثة وغذاها، وألّب الأمور ضد حزب الأخوان المسلمين الذي ينتمي إليه الشيخ محمد الحامد، وبالمناسبة فإن شقيق هذا الرجل هو الشاعر بدر الدين الحامد، شاعر العاصي المعروف والمشهور، وقد كان مشهوراً بتعاطيه للمشروبات الروحية، وهو رجل متور جداً فصارت مدينة حماة مثلاً للتندر من الشيخ محمد الحامد، فأخوه بدر الدين الحامد الشاعر المتور الوطني والقومي، وهو الرجل

المتعصب الديني الذي لا يريد في دروسه أحداً من العلويين والإسماعيليين والمسيحيين. وقد أضربت المدرسة احتجاجاً على موقف الأستاذ باعتباره موقفاً **يمثل** رأي حزب الأخوان المسلمين، ثم أضربت المدارس في مدينة حماة مدة أسبوع كامل. وقد كان الشاعر بدر الدين الحامد مديراً للمعارف آنذاك، وتأثر كثيراً بما حدث ليس لأن أخاه سبب الإضراب، وإنما لأن الأمر يتعلق بدروس الديانة. المهم بعد أسبوع، عدنا إلى المدارس تحت شعار (الدين لله والوطن للجميع) و(الدين هو المعاملة، والدين هو العمل). وقد كان لكل الأحزاب المعروفة في مدينة حماة مقرات رسمية معترف بها مثل: حزب الشباب، وحزب الأخوان المسلمين، والحزب السوري القومي، كما كان للكتلة الوطنية مقر أيضاً.

طه حسين.. قنذ أضواء الشارع!

بقي أن أقول إنني كنت الوحيد من ريف حماة الذي درس في ثانوية ابن رشد كطالب داخلي، أما موسى العلي فقد سجل في المدرسة نفسها، أي المدرسة المحمدية الشرعية التي نال منها شهادة (السرتفিকা).

وقد تعرفت في عامي الأول في المدرسة التي أدرس فيها على أساتذة جدد من أبرزهم: عارف الجاجة، وعثمان العلواني، وعبد الكريم زهور، وقد كان مدير المدرسة الأستاذ درويش العلواني كان خريجاً من فرنسا في مادة التاريخ، كان رجلاً طيباً، ضخمة الجثة.

وبودي أن أذكر هنا البرنامج اليومي للمدرسة الداخلية، والذي يتمثل في الاستيقاظ عند الساعة السادسة صباحاً، ثم الغسيل وارتداء الثياب، والتجمع في المطعم لتناول طعام الإفطار خلال مدة نصف ساعة. لكل طالب كرسي معروف في المطعم، من الضروري أن يتواجد الطالب صباحاً على كرسيه، وأمامه صحنه وطعامه، يبقى في المطعم مدة نصف ساعة، ثم نباشر الدروس في الساعة الثامنة فلا ننتهي حتى الساعة الثانية ظهراً، وبعدئذٍ نذهب إلى

المطعم لتناول طعام الغداء، ثم قيلولة مدتها ساعة، وبعدها تتم المطالعة المسائية مدة ساعتين، وفي الساعة السابعة نذهب إلى العشاء، ثم المطالعة المسائية الثانية قراءة الدروس وحلّ الوظائف، وعند التاسعة نذهب إلى النوم، وفي العاشرة نطفأ الأنوار.

وقد كنت بسبب وجود مكان نومي القريب من الشباك الذي يمرر ضوء أعمدة الشارع.. آخذ كتاباً من المكتبة وأقرؤه على ضوء الشارع المتسرب من بلور الشباك، لقد قرأت مؤلفات المنفلوطي، وجبران، وبعض كتب طه حسين مثل (حديث الأربعاء) والعقاد، وميخائيل نعيمة، كنت أستعير الكتاب بإيصال من أمين المكتبة، وأعيده إليه حين أنتهي منه. كنت رغم حبي للقصاص الأدبية مولعاً بالتاريخ، والطروحات القومية.

زكي الأرسوزي.. معنا في الثانوية!

في بداية عام 1948-1949 بدأت رياح حزب البعث تصل إلى حماة. وقد كان الأستاذ زكي الأرسوزي في حماة. في تلك السنة لغوا لبس الطرابيش في المدرسة ربما بسبب الأستاذ زكي الأرسوزي الذي درس في فرنسا وتخرج من إحدى جامعاتها، كان عمره في حوالي الأربعين، يدرس الطلاب مادتي (الفلسفة) و(اللغة العربية) وكان ينام في القسم الداخلي الخاص بالأساتذة.

أما الطلاب فكانوا ينامون في مهاجع أو عنابر أشبه بمهاجع الجنود، كنا حوالي (150) طالباً، بحيث ينام كل خمسين طالب في مهجع واحد.

في الأيام الأولى من المدرسة، عانيت الكثير من المشكلات كما قلت سابقاً مثل توفير الكتب، والبدلة. وفي المدرسة تعرفت إلى مجموعة من الأصدقاء والزملاء الجدد الذين سيلعبون أدواراً أساسية ومهمة في الحياة السورية. خصوصاً في الجيش، من هؤلاء مثلاً: محمد حاج رحمون وآخرون.. كنت أعزز صداقاتي مع طلاب المدرسة من خلال الرحلات العديدة التي كنا نقوم بها إلى

محيط حماة، كأن نزور المتحف مثلاً برفقة أستاذ التاريخ الذي يشرح لنا عن تاريخ مدينة حماة، وارتباطها بالتاريخ العربي الإسلامي، والتاريخ الروماني، ويعدد لنا أسماء العلماء والمشاهير الذين عرفتهم المدينة، ويحدثنا عن القلعة والأسرار العسكرية التي تعمل عليها العمارة الهندسية، مثلاً، كحفر الخنادق حول القلعة، وأسوار القلعة ودهاليزها، وقاعاتها، وطبقاتها وأدراجها.. الخ وقد كانت هذه الرحلات تعزز أمرين لدينا، الأول: ثقافتنا العامة وخصوصاً ما يتعلق منها بالتاريخ، والثاني: تمتين صداقتنا فيما بيننا. كما كانت الرحلات تتم إلى منطقة الغاب، وقد كانت عبارة عن بحيرات فيها مراكب صغيرة. يقود كل مركب شخص يحمل عصا طويلة هي عبارة عن مجداف. كنا نعبر بواسطة المراكب من جهة إلى جهة أخرى. أما مبلغ الاشتراك في الرحلة فكان نصف ليرة سورية عن كل طالب. لقد تعرفنا من خلال هذه الرحلات على أعلام مثل أسامة بن المنقذ أمير قلعة شيزر وفارسها، وشاعرها، كما تعرفنا إلى أبي الفداء، وقيمته التاريخية، والتراثية، ومما أذكره مما حدث لي في الصف الأول في الثانوية (ثانوية ابن رشد) يتمثل في أنني قمت بنقل الكتب إلى الدفاتر. كنت أستعير الكتب كتاباً كتاباً من زملائي، وأنقلها إلى الدفاتر، وفي أثناء نقلها كنت أعرف ما فيها فأحفظها، ولذلك كنت أسبق زملائي في الصف في معرفة الدروس كوني أخذت فكرة عن موضوعاتها في أثناء نقلي لها.

وقد أحببت الرسم في تلك الفترة، كان لدينا أستاذ في المدرسة يعلمنا الرسم على الطريقة التراثية كصنع الإطارات أي (البراويز) نكتب عليها الآيات القرآنية، والأمثال والحكم، ونزينها بالورود، والإطارات الذهبية. كنت أرسم تلك اللوحات البسيطة (البراويز) وأعطيتها لأحد البائعين لكي يبيعها مقابل أن أعطيه ربع الثمن أو نصف الثمن. فمثلاً إن كان ثمن (البرواز) الواحد ليرة أعطيه ربع ليرة أو نصف ليرة. وأعتقد الآن الحاجة الاقتصادية، والظروف الصعبة هي التي دفعتني إلى الرسم أكثر مما أن هي الحاجة إلى تطوير موهبتي في الفنون عموماً.

أريد ثياباً.. فما العمل!

لقد أردت أن اشتري بنطالاً وقميصاً جديدين للسنة الدراسية القادمة، كما أردت أن أشتري الكتب، لأنني تعبت من النقل والكتابة على الدفاتر. في تلك الفترة بدأت زراعة القطن في منطقة الغاب، وقد كانت زراعة القطن ظاهرة جديدة في منطقتنا. وقد تعامل الإقطاعيون مع الفلاحين معاملة غريبة وقاسية فحواها أنهم كانوا يشترون القطن من الفلاحين عند زراعته، ويدفعون لهم نصف المبلغ المقدّر بين الطرفين. أي يدفعون ثمناً للقطن عند زراعته لا يوازي إلا نصف ثمنه عندما يتم قطافه، أي أن التعامل يتم على شكل احتكار مكشوف وفاضح. ولم يكن من خيار أمام الفلاحين إلا أن يوافقوا على شروط التجار وأصحاب الخانات، الأمر الذي كان يمكنهم أن يفعلوه هو أن يحسنوا الأسعار قليلاً بالحوار مع التجار، كأن ينتقلون من تاجر إلى تاجر آخر.

ومما أذكره من طرائف حول زراعة القطن وتسويقه أنني لعبت لعبة تغلبت فيها على الظروف المادية الصعبة، وقد عوقبت من قبل أمي على هذه اللعبة.

تتلخص هذه اللعبة في أنني ذهبت إلى تاجر قماش في مدينة حماة، اسمه محمد العقاد، وهو تاجر حموي، وقلت له: أنا ابن إبراهيم العلي. فرحب بي. وسألني عن أحوال أهلي، قلت له بخير. وسألني إن كنت أريد تفصيل طقم للمدرسة، فقلت له:

. لا. أريد بنطالاً فقط!

قال:

. تفصيل.

قلت:

. لا. سأشتري بنطالاً مخملاً، فهو أرخص لي، وسوف أدبر به نفسي لهذا

العام.

قال:

- مثلما تريد .

وسألته إن كان بإمكانه أن يشتري مني (100) كيلو قطن .

فقال:

- على حسب علمي ومعرفتي أن أهلك لا يزرعون القطن!!

قلت:

- بلى، هذه السنة سيزرعون .

فقال:

- طيب أنا موافق .

أي أنه اشترى مني (100) كيلو قطن سأعطيه له في موعد القطاف .
وأعطاني نصف ثمن القيمة . وسجل في دفتره: أنني ابن إبراهيم العلي قد بعته
(100) كيلو قطن، وأنه أعطاني أربعين ليرة سورية لقاء ذلك، ووقعت في ذيل
الصفحة على ما ورد فيها، وقد كان هذا المبلغ كبيراً تلك الأيام .

أخذت هذا المبلغ واشترت الكتب والأقلام . وبالتحديد اشتريت قلم حبر،
وعلبة حبر . كما اشتريت كنزة جميلة، وبنطالاً، وحذاءً جديداً . ثم ذهبت إلى
شخص آخر، واشترت (بيتون) من كاوتشوك، أي حذاء يصلح في أيام الشتاء
القاسية، ثم اشتريت ألبسة داخلية، وبعض قطع الصابون، ورحت أنتظم في
الذهاب إلى حمام السوق مع رفاقي .

وقد لاحظ والدي عليَّ هذا التغير فسألني:

- ما الذي أراه، أحس بأن أحوالك قد تغيرت!! ثم أردف قائلاً: ملابس

جديدة، وحذاء جديد، وكتب.. فمن أين لك هذا، ومن أين جئت بالمال؟!

فقلت له:

- لقد دبرت أمري في المدرسة . لقد قدمت لنا المدرسة مساعدة قيمتها

أربعون ليرة سورية صرفتها كلها، اشترت كل ما يلزمي. ولم يبقَ معي أي ليرة للمصروف، فأعطاني بعض الليرات، وذهب.

مع الفلسطينيين.. في مذبحةهم!

وفي شهر نيسان تقريباً من عام 1949 اشتدت أحداث فلسطين، وبدأنا نحن الطلاب نشعر بفداحة الأمر وما يحدث من أخطار تعكس الولايات في المستقبل القريب، فقد قوي وضع اليهود، ورحنا نسمع عن مذابح وجرائم يهودية تقترب بحق الفلسطينيين مثل مذبحة دير ياسين وغيرها. وقد جاء إلى حماة عدد كبير من المجاهدين الذين تطوعوا من أجل الحرب في فلسطين ضد اليهود، وسكن هؤلاء المجاهدون الذين جاؤوا من الجزيرة، ودير الزور في مدرستنا بعدما صرفونا نحن الطلاب، من أجل تهيئة الظروف المناسبة لهم.

ومنذ شهر نيسان أخذنا نشارك في المظاهرات الشعبية التي كانت تخرج إلى شوارع مدينة حماة احتجاجاً على تعاون الإنكليز مع اليهود ضد الفلسطينيين. وحدث أيضاً اضطرابات عديدة، وعرفنا أن الحرب قامت في فلسطين وأن جيش الإنقاذ يشارك فيها بشكل قوي، وكان من قادته فوزي القاوقجي، بل شاع خبر في حماة أن فوزي القاوقجي هو قائد جيش الإنقاذ.

لقد قلبت حرب فلسطين حياتنا رأساً على عقب، فانقطعنا عن الدراسة، وبعد شهر تقريباً رأينا رأي العين اللاجئين الفلسطينيين وقد قدموا إلى حماة بواسطة القطار، فسكنوا مؤقتاً في المدارس، وكانت مدرستنا واحدة منها. ثم أقيم لهم مخيم في شمال حماة وسكنوا فيه، وقد أثر فينا مجيئهم كثيراً، لأنهم كانوا مهزومين ومنكسرين وفي حالة نفسية صعبة جداً.

طبعاً كنا نزورهم في المخيم، نسمع منهم القصص الغريبة، حدثونا عن جرائم اليهود وهمجيتهم، وتعاون الإنكليز المكشوف والفاضح مع اليهود، بعدما

سلموا العصابات اليهودية المعسكرات الإنكليزية، والأسلحة والذخائر، والمواقع التي كانت بحوزة الإنكليز. ووصفوا لنا فساد الأسلحة التي كان يمتلكها الفلسطينيون وقتها، وعدم التنسيق والتنظيم بين فصائل المجاهدين في القطاعات الفلسطينية كافة، وأن الفوضى هي التي تسود الأرض الفلسطينية وخطوط المواجهات مع اليهود، وأنا الأهالي يدافعون عن قرأهم بالوسائل البدائية، والإمكانات المتوفرة لديهم. وأن شراء بندقية من أصعب الأمور وأمرها.

في بداية مجيء الفلسطينيين إلى حماة وإقامتهم في المدارس ثم في المخيم، كنا نذهب إليهم ونأخذ إليهم الخبز، وبعض الخضار المتوفرة، ونحمسهم ونقول لهم: لا بد أنكم عائدون إلى فلسطين.

ويقولون لنا: نحن هنا بشكل مؤقت ربما أسبوع أو أسبوعان فقط وسنعود إلى أرضنا. (ولكن للأسف مضى على تشردهم أكثر من خمسين سنة) ومع ذلك كنا نشعر بألمهم، وحزنهم، ورنة الحزن في أصواتهم. أنا شخصياً كنت كثير التردد على العائلات الفلسطينية التي سكنت المخيم، فصار لي أصدقاء من أبناء جيلي، وحين انتهت أحداث فلسطين بنكبتها، وقيام الكيان الصهيوني، وهزيمة جيش الإنقاذ، والجيش العربية النظامية، ازداد حزننا مع حزن الفلسطينيين بعدما كثرت غصاتهم، وياتوا يشعرون بأن عودتهم إلى فلسطين ستطول كثيراً.

في تلك الفترة ترأس أكرم الحوراني فصيل من المجاهدين من مدينة حماة أذكر منهم: خليل كلاس، أدهم عكاش، صلاح الشيشكلي، الدكتور فيصل الركبي، ومحبي الدين البرازي، وعبد الكريم الفرا، وكمال حبال، ونعمت الشيخ، وأستاذي علي عدي. تحت اسم فرقة بدر للإنقاذ واتجهوا إلى فلسطين وقد شاع الخبر حينئذ بأنه كان لهم دور مشرف. ومع افتتاح المدارس دخل عدد من الطلاب الفلسطينيين إلى المدرسة، وقد كان معظمهم متميزين بمادة

اللغة الإنكليزية، كما تعين في المدرسة أساتذة فلسطينيون أكثرهم كان يدرس اللغة الإنكليزية أيضاً.

أذكر في تلك السنة أن والدي ذهب إلى غرب حماة، وعمل في حراسة حقول القطن (كناطور) ومع بداية القطاف، كانوا يعبئون القطن في (الشلل) أي الأكياس الكبيرة ويتركونها في الحقل، ثم وبعد فترة يأتي الفلاحون بالدواب (الماشية من حمير وبغال وكدش) ويحملون عليها (الشلل) ويضعونها في المكان المتفق عليه من قبل التجار والفلاحين من أجل تحميلها في سيارات الشحن التي ستأخذها إلى مدينة حماة أي إلى المحالج التي أنشئت في المدينة. في هذا الموسم بدأت مشكلتي، إذ كان عليّ أن أوفي بائع القماش التاجر العقاد الدين الذي كان مسجلاً باسمي، والبالغ 80 ليرة سورية، لأنني وعدته بأن أعطيه (200) كيلو غرام من القطن مقابلها.

وهذا الرجل كان يُدعى جميع أبناء القرية. كما قلت سابقاً. ويستوفي ديونه في وقت الموسم، فيأخذ أكياساً عديدة من القطن مقابل ما أعطاهم إياه من نقود أو ملابس وحاجيات. أرقنتي قضية الدين، لذلك ذهبت إلى البيت في القرية، وكنا عادة لا نذهب إلى القرية إلا في نهاية الأسبوع. وبغفوية مع ثقة بالنفس، ركبت (الكديشة) ومضيت إلى حقول القطن، وعند أقرب حقل للقطن حيث يوجد أكياس كبيرة من القطن معبأة وجاهزة، أوقفت (الكديشة) وطلبت من رجل قوي البنية، صادف وجوده هناك، أن يساعدني على تحميل (شلولين) من القطن على ظهر (الكديشة) وأن نربطهما بالحبل بقوة، فوافق دون أن يسألني أي سؤال.

لم يكن الرجل فضولياً. ربما ظن أن القطن لنا، ونحن المزارعون، لذلك ساعدني، فأخذت (شلولين) من القطن وذهبت بهما إلى التاجر العقاد، وأعطيتهما له، وبذلك وفيت ديني. طبعاً اتبعت أسلوباً مراوفاً من أجل توصيل (الشلولين) إلى التاجر.

أُمِّي نبيع الفدر.. لأدرسر!!

لقد تركت (الكديشة) تسير أمامي وحدها، أي دون أن أقودها، وإنما رحت أسوقها وأوجهها الوجهة التي أريدها من بعيد إلى أن وصلت. كنت أخاف أن يضبطني أحد ما، ويقول لي من أين جئت بهذين (الشلولين)؟ وإلى أين تأخذهما؟ ولكن ولله الحمد لم يسألني أحد، ونجحت في توصيل (الشلولين) إلى التاجر العقاد ووفيت ديني.

لكن المشكلة حدثت عندما فاتح التاجر العقاد والدي بالموضوع. قال له وكأنه يود أن يسأله عن الموسم، لقد جاء إليَّ محمد ب (شلولين) قطن، من النوعية الجيدة، إن شاء الله كان الموسم موفقاً لهذا العام. فقال له والدي مستغرياً: يا رجل لم نزرع قطناً هذه السنة!! ولم يكمل الحديث له لأنه أراد أن يفهم قصة (الشلولين) مني لا من العقاد. لذلك سألني، قال لي:

احك القصة بالتفصيل. قلت له: أية قصة؟! قال: قصة بيعك (شلولين) من القطن للتاجر العقاد. فأسقط في يدي. ومع ذلك بادرت به بالقول إن الإقطاعيين حرامية. ولصوص، يأكلون تعبنا وحقوقنا، ويظلموننا طوال أيام السنة. وما قمت به ليس إلا استرداداً لحقوق والدي وتعبه في حراسة حقول القطن ليل نهار. قلت باختصار شديد:

لقد أخذت (شلولين) من القطن وبعتهما للعقاد. وقد لامني والدي كثيراً. قال لي:

الإقطاعيون لصوص أمر لا خلاف عليه، أما أن نكون نحن كذلك!! فهذا ما لا أقبله إطلاقاً. لقد عنفني كثيراً، وكنت أظن أن المشكلة انتهت، لكن للأسف لم تنته. فقد عرفت أُمِّي بما حدث فانزعجت جداً ولامتني كثيراً وضربتني، وقالت لي:

. يا ولدي مت، ولا تمد يدك للحرام.

فقلت لها:

- الإقطاعيون يمصون دمناء، هم يرتفعون نحو السماء، ونحن نتحدر نحو القبر.

قالت:

- ومع ذلك إياك والحرام.

كانت الوالدة شديدة وقاسية في موضوع القيم لا تتهاون أو تتساهل أبداً فيها. وأذكر أنها حين أرادت إرسالني إلى المدرسة باعت قدراً نحاسياً من أجل أن تشتري لي بنطالاً وقميصاً، وقد حدثت مشكلة في البيت بسبب هذا القدر لأنه غال وعزيز عند أبي.

قال لها:

- نبيع أي شيء أما القدر فلا. نؤجل تدريس محمد سنة، ولا نبيع القدر الآن.

قالت بحزم:

- أبداً. بلا قدر، بلا غيره. الدراسة أهم. الدراسة لا تعوض، والقدر يعوض. وهكذا حدث فعلاً، فقد باعت القدر، وأرسلتني إلى المدرسة.

تلك كانت تجارب في حياتي وأنا ما أزال في بداية المرحلة الإعدادية. عرفت معنى الفقر وطعمه ومرارته. وعرفت ما الذي يفعله الإقطاعي لكي يظل هو يصعد فوق أجسادنا، ونظل نحن الفقراء على ما نحن عليه. (فكّبت عن الإقطاع عدداً من الروايات والقصص القصيرة).



الفصل
الثالث

الانقلابات ودوامة الفوضى!..

انقلاب حسني الزعيم!!

حين كنا في الصف السابع، أي في عام 1949، حدثت مظاهرات عديدة خرجنا فيها نحن الطلاب، ولم تهدأ المظاهرات إلا مع قيام انقلاب حسني الزعيم الذي جاء رداً على الاضطرابات والمظاهرات التي شملت سورية كلها، ورداً على اتفاقية الهدنة مع الكيان الصهيوني وتبثت الهدنة.

في البداية هللنا لانقلاب حسني الزعيم لأن حزب الشباب شجعنا على ذلك، فخرجنا في المظاهرات، وهتفنا تأييداً لحسني الزعيم قائد الانقلاب، وقد كانت المظاهرات حماسية جداً، وقد عبّرنا عنها كطلاب بقذف أكياس الكتب المصنوعة من القماش أو الكتان نحو الأعلى ونمسك بها، ثم نكرر هذه الحركة مرات ومرات معبرين بذلك عن فرحنا وابتهاجنا ونهتف بحياة حسني الزعيم وأيضاً بحياة الأستاذ أكرم الحوراني، وانتشرت صور الزعيم في كل الأماكن وفي الصحف، وقد كانت الشرطة العسكرية هي التي وزعت الصور.

نحن في المدرسة الداخلية ليس لنا عمل إلا الجلوس قرب الراديو والاستماع للأخبار. فسمعنا نشرة الأخبار الصباحية في ذلك اليوم، ثم تعالى صوت مرش عسكري، فالنشيد العربي السوري، ثم سمعنا بيان حسني الزعيم الذي قال فيه ما يلي:

«اليوم فتحت صفحة جديدة في حياة الشعب العربي، وطويت صفحات، فتحت صفحة مجيدة لتسجيل البطولات والأمجاد، وطويت صفحات ملأى بالذل والعار.

لقد رأى الجيش السوري الباسل ما آلت إليه حالة البلاد من فوضى واستثمار وخذلان ووجد العهد الحاضر مليئاً بالمساوئ والمخازي، من خيانات وسرقات، ومن قضاء على الحريات الديمقراطية إلى مخالفة للدستور والقوانين.

لقد رأى الجيش كل ذلك وأيقن أن الأمة تسير بخطى متسارعة نحو الموت والفناء، فأبت عليه وطنيته وكرامته أن يقف مكتوف الأيدي، وأبت على أبنائه نفوسهم النبيلة أن يرضوا بالذل والعبودية والفناء مصيراً لأمة عظيمة كتب لها المجد والخلود. فصمم على أن يقف هذا الموقف الشريف، ويتدخل ليعيد الأمور إلى نصابها وليعيد إلى هذه الأمة شرفها وكرامتها وحريتها، أقدم الجيش الباسل على هذه الحركة بنفوس ملؤها الإيمان والتضحية فسجل نصراً للحرية على العبودية، وللشرف على الذل، أقدم الجيش فهز للمعالي همماً توشك أن تهمل، وذكر بالمجد نفوساً تكاد أن تنسى، وأضاف اسم سورية إلى أسماء الأمم التي روت من دمائها أصول الحرية والديمقراطية.

إن الشعب العربي في سورية عبر أصدق تعبير عن إخلاصه لجيشه الباسل الذي أنقذه من الهاوية وأعاد إليه حقه السليب. والشعب السوري الذي أدرك بسائر وطنيته ووعيه فظاعة الكارثة التي جرته إليها الفئة الحاكمة. والتي أنقذه منها جيشه الباسل، يقف اليوم من هذا الجيش موقف الإعجاب بالبطولة الحقّة والإخلاص البري.

اليوم شقت الطريق أمام الشعب العربي في سورية للسير قدماً إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالته المجيدة.

وقد وزع هذا البيان أيضاً بشكل منشور سياسي من خلال الطائرات في كافة المدن السورية.

لقد كافأنا قادة الحزب بأن أخذوا بعضاً من المعلمين والطلاب إلى الغداء، أخذونا إلى إحدى الثكنات العسكرية من أجل تناول طعام الغداء. وقد كان الأهم في الشعارات والتهافتات التي أطلقت في المظاهرات يتمثل في أن حسني الزعيم سيحرر فلسطين، وقد كان آنذاك قائداً للجيش. طبعاً طارت عقولنا لأن ضابطاً كبيراً مثل حسني الزعيم قام بانقلاب ضد الفوضى والاضطراب التي عمت سورية، ضد الإقطاع، ضد وقف الحرب مع اليهود.

ومن المفاجآت التي حمستنا أكثر، هو أننا ونحن نتناول طعام الغداء، قام قائد التكنة وأعلن بشكل حماسي جداً بأن من يود التطوع في الجيش من أجل تحرير فلسطين، فليسجل اسمه ويأخذ الملابس العسكرية والبوط، وأن يأتي من أجل التدريب على الأسلحة، وقمت أنا من بين العديد من رفاقي، بتسجيل اسمي من أجل التطوع والتدريب واستلام الملابس العسكرية لكي نحرر فلسطين. طبعاً نحن سجلنا أسماءنا، ونحن لا نزال في الصف السابع، وأخبرونا بأنهم لا يستطيعون قبول تطويعنا إلا عندما نتخرج من المرحلة الإعدادية.

وأذكر أننا قمنا بعد يومين أو ثلاثة أيام بتوزيع صور حسني الزعيم وهو يضع على عينه (المونكل) تقليداً للزعامات الألمانية^(*) وقد وزعنا هذه الصور على القرى، ووضعها الفلاحون إلى جانب صورة فاطمة المغربية^(*)، بالإضافة إلى توزيعها على أهالي أحياء مدينة حماة. وقد قام ابن عمي موسى العلي، وكان يقرض الشعر، بكتابة قصيدة شعرية تمتدح العروبة، وقيل وقتها صعد المنبر أبو تمام الصغير. وقد أرسلت القصيدة لنشرها في الجريدة ولكنها لم تنشر لعدم صلاحيتها أو لم يوافق عليها لسبب آخر، المهم قال فيها:

تحيا العروبة تحيا أمة العرب

تحيا الرسالة ذات الخلد والأدب

رسالة أشرقت بالخير قد نهضت تروم

مجداً يضاهي رفعة الشهب

رسالة العرب الأحرار صادقة

رسالة الله أوحاها لكل نبي

(*) ويعمل العصا الماريشالية، فقد كان يجب أن يتشبه بأتاتورك ويعتز بثقافته التركية أيضاً.

(*) ولابد من أن أشير إلى أن فاطمة المغربية هي من أصل يهودي، من يهود المغرب، وقد بُدِّل اسمها الحقيقي بعد أن تزوجت من السلطان عبد الحميد.

فما عرفت رسولاً نص دعوته
جاءت لصالح رأس المال والذهب
فالكـانزون قنـاطير مقنطرة
للنار يوماً وكيد المال بالذهب
يا حضرة البيك من للبيك مخترع
أما نسيتم صنيع الله باللقب
دنست أرضاً فما باللقب من شرف
أهلكت خلقاً فعين البعث لم تغب
يا حضرة البيك إن البيك منبته
من طينة الترك لا من طينة العرب
يا بيك أغضض فإن الشعب يعرفكم
جرثومة السل أو جرثومة الكلب
يا يوممة تتعب الأيام غاضبة
من معشر بعثروا الأوقات باللعب
أعطوا وعوداً حسبنا أنهم صدقوا
لكن أقوالهم صيغت من الكذب

بعد الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم بتاريخ 1949/3/29 نشرت
الصحف بموافقته المعلومات التالية:

«ولد حسني الزعيم في مدينة حلب سنة 1889 وتلقى علومه الابتدائية
فيها. التحق بالجيش التركي ورقي إلى رتبة ملازم أول في سنة 1917 وبعدها
نقل إلى المدينة المنورة. اشترك في الحرب العالمية الأولى، ووقع أسيراً في
مصر. وبعد إطلاق سراحه تطوع في الجيش العربي تحت قيادة الملك فيصل بن
الحسين. وبعد الاحتلال الفرنسي التحق الزعيم بالكلية العسكرية. وبعد
تخرجه منها خدم في مختلف قطعات الجيش الفرنسي في سورية.

(ويظهر من ذلك أنه اشترك في قمع الثورة السورية عام 1925) ورفقي إلى رتبة رئيس (كابتن) عام 1928 وعلى رتبة مقدم عام 1934. وإلى رتبة عقيد عام 1941. حارب حسني الزعيم مع قوات حكومة فيشي عندما هاجم الديغوليون سورية بمساعدة الجيش البريطاني، فاعتقله الحلفاء وحكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات. وبعد أن أمضى في السجن سنتين وثلاثة أشهر أطلق سراحه، وقد تقدم مرتين، عام 1945 و1946، للالتحاق بالجيش السوري فلم يجب إلى طلبه.

وفي عام 1948 تقلد منصب المدير العام للشرطة والأمن. وفي أثناء الحرب الفلسطينية عهد إليه بالقيادة العامة للجيش السوري بعد تنحية وزير الدفاع أحمد الشرباتي ورئيس الأركان عبد الله عطفه إثر معركة دكانيا».

بعد فترة قصيرة جداً، بدأ حزب الشباب يعيد تقييمه لحسني الزعيم، فقال عنه إنه بدأ ينحرف. وقد أحدثت تلك التقييمات نقاشات طويلة فيما بيننا.

قلنا لهم: أمس قلتم لنا إنه بطل، ومناضل، وسوف يحرر فلسطين، واليوم تقولون لنا: إنه انحرف. من يصدق الآن؟!

لقد حاولوا طوال أيام عديدة أن يلقوننا معلومات وأخباراً حول أفعال حسني الزعيم السيئة، ويدللون على انحرافاته الخطيرة، وبعده عن الثوابت الوطنية والقومية خصوصاً تحرير فلسطين. وقالوا لنا:

إنه يهادن الغرب والأميركان، وإنه تخلى عن أهداف الشعب ومطالبه. وقد كنا في حالة حيرة حقيقية فعلاً. ولم نشكل قناعة كافية حول حسني الزعيم إلا أنه طار بانقلاب جديد لسامي الحناوي الذي أصبح في حكومته الأستاذ أكرم الحوراني وزيراً للزراعة، والأستاذ ميشيل عفلق وزيراً للمعارف. والذي استقر في نفوسنا أن الحزب، أي حزب الشباب هو الذي عمل انقلاب حسني الزعيم ضد شكري القوتلي، وخالد العظم، وبذلك فهم طيروا

الإقطاعيين وحدّوا من نفوذهم في سورية، وجاؤوا بحسني الزعيم لكن حسني الزعيم انحرف، فطيره الحزب. وجاؤوا بسامي الحناوي ورأى الحزب أن وجود الأستاذ أكرم الحوراني كوزير للزراعة، وإصداره لقرار جمهوري يمنع تهجير الفلاحين من أرضهم وقراهم انتصاراً كبيراً للفلاحين، وفعلاً كان الأستاذ أكرم الحوراني وراء هذا القرار، وهو بحق من المناضلين الحقيقيين ضد الإقطاع في حماة بوجه خاص وغير حماة بشكل عام.

وأنا غير مقتنع بما كان يشاع عن الأستاذ أكرم الحوراني من أنه يعمل في الوزارة من أجل مصالحه الشخصية، لا، أكرم الحوراني كان ضد الإقطاع والإقطاعيين بشكل حاسم ولا يقبل النقاش أو المساومة في هذا المجال، ولذلك كان الفلاحون في ريف حماة يمشون وراءه حتى لو كان سيقودهم إلى الموت لإيمانهم بأنه رجل صادق يناضل من أجل رفع الظلم والحيث عن كواهلهم، وقد عاشوا سنوات طويلة في عبودية مرعبة، عبودية يورثها الإقطاعي لابنه، كما يرثها ابن الفلاح من أبيه. أكرم الحوراني ناضل وبقوة من أجل تحرير الفلاحين من سيطرة الإقطاع وعبوديته، وهذا أمر معروف في ريف حماة. وقد كان وجود الأستاذ ميشيل عفلق كوزير للمعارف سنداً حقيقياً للأستاذ أكرم الحوراني، فقد شدّ ميشيل عفلق من أزر المعلمين وقوّى شوكتهم، وغالبيتهم كانوا متعاطفين أو منتسبين لحزب البعث العربي. بمعنى آخر، لقد سيطر العربي الاشتراكي الذي يتزعمه الأستاذ أكرم الحوراني على وزارة الزراعة، كما سيطر البعث العربي على التعليم^(*). في تلك الفترة قامت مظاهرات

(*) وقد نُمي إلي مؤخراً، وأنا أكتب هذه المذكرات، بأنني كلفت من قبل القيادة في النصف الأول من الستينيات، بتصفية أكرم الحوراني في بيته، وقيل إنني أخذت مجموعة من المظليين معي لتنفيذ هذه المهمة، وهنا أريد أن أؤكد، للحقيقة، أنني لم أكلف في يوم من الأيام، ولا في وقت من الأوقات، بمهمة كهذه، وأنا شخصياً لا أقبل أن يكلفني أحد بأن ألحق الأذى بأي إنسان مهما كانت مكانته أو درجة مسؤوليته، فكيف إذا كان هذا الإنسان هو الأستاذ أكرم الحوراني الذي كان له أكبر الفضل على الفلاحين في حماة، وأنا منهم.

عديدة أسبابها مختلفة، وغاياتها أن لا ترتبط الدول العربية وسياساتها بالأحلاف الغربية، ورفض المشاريع الاستعمارية التي كان هدفها ربط الاقتصاد والمصالح العربية بالاقتصاد والمصالح الغربية.

الحوار والنقاش داخل صفوف الحزب...!!

الآن، وحين أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام أشعر بأهمية الروح القومية والوطنية، والتوجهات التي كان نحملها أو نتطلع إليها ونحن مازلنا في المدرسة الإعدادية، أي في الصف السابع، كنا مانزال في بداية الدراسة والتعليم، ولكن كنا نتفهم خريطة الأحزاب في سورية، وعلاقات سورية مع غيرها من البلاد العربية، والتوجهات الغربية وسياساتها تجاه بلادنا. كنا نقيم الدول الأجنبية دولة دولة، كما نقيم الدول العربية دولة دولة، والأحزاب، نبين توجهاتها وأفكارها وأهدافها، كنا نلتقي كطلاب في أحد البيوت، أو في الحديقة ونتناقش، قسم منا كانوا في حزب الاشتراكي العربي، وآخرون كانوا في حزب البعث العربي، وآخرون كانوا في حزب الإخوان المسلمين، كان لهم مكتب في مدينة حماة، وآخرون كانوا في الحزب القومي السوري.. فتدور نقاشات طويلة قد لا تنتهي باتفاق حول أي أمر، لكنها كانت مهمة جداً، كانت أشبه بالتمارين اليومية على العمل السياسي والقومي. كنا نتحدث عن أكرم الحوراني، وميشيل عفلق. وكأننا نتحدث عن أصدقاء لنا في الصف أو المدرسة، طبعاً كان الاحترام لهما كبيراً جداً. لكن ما قصدت قوله أننا كنا نتحدث عنهما دون تهيب أو خوف أو وجل. نقول إن التصرف الفلاني الذي تم خطأ أو صح، ونتناقش لماذا هو صح أو خطأ. لقد تعلمت من تلك التجربة في النقاش والحوار الكثير، فقد تعودت على الحوار والجدل، والتمتع بالانفاس الطويل، واستيعاب آراء الآخرين حتى ولو كانت استفزازية، تعلمت الصمود في النقاش واستخدام الحجة والذريعة من أجل إقناع الآخر بالمنطق لا بأي شيء آخر.

وقد كنت في تلك الفترة قادراً على الذهاب إلى أية قرية أو بلدة لإدارة الحوار مع الناس. كنت على ثقة من نجاحي في أية مهمة ثقافية أو فكرية أو سياسية تتعلق بالحديث عن الوطن، والأحزاب، والأحلاف الاستعمارية وأهدافها، وذلك بسبب النقاش، وحضور الاجتماعات، ومحاورة الأساتذة، وقراءة الكتب، والأدبيات الحزبية.

في الأسبوع الثالث من تشرين الثاني من عام 1949 جرت انتخابات المجلس التشريعي، وحدث كهذا تضج له مدينة حماة، وتنشط الأحزاب، ويقوم الطلاب والأساتذة بدور كبير في الإعلان، وتوزيع المنشورات والترويج لمرشح أو مرشحين ضد مرشحين آخرين. والحق أن الانحياز الكامل كان يتم للمرشح الذي له موقف واضح ضد الإقطاع من جهة، ومناصرة الفلاحين والدفاع عن حقوقهم من جهة ثانية.

أذكر أنه نجح في تلك الانتخابات الأستاذ أكرم الحوراني، كما نجح رثيف الملقى، وفريد المرهج الذي كان يعمل مع قائمة فريد العظم، ونجح أيضاً عبد الرحمن العظم، وحسني البرازي.

انقلاب سامي الخناوي..!!

أعلنت وزارة المعارف في صيف 1949 عن مسابقة لقبول الطلاب الناجحين من الصف السابع إلى الصف الثامن في دار المعلمين، بمنطقة القلمون تحت اسم «دار المعلمين الريفية في يبرود». وما أن سمعت بهذا الإعلان حتى سارعت إلى تقديم أوراقى الثبوتية المطلوبة: بطاقة صحية، 4 صور شخصية، طلب خطي، وأرسلت هذه الأوراق بالبريد إلى العنوان المشار إليه، كنت أبحث عن أي عمل لتأمين مصروفي اليومي، أو كي أخفف الضغط المادي عن أهلي، وكم كانت فرصتي كبيرة لأنني أصبحت أرسل الدوائر الرسمية ومعني شهادة، وأصبح لدي أوراق ووثائق، وشعرت بأنني دخلت الحياة

العملية ومن بابها الواسع، وأتقصى الأخبار عن أي إعلان يصدر، وخاصة ونحن في ثانوية ابن رشد، وهي مركز الأخبار والمعلومات، وقد تكررت زياراتي لها والسبب الرئيسي كونها مقراً للتجمع السياسي الذي يشكله الطلاب والحقيقة أن المركز السياسي الأكثر أهمية هو (مركز حزب الشباب). ومقره مقابل جامع السلطان القريب من ثانوية ابن رشد، وقد كنا نتنقل ما بين المركز والمدينة. وكنت أستأنس برأي أستاذي درويش العلواني وهو مدير الثانوية في معظم القضايا التي أواجهها فنصحني بتقديم الأوراق المطلوبة أولاً ومن ثم أتريث في الالتحاق إن قبُلت.

في خريف 1949 حصل انقلاب سامي الحناوي على الزعيم حسني الزعيم في 14/8/1949 وقد أطيح به وبمحسن البرازي وبتقديري الشخصي أن محسن البرازي رجل طيب ذهب (فرق عملة) أما حسني الزعيم فركب رأسه بعدما رأى الالتفاف الشعبي حوله، فلم يصدق ما يرى، ولم يعد يصغي لأية نصيحة، لا من الشرق، ولا من الغرب، فانتهر الفرصة المناسبة سامي الحناوي، وانقض عليه، وأود أن أذكر، أن الشعب تلقى مصرع حسني الزعيم بارتياح شديد، وأرى من المفيد أن يطلع القارئ الكريم على بيان انقلاب سامي الحناوي (*).

«إن القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة قد استبدعت على جناح السرعة طائفة من أحرار البلاد وأولي الرأي فيها، وقد حضر من أمكن الاتصال بهم منذ الصباح الباكر متوافدين من مختلف المدن السورية، وما يزال بعضهم الآخر منتظراً حتى الآن، وقد عقد اجتماع تمهيدي في الساعة العاشرة في الأركان، ثم رفع الاجتماع على أن يستأنف في الساعة السابعة مساءً بصورة أوسع وأشمل، وفي هذا الاجتماع بسطت القيادة للحاضرين الأسباب التي أدت إلى الحركة الانقلابية الأخيرة.

(*) ورد البيان في مذكرات أكرم الخوراني.

وأكدت لهم ثانية أن مهمة الجيش سوف تكون مقصورة على حفظ الأمن، وأن الهدف العاجل الذي ترمي إليه هو تسليم الأمور بأسرع ما يمكن إلى حكومة مدنية، تمثل الشعب وتطمئنه وتكفل رغائبه وتعيد له عزته وكرامته وتمضي قدماً في سبيل إقرار الأمور في نطاقها الدستوري المشروع».

لم تدع بلاغات الانقلاب في الصباح وإنما تأخرت إذاعتها إلى ما قبل ظهر يوم 14/8/1949 ولم يكن معروفاً من أنشأها.

وكان البلاغ الأول مخصصاً لتبرير الحركة!

أما البلاغ الثاني فقد جاء فيه:

«لقد قام جيشكم الباسل بانقلاب يوم 30 آذار الماضي لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها من قبل. ولقد استقبلتم ذلك العمل بالفرح والتقدير لما وعد به زعيم ذلك الانقلاب من إنقاذ البلاد من فوضاها وإعادتها إلى عزتها وكرامتها في بياناته الأولى، ولكنه ما لبث حين استتبت له الأمور حتى أخذ يتناول هو وحاشيته إلى أموال الأمة فيبيذرونها بالإثم والباطل، وإلى كرامة البلاد ومقدساتها فيدوسونها ويلوثونها ويعبثون بقوانين الأمة وحریات الأفراد.. وإذا أضفنا إلى هذه الفوضى الداخلية تلك الفوضى التي صارت إليها سياستنا الخارجية رأينا أي مصير سيء قد بلغته البلاد..

لهذا وبعد الاعتماد على الله القوي العزيز عزم جيشكم الذي لا يريد إلا الخير للبلاد أن يخلصها من الطاغية الذي استبد وعتا هو ورجال حكومته المسخرة..

وإن الجيش وقواده ليعاهدونكم أمام الله أنهم سيعودون إلى ثكناتهم لتنظيم الجيش وترك أمور السياسة لزعماء البلاد».

بعد البلاغ الثاني: عين أعضاء المجلس الحربي الأعلى على النحو التالي:

- الزعيم سامي الحناوي رئيساً

- . العقيد بهيج كلاس عضواً
- . العقيد علم الدين قواص عضواً
- . المقدم أمين أبو عساف عضواً
- . الرئيس محمد معروف عضواً
- . الرئيس عصام مريود عضواً
- . الرئيس خالد جادا عضواً
- . الرئيس محمود الرفاعي عضواً
- . الرئيس محمد دياب عضواً
- . الرئيس حسن الحكيم عضواً

ثم صدر بلاغ ثالث يقول فيه:

«أن المجلس الحربي الأعلى، المكون من الضباط الواردة أسماؤهم في البلاغ الثاني، قد اجتمع لمحاكمة الطاغية حسني الزعيم رئيس الجمهورية المزيف، والخائن محسن البرازي رئيس وزرائه، وبعد إجراء المحاكمة القانونية حكم عليهما بالإعدام رمياً بالرصاص»

ونفذ الحكم صباح هذا اليوم فوراً في قلعة المزة.

ثم صدر عدد كبير من المراسيم التشريعية.

في هذه الفترة صدرت نتائج المسابقة التي قدمت أوراقها إليها وجاء ترتيبها الأول من الطلاب المقبولين في حماة. عندها امتلكتني الحيرة!! هل أذهب إلى بيروت والتحق في دار المعلمين هناك؟! وعندئذٍ سأحتاج إلى عامين كي أتخرج وأصبح معلماً أو أبقى في ثانوية ابن رشد، وبعد عام فقط أحصل على شهادة الكفاءة.

لقد أنهى هذه الإشكالية أستاذي درويش العلواني بعدما استدعاني إلى

غرفته، وراح يناقشني بشكل دقيق - وهو العارف الناصح - يسألني عن أوضاعي العامة والخاصة، وعن ظروف أهلي. وأخيراً قال بالحرف الواحد وبلسان الواعظ:

- يا محمد أريد أن أنصحك من أجل مستقبلك. إنك هنا تدرس بشكل مجاني، تأكل، وتشرب، وتلبس، ووضعت جيد، ولا يوجد أفضل من هذه المدرسة. انتظر!! وهنا حزب الشباب سوف يرعاكم. إن شاء الله في العام القادم تحصل على شهادة الكفاءة في هذه المدرسة وتصير معلماً. خير لك من أن تذهب إلى دار المعلمين في بيروت التي تحتاج إلى سنتين كي تصبح معلماً. وفعلاً احترمت رأيه وقلت له:

- كما تريد يا أستاذ، وشكراً لك.

وفاته الشيخ المجاهد صالح العلي...!!

في عام 1950 توفي الشيخ صالح العلي، وقد جاءت لنا بطاقة دعوة من أجل حضور حفل تأبينه بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته. طبعاً أحدثت وفاته ضجة كبيرة بين الناس، فقد شارك في جنازته خلق كبير، توافدوا من جميع المدن السورية، قسم منهم جاء من لبنان والأردن وفلسطين، وقد دفن الشيخ صالح العلي في قرية اسمها «كوكب الهواء» في منطقة الشيخ بدر، وقد أقيمت حفلة التأبين في قرية اسمها «بيت النبع» تقع شرقي القدموس على رأس قمة جبلية، حيث كانت معروفة هذه المنطقة بأنها مقره الأهم في قيادة الثورة السورية. وقد ذهبت لحضور حفلة التأبين، وفي طريقنا مررنا ببيت عيد لأزور هؤلاء الناس الذين عشت عندهم شهوراً عدة حين درست في الصف الرابع. وقد كانت الحفلة عظيمة حضرها شيوخ وزعماء العشائر، ونفر كبير من الثوار الذين عملوا مع الشيخ صالح العلي في النضال ضد الفرنسيين. كانوا قد حضروا منذ الصباح الباكر، وكثير منهم جاؤوا قبل يوم، وقد استمرت

الحفلة من الصباح إلى ما بعد الظهر. كانت خطابات كثيرة، وقراءة سور من القرآن، وأدعية، وأحاديث حول مزايا الشيخ صالح العلي ودوره القيادي في الثورة السورية ومقاومة الفرنسيين. وقد قُدم في هذه الحفلة طعام كثير للموجودين. وانفضت الحفلة بعد الظهر، ولم تكن هناك مواصلات، أعني لا توجد سيارات أو باصات تنقل الناس، لذلك كان لابد من السير على الأقدام لكي يصلوا إلى القدموس، ومنها يأخذون وسائل المواصلات، ومنهم من كان يركب على الأحصنة التي قدمت لها الأعلاف أيضاً.

لقد رأيت الكثيرين منهم وهم يحملون الأسلحة، بنادق، (جفوتة). والمؤلم الذي أحسست به في تلك الحفلة وأنا شاب صغير أن عدداً كبيراً من الثوار الذين عملوا مع الشيخ صالح العلي لا يعرفهم الجيل الجديد الذي هم في مثل سني. كنت أحس بأن ثمة غربة بينهم وبين أبناء جيلنا.

طالب شهادة الكفاءة..!!

مع أوائل الخمسينات أصبحت طالباً في الصف التاسع، أي أنني بدأت أحضر نفسي لنيل شهادة الإعدادية، شهادة (الكفاءة) وكان أن حدث انقلاب الشيشكلي الأول في عام 1949 وتشكلت حكومة أصبح فيها الأستاذ أكرم الحوراني وزيراً للدفاع، وقد كان الحوراني في تلك الفترة سبباً مباشراً في قبول العديد من أبناء مدينة حماة وريفها في الكلية الحربية.

أي أن كل من أخذ الشهادة الثانوية وقدم أوراق انتسابه إلى الكلية الحربية من أبناء مدينة حماة قبل في تلك السنة باعتبار أن الأستاذ أكرم الحوراني هو وزير دفاع.

في سنة 1950، بدأت بدايات الصراع الخفي والمعلن بين أديب الشيشكلي والأستاذ أكرم الحوراني، وقد قامت مظاهرات عديدة في مدينة حماة بتوجيه من أديب الشيشكلي لكي يثبت للأستاذ أكرم الحوراني أنه قوي في قلب مدينة

حماة نفسها. وقد أقيم عرض عسكري كبير جداً في حماة بمناسبة عيد الجلاء شارك فيه طلاب الكلية الحربية، وكل ذلك من أجل تثبيت أديب الشيشكلي بأن زعامة حماة له وليست لأكرم الحوراني. لكن أكرم الحوراني الذكي، واليقظ، وقف ضد الشيشكلي من اللحظات الأولى وراح يخطط لإسقاطه والإحاطة به ولاسيما أن الخلاف بات بين الشخصين على النفوذ في مدينة حماة أشد، بشكل ملحوظ، ثم صار عنيفاً، وقد كنا نلمس بشكل مباشر آثار ذلك النزاع فيما بينهما، ومن خلال المظاهرات التي ازدادت حدتها من الطرفين، ورحنا نسمع الآراء والأفكار التي كان ينشرها حزب العربي الاشتراكي.

وأيضاً الأفكار التي تسوقها كل جماعة ضد الأخرى، باختصار كانت الفترة عصيبة، نتائجها النهائية لم تكن في صالح أهالي مدينة حماة وريفها، فقد قتل في هذه المظاهرات الدامية (واصل الحوراني) شقيق أكرم الحوراني، كما قتل من الطرف الآخر غالب الشيشكلي قريب أديب الشيشكلي. وذلك على الرغم من القرابة التي تجمع الشيشكلي مع الحوراني من ناحية النساء.

نفاخ الحوراني والشيشكلي واختلفاه!!..

وأودّ أن أشير هنا، إلى أن تفاعل الخلاف بين أكرم الحوراني وأديب الشيشكلي تطوّر وتفاقم كما أسلفت للأسباب الآنفة الذكر، وأيضاً لسبب جوهرى آخر هو أن شوكت شقير رئيس الأركان، وحسني البرازي النائب في البرلمان كانا وراء تغذية تلك الخلافات، فقد حدث أن ورط شوكت شقير الشيشكلي في مشكلات عدة كان الشيشكلي بغنى عنها.

وقد خلق شوكت شقير عداوات كثيرة مع عشائر أخرى جلبت المشكلات للشيشكلي، وبذلك كثرت الجبهات المواجهة للشيشكلي خصوصاً بعد الأحداث التي تمت في جبل العرب. حدث ذلك في عام 1954. وأعتقد بأن شوكت شقير

بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المستشارين الذين كانوا حول الشيشكلي هم الذين ورطوه في أكثر من مشكلة مع أبناء المجتمع السوري. لقد ضلّله هؤلاء، وبكروا هم لا غيرهم في خلعه وتركه للزعامة، ذلك لأن الخلافات والعداوات أخذت طابعاً عشائرياً، ودينياً، وطبقياً، بالإضافة إلى الطابع السياسي. كل تلك الأمور وصلت إلى حد أن النقيب مصطفى حمدون، والملازم أول محمد عمران أعلنوا الانقلاب على الشيشكلي في مدينة حلب، وقد استطاعا فعلاً فصل مدينة حلب عن الشام.

معلم في مضارب البدو...!!

في عام 1951 حصلتُ على الشهادة الإعدادية (الكفاءة) وبسبب أحوالنا المادية الصعبة أردتُ أن أصبح معلماً، فقدمت أوراقِي إلى مسابقة المعلمين الذين يحملون الشهادة الإعدادية فقط، ونجحت فيها، وعيّنتُ في مدينة دير الزور كمعلم مع البدو، وقد كنت آنذاك معروفاً بأنني أنتسب إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، لذلك ذهبت إلى الأستاذ علي عدي وهو رجل معروف في مدينة حماة، له كلمته النافذة في المحافظة، كما له دور في قطاع المعلمين، ذهبت إليه، وقلت له: يا أستاذ أنا تعينت في مدينة دير الزور، وأنا واحد من الخمسة الأوائل في المحافظة الذين نجحوا في مسابقة تعيين المعلمين، كان ترتيبِي الثاني بين الناجحين. وقد قُبِل في المسابقة حوالي (59) معلماً، الخمسة الأوائل عيّنوا في مدينة دير الزور لأنها الأقرب، تكريماً لهم، والباقيون عيّنوا في مدينة الحسكة، وقد عيّن ابن عمي صالح العلي الذي قُبِل في المسابقة نفسها في قرية اسمها (تل علو) قريبة من (تل كوشك) في منطقة المالكية. قال لي الأستاذ علي عدي: ما المطلوب؟!

قلت أريد ورقة نأخذها لرفاقتنا في حزب البعث العربي الاشتراكي

الموجودين في مدينة دير الزور من أجل مساعدتنا إن تعرضنا لبعض المشكلات أو المصاعب.

[وأود أن أذكر أنه في هذه الفترة 1952 تم دمج الحزبين في حزب واحد، العربي الاشتراكي مع حزب البعث العربي، وعرفنا أن الذين يفاوضون في عملية الدمج من جانب العربي الاشتراكي الأستاذ أنطون المقدسي والمحامي عبد الفتاح الزلط ومن جانب البعث الدكتور وهيب الغانم والأستاذ عبد البر عيون السود والدكتور فيصل الركبي، وقد بقي خارج المفاوضات جلال السيد بسبب المعارضة لهذه المفاوضات، واتفق مبدئياً على ما يلي:

أولاً: أن يسمى الحزب الموحد: حزب البعث العربي الاشتراكي.

ثانياً: يعتبر دستور حزب البعث العربي الاشتراكي دستوراً للحزب الموحد.

ثالثاً: أن تكون قيادة الحزب ثلاثية، ميشيل عفلق للشؤون الفكرية، والأستاذ صلاح البيطار، والأستاذ أكرم الحوراني للمهام السياسية والتنظيمية].

أعود للحديث عن الأستاذ علي عدي. بعدما طلبت منه المساعدة، قال لي: تكرم. وفعلاً كتب لي ورقة توصية أخذتها إلى أمين فرع حزب البعث العربي الاشتراكي في دير الزور واسمه (طه حداد) (*) طبعاً أنا استغريت هذه التوصية فيما بعد، لأنني عرفت بعد وصولي إلى دير الزور بأن طه حداد صار مع حركة التحرير العربي التي شكلها أديب الشيشكلي والتي صارت هي الحزب الوحيد الحاكم للشيشكلي، أو يبدو أن الأستاذ علي عدي لم يخبر بأن طه حداد غير موقفه أو ظن بأن رفيقنا لا يتغير مع المتبدلات الطارئة؟! رغم كل هذه التساؤلات أخذت ورقة الأستاذ علي عدي إلى الرفيق طه حداد.

(*) طه حداد كان مديراً للمعارف في دير الزور.

وصلنا إلى دير الزور كمجموعة من المعلمين، تقدمنا إلى مديرية المعارف فأخذونا إلى إعدادية إبراهيم هنانو لكي نبني فيها، حيث لا يوجد في دير الزور فندق، بانتظار التعليمات في صباح اليوم التالي. فعلاً ذهبنا في الصباح إلى مديرية المعارف من أجل أن نأخذ كتاب التعيين، وكان أن عيّنت في قرية اسمها «الحريجية» على نهر الخابور، سكانها بدو من عشائر (الهفل). بعد أن تم التعيين للجميع، ذهبنا واجتمعنا في إحدى المقاهي شربنا الشاي، ثم تناولنا طعام الإفطار. طبعاً ذهبنا إلى الأستاذ «طه حداد» قلت له أنا محمد إبراهيم العلي من مدينة حماة، جئت إليك بتوصية من الأستاذ علي عدي، وأعطيتك الرسالة. فقرأها، ثم هزّ برأسه وقال لي: أنت من حزب البعث العربي الاشتراكي؟ قلت له مفتخراً: نعم. ثم أردف قائلاً: اذهب لقد عيّناك في قرية جيدة. وخرجت من عنده وهو يتمنى لي التوفيق. والمؤسف أنه تبين لي بأن القرية ليست جيدة أبداً. فهي بعيدة جداً، واتضح أنه عيّني في مكان سيء مع تغير موقفه من الحزب. وأهل هذه القرية بدو. في الشتاء يسكنون فيها، وفي الربيع يتركونها لكي يذهبوا طلباً للعشب والرعي مع أغنامهم وإبلهم. بيوتها من اللبن والطين مسقوفة من القصب لأن المطر كان قليلاً. والسقوف كانت على شكل موشور أي ما يسمى (جمالون)، ولم أتفاجأ لأن بيوت منطقة الغاب كلها على هذه الشاكلة. أخذت حاجياتي.. بعض ملابس، وكتبي موجودة في الحقيبة، ومعني فرشاة ولحاف ووسادة، بالإضافة إلى عباءة سمكة (فروة) وذهبت إلى بيت المختار، واسمه محمود الهندي، وهو شيخ عشيرة صغيرة يبدو أنها فخذ أو بطن من عشيرة العقيدات. رحب الرجل بي وسألني أسئلة عدة، يعني الأسئلة الاعتيادية من أجل التعارف. وسألته أنا عن الطريقة التي تمكنتني من شراء الخبز والطعام. فضحك الرجل. وقال:

- تسألني من أين تشتري؟!

قلت له:

- نعم!

فقال:

- لن تشتري شيئاً لأنك عندي في البيت. ومن الآن اعتبر نفسك واحداً من أفراد عائلتي. وسألته عن مكان النوم، فقال توجد لك غرفة في المدرسة، وهي جاهزة.

كانت المدرسة تبعد عن بيت المختار حوالي (500) متر ولم يكن من بين حاجياتي راديو أو جريدة أو مجلة. لم يكن معي سوى كتب الشهادة الثانوية لكي أقرأ فيها من أجل الاستعداد لتقديم امتحان الشهادة الثانوية فيما بعد.

ذهبت مع المختار مباشرة إلى المدرسة. وفي الطريق، سألتني عن أهلي وأحوالنا، وسألته عن عدد التلاميذ في المدرسة، فقال لي: حوالي (15) أو (20) تلميذاً، وهذا أكبر عدد ممكن أن يأتي إلى المدرسة، والمدرسة عبارة عن غرفة واحدة كبيرة مقسومة إلى قسمين، قسمها الأول مكان سكن للمعلم، والقسم الثاني للتلاميذ. كانت الغرفة التي سأسكنها كبيرة، وذلك لأن مبنية حديثاً، لها باب من حديد، ونوافذ من حديد أيضاً. أي أنه لا يستطيع إنسان أو وحش اقتحامها أو الدخول إليها إذا كان الباب والنوافذ في حالة الانغلاق. ولم تكن المقاعد موجودة في المدرسة. وإنما كان على التلاميذ أن يجلسوا على الأرض (على جلود الخراف) ويأخذوا الدروس. فقط كان يوجد كرسي للأستاذ، وسبورة من أجل الكتابة عليها.

في أول يوم من أيامي في القرية عرف الجميع بوجودي، لذلك، ومنذ صباح اليوم التالي جاء إليّ التلاميذ فشرعت أسجل أسماءهم واحداً واحداً في دفتر خاص صار هو السجل الرسمي للمدرسة. وقد أحصيت عدد الصفوف التي سُجلت فيها التلاميذ فكانت خمسة صفوف أي من الصف الأول إلى الصف الخامس، وكلهم في غرفة واحدة. وأخذت أعلم هؤلاء التلاميذ، يأتون إليّ في الساعة السابعة صباحاً، لأنني أستيظف مبكراً، وأبقى معهم إلى ما بعد الظهر، أي إلى وقت موعد الغداء.

في الأيام الأولى أحسست بالغربة، والوحدة، والوحشة، فقد كان الصمت مطبقاً على القرية تماماً، خصوصاً في الليل. بحيث لا يسمع سوى نباح الكلاب أو عواء الذئاب وهي كثيرة في الليل. وبدأت أشعر أنني في منطقة مقطوعة عن باقي خلق الله جميعاً سوى أهل القرية. فقد كانت القرية تبعد عن دير الزور حوالي (30) كم، وعن أقرب قرية منها وهي ناحية (البصيرة) حوالي (25) كم. والسيارة العامة التي يسميها الناس آنذاك (البوسطة) لا تأتي إلى القرية، ووسيلة النقل في القرية إما الحيوانات، ومنها الإبل، أو الدراجات النارية.

عرفت فيما بعد أنه يوجد مدرسة كبيرة في ناحية (البصيرة) يوجد فيها خمسة معلمين، وأن قرية أخرى اسمها (الصور) فيها مدرسة كبيرة أيضاً، ومدير المدرسة صديقي واسمه محمد كنعان، فقررت أن أزوره وأتعرّف على الدنيا من حولي.

كان عليّ لكي أصل إليه أن أقطع النهر الذي كان عرضه حوالي (30) متراً أو أقل. ولكن في تلك الفترة كانت مياه النهر غزيرة جداً بسبب عدم وجود السدود، وعدم وجود المحركات التي (تشفط) مياه النهر. المهم كانت طريقة قطع النهر فريدة وطريقة في آن واحد. فقد كان البدو يشدون حبلين من الحديد يمران فوق عرض النهر بعد أن أدخلوهما في حلقتي الحديد الموجودتين على طرفي قدر النحاس الكبير. كان الرجل الذي يريد أن يعبر من ضفة إلى أخرى يجلس في القدر فيسحب عن طريق الحبلين إلى الضفة التي يريدّها، وبذلك كان قدر النحاس عبارة عن قارب صغير يمشي أو يُسحب على حبلي الحديد المشدودين إلى ضفتي النهر بقوة. لقد قطعتُ من ضفة إلى أخرى بوساطة قدر النحاس.

وقد أحبني البدو كثيراً، خصوصاً عندما عرفوا بأنني لست من الدير. فالأساتذة الذين يأتون من الدير إلى قراهم من أجل تعليم أولادهم كانوا يصفونهم بأنهم لا يحبون البدو أو (الشوايا) وهؤلاء الشوايا لا يحبون أهل المدن وخاصة سكان مدينة الدير، ولذلك كان الأستاذ الذي يأتي من خارج

مدينة الدير محبوباً جداً. وقد كان الصراع بين الشوايا وأهل الدير على أشده خصوصاً في المدينة نفسها حين يقصد الشوايا المدينة لشراء الحاجيات فيتعرضون للشتيمة، والسخرية، والأذى من الأولاد الصغار.

بعد أن قطعت إلى الضفة الثانية من النهر، مررت بقرية اسمها (طيبة الفال) فيها رجال دين يسمونهم (السادات) ومشايخ يدقون على المزهري، ويقومون بضرب أنفسهم بالخناجر، كما يضربون أنفسهم (بالشيش) المحمّي على النار، ويخرجون الجان الذي تأخى مع بعض الناس، وقد كان في هذه القرية مركز لقوات الهجانة (العشائر). ويوجد في هذا المركز جهاز لاسلكي يتم بوساطة الاتصال بحرس العشائر على الحدود لمعرفة ماذا يجري، وغالباً ما كانت تتم الاتصالات من أجل الإخبار عن عمليات التهريب ما بين سورية والعراق والأردن. ومصادفة عرفت بأن أحد أقاربي يعمل في قوات الهجانة فقمّت بزيارته وكان برتبة عريف، وهو الوحيد الذي يقرأ ويكتب بين عناصر كثيرين من الهجانة، كما يقود السيارة التابعة لمخفر الهجانة، ويقوم بالاتصالات والرد بوساطة جهاز اللاسلكي.

كان هو الوحيد الذي يقرأ بين وسط من الأميين. هذا العريف كان مجتهداً، وفهيماً في عمله، فقد كان يتقن العمل على جهاز المورس، سألتني هذا العريف عن سبب مجيئي إلى الدير فأخبرته بأنني معلم في إحدى القرى، ففرح كثيراً بقدومي. ثم سألتني عن علاقتي بالمختار وكيف يعاملني فمدحته كثيراً.

حقيقة كان مختار القرية جيداً، كريماً وشهماً. كان يصرّ على أن أتناول طعام الغداء عنده في البيت، ويرسل إليّ طعام الإفطار يومياً.

كان التلاميذ يأتون بالخبز إلى المدرسة في الأيام الأولى فممنعتهم منعاً مطلقاً. بعض التلاميذ كانوا يساعدونني في ملء جرة الماء، وكنت أشتري ما أحتاج إليه باستثناء الخبز من الدكان. وقد قلت للعريف الذي جلست عنده

بعض الوقت: لقد حاول نفر من البدو أن يمتحنوا أستاذهم الجديد، أقصد بذلك شخصي، ما إذا كنت أخاف. كانوا يجتمعون حول المدرسة في الليل ويبدوون بالعواء على طريقة الذئب لكي يروا ردة فعلي. فما كان مني إلا أن أخبرت المختار بما يحدث، وأن العريف (قريب) زدني بقطعة سلاح، وذلك بقرار شخصي منه، وأنني سأقوم بإطلاق النار على الذئب التي تقترب من المدرسة ليلاً. وأنا بالطبع كنت أعرف ما يفعله البدو. فقال لي: لا إياك، أنا كفيل بأن أطرد الذئب. ومن يومها لم أسمع صوت عواء الذئب البدوية لأن المختار قام بإخافتهم. قال لهم: الأستاذ معه بارودة، وسيقوم بإطلاق النار عليكم، وربما أصاب أحداً منكم، إياكم والمزاح معه. قد يقتل أحداً منكم فتصير مشكلة كبيرة. نبدأ بمزحة فتصير في مشكلة لا أول لها ولا آخر.

كما أرادوا امتحاني في ركوب الخيل، فكان أن شاركت في مسابقة للمطاردة والسباق. وقد فزت بها، وذلك لأنني كنت أركب الخيل في حماة، وأعرف طباعها جيداً. وبعد أن أمضيت وقتاً عند قريب العريف، استأذنت بالانصراف، وتوجهت إلى قرية (الصّور) لكي أزور صديقي محمد كنعان مدير المدرسة (التي تحدثتُ عنه)، وقد وصلت إليه في وقت مبكر، وقد فرح بي كثيراً. أطلعني على أمور المدرسة. واطمأن على أحوالي. أحسست أنه كان مرتاحاً. وبعد أن قضيت وقتاً عنده عدت أدراجي إلى القرية التي أعلم فيها. عدت بالطريقة نفسها، قطعت النهر بوساطة القدر.

طبعاً كان التعليم شاقاً في المدرسة لأنني كنت مطالباً بأن أعلم الجميع في وقت واحد. وبرنامج عفوي وضعته بنفسه. لم يكن مبرمجاً من قبل مديرية المعارف. أصررتُ على أن يحفظوا القرآن الكريم غيباً كأنها مدرسة دينية. لذلك أحضرت لهم أجزاء من القرآن الكريم خصوصاً، جزء «عم»، وطلبت منهم أن يحفظوه غيباً. طبعاً كان سكان القرية أميين لا يحفظون من القرآن سوى سورة الفاتحة. وقد تعاملوا معي معاملة جيدة. وقد اطلعت على عاداتهم وأفعالهم وقضايا العرف العشائري. كانت أصعب الأمور عندهم قضية العرض

إذا انفضح الأمر، والتي قد تتطور إلى نشوب حرب حقيقية بين عشيرة وأخرى بسبب امرأة. أو حالة عشق، أو خطبة أو طلاق، أو مبادلة بين أختين وأخين.. الخ باختصار الشرف مرتبط بالمرأة. وحضرت حفلات المزاھر التي كانت تقام بمناسبات مختلفة مثل العودة من الحج، وقد عاد المختار من الحج في تلك السنة، ولعله كان أول حاج من القرية أو المنطقة، أو العشيرة.

كان يأتي إلى القرية مشايخ يدقون المزاھر، ويقرؤون الأدعية والأوراد والمدائح النبوية. وحضرت بعض مجالس الشيخ (العارفة) الذي يعمل قاضياً بين العشائر، ووقفت على بعض تفاصيل فراسته، وقدرته على المحاكمة وربط الأمور والإجابة عنها بمنطق، وإدارته للأسئلة الدقيقة التي تكشف بواطن النفس الإنسانية، وما تم إخفاءه عن الآخرين من أجل التمويه عليهم.

المهم أنني أمضيت حوالي أربعة أشهر في تلك القرية، وعندما جاء موعد الربيع، رحل أهل القرية طلباً إلى المراعي، كانوا يقيمون في مناطق الكلاً أيام عدة مع ماشيتهم وحين ينتهي العشب يرحلون إلى منطقة أخرى. رافقتهم في أول رحيلهم مدة ثلاثة أيام أو أكثر. حيث أقمنا خيمة كبيرة للمدرسة كنت أدرس التلاميذ فيها (مدرسة متنقلة). ولكن وجدت في الأمر صعوبة بالغة، فالحياة على هذه الشاكلة غير ممكنة لذلك عدت إلى القرية، وصادف أن جاءت إلى القرية هيئة تفتيش فيها الأستاذ طه حداد مدير المعارف، الذي تحدثت عنه والذي صار من حركة التحرير العربي للشيشكلي.

وسألوني:

. أين المدرسة؟

فأجبت:

. هذه هي المدرسة، أما التلاميذ فقد رحلوا مع أهلهم طلباً لأماكن العشب، وقد رافقتهم أياماً عدة لكنني ما استطعت ضبط التلاميذ لأن أهلهم بحاجة إليهم في تلك الظروف الصعبة.

سألوني عن جداول النجاح والرسوب بالنسبة للصفوف فقدمت إليهم النتائج لأنني انتهيت منها خلال فترة قصيرة لأن عدد التلاميذ لم يكن كبيراً. (والحقيقة ما هي إلا عبارة عن دفتر قد هيأته، فيه ما هبّ ودبّ من الأسماء البدوية، ووضعت فيه أسماء جميع الطلاب، ناجحين.. هكذا).

وهنا اقترح عليّ الأستاذ طه حداد أن ألتحق بمدرسة (الصور) الواقعة على نهر الخابور شرق دير الزور بـ 50 كم وبالقرب من الحدود العراقية. أي أن أعين في مدرسة صديقي محمد كنعان. فقلت له: بكل سرور. أي أن أمضي فترة الشهر المتبقية من وقت المدرسة. وقال لي: سأرسل لك كتاب التعيين غداً إلى مدرسة (الصور). فوافقت على ذلك.

كانوا قد جاؤوا إلى المدرسة بسيارة كبيرة لها صندوق خشبي واسع. قلت لهم: إن كنتم ذاهبين إلى (الصور) خذوني معكم، أغراضي وحاجياتي محزومة وجاهزة. لكنهم قالوا لي:

.. لا، نحن سنذهب إلى عكس ناحية (الصور) أنت دبر نفسك. وفعلاً هذا ما حدث.

فقد ذهبت مع رجل يركب على جمل. حزمت الأغراض والحاجيات فوق ظهر الجمل، وقلت لصاحبه أنا سأمشي مسافة الـ 25 كم، وليس عندي أية مشكلة فأنا معتاد على المشي من أيام دراستي في حماة. وهذا ما حصل فعلاً.

وصلت إلى (الصور) وذهبت إلى المدرسة مباشرة، فقابلني الأستاذ محمد كنعان بفرح قال:

.. ها.. أراك هنا!

فقلت:

.. لقد جئت إليك كي أعلم بقية هذا الشهر في مدرستك، وكتاب النقل والتعيين يصلك غداً. قال: يا أهلاً وسهلاً.

فكان أن استأجرت غرفة إلى جواره عند رجل كنيته أبو دعاس بمبلغ مقداره ليرتان سوريتان. طبعاً القرية هنا كانت أكبر من كل القرى المجاورة، وبالقرب من الحدود العراقية، لذلك فيها مركز لقوات الهجانة يشبه إلى حد كبير مخافر الشرطة اليوم، يوجد فيه حوالي (15) فرداً، فيهم مساعد أو أكثر، ورقيب أو أكثر، مع سيارتين من نوع دوج كندي كما يوجد جهاز لاسلكي يعمل بطريقة المورس، كما يوجد مخفر للجمارك فيه حوالي (12) شخصاً، وآخر للشرطة فيه ما يقارب هذا العدد من سلك قوى الأمن الداخلي، أي مجموع هذه القوى الأمنية كان حوالي (60) شخصاً، أما المعلمون فكانوا خمسة، وفي القرية حوالي (100) عائلة حلبية، و(50) عائلة من دير الزور، كما يوجد مقهى يرتاده الناس وهو قريب من الجسر، وجزء من الجسر مدمر في الحرب العالمية الثانية، وقد أقاموا فوق الجزء المدمر وصلة خشبية على شكل عبارة توصل طريق الجسر عند الضرورة. فمثلاً عندما تريد قوات الهجانة العبور من ضفة إلى ضفة أخرى يضعون هذه العبارة، والعبارة كانت على شكل عدة قطع خشبية متصلة مع بعضها البعض وممددة فوق براميل فارغة تعوم فوق الماء، يشكل مجموعها قارب. ينقل فيه الآليات والحيوانات والأفراد، وبواسطة الشد بالحبال تتحرك هذه العبارة حسب الجهة المطلوبة.

وأشير هنا إلى أن العائلات الحلبية التي كانت تسكن القرية، غالبية الرجال فيها يعملون تجاراً وقصابين (لحامين)، كما كانت توجد عائلات أرمنية. أما المقهى فكان يديره رجل أرمني اسمه أبو جورج. وقد كانت القرية تعرف الكهرياء بحيث وزعت لمبة واحدة لكل بيت، وتوليد الكهرياء يتم عن طريق المولد الكهربائي الموجود في القرية. وقد كان هذا الرجل أبو جورج يعمل وفق مزاجه، كونه المسؤول عن توزيع وتنظيم الكهرياء في القرية فإن شاء جعل أهل القرية ينامون في الساعة الثامنة، أو في الساعة التاسعة.. أي أقل، أو أكثر حسب ما يشاء لأن موعد قطع الكهرياء يعني الأذن بالنوم. أما المقهى فتظل لمباته مضيئة. وفي الصباح نرى تجار الغنم الذين يحولون المكان الذي تجمعوا

فيه إلى سوق للغنم.

وعلى الرغم من وجود ديارنتين إسلامية ومسيحية في القرية إلا أنه لا يوجد مسجد أو كنيسة في القرية. ولم أرَ أحداً يصلي في القرية سوى مدير المدرسة الأستاذ محمد كنعان الذي كان يصلي الأوقات الخمسة، ومعه مدير الكمرك ومدير الشرطة، ومدير الكمرك كان من الأخوان المسلمين.

وفي السنة الثانية من إقامته في القرية أسّس ما يشبه المسجد، بيت من اللبن والطين، صنع له قبة صغيرة. وطلب من آذن المدرسة أن يقيم الآذان خمس مرات في اليوم مقابل خمس ليرات في الشهر، وقد كان المدير محمد كنعان يصلي بالناس إماماً.

حين جئت إلى المدرسة من أجل تدريس بقية أيام السنة، سألتني المدير محمد كنعان: أي صف تريد أن تعلم فقلت له: الصف الذي تريده، وقد تركت له الأمر حسب ظروفه، ولأن الوقت المتبقي غير جدير بأي نقاش مع المدير، ولأنني شخصياً أحترمه وأقدره فقد كان خريجاً من دور المعلمين.

لقد بدأت تدريس الصف الرابع، وأخذت دروس الحساب فقط في الصف الخامس، ثم أخذت في تعليم دروس العلوم. وأذكر أن الصفوف كانت مختلطة (ذكور وإناث)، وأن الإناث كن ناضجات بالغات في سن الزواج تقريباً، إلى حد أن أحد الأساتذة، وهو من دير الزور، كان جميلاً وصغيراً في السن على خلاف دائم مع هؤلاء الفتيات، وأعتقد أن سبب ذلك الخلاف أن جميع بنات الصف الخامس كن يتنافسن في عشقه، ولهذا اقترحتُ على المدير محمد كنعان أن ينقل البنات إلى مدرسة خاصة للبنات، لكي نرتاح من المشكلات التي تخلقها البنات يومياً في المدرسة. بصراحة خفت أن نعلق بمشكلات العرض، والعشق، والحب.. الخ. ولقد تصرفت من طوع نفسي بصرف بعض البنات بعد أن أقتعت المدير وأهلهم.. ومن ذكريات العمل في المدرسة أن أستاذاً معاقباً من حزب الأخوان المسلمين، جاء إلينا منقولاً من مدينة حمص، لا أذكر اسمه الآن،

نصحته بأن يهدي زميلنا الأستاذ جورج غزة إلى الإسلام، وقد اقتنع مني لأتني قلت له إن من يهدي امرئ إلى الإسلام يدخل الجنة. واجتمعنا فعلاً بالأستاذ جورج غزة ففاتحه الأستاذ الجديد المغضوب عليه بأن يدخل الإسلام بعد مقدمة طويلة تبين فضائل الإسلام والهداية. وقد مثل جورج غزة الدور كاملاً، فقام بالامتثال لكل كلمات وأفكار الأستاذ المدرب. وفجأة سأل الأستاذ جورج: ما هي شروط الدخول إلى الإسلام. فقال الأستاذ الناصح: أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقال جورج:

. هذه سهلة. فقال معيداً الشهادتين على مسمعنا جميعاً.

وسأل جورج:

. هل أصبحت الآن مسلماً؟!

فقال الأستاذ:

. طبعاً لكن لصحة هذا الإسلام شروطاً منها إقامة الصلاة خمس مرات، والامتناع عن شرب الخمر. هنا رفع الأستاذ جورج غزة يده، وقال: عفواً يا أستاذ، أنا من دون (عرق) لا أستطيع أن أعيش.

فقال الأستاذ:

. إسلام وعرق هذا أمر غير وارد أبداً. قال جورج: والله هنا نختلف يا أستاذ لذلك فأنا أعود عن الإسلام.

فهبّ الأستاذ المعاقب وصرخ:

. ترتد عن الإسلام؟! وحق رب العزة سوف أقتلك. عقوبة من يرتد عن الإسلام القتل شرعاً. عليك أن تصوم، وأن تصلي، وأن تحجّ أيضاً، كنا أيامئذٍ في رمضان، ثم أردف قائلاً وبلسان الواعظ المهذب: عليك أن تبدأ الصيام من الغد، وفي الصوم شفاء وبركة وأن تعمل على شرائع الإسلام كاملة كما وردت

في فقه العبادات. ولكن انتهت عقوبة الأستاذ بعد شهر وعاد إلى حمص دون أن ينفذ الأستاذ جورج غزة عقوبة المرتد عن الإسلام. تلك القصة كانت طريفة جداً فظللنا، نتندر بها طوال أيام السنة الدراسية.

الجراد مؤونة الشناء..!!

أذكر في تلك الفترة أن الجراد غزا منطقة دير الزور كلها، فتك بالمحاصيل فتكاً ذريعاً، وقد عانى الفلاحون منه كثيراً، وعملوا بكل الوسائل من أجل التخلص منه. كانوا يحفرون الخنادق، ويطمرون الجراد فيها، ثم يستخرجون الجراد، يقطعون رأس كل جرادة، ويبقون على جسدها، ثم يوقدون النار، ويضعونها في صاجات الخبز. يدهنون الصاجات بالسمن والملح ثم يضعون الجراد وبداخلها، ويبدؤون بقلي الجراد، ثم يضعون كل ما تم قليه في أكياس، ويحفظونها في البيوت كمؤونة. ويقومون بأكلها كما تؤكل القضامة تماماً. وقد أكلت من هذا الجراد المقلي، وقد وجدته لذيذاً وطيباً. كأنه لحم العصافير على سبيل المثال. وأظن أن الفلاحين كانوا يأكلون الجراد بعد قليه ليس من قبيل مغالبة الجوع وحالات القحط، وإنما من قبيل الانتقام من عدو أزلي التهم زرعهم، فسبقهم هم ودوابهم ومواشيهم على الاستفادة من المزروعات قبل أوان الاستفادة منها.

طبعاً لم يكن آنذاك وسائل حديثة مثل المبيدات لكي تتم إبادة الجراد، وإنما كانت وسائل قديمة وبسيطة وبدائية تنجح أحياناً وتخفق أكثر الأحيان. وقد أصبح الأهالي يعرفون أوقات مهاجمة الجراد لمواسمهم ومزروعاتهم، كما يعرفون أوقات هجرته إلى البلاد العربية المجاورة مثل العراق والأردن.

وللأسف كانت حشرات كثيرة تشارك الجراد في الفتك بالمواسم مثل الحشرات التي تهاجم حقول القمح حين تكون الحبوب طرية مع سنابلها. تأتي حشرة صغيرة تأكل حبات القمح من السنبل، ثم وحين تكبر خلال أيام تصبح

حشرة ذات أجنحة تسمى (السونة)، وأعدادها كبيرة جداً شبيهة بأعداد الجراد الهائلة. فعندما تطير تشكل ما يشبه الغيوم السود الكبيرة المساحة، إلى درجة يظنها بعض الناس أنها غيوم حقيقية، وقد رأيت رأي العين، وفي مواسم الصيف هجوم الجراد على الخضار المزروعة إلى جانب نهر الخابور والتي تم التهامها خلال وقت قصير جداً، ولم يجد الفلاحون من وسيلة لمكافحة هذا الجراد أو التخلص منه.

أول مرة أدخل السجر...!!

في بداية عام 1954 (في 1954/2/23) في الساعة الواحدة ظهراً، جاءت سيارة شرطة عسكرية إلى المدرسة، وسأل المساعد الذي فيها عني وعن زميلي الأستاذ صالح محمد أمين، من دير الزور، وحين جئنا إليه قال: تعالا معي إلى دير الزور. قلنا له: ولماذا؟! قال بغضب: عندما تصلان إلى دير الزور تعرفان. ونصحنا ألا نسأل كثيراً. وفي دير الزور، وحين دخلنا إلى مقر الشرطة العسكرية عرفنا من الموجودين أنه توجد اعتقالات. ولم يطل بنا الانتظار كثيراً، فدخلنا إلى عند قائد الشرطة العسكرية، وكان برتبة ملازم، واسمه (ليون). كنت أسبق زميلي صالح محمد أمين بخطوة أو خطوتين، ونحن نتجه نحو الملازم الذي قام من وراء مكتبه واتجه نحونا مباشرة. ظننت أنه يتقدم نحونا من أجل استقبالنا والسلام علينا، لكن للأسف وما أن وصل إليّ حتى صفعني كفاً مفاجئاً جعلني أدور دورة كاملة، فاصطدمت بزميلي صالح محمد أمين، من دون سؤال أو جواب، وعندما استدرت رفسني في ظهري بقوة شديدة جعلتني أخرج أنا وزميلي إلى خارج باب الغرفة. وصرخ بالعساكر الواقفين في الخارج: خذوهما إلى تحت. وهناك أي (تحت) عرفنا أنهم اعتقلونا لأننا بعثيان. وأنهم يعتقلون البعثيين، فلقد وجدنا حوالي (20) شخصاً، أغلبهم معلمون، ينتمون إلى البعث العربي الاشتراكي. سألناهم: ماذا يجري،

وماذا حدث؟ فقالوا: إن الشيشكلي له مشكلات مع البعثيين، وإنه في مشكلة كبيرة مع أبناء جبل العرب في السويداء. وراحوا يقصّون علينا قصصاً حول الاعتقالات، وماذا تقول الصحف. حيث نشرت الصحف نبأ اعتقال البعثيين، وكتبت الصحف الآتي: (*)

«اعتقلت السلطات المحلية بتاريخ 27/كانون الثاني/1954 بعض أعضاء الأحزاب السياسية بسبب نشاطهم الحزبي غير المشروع، وبوصفهم ينتمون إلى أحزاب منحلة غير مرخصة قانوناً، ولأنهم قاموا بإثارة الشغب وتحريض الطلاب على تعطيل الحياة الدراسية وسيحاولون إلى المحاكمة».

وفي تاريخ 29 كانون الثاني أذاع الشيشكلي بياناً مطولاً جاء في ختامه:

«استغل أولئك الهدّامون عودة الحياة الدستورية والحريات التي كفلها الدستور لمحاربة الوضع الدستوري القائم في البلاد، وتمادوا باستغلال المبادئ الديمقراطية التي اتخذها العهد الجديد شرعة له، فأخذوا يمارسون النشاط السياسي باسم أحزاب منحلة، ويعقدون اجتماعات غير مرخص بها، ويصدرون النشرات السرية وعليها تواقعهم الصريحة، داعين بها الشعب إلى الفتنة مستغلين وطنية الطلاب لتعطيل الحياة الدراسية مما اضطرنا إلى اتخاذ إجراءات سريعة لصيانة سلامة البلاد، فأعلنت الإدارة الأحكام العرفية في بعض المناطق، واستلم الجيش زمام الأمن فيها، واعتقل عدد من المسؤولين عن هذه الأعمال التخريبية، وسيحاولون إلى القضاء».

وفي تاريخ 30/2/1954 أذاعت مديرية الدعاية والأبناء البيان التالي:

«عمدت بعض وكالات الأنباء والإذاعات الأجنبية المغرضة إلى نشر أنباء، مختلفة عن حوادث دامية وقعت في محافظة السويداء بين رجال الجيش والأهل وحقيقة الأمر هو أنه بتاريخ 27/1/1954 قام بعض سكان إحدى القرى التابعة للسويداء بمظاهرة احتجاجاً على توقيف أحد أبناء القرية أطلق أثناءها

(*) من مذكرات أكرم الحوراني، ص 156.

أحد المتظاهرين طلقات نارية، مما حدا برجال مخفر الدرك في «القرية» إلى التدخل لتوقيف مطلق النار فتصدى لهم جمع من المتظاهرين وحالوا دون توقيفه وعلى أثر ذلك ذهب قوة من السويداء وساعدت الدرك على توقيف المسؤولين بعد أن فرقت المتظاهرين، وعندما تم لها هذا الأمر عادت إلى السويداء.. إن الحالة في محافظة السويداء هادئة ورجال الأمن يقومون بأعمالهم كالمعتاد وقد وضع القضاء العسكري يده على القضية وأصدر مذكرات توقيف بحق المتهمين كما أنه أخلى سبيل بعض من أوقفوا، أما ما أشيع عن قصف القرى بالقنابل فلا صحة له بتاتاً».

وفي اليوم ذاته، عُين الزعيم شوكت شقير رئيس الأركان العامة نائباً للحاكم العسكري في محافظتي دمشق وحماة، والزعيم عمر خان تمر نائباً للحاكم العسكري في محافظة حلب، والعقيد فؤاد الأسود نائباً للحاكم العسكري في محافظة جبل الدروز، وبتاريخ 8 شباط عام 1954 عقد برلمان الشيشكلي جلسة طالب فيها النواب بمحاكمة المعتقلين واتهموا حكومة العراق بأنها وراء الأحداث الأخيرة في سورية، وأعلنوا أن المشاريع الاتحادية مؤامرة إنكليزية ألبيت ثوب العروبة، وشكروا اللواء محمد نجيب على تأييد سورية في موقفها الصامد، كما أصدروا قراراً جاء فيه:

1. تأييد جميع الإجراءات الحكيمة التي اتخذتها الحكومة للقضاء على الفتنة في مهدها والقضاء على المحاولة التي قام بها المتآمرون للنيل من سلامة الدولة وأمنها..

2. تطبق العقوبات بحق كل من يثبت التحقيق إدانته في أعمال التآمر على أمن الدولة وسلامتها.. وفي نهاية القرار ورد ما يلي:

«ويأمل المجلس أن تأتي نتيجة التحقيق مطابقة لما أعربت عنه السلطة التنفيذية من تمنيات بالأيدان المعتقلون بأكثر من ممارسة نشاط حزبي غير مرخص والحض على الإضراب». وفي تاريخ 12/شباط/1954 صرح الشيشكلي

لمدير وكالة الصحافة المصرية:

«إن أوساطاً أجنبية اتصلت ببعض زعماء الدروز وبعض السياسيين المعتقلين حالياً مما سبب المعارك الأخيرة في جبل الدروز بين الأهالي والقوات السورية، هذه المعارك التي ذهب ضحيتها بضع مئات من الأهلين و30-40 جندياً سورياً». «وقد جُلبت الأسلحة التي صودرت من الجبل من الخارج لإحداث فتنة، وإن غاية الاستعماريين والصهيونيين من إحداث هذه الفتنة ليست بحاجة إلى بيان». وفي تاريخ 14/شباط/1954 أعلن هزاع المجالي وزير الداخلية الأردنية أن أربعة من السوريين قد لجؤوا إلى الأردن فاحتجزوا فيها وفُرضت عليهم الإقامة الإجبارية.. وفي تاريخ 22/2/1954 أذاعت وكالة الأنباء العربية أن السلطات الأردنية ألقت القبض على سلطان الأطرش من زعماء جبل الدروز وعلى خمسة وثلاثين من أعوانه، وذلك لدى محاولتهم دخول الأراضي الأردنية، كما أعلنت أن عبد الرحمن الهندي وزير الداخلية السوري قد زار الأردن واجتمع برئيس الوزارة وأركان الحكومة ثم عاد إلى دمشق مكذباً الأنباء التي أذيعت عن طلبه تسليم أحد من اللاجئين الذين اجتازوا الحدود الأردنية، حيث احتجزتهم السلطات المسؤولة ونقلتهم إلى مكان بعيد في الداخل حيث سيكونون غير قادرين على مزاوله أي نشاط سياسي..

في تلك الفترة، كانت مهمتي كبعثي إذا جلست مع الناس أن أحدثهم عن العروبة والقومية والوحدة العربية. وأهمية موقع الوطن العربي. وأنا كمعلم عليّ أن أزرع بذور الفكر القومي في نفوس التلاميذ، وأن أحفظهم خريطة الوطن العربي، وذلك تيمناً بأن هؤلاء جميعاً سيصبحون بعثيين في المستقبل.

نتيجة هذه المواقف، وهويتي معروفة، بأنني بعثي، لذلك دخلت السجن.

كنت بين هؤلاء المعتقلين، ولم يكن لدي فكرة كاملة عما يحصل في دمشق كالخلافات السياسية ما بين الشيشكلي والبعث العربي، أو ما يحدث في مدينة السويداء، وبقية المحافظات السورية لولا الصحف التي وصلت إلينا كمعتقلين،

ولست أعرف كيف وصلت إلينا؟

في تلك الفترة لم يكن لدينا حتى جهاز راديو، الوحيد الذي كان لديه راديو هو الأستاذ محمد كنعان، وكان يتكلم علينا ويسمعنا نشرات الأخبار. في وقتها لم نسمع الأخبار، لأن بطاريات الراديو قد نفدت، وانقطعنا عن العالم. ولا نعرف شيئاً عن الأحداث التي تدور في سورية. حقيقةً تفاجأنا عندما جاءت سيارة الشرطة العسكرية وأخذتني مع زميلي، ظننت أن الأمر يتعلق بمشكلة صغيرة حدثت مع مدير المدرسة محمد كنعان، وهي أن محمد كنعان كان لديه مسدس صغير، فحدث أن أقام أحد أبناء القرية عرساً لابنه، وحين راح المنشد على الرابطة يجود بالفناء، أخذت الحماسة محمد كنعان فقام وأطلق من مسدسه طلقات عدة، وكنت إلى جواره، وعندما أراد أن يؤمن على المسدس سدّ فوهته إلى الأرض وأطلق، فصدف أن خرجت طلقة فأصابته يديه. فقمنا ونقلناه إلى دير الزور بسبب النزيف الشديد للدم. أخذته يومها إلى المشفى الأمريكي في دير الزور كان تابعاً للنقطة الرابعة. وقد عولجت يده، وتم خياطة الجرح. من بين أفراد الحضور كان رئيس المخفر موجوداً، لذلك كتب تقريراً مفصلاً بما حدث. وحين عاتبه محمد كنعان كيف فعل ذلك وهما معاً على طعام واحد مثل الأخوة قال له:

الناس الموجودون في حفلة العرس كثرة، وخفت أن يقوم أحد منهم بكتابة تقرير بي فتصير المشكلة مضاعفة. وأفهمه أنه ما كان أمامه من بد إلا أن يكتب تقريراً بما حدث ولا سيما أن المسدس غير مرخص. قلت في نفسي: ربما أن الشرطة العسكرية استدعتنا نحن كزميلين لمحمد كنعان من أجل الشهادة حول ما حدث، أو السؤال عن وضع المسدس، من أين جاء به؟ وكيف اشتراه؟.. الخ. ولم أتوقع أبداً أنهم استدعونا من أجل موقفنا السياسي، وأننا بعثيون، ومن ثم يعتقلونا؟

المهم في اليوم التالي فتح الحراس لنا الباب، وقالوا لنا:

. اخرجوا .

قلنا :

. ماذا حدث؟!

. قالوا :

. حدث انقلاب في حلب، ومدينة دير الزور انضمت إلى مدينة حلب وتضامنت معها، وقد قام بالانقلاب مصطفى حمدون، وأذيع بيان الانقلاب من إذاعة حلب.

الخروج من السجن وانقلاب جديد...!!

في هذه الفترة انتقل الملازم قائد الشرطة العسكرية، وجاء إلى مكانه ضابط جديد، وكانت المفاجأة، أن هذا الضابط هو الملازم نزار الجندي، وهو صديق قديم لي من أيام المدرسة، وبسرعة دخلت إلى مكتبه وسلمت عليه. وحدثته عن الذي حدث لي ولزميلي الأستاذ صالح محمد أمين، فاعتذر مني لما حدث لي ولزميلي الأستاذ صالح محمد أمين. فكان أن سألته عن الضابط الذي كان هنا قائداً للشرطة العسكرية. فقال لي:

. لقد ذهب. ولكن لماذا تسأل عنه؟!

قلت:

. أريد أن أضربه كفاً رداً على الكف الذي ضربني إياه دون سؤال أو جواب.

قال مطيئاً خاطري:

. بسيطة يا أستاذ محمد، هذا الضابط شحناه مع الآخرين إلى حلب مع جماعة الشيشكلي.

بعد الانقلاب على الشيشكلي بيوم واحد خرجنا وذهبنا إلى بيت صالح محمد أمين. وعلمنا هناك أن مجموعة كبيرة من المحيطين بالشيشكلي كانوا على علم بالانقلاب ضد الشيشكلي، حتى أن رئيس أركانه شوكت شقير كان على علم بالانقلاب، وأنه كان يعدّ مع آخرين لهذا الانقلاب من أجل أن يستلم الحكم بدلاً منه، ولكن الظروف لم تواته، وهو كان على رأس الذين نصحوا الشيشكلي أن يترك الحكم كي لا ينقسم الجيش على نفسه، وكى لا تحدث فتنة في سورية فتقوم حرب أهلية.

وقد امتثل الشيشكلي فعلاً لهذه النصائح التي وجهت إليه. وعلمنا فيما بعد، ثم أدركنا أنه كان قوياً، وعلى استعداد للمقاومة ومواجهة خصومه، إلا أنه فضل أن يترك الحكم ويسلم الرئاسة ويمضي. وقد جهز رئيس أركانه شوكت شقير نفسه كبديل له. وقد كان لديه خطة للانقلاب على الشيشكلي إذا ما رفض الانصياع ومغادرة البلاد. وكان الموقف الرسمي على الشكل التالي:

أعلنت حلب انفصالها عن دمشق، وأيدتها دير الزور وحماة وحمص واللاذقية، والسويداء، وقد أرسلت برقيات تأييد من القطاعات العسكرية، والكلية الحربية في حمص، كما أن القطاعات العسكرية في دمشق أيدت حلب في انقلابها، وبذلك شعر الشيشكلي بأنه وحيد ومنعزل، ولذلك ما كان أمامه سوى أن يخرج من البلاد، وقد أثر هذا الخيار على كل الخيارات التي كانت معروضة عليه.

ولكن شوكت شقير لم يستطع استلام السلطة ويحل في مكان الشيشكلي لأنه لم يكن أهلاً لهذا المنصب لأسباب عديدة، منها أن له ولاءات فرنسية وهو من أصل لبناني، وأنه لم يسجل في حياته العسكرية كلها موقفاً وطنياً بارزاً مثل المواقف التي سجلها الشيشكلي الذي حارب في فلسطين، كما حارب في الجيش العراقي ضد الإنكليز مع ثورة رشيد عالي الكيلاني، وقد هرب من قبضة الإنكليز، والتحق بجيش الإنقاذ في فلسطين، وحقيقة أن للشيشكلي مواقف نضالية ووطنية وقومية كثيرة، وهو الذي لم يكن بعثياً أو سورياً قومياً. أي أن

له مواقف وطنية قبل أن يستلم السلطة. شوكت شقير لم تكن له مثل هذه المواقف، ولذلك لم يقوَ على استلام السلطة بعد رحيل الشيشكلي. «أحداث الانقلاب على أديب الشيشكلي 1954/2/24 كما وردت من تقرير عن الانقلاب الذي أعدته قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في حلب». التحق مصطفى حمدون بمقره في حلب في الثاني من شهر كانون الثاني 1954، وكان شبه غريب عن القطاع العسكري فيها، ما خلا وجود أخيه عبد الغني في الشرطة العسكرية. كان آمر منطقة حلب الزعيم خان تمر، وكان معاونه وأمر الموقع هو العقيد فيصل الأتاسي.

تعرف مصطفى حمدون خلال الشهر الأول، إلى بعض ضباط الموقع، وكان منهم النقيب مصطفى كمال المالكي (آمر سرية في الفوج الرابع) والنقيب أحمد زاهدة (آمر سرية الإسناد في الفوج ذاته) والملازم الثاني محمد عمران (آمر فصيل) والملازم الثاني عبد الغفار الطيز (آمر فصيل) والملازم الثاني خالد عيد (آمر فصيل). كان مصطفى حمدون منذ وصوله إلى حلب، موضع رقابة شديدة، وكان يشعر بذلك، ويتخذ كل مظاهر الانضباط لإبعاد كل شك حول سلوكه.

وعلى أثر الاعتقالات عمّت سورية موجة المتفجرات، أُلقيت على أخطر الأماكن في حلب وأهمها: حركة التحرير: بيت المحافظ، مقر الشرطة العسكرية، قيادة الموقع.. بشكل نجم عنه زعر في صفوف السلطة ليس له حدّ.

كانت أحكام الطوارئ معلنّة.. والجيش في حالة استنفار دائم. تمكن مصطفى حمدون أن يتصل بدير الزور حيث كان فيها النقيبان مظهر البرازي والملازم نزار الجندي ومنير موسى باشا، وكان آمر المنطقة الشرقية العقيد أمين أبو عساف، ومعاونه المقدم سليمان نصر. وقد أكد مظهر ومنير أن بإمكانهما السيطرة على الموقع، ويكفي إشعارهما بساعة الصفر، كما أكدا بأن أمين أبو عساف لا حاجة لمفاتيحه، لأنه عندما تصبح الحركة حقيقة قائمة فإنه يمشي معها ولا يعارضها، وكان التخوف من سليمان نصر، رغم أنه كان

مغضوباً عليه من أديب الشيشكلي.

وبالمقابل عمل عبد الفتاح الزلط على الاتصال باللاذقية (أي بالدكتور وهيب الغانم)، وكان أمر المنطقة الغربية فيها العقيد عبد الجواد رسلان، كما كان في الموقع العقيد جمال الصوفي وحنا حداد، وكانوا مع الحركة منذ مفاتحتهم لأول مرة. وكان رأيهم أنه في حالة اعتقال عبد الجواد رسلان ينتهي كل شيء في اللاذقية. لكنهم بينوا للدكتور وهيب أن سلاح البحرية الذي يقع تحت أمرتهم ليس لديه جنود، وقد يتمرد رجال الشرطة، لذلك فهم يحتاجون إلى مجموعة من الشباب مسلحونها ليلة الحادث ويطلقونها في ساعة الصفر لاحتلال مقر قيادة الشرطة والأمن.. كان عبد البر عيون السود ناشطاً في مدينة حمص فكان رأيهم أن القوى السياسية، وعلى رأسها هاشم الأتاسي، يعمل دون ريب لإحداث انقلاب على أديب الشيشكلي، وأن لهذه القوى اتصالات مع معروف الدواليبي في لبنان ومع حكام العراق.. وأنهم يخشون التعامل معنا أو مفاتحتنا.. وكانت معلومات عبد البر تستقى في معظمها من راتب الأتاسي، الذي كان له في هذه الفترة نشاط ملحوظ. يساهم فيه كل من نادر الأتاسي وزياد الأتاسي اللذين كانت معظم إقامتهما في حلب لكن عبد البر عيون السود نُصح بأن يخبر الجانب العسكري في حمص، إذ في تقديره إن معظم الضباط، وخاصة الشباب منهم سوف يكونون مع الحركة. كما تجدر معرفة موقف أمر المنطقة الوسطى العقيد محمود شوكة.

على أثر هذه المعلومات، أبدى مصطفى استعداد، للذهاب إلى حمص خفية والاتصال بمحمود شوكة، استئناسه برأي فيصل الأتاسي، ذهب بسيارة عبد القادر علوش وبرفقة أخيه أدهم الذي استدعاه خصباً لهذا الغرض. وعند مرورهم بحماة كاد أن يفتضح أمره.. لأن حماة كان ممنوعاً فيها التجول بسبب مقتل شرطي آنذاك، وكانت المظاهرات قد اندلعت فيها استنكاراً لما يجري في جبل العرب، واعترضت الشرطة العسكرية سبيل السيارة وطلبت الهويات علماً بأن مصطفى يفترض أن يكون مستتراً في سرية، لكن صادف

أن أحد رجال الشرطة عرفهم وحياتهم وطلب السماح لهم بالمرور، بقوله هؤلاء إخواننا، ما في حدا غريب.

استطاع مصطفى حمدون أن يصل إلى بيت محمود شوكت بعد منتصف الليل ويوقظه من نومه. وقد فوجئ هذا الأخير بالزيارة، وأدرك مغزاها فوراً. لذلك لم يسمح لمصطفى بالجلوس، وطلب منه أن يدلي بما عنده واقفاً. وبالفعل قال له مصطفى إن القضية منتهية ومتوقفة على موافقتك.. فأجاب أنا لا أستطيع أن أتخذ قراراً إلا بعد التشاور مع العقيد بكري قوطرش (قائد موقع حماة) فإذا وافق فأنا معكم، وإذا لم يوافق فإن عهدي لكم أن أكتم سركم ولا علاقة لي بالمسألة.

أجاب محمود شوكت بعد يومين، بأنه غير موافق. وكتم السر فعلاً. أصبحت حلب واللاذقية ودير الزور مضمونة.. وتحدد يوم الخميس 18 كانون الثاني موعداً للحركة. وتم الاتفاق بين المحافظات الثلاثة على كلمة السر.

أرسلت كلمة السر إلى دير الزور بالهاتف.. وأرسلت إلى اللاذقية مع رسول خاص في الساعة الخامسة من مساء 17/1/1954.. ولكن فيصل الأتاسي أخبر مصطفى حمدون بأنه غير مستعد بأي شكل من الأشكال للدخول في هذه المغامرة، وطلب توقيفها فوراً تحت طائلة تنصله من أية مسؤولية.. كان موقفه مخيفاً.. وقد علله صراحة بقوله، إنه تلقى كتاباً من هاشم بك الأتاسي يوصيه أن لا يورط نفسه في هذه الحركة، حاول مصطفى تجديد الضغط على فيصل الأتاسي دون نتيجة.. وفي يوم 23/2/54 عقد اجتماع في بيت مصطفى حضره جميع الضباط السابق ذكرهم، وكانوا كلهم على أتم إقتناع بأن حالتهم أصبحت خطرة، وأنه لا شيء ينقذهم سوى الإقدام.. لكن مع ذلك ظهر تردد على البعض، إذ أصروا على وجوب إقناع فيصل واشترائه. كان من المفاجئ، أن الزعيم عمر خان تمر داهم بيت مصطفى، فوجد الجميع متحلقين حول طاولة وبأيديهم ورق اللعب.. انتهرهم كيف تركوا مواقعهم وهم في حالة استنفار.. ولكنه لم يجد ما يريب، فأنبهم وأوصاهم بالالتحاق بمواقعهم وعاد.

وفي صباح 54/2/23، وصلت معلومات موثوقة إلى حلب، تؤكد أن أديب الشيشكلي قد وضع قائمة بتسريح 40 ضابطاً على رأسهم فيصل الأتاسي ومصطفى حمدون، وفوراً حمل مصطفى هذه «البشرى» إلى فيصل، بعد أن أطلعه على مداهمة الزعيم لبيته، وقال له، إما أن تجري الحركة اليوم، أو نطرد غداً بمجموعنا من الجيش، وربما نعتقل ونحاكم. أطرق فيصل ملياً.. وكان نبأ التسريح قد بلغه أيضاً.. وقال لمصطفى افعل ما تريد إنني لم أعد قادراً على التفكير.

اتصل مصطفى فوراً بعبد الفتاح الزلط، وأطلعه بأنه تقرر أن تجري الحركة فجر اليوم القادم، أي فجر يوم 54/2/24 وإن على عبد الفتاح أن يجلب بيان الانقلاب (كان معداً قبل عشرة أيام) وأن يأتي إلى بيت مصطفى في الساعة العاشرة ليلاً، لكي يبقى حتى ساعة الصفر. في الساعة الثالثة من فجر يوم 1954/2/24 تحرك مصطفى حمدون بمساعدة الضابط الملازم خالد عيد على رأس سرية المشاة، واحتلا قيادة الموقع وذهبوا فوراً إلى بيت الزعيم عمر خان تمر لاعتقاله، وفي الوقت ذاته احتل الملازم محمد عمران بناية الهاتف الآلي وإذاعة حلب. كما احتل محمد الأطرش الشرطة المدنية، وتولى النقيب أحمد زاهدة بمساعدة عبد الغني حمدون احتلال الشرطة العسكرية. وتم بسهولة اعتقال محافظ حلب كمال نور الله، ورئيس البلدية، ورئيس حركة التحرير في حلب سعيد البصمة جي.. وعدنان شيخ فضلي آمر الشرطة العسكرية. كما وضع قيد الإقامة الإجبارية في منازلهم الضباط فرحان الجرمقاني (آمر مركز التدريب) ومعاونه هشام الميداني، وتوفيق الأسود ضابط الشعبة الثانية.

ويجدر بالذكر أن الزعيم عمر، كان قد امتنع في بداية الأمر عن فتح باب منزله.. وحاول الاتصال هاتفياً بمركز التدريب لتحريك القطعات، لكن الجرمقاني والميداني جئنا.. فاضطر الزعيم للاستسلام.. وعندما نزل الزعيم إلى الساحة المقابلة لمنزله، كان قد وصل إلى المكان العقيد فيصل الأتاسي

ومحمد عمران.. فحاول الزعيم عمر أن يثبط من عزائمهم، وهددهم بأن أديب الشيشكلي سفاح، وسوف تتحرك قواته بعد حين قريب ويسحقهم جميعاً، ونصحهم بأن يتركوه على رأس عمله ليكون وسيطاً بينهم وبين الشيشكلي ويعمل على تسوية المشكلة بطريقة ودية.. وقد استطاع عمران أن يؤثر في بعض العسكريين الصغار، ولاسيما أن العقيد الأتاسي كان يتملق، ويناديه، نحن بأمرك سيدي.. نحن طوع أمرك.. فاضطر مصطفى للتدخل بعنف، وخاطب الزعيم بلهجة حاسمة، قائلاً له.. سيدي نحن عندما أقدمنا على هذه الحركة كنا وضعنا دمناً في أكفنا، وإن جميع الشرفاء من ضباط وعساكر الجيش في جميع أنحاء سورية معنا، وإنني أدعوك للإقلاع عن هذه النصائح والانصياع للأوامر.

وتبعاً للموقف الحاسم الذي فرضه مصطفى، رضخ الزعيم عمر وتساءل: إلى أين تريدون إرسالني؟ فأجابه مصطفى إلى دير الزور.. فقال أنا لا أريد إرسالني إلى دير الزور وأرجو إرسالني إلى اللاذقية، فأجابه مصطفى بالإيجاب (مسايرة) واقتادوه إلى قيادة الموقع، حيث كان عبد الفتاح الزلط جالساً على منضدته، ينقح بيان الانقلاب. ومن قيادة الموقع استؤجرت سيارة عامة، أخذت خان تمر إلى اللاذقية، مع عناصر من الشرطة العسكرية. كان العقيد فيصل الأتاسي، قد غاب عن مسرح العمليات بعد اعتقال الزعيم عمر خان تمر، وظل مختفياً لا يعرف أحد مكانه حتى الساعة السابعة صباحاً. وفي الساعة السابعة حضر إلى قيادة الموقع وهو بحالة هلع شديد، ونزل من سيارته مشهراً مسدسه كالمجنون وهو يرتجف، ودخل وهو يقول بصوت عال، علينا قبل كل شيء أن نستدعي كبار السياسيين للاسترشاد بأرائهم.. وقال: اطلبوا ناظم القدسي، والدكتور الكيالي، وليون زمريا، وعبد الوهاب حومد.. وحاول هو أن يتصل بهؤلاء، فلم يلبه منهم غير ليون زمريا، الذي حضر فوراً.. وبعد مشاور بينهما، رفضا إذاعة البيان المعد، واقترحا أن يعد ليون زمريا بياناً مختصراً هادئاً مسالماً، يعلن فيه عن الحركة، ويتضمن عهداً برجوع الجيش إلى ثكناته

وتسليم الشعب مقدرات الأمور. وفي الوقت نفسه، وجهت الدعوة لموظفي الإذاعة، لفتح الإذاعة.

عندما وصل موظفو الإذاعة حاول بعضهم، ومنهم عادل خياطة، الإيهام بأن الإذاعة لا يمكن تسييرها إلا من دمشق.. لكن أحدهم همس في أذن عبد الفتاح بأن الإذاعة يمكن تشغيلها من حلب، إذا تمت السيطرة على محطة البث في سراقب.. لأن أقل تخريب في سراقب يعطل الإذاعة. وفوراً تم إرسال فصيل مدفعية مضادة للغارات إلى سراقب، وهدد الموظفون بأنه إذا لم تشتغل الإذاعة خلال دقائق، فإن مصيرهم سيكون خطيراً.. وبالفعل أمكن تشغيل الإذاعة فوراً.. وذهب إليها مصطفى حمدون ليذيع البيان الذي وضعه ليون زمريا فكان أول بيان إذاعة محطة حلب الإضافية صباح الخميس الباكر بتاريخ 54/2/24 وقد تلى باسم قيادة المنطقة الشمالية وهذا نصه:

ليس هذا بيان أو نداء وإنما هو عهد من ضباط وجنود الجيش السوري للشعب السوري الكريم.

لقد آلينا على أنفسنا أن نعود بالجيش إلى ثكناته بعد أن أخرجته الأغراض عن تقاليد النبيلة، ولقد آلينا أن نغسل ما لحق بالجيش من عار وأن نعيد إليه مزاياه الرفيعة ومناقبه، ويعود بعدها إلى الثكنات، ولن يكون لنا أي تدخل بالسياسة، وهذا نداء إلى رفاقنا في السلاح أن يحذو حذونا لنتمكن من أن نعيد الأمور إلى نصابها، وإلى أن يتحقق الهدف فإن قيادة المنطقة الشمالية تعلن انفصالها عن حكومة الشيشكلي وتناشده أن يغادر البلاد حقناً للدماء.

كانت الساعة قد قاربت الثامنة والنصف صباحاً، وكانت إذاعة دمشق مستمرة في إذاعة برامجها الصباحية كالمعتاد.. بينما لم يظهر بعد أثر إذاعة حلب إلا في أوساط محددة جداً. ذهب عبد الفتاح قرابة الساعة التاسعة صباحاً إلى ثانوية المأمون (التجهيز الأولى) حيث عمل على تجميع الطلاب في الساحة بقرع الطبل، وخطب في الطلاب معلناً نبأ الانقلاب على الطاغية أديب

الشيشكلي. خلال هذا الموقف، عاد عبد الفتاح إلى الإذاعة مباشرة، وأخطر مصطفى بأنه ينوي السيطرة على الإذاعة والبرامج وإذاعة البيان السياسي الذي أعده، سواء قبل ذلك فيصل الأتاسي أم لم يقبل، وقد وافق مصطفى على ذلك، وأذيع البيان، وتكررت إذاعته مع مجموعة كبيرة من التعليقات السياسية والحماسية التي شارك فيها رفاق وأصدقاء كثيرون.

كان البيان الذي أذاعه عبد الفتاح زلماً بياناً عنيفاً وقد جاء في ختامه:

«إننا نعلن باسم أبناء الشعب مدنيين وعسكريين كافة، في حمص وحماة وحلب ودير الزور واللاذقية والجزيرة، أن الشيشكلي معتد غاصب وأنه لا يتمتع بأي مشروعية، وأنه يجب أن يتخلى فوراً عن السلطة ليحول دون وقوع كارثة قومية في البلاد، وأننا ندعو رفاق السلاح كافة من ضباط وجنود أن يقفوا صفاً واحداً لإعلاء إرادة الشعب».

«إن حركتنا تستهدف تحقيق رغبة الشعب الجماعية في إنهاء عهد الشيشكلي الأسود ودعوة الشعب لممارسة سيادته ممارسة حرة مطلقة وإقامة نظام الحكم الجمهوري الشعبي وعودة الجيش إلى مهمته المقدسة في الحفاظ على الوطن والسهر على الحدود».

ولابد من الملاحظة أن بيان الانقلاب والبيان السياسي، وجميع البيانات اللاحقة، كانت تذاع باسم قادة المناطق الشمالية والغربية والشرقية. وقد تم الاتصال هاتفياً مع اللاذقية ودير الزور، حيث أكدت الجهتان، أن الأمور مستتبة، وأن التأييد شامل.

التهبت المدينة خلال ساعات، وفي الساعة الثانية عشر ظهراً، اتجهت مظاهرة ضخمة تزيد على عشرة آلاف نسمة إلى مقر حركة التحرير في حي العزيزية وأضرمت النار فيه، فشبَّ حريق هائل، التهم كل ما في المقر من وثائق ومستندات.. وكاد الموضوع يتطور في اتجاه التكتيل بعناصر الحركة لولا التحاق مصطفى حمدون وعبد الفتاح زلماً بالمظاهرة ووقوفهما دون ذلك، كما حطم

الشعب اللوحة التي كسب عليها: ساحة أديب الشيشكلي وعلق مكانها لوحة كتب عليها: ساحة الحرية.

في الساعة الواحدة ظهراً من يوم الانقلاب، وردت برقية من قيادة موقع دير الزور (سليمان نصر)، تفيد بأنه تلقى معلومات رسمية من العراق، تعلن عن استعداده لتقديم أي دعم عسكري يطلبه قادة حركة حلب. كما تشير بأنه توجد قوات سورية مسلحة في لبنان والأردن بقيادة العقيد محمد صفا ومحمد معروف، وأنها سوف تلتحق بالحركة فوراً عبر الحدود اللبنانية والأردنية. عندما وصلت البرقية آنفة الذكر، طرب لها فيصل الأتاسي، وجاء يبشر مضمونها فقبولت برفض قاطع.. ودون أي تشاور مع العقيد فيصل، وبالاتفاق بين عبد الفتاح ومصطفى وصغار الضباط، أذيع البيان التالي:

«بيان هام جداً، إلى الجماهير، وجميع قوات الجيش والأمن والشرطة: وردت إلى قيادة موقع حلب، أنباء تشير إلى استعداد نظام الحكم العراقي السعيدي العميل، لمؤازرة الثورة في سورية، كما أشارت الأنباء إلى أن قوات من المرتزقة المسلحة بقيادة العميل محمد صفا ومحمد معروف تستعد للدخول عبر الحدود اللبنانية والأردنية لمناصرة الثورة».

إن قيادة الثورة في حلب، تعلن للرأي العام العربي في سورية وفي سائر أرجاء الوطن العربي، أن حركتها حركة وطنية تقدمية خالصة، وهي ترفض وتشجب وتقمع أي تدخل خارجي، وبخاصة من النظام السعيدي العميل في العراق. وعلى النظام العميل أن يعلم بأنه في حال إقدامه على أي تحرك تحت شعار مناصرة الثورة، فإن الثورة ستحول قواتها نحوه لتسحق تدخله.

كما أن قيادة الثورة تعلن بأن جميع المواطنين والقوات المسلحة مخولة بالقضاء على أي تسلل من الحدود اللبنانية أو الأردنية، وكل من يعثر على أحد المجرمين محمد صفا أو محمد معروف مكلف بالقبض عليه حياً أو ميتاً. وقد أعيدت إذاعة هذا البيان مرات عدة.

مضى اليوم الأول من الانقلاب - إلا أقله - دون أية ردود فعل داخلية أو عربية أو دولية.. بشكل جعل الموقف مخيفاً. ولأول مرة وردت في الساعة الخامسة مساءً برقية من النقيب «أمين الحافظ» أمر سرية إزرع، يعلن فيها تأييده وانضمامه مع قطعاته لحركة حلب. وقد أحييت هذه البرقية بعض الأمل.

وفي مساء اليوم الأول، اتصل رئيس الأركان العامة «شوكت شقير» وطلب من الثوار في حلب إيقاف الإذاعة فوراً، لكي تتاح فرصة لتسوية الموقف.. وقال إن أديب الشيشكلي، مستعد للتخلي عن السلطة ومغادرة البلاد. إلا أنهم لم يثقوا بهذه الأقوال في بداية الأمر، وحسبوا أنها تتطوي على خدعة ومكيدة، لكسب الوقت.. لأنهم كانوا يجهلون الأحداث التي تمت في دمشق.

وقد عرف فيما بعد أن «أحمد عسه» المدير العام للإذاعة، حمل من الصباح الباكر إلى أديب الشيشكلي الذي كان نائماً، تسجيلات عن بيانات حلب، وأنه حين سمعها، قال كنت أعرف أن الخطر سيأتي من جماعة الحوراني. ويقول أحمد عسه أن الشيشكلي لم يصبر على سماع كامل البيان الذي أذاعه عبد الفتاح الزلط، بل ارتجف وسقط من يده فنجان القهوة الذي كان يحتسيه.

وعلى الفور اتصل أديب الشيشكلي بالعقيد فؤاد الأسود في جبل الدروز وطلب منه إعداد قواته للتوجه فوراً إلى حلب، كما أوعز إلى سلاح الطيران لقصف إذاعة سراقب، ومقر قيادة الموقع في حلب.

والذي حصل، أن المصادفة شاءت أن يسمع الملازم أول عدنان حمدون (وهو بين قطعات جبل الدروز) بيان حلب الذي أذاعه النقيب مصطفى حمدون.. فأخبر بذلك الملازم أول كنعان حديد، وراحا يتعقبان إذاعة حلب بصعوبة فائقة، لأنها لم تكن مسموعة، فأقدا بأسلحتهما الفردية على اعتقال العقيد فؤاد الأسود، والسيطرة على القطعات.. وحين إتصل أديب الشيشكلي

بالعقيد فؤاد الأسود.. أجابه هذا بأنه في وضع لا يستطيع معه الكلام.. فطلب منه أديب الشيشكلي أن يوافيه إلى دمشق حالاً.. وبالفعل رأى عدنان وكنعان أن يسمحا له بالذهاب إلى دمشق، ليفهم أديب الشيشكلي، بأن الوضع العسكري في جبل الدروز ميؤوس منه.. وهذا ما حصل، فقرر أديب الشيشكلي مغادرة البلاد.. وبالفعل جمع كل موجوداته وأرسلها إلى حماة وغادر هو إلى لبنان بموافقة القيادة العسكرية.. وقد أخبر شوكت شقير ثوار حلب بذلك فطلبوا منه أن يذيع الخبر من محطة إذاعة دمشق ففعل.

وكان الشيشكلي قد عقد مساء يوم 1954/2/25 اجتماعاً في منزله (قصر الضيافة حالياً) مع الوزراء ورئيس المجلس النيابي مأمون الكزبري وعدد من النواب بينهم هاني الرئيس ومنير غنام وحامد الخوجة وغيرهم بحضور رئيس الأركان العقيد شوكت شقير أعلن فيه للمجتمعين تصميمه على الاستقالة ومغادرة البلاد وسلم الزعيم شوكت نص الاستقالة ليزيعها على الشعب، وبعد التاسعة ليلاً غادر الشيشكلي داره متوجهاً إلى بيروت مع بعض مرافقته، وبعد منتصف الليل من اليوم ذاته أطلق الزعيم شوكت شقير سراح المعتقلين السياسيين من سجن المزة.

نصر استقالة أديب الشيشكلي..!!

«حقناً لدماء الشعب الذي أحبه، والجيش الذي أفتديه، والوطن العربي الذي أردت أن أخدمه بتجرد وإخلاص أقدم استقالتني من رئاسة الجمهورية السورية إلى الشعب السوري العزيز الذي انتخبني ومنحني ثقته الغالية، راجياً أن يكون بذلك خدمة لبلادي وأن يحقق وحدتها ومنعتها، ويأخذ بيدها إلى قمة المجد والرفعة».

عندما علم ضباط أديب الشيشكلي، بمغادرة قائدهم.. لحق عبد الحق شحادة أمر الشرطة العسكرية، إلى الحدود لإعادته جبراً، لكنه تمكن من

العبور قبل أن يلحق به النقيب عبد الحق شحادة، هنا أعلن النقيب عبد الحق شحادة والنقيب حسين حدة، وبقية الشيشكليين مثل (النقيب طعمة العودة لله، النقيب أحمد عبد الكريم، النقيب أحمد حنيدي..) تمردهم، وعملوا على احتلال دمشق، والاستيلاء على محطة الإذاعة وراحوا يشنون منها هجوماً مقدعاً على حركة حلب وأعلنوا، أن النظام باق، وأن الدكتور مأمون الكزبري (الذي كان رئيساً لمجلس النواب) قد أصبح رئيساً للجمهورية بحكم الدستور.

وفي صباح اليوم الثاني 1954/2/26 أعطى المتمردون أوامره لسلح المظلات لتدمير إذاعة سراقب في حلب. وبالفعل طار سرب من الطائرات يحمل مجموعة من المظليين على رأسهم النقيب بهاء الدين النصار وتوجهوا نحو حلب، ولكن هذه الطائرات هبطت في مطار النيرب في حلب وجاء من فيها وعلى رأسهم النقيب بهاء النصار إلى مقر موقع حلب يعلنون تأييدهم للثورة.

بعد رجيل الشيشكلي رجع البعث العربي الاشتراكي إلى مزاوله نشاطه وبقوة أكثر مما كان عليها قبل توجيهات الشيشكلي بملاحقة البعثيين. وأنا لم أقم بنشاطات هامة وكبيرة في قرية (الصور) قرية فيها بدو كثيرين، بالإضافة إلى وجود الأرمن الذين تربطهم علاقات واسعة بأرمن حلب. والمحطة القريبة من الحدود العراقية، محطة فيها أناس غير مستقرين يجتمعون فقط من أجل التجارة. كما أنني كنت أتردد على دير الزور بشكل أسبوعي تقريباً، وذلك لأنه من الممكن الذهاب عند الظهيرة، بعد انتهاء الدوام المدرسي، إلى دير الزور وذلك بسبب توفر الدرجات النارية وقرب المسافة. ولم أكن أدفع أجرة هذا التنقل ما بين القرية ومدينة دير الزور، لأن الجميع أصبح يعرفونني.

كنت في العطلة الانتصافية أذهب إلى أهلي مدة خمسة عشر يوماً، لكي أتعرف المناخات والأجواء التي خلفها الشيشكلي. وقررت في أحد أيام العطلة أن أذهب إلى قرية (الشويحة) قرية الشيشكلي لأرى ماذا بنى وعمر هذا البرجوازي (الدكتاتور) كما كنا نسميه، وحين ذهبت مع أحد الرفاق في الحزب وجدنا ما لم يكن في الحسبان، رأينا، بيت الشيشكلي مثل بيوت القرية، لا فرق

بينه وبينها سوى أنه معمر على الطريقة الحديثة ومسور حوله بسور. بيت مؤلف من ثلاث غرف وصالون. وهو مبني من الحجر مثل بيوت القرية. طبعاً كنا نظن بأنه عمّر في القرية قصراً يخصه، إلا أن هذا الظن ظلّ ظناً، فما رأيناه معاً من أذهاننا أفكاراً كثيرة قيلت بحق هذا الرجل.

وهنا أستطيع أن أؤكد بأن الشيشكلي كان رجلاً وطنياً رحمه الله. وقد أكّدت زيارتنا لقريته هذا الاعتقاد في نفوسنا. لقد كنت في كل زيارة إلى مدينة حماة أتقصد زيارة مقر الحزب في المدينة، أطلع من الرفاق هناك على آخر الأخبار، والتوجهات والآراء، والأفكار، والتطورات في السياستين العربية والدولية.

الذخائر السياسية بعد الشيشكلي..!!

بعد الشيشكلي تحالف البعث العربي الاشتراكي مع الكتلة الوطنية، وقد عاد عبد الرحمن العظم إلى الوزارة. بينما لم يشارك فيها الأستاذان أكرم الحوراني، ونجيب البرازي. في تلك الفترة كنت أشعر بعطش شديد للقراءة. أي كتاب يقع بين يدي أقوم بقراءته، وقد لاحظت اهتمامي بقراءة التاريخ، والأدب مثل القصة والرواية. وقد نما هذا الميل عندي وتطور لأنني لم أكن أشارك الأساتذة في لعب (الورق) أو طاولة الزهر، وقد حاولوا تعليمي هذه الألعاب إلا أنهم لم يفلحوا أبداً.

أذكر أنني قرأت في تلك الفترة كتباً للدكتور طه حسين، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة.. بالإضافة إلى قراءة قصائد كثيرة لشعراء عرب من مختلف الأزمنة (الجاهلية، صدر الإسلام، الأموي، العباسي، الانحطاط.. الخ). وكنت أشوق إلى أحاديث الحكايات والأساطير التي يرويها البدو وأهل المنطقة عن الليل والسهر، والحيوانات المفترسة كالضباع مثلاً، والنهر وحالات الفيضانات والغمر..

وأود أن أعود إلى أسباب الخلاف بين الشيشكلي وأبناء جبل العرب، فهي تعود إلى أن الشيشكلي عيّن محافظاً لمدينة السويداء لم يرضَ عن تعيينه سلطان باشا الأطرش، بل رفضه، وطلب استبداله بآخر، لكن الشيشكلي رفض، فقام أبناء المحافظة وناصروا سلطان باشا الأطرش وخرجوا في مظاهرات شعبية عارمة ضد تعيين المحافظ، وضد بعض قرارات أديب الشيشكلي. وحين خرج الجيش لضبط المظاهرات وتفريقها قاوم المتظاهرون أفراد الجيش وحدثت مشكلات عديدة فتفاقمَت الأحوال والاضطرابات حين غادر سلطان باشا الأطرش مدينة السويداء إلى الأردن احتجاجاً على هذا التعيين، ومع مغادرته تضاعفت الأحداث والمظاهرات وحدث إطلاق نار لتفرقة المتظاهرين وإعادتهم إلى بيوتهم بعدما انقطعوا عن الدوام الرسمي.

بعد الشيشكلي، جاء الرئيس هاشم الأتاسي، وصارت انتخابات البرلمان السوري سنة 1954 وقد حدث تقارب وطني وثوري بين ثورة جمال عبد الناصر في مصر والحكم الوطني في سورية.

في أثناء الانتخابات سنة 1954 عملنا مع أكرم الحوراني في الدعاية الانتخابية في محافظة حماة والإشراف على صناديق الانتخابات التكميلية في منطقة طرطوس. وقد كان أكرم الحوراني ذكياً جداً وصاحب فراسة، فقد وزّع العديد من المثقفين والأساتذة الذين عملوا معه في الانتخابات على المناطق التي يعرفونها جيداً. لقد درس الحوراني المناطق جغرافياً وديمغرافياً واجتماعياً وأرسل إليها الأشخاص الذين يثق بأنهم أهل لمثل هذه المهمة.

أرسل أحمد نديم خديجة إلى وادي الإسماعيلية في منطقة طرطوس، وأرسلني إلى منطقة الشيخ بدر. كان يريد عدم وصول رياض عبد الرزاق الإقطاعي في طرطوس، وبديع إسماعيل زعيم القوميين السوريين في الساحل إلى البرلمان. بينما كان يريد أن ينجح علاء اليونس، وإسماعيل الحسين. وهكذا نجح علاء اليونس، وإسماعيل الحسين، حسب ما خططه أكرم الحوراني.

الفصل
الرابع

خدمة العلم.. وجسر بنات يعقوب!

البحث عن زوجة..!!

حين ذهب أبي وأمي إلى منطقة الشيخ بدر كانت الأجواء مشحونة، والناس لا يعرفون ماذا يفعلون، كانا يريدان زيارة أقارب لنا في منطقة الشيخ بدر، وزيارة بعض أضرحة الأولياء. بل إن أمي كانت تريد أن تخطب لي إحدى بنات الشيوخ في المنطقة. وذلك بعد أن تعثرت مساعي الشخصية في خطبة بنت من بنات البدو يعيش أهلها بالقرب من قرية صوران. ذهبتُ إليهم، بعد أن أشارت أمي عليّ بذلك، قالت توجد بنت جميلة، ومن أصل طيب. كنت قد حدثتها عنك. اذهب أنت واسأل أهلها، أو اسألها هي إن كان لك نصيب فيها. وفعلاً وافقت على طلب أمي التي أحبها كثيراً، ذهبت من قريتنا إلى صوران مشياً على قدمي، وكان أن تحدثت مباشرة إلى البنت. كانت جميلة فعلاً، وصغيرة في السن. يعني في حوالي 15 أو 16 سنة. سألتها إن كانت راغبة في الزواج. وقلت لها إنني معلم في منطقة دير الزور، وقد درست أولاد البدو، ولي تجربة مع عادات وتقاليد وأعراف البدو. وأنا أعرف أهلها، ثم وصلنا إلى نتيجة بأنها لا تريد الزواج في هذه الفترة. يبدو أنها كانت على علاقة عشق مع أحد شبان القرية الموجودين في منطقتهم. قالت لي لا نصيب لك. وقلت لها: يبدو أن شمسك (غربت)، وأقصد بذلك كما قصدت هي بقولها لا نصيب لك! وعدت من صوران إلى قريتنا مشياً على قدمي أيضاً. كانت المسافة حوالي أربعين كيلومترا. وقد سألتني أمي عن (مشواري) وهل نجحت مساعي. فقلت لها: يبدو أن البنت عاشقة، وأنا لا أريد الزواج في هذه الفترة. أي قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية. فقالت لي: لا، سأزوجك في القريب واحدة أحسن منها بألف مرة. سأزوجك من ابنة شيخ، تعادل قيمته كل ما هو موجود في ريف حماة وسورية أيضاً. إذن، ذهبت الوالدة معي وبرفقة الوالد لمقاصد عديدة، من بينها أن تبحث لي عن عروس من منطقة الشيخ بدر، ولكنني

أقنعتها بأن موضوع الزواج الآن غير وارد إطلاقاً لأنني أريد أن أذهب إلى خدمة العلم في الجيش، وإذا ما أخذت الشهادة الثانوية سأقدم أوراقني إلى الكلية الحربية وأصبح ضابطاً.. لذلك صرفت والدتي النظر عن العمل الجدي في مجال خطبة عروس لي، لعلها اقتنعت بكلامي. المهم في الأمر أنني عملت بجد ونشاط من أجل الانتخابات البرلمانية في طرطوس قمت بالدعاية كما أوصاني الأستاذ أكرم الحوراني، ووزعت المناشير في القرى، وخطبت في الناس وحشتهم على انتخاب قائمة نصير الفلاحين والمدافع عنهم فهو منهم وإليهم.

وحقيقة الأمر أن الفلاحين كانوا يحبون أكرم الحوراني كثيراً بسبب مواقفه المناصرة لهم دوماً، ومواجهاته الشرسة مع الإقطاعيين والعمل على الحد من نفوذهم في المنطقة هذا من جهة، ومن جهة ثانية عمله الدؤوب على تعليم أبناء الفلاحين والأخذ بأيديهم إلى الجامعة، ودور المعلمين، والكلية الحربية، والوظائف في الوزارات. وقد حقق الأستاذ أكرم الحوراني وقائمه نجاحاً مهماً في تلك الدورة الانتخابية للبرلمان، بعدما صوّت له الفلاحون بقناعة تامة. طبعاً كانت الإغراءات كثيرة في أيام الانتخابات والوعود التي يطلقها المرشحون كثيرة أيضاً، إلا أن تجارب الفلاحين مع الانتخابات علمتهم بالخبرة أن يناصروا من يعمل من أجل مستقبلهم لا من يعمل على شراء أصواتهم بليرات قليلة، مثلاً كان أحد الإقطاعيين المرشحين يعمل على قص ورقة المائة ليرة سورية نصفين، نصفاً يعطيه للفلاح، ونصفاً يبقيه عنده، من أجل أن يضمن أصوات الفلاحين، وحين ينجح يعود الفلاحون إليه، أعني الذين ارتبطوا به، من أجل أن يأخذوا النصف الثاني من (المائة ليرة) طبعاً كان هذا المبلغ آنذاك مبلغاً كبيراً يسيل له لعاب الفلاحين. كما كان يلجأ بعض الإقطاعيين إلى وعود يقطعونها على أنفسهم للفلاحين من أجل سداد ديونهم.

في تلك السنة قررت أن أذهب إلى خدمة العلم، فذهبت أنا وابن عمي صالح العلي لأنني كنتُ وإياه نعمل في التعليم، أما ابن عمي الثاني موسى العلي فقد تم تأجيله لأنه كان يدرس بشكل نظامي في الثانوية العامة. ذهبنا

كمجندين في دورة رقباء، تجمّعنا حوالي (50) شخصاً، وذهبنا بالقطار إلى حمص، ومنها سنذهب إلى دمشق، من أجل الالتحاق بدورة الرقباء في دمشق. وقد توقف القطار في مدينة حمص من أجل أن نبيت فيها ليلة. لذلك طلبنا من المساعد الذي كان مسؤولاً عنا في المقطورة أن يسمح لنا بالنزول إلى مدينة حمص، في البداية لم يوافق، ثم وافق لأننا أقتنعناه بأننا لا نود الهروب، لأن مثل هذا الخاطر لو كان وارداً، ما كنا أتينا وسلمنا أنفسنا لشعبة التجنيد. بعد اقتناع المساعد نزلنا في حمص أنا وصالح العلي، وعلي النبهان من قرية صبورة. مشينا في حمص وتجوّلنا كثيراً، ثم ذهبنا إلى أحد الفنادق من أجل أن ننام، فأخذنا غرفة فيها سريران ووضعوا لنا فرشاة، ولكن للأسف لم ننم تلك الليلة لأن صالح العلي هبّ صائحاً في الليل لأن (البق) أو الفسفس أكله. جاء صاحب الفندق واعتذر، لكن صالح العلي وعلي النبهان احتدا ورفضوا دفع أجرة المنامة، فغادرنا الفندق في الساعة الثالثة والنصف ليلاً دون أن ندفع الأجرة. وذهبنا إلى صيدلية مناوية، وعالجنا صالح العلي الذي احمرّ وبقع بسبب قرص البق والفسفس، بعد ذلك ذهبنا إلى مطعم اشترينا بعض السندويش وأكلنا، ثم واصلنا المسير إلى محطة القطارات. ومن هناك مضينا إلى رياق ثم إلى الزيداني، فمحطة القطارات في الحجاز. وصلنا إلى منطقة الحجاز قبل غروب الشمس. كنا في الشهر العاشر من سنة 1954. (ولأول مرة أزور مدينة دمشق)، ومن محطة الحجاز ذهبنا إلى قطننا حيث توجد المعسكرات وقد وزعنا إلى سرايا. كنت أنا في السرية الثانية، وصالح العلي في السرية الثالثة، وباقي معارفنا في سرايا أخرى. وقد أمضينا الأشهر الثلاثة الأولى معاً في دورة (الأغرار) وقد كان قائد السرية فلسطيني برتبة ملازم أول اسمه أسعد دبور، وكان يوجد مدرب ملازم اسمه أشرف حمدي، كما تعرفنا إلى ملازم أول اسمه عدنان حمدون، كما كان يوجد ملازم هو فارس زرزور الكاتب الروائي المعروف. طبعاً في المعسكر لم يكن لدينا لا راديو، ولا جرائد أو مجلات. ولذلك انقطعنا عن العالم طوال ثلاثة أشهر وكأنا نعيش في أدغال

أفريقيا فلا نعرف شيئاً عن سورية وما يحدث فيها. بعد الأشهر الثلاثة توزعنا على سرايا أخرى حسب الاختصاصات. وكان نصيبنا أنا وصالح العلي أن نكون من جماعة المشاة. وقد خضعنا لتدريب صعب. فطوال اليوم من الصباح الباكر رياضة، ودروس نظرية، ونظام منظم، وتدريب على الأسلحة، واقتحام الثغرة.. الخ.

اغتيال عدنان المالكي..!!

في أثناء الدورة كنا ننزل كل يوم خميس وجمعة إلى مدينة دمشق حسب رغبة المتدربين. كنا نزور الأصدقاء، والمعارف المتواجدين في دمشق (أنا أعرف دير الزور وحماة وشاهدتُ حمص، لكن دمشق كانت تلك المدن قرى بالنسبة لها، فدمشق مدينة كبيرة وهي العاصمة)، أو منطقة قطنا، وقد تطورت علاقاتي مع الآخرين، وبدأنا نتبع أخبار الحزب. وقد حدث في تلك الفترة مقتل العقيد عدنان المالكي. كنا في إجازة يومي الخميس والجمعة. صالح العلي، ابن عمي، ذهب إلى الملعب لحضور مباراة بكرة القدم، بينما ذهبت أنا إلى سوق الحميدية للاطلاع والفرجة. وفي موعدنا المضروب من أجل أن نلتقي في منطقة البرامكة، منطقة الكراجات، التقيت بصالح العلي ومن معه من الأصدقاء، وأخبروني بأن العقيد عدنان المالكي قُتل في الملعب لأنه كان يحضر المباراة، وأن المباراة ألغيت، وهاج الناس في الملعب، وحدثت اعتقالات. كانوا يحدثونني عن ما حدث في الملعب طوال الطريق ونحن ذاهبون إلى قطنا. وقد تأسفنا لمقتله لأنه كما قيل لنا كان رجلاً وطنياً مخلصاً. وفي اليوم التالي أخذونا إلى دمشق من أجل الخروج في جنازة عدنان المالكي، كحرس مرافق للجنازة، وصلوا عليه في الجامع الأموي، ودفن في مقبرة بالمهاجرين اسمها مقبرة زين العابدين. وكان مسؤولاً عن مدارس التدريب، وأنه كان نشيطاً ومحبوياً أيضاً. لقد سمعت عنه للمرة الأولى في مكتب الحزب في دمشق الذي

كان مقره في منطقة الشهداء في آخر شارع الصالحية. كنت أذهب إلى مقر الحزب عندما أنزل يومي الخميس والجمعة، أسأل عن أخبار الحزب، وأخبار الشباب، وأحوال حماة وريفها. طبعاً كان الذين يعملون في مقر الحزب يعرفون جيداً أنني حزبي، وقد كنت آخذ جريدة البعث إذا لقيتها في المكتب، أما قطننا، والمعسكرات أيضاً فلا يوجد فيهما صحف أو مجلات. في تلك الفترة شغلت بالنسبة قضيتان أساسيتان، أحوال الجزائر من جهة، وأحوال ثورة 23 تموز في مصر بقيادة عبد الناصر من جهة ثانية. كنا نتتبع أخبار الثورة الجزائرية وتطوراتها ونسعى إلى سماع أي خبر عنها لأن الثورة الجزائرية كانت تعيش في كل بيت من بيوتنا، وقد كنا متحمسين من أجلها. كذلك الأمر بالنسبة لثورة عبد الناصر، وما يذاع عنها في راديو صوت العرب. هذان الأمران، ثورة الجزائر وثورة عبد الناصر كانا من أهم أحداث العرب في تلك الفترة، وقد تعلقنا بهما تعلقاً شديداً. وأذكر أن الملازم محمد نبهان، صديقي، قد حدثني عن بعض الأطباء السوريين الذين ذهبوا إلى الجزائر من أجل العمل في صفوف الثورة.. وسألني إذا ما كنت على استعداد للذهاب للجزائر من أجل التطوع مع المجاهدين، فقلت له: أنا جاهز. وقد أكدت على هذا الأمر أمامه خصوصاً بعد أن تخرجت من الدورة في الشهر السابع من السنة. بعد انتهاء الدورة أخذنا إجازة مدة أسبوع تقريباً، ولم أستطع النزول مباشرة لأنني كنت أرثدي الشورت، وكان من المستحيل عليّ أن أذهب إلى القرية بالشورت، لذلك ذهبت إلى خياط وقمت بتفصيل بنطلون، وريثما انتهى لبسته وذهبت به إلى القرية. وحين انتهت الإجازة عدنا إلى المعسكر وأخذنا الفرز فكان نصيبي أن فرُزت إلى الجبهة على نهر الشريعة (الأردن)، ونصيب ابن عمي صالح العلي كان في دير الزور، ونصيب صديقنا علي نبهان بمدرسة المدرعات في القابون، ثم نقل إلى حمص. المهم: أنني، ودون نقاش، أخذت كتاب الفرز وذهبت إلى القنيطرة وسألت عن محاسب واسمه محمد سعود، هو محاسب في القيادة العامة للجبهة، وعندما وصلت إلى عنده، سألته عن مكان تعييني في الفوج

السابع في جمرك جسر بنات يعقوب، فقال لي: تقع على نهر الشريعة مباشرة، وتوجد سيارة إلى بلدة البطيحة، اركب فيها تصل إلى منطقة الجمرك مقر قيادة الفوج، سلم نفسك هناك، ومن هناك يرسلونك بالطريقة التي يرونها إلى الوحدة التي يعيرونك فيها.

قرب جسر بنات يعقوب...!!

وحين ذهبت إلى الجمرك، (جسر بنات يعقوب) التقيت بمساعد من أيام الفرنسيين اسمه علي مخلوف من قرية بستان الباشا. أعطيته أوراقتي، وانتظرت حتى صدر قرار تعييني الذي كان في السرية الثانية شرق قرية جرابا، قرب بحيرة طبريا.. وسلمت نفسي لقائد السرية الملازم ياسر الكسم، وهو شاب نحيل، أسمر اللون، وكان عنده مساعد اسمه جلال حسين شركسي قام بتسليمي مهماتي من بدلة، وبوط، وأفرولات، ونطاق جلد، وخوذة، وكيس بحار. طبعاً قطعت المسافة الفاصلة ما بين الجمرك وجرابا والبالغ حوالي 15 كيلومتراً مع البغالة، مع فرقة البغالة. كما سلموني مسدس إيطالي بريتا له مخزن يتسع 40 طلقة، له سبطانة قصيرة، وأخمص خشبي طويل كما تسلمت مجموعة من الطلقات (200) طلقة. كما تسلمت قنابل دفاعية وهجومية. وقال الملازم عليّ أن أتبع دورة من أجل الاطلاع على البرنامج اليومي لعمل السرية، وذلك لأن السرية تعمل على: دوريات وكماثن، ودوريات الحرس. وعليّ أن أكون يومياً في إحدى الدوريتين. طبعاً في السرية لم يكن فيها لا راديو ولا جريدة. كانت الطبيعة في تلك المنطقة صعبة جداً، وعرة، صخور ووديان، أشهرها وادي الهوا الذي يقع شرقي جرابا المليء بالعقارب والأفاعي والغزلان والخنازير.

أسلحة فاسدة...!!

أذكر أنني قمت بتجريب المسدس الذي أحمله حين رأيت أفعى كبيرة، أطلقتُ عليها وأصوب المسدس. وقد تفاجأت حقيقة لأن الذخيرة كانت من الذخيرة الفاسدة المخزنة دون أن ندري لذلك ذهبت مباشرة، وأخبرت قائد السرية. قلت له: هذا المسدس يحتاج إلى صيانة، ويبدو أنه غير صالح للاستعمال. قال: كيف عرفت؟ قلت: لقد أطلقت فيه على أفعى، لكن الرصاصة لم تطلق. قال لي بتعنيف: ومن سمح لك بإطلاق النار، ألا تدري أننا على الجبهة. قلت له: لقد جربت المسدس في الوادي. قال: أنا لا أعرف الوادي من الجبل. تجريب السلاح يحتاج إلى إذن مسبق. وبعد حوار طال بعض الشيء، قلت له: سيدي، لو تسمح، جرّب هذا المسدس بنفسك. فوافق. اجتمع هو وضابط صف السرية، الرقباء والمساعدون، وجرّب المسدس. وفعلاً وجدته غير صالح للاستعمال. وقام بكتابة تقرير فني بالمسدس وأخذه إلى قائد الفوج وأخبره بقصة المسدس. فقال له قائد الفوج لنجربه. وحين جربوه وجدوا أنه فاسد، وغير صالح للاستعمال. وهنا، قال قائد الفوج للملازم: جرب بقية الأسلحة الموجودة لديكم. وكتب تقريراً فنياً في صلاحيتها. وهذا ما حدث فعلاً حين عاد قائد السرية، تم فحص جميع الأسلحة، وللأسف وجدنا أن 80٪ منها غير صالح للاستعمال. القنابل اليدوية الدفاعية والهجومية نسبة صلاحيتها قنبلة واحدة على عشر قنابل. أي تسع قنابل فاسدة وغير صالحة للاستعمال، وواحدة صالحة. وكذلك كان حال الرشيشات، والبنادق، والمسدسات. طبعاً تم ذلك بوجود لجنة مكلفة من قبل قائد الفوج لفحص الأسلحة وبيان صلاحيتها. ومما أودّ ذكره أيضاً أنه في أول الخريف تقريباً، في شهر أيلول، نُقلت السرية إلى منطقة خلفية مجاورة لقرية اسمها (عين السمسم)، ولم يكن التبديل بين سريتنا وسرية أخرى كانت موجودة في (عين السمسم) لأسباب عسكرية أو تكتيكية أو معاشية.. الخ، وإنما كان لأسباب

متعلقة بأمراضنا نحن الجنود، فلقد انتشرت في أجسادنا العديد من الأمراض في مقدمتها الجرب، وتكاثر القمل في ملابسنا وشعورنا، وكذلك وجود القمل والبق في البطانيات والفرش. أخذونا إلى القرب من قرية (عين السمسم) لأنه يوجد فيها ماء كثير. جمعونا، وأخذونا إلى ما يشبه الحمام وقد تمّ دهن أجسادنا بالكبريت، وأنواع أخرى من المراهم من أجل الخلاص من الجرب، وطرّد القمل الذي تكاثر في أجسادنا وملابسنا. بعد أن انتهت مهمة نظافتنا بحضور طبيب مختص، نقلت السرية إلى منطقة (العليقة) التي تبعد عن القنيطرة حوالي 10 كم. وفي (العليقة) حلقوا لنا شعر رؤوسنا (على الصفر) ثم بدأنا التدريب. وحدث أن أعادوا ملازم سريتنا ياسر الكسم إلى الجبهة لأنه خبير بالمخاطر الحدودية، والقرى الأمامية فجاء بدلاً عنه الملازم أول أشرف حمدي قائداً للسرية الثانية الذي كان يدرّبنا في دورة الرقباء في منطقة (قطنا) أثناء الدورة. وراح هذا الملازم أول يدرّبنا تدريباً نوعياً بمساعدة قائد الفصيلة المساعد جلال حسين. كنا نتدرب في معسكر له براكيات من التوتياء. وكان التدريب يتم من أجل صقل اللياقة البدنية وتعلم كيفية الدفاع والهجوم نهاراً وليلاً، وتعلم كيفية وضع الفصيلة في الكمين والحراسة.. الخ.

بوق الإنذار الأول في الجبهة...!!

حدث بعد حوالي شهرين أو شهر ونصف الشهر أن أطلق بوق الإنذار ليلاً، في منتصف الليل تقريباً، (بتاريخ 1955/11/1) فقمنا فوراً وتجهزنا. من كان نائماً استيقظ، ومن كان مستيقظاً لبس الملابس الميدانية، وعلمنا من قائد الفصيلة أنه يوجد استنفار شديد. وأن الإسرائيليين اعتدوا على قرى الجبهة المحيطة بنهر الأردن (الشريعة). وحين أصبحنا جاهزين بالعتاد الميداني، أي أن سلاحنا جاهز، وأن كل حاجياتنا الشخصية موجودة في كيس البحار، أخذونا بالسيارة حوالي ثلاثين عسكرياً إلى منطقة الجمرك، مقر قيادة الفوج،

كانت الدنيا تمطر مطراً غزيراً، ومطر الجولان معروف بغزراته، وهو يأتي بشكل مبكر، أي مع شهر أيلول تقريباً. في تلك الفترة كنت قائداً لحضيرة (جماعة) بعدما رُفعت إلى رتبة رقيب. والحضيرة مؤلفة من جماعتين، الأولى: جماعة رماة، والثانية: جماعة جوالاة أو زمرة جوالاة، وزمرة الرماة هم الذين معهم الرشاش من نوع 29/24 فرنسي، والأفراد مسلحون ببنادق (36)، أما زمرة الجوالاة فكان معهم بنادق من نوع (49) فرنسي نصف أتوماتيكية. وقائد الحضيرة معه مسدس رشاش نوع بريتا إيطالي. المهم حين وصلنا إلى الجمرك، علمنا أن دورية إسرائيلية أسرت الملازم ياسر الكسم، وأن الملازم أول أشرف حمدي قد قُتل. وقيل إن الضباط كانوا يتعشون في الجمرك ومن بينهم الملازم ياسر الكسم. ويبدو أن اليهود يترصدون حركة هذا الملازم لأنه هو الوحيد الذي ينزل إلى الجبهة في السيارة، وهو من يعود بها إلى الجمرك موقع قيادة الفوج. فقد رصدوه في ذهابه إلى الجمرك، وقدروا أنه سيتأخر وقتاً معيناً، لذلك نصبوا له كميناً في أثناء عودته. طبعاً حركته مرصودة من خلال خروج السيارة من السرية حيث تتمركز قرب قرية جرابا، وحين عودتها من الجمرك. ويبدو أن دوريتين إسرائيليتين عبرتا النهر عند مخاضة (ج18) وفي توقيت مناسب كي لا تتصادفا ومرور دوريات الكمائن والحراسة التابعة لنا. وكمنت هاتان الدوريتان بانتظار عودة الملازم ياسر الكسم ليلاً. طبعاً الملازم تعشى مع الضباط وسهر أيضاً ثم عاد إلى السرية الموجودة في (البطيحة)، وقد قاربت الساعة منتصف الليل، وحين وصل إلى الكمين الإسرائيلي عند قرية علمين الواقعة على طريق البطيحة طلب الإسرائيليون منه التوقف، فتوقف السائق ظناً منه أن من يوقفه هم أصدقاء، ولكن حين توقف، وأطفأ أنوار السيارة تبين له وللملازم ياسر الكسم وعسكري ثانٍ معه أن الدورية إسرائيلية، وما حدث أن الإسرائيليين أسروا الملازم ياسر الكسم والعسكري الذي كان معه بينما هرب السائق، وقد سمحوا له بأن يهرب باتجاه الجمرك. ويتقديري أن الإسرائيليين هم الذين سمحوا له بأن يهرب من أجل أن يُخبر

الضباط في الجمرك بما حدث، لأنه، وكما يبدو، كانوا قادرين على قتله أو أسره أيضاً، وقد تبين بأن هذا هو الصحيح لأن الإسرائيليين لم يغادروا منطقة الكمين، فقد بقوا كامنين قرب السيارة التي أوصلت الملازم ياسر الكسم لتوقعهم بأن ثمة نجدة ستأتي، وستكون سهلة الاضطياد من قبلهم. وهذا ما حدث فعلاً فقد وصل السائق الذي هرب إلى الجمرك وخبر الضباط بما حدث، فكانت ردة فعل الضباط عنيفة وعفوية خصوصاً الملازم أول أشرف حمدي الذي أخذ جنود وسياراته وانطلق بها إلى موقع الكمين كان يركب في سيارة دوج كندي، بيده مسدسه، وقد ركب على (رفراف) باب السيارة الخارجي، وقال للسائق، والسيارات التي كانت معه وعددها اثنتان تقدموا. يبدو أنه كان قليل الخبرة في جو المخاطر الأمامية، لذلك ذهب مباشرة إلى مكان السيارة التي كان يركبها الملازم ياسر الكسم دون أية مناورة. طبعاً كانت سيارة الملازم أول أشرف حمدي والسيارات الأخرى المرافقة له معروفة من خلال أنوارها التي راحت تتقدم نحو موقع الكمين الإسرائيلي. وعندما وصلت السيارات إلى جوار السيارة فتح الإسرائيليون النار عليها وبغزارة مما أدى إلى قتل الملازم أول أشرف حمدي ومن معه، ربما كانوا أربعة أو خمسة جنود، وحين تقدم سائق السيارة أكثر انفجر بها لغم إسرائيلي، كان الإسرائيليون قد نصبوا تحسباً لأية آلية قد تتقدم باتجاههم. ولم ينسحب الإسرائيليون إلا بعد أن أحرقوا سيارة أخرى.

وبذلك عرفنا بأننا جئنا إلى المنطقة نجدةً من أجل مهاجمة الدوريتين الإسرائيليتين اللتين عبرتا النهر. عندما وصلنا إلى الجمرك. طلب منا قائد الفصيل المساعد جلال حسين أن يخلع كل منا البوط العسكري لأن المشي به ليلاً سيكشفنا، وأن نلبس الأحذية الرياضية. وبدأنا المسير بموازة الطريق، لتخوف المساعد جلال حسين من أن يكون الطريق قد لُغم من قبل الإسرائيليين، وقد كان محقاً، فهو رجل صاحب خبرة، خدم في الجيش الفرنسي، وكان يتقن النظام العسكري إتقاناً ممتازاً. مشينا، ربما ساعة زمن،

والمطر يهطل بغزارة، ومدفعية الإسرائيليين تطلق قنابلها نحونا تغطية لانسحاب الدوريتين الإسرائيليتين. كانت القنابل تسقط بالقرب من مواقعنا، ومن المخاضات (والمخاضة هنا تعني المكان الذي يضيق فيه النهر إلى حدود ثلاثة أمتار أو أقل، والذي تقل مياهه أيضاً).

مررنا بالسيارات الواقفة، وقد كانت إحداها تحترق، وقد ساورنا حب الفضول، أن نقرب منها، لكن المساعد جلال حسين منعنا من الاقتراب، خوفاً من الألغام أو الكمائن الإسرائيلية. طبعاً لم نشاهد جرحى، رأينا على لهب النار بعض الجثث لجنودنا، كانوا مقتولين. وتابعنا سيرنا إلى (ج18) (المخاضة)، وحين وصلنا إلى قرية علمين توزعنا في القرية بمعرفة المساعد جلال حسين. وجلسنا، ورحنا نتساءل عن مصيرنا وحالنا، فهل سننتعرض إلى هجوم إسرائيلي آخر؟ أم أننا سنقوم نحن بهجوم مضاد على الإسرائيليين؟! وحزناً كثيراً لأن تلك الليلة كانت مأساوية بالفعل فلقد قتل الملازم أول أشرف حمدي، وأسر الملازم ياسر الكسم، وقتل حوالي أربعة، أو خمسة من الجنود، وحرقت سيارة أو أكثر من سيارات قيادة الفوج، وطلع علينا النهار ونحن في حالة يرثى لها. وفي الصباح جاء البوليس الدولي وشرع رجاله بالتحقيق. طبعاً، أخذوا جثث الملازم أول أشرف حمدي والجنود. كان يرافق أفراد البوليس الدولي قائد الجبهة، وأتذكر أن رتبته كانت عقيداً، وأن اسمه نوفل شحم. زاروا قرية علمين، وموقع الكمين. ثم ذهبوا، وبعدئذ أرادت قيادة الجبهة أن تعزز سريتنا فأرسلت لنا قائداً للسرية رتبته نقيب، واسمه بكري الزوبري واثنين من المرشحين، واحد اسمه أحمد الخطيب من جديدة عرطوز، وآخر اسمه أحمد القبيطري من دمشق. وأصبح المرشحان قائدين لفصيلتين في السرية، الأولى والثالثة، أما الفصيطة الثانية فكانت بقيادة المساعد جلال حسين. وقد كان المساعد جلال حسين أفهم هؤلاء في السرية. في تلك الفترة عدنا إلى أعمالنا المعتادة. دوريات كمين، ودوريات حراسة. وقد حدث تكثيف للدوريات، واهتمام كبير في الحراسات، أي أن التشديد كان كثيفاً جداً.

طبعاً كان أهالي قرية جرابا. التي تنتشر السرية إلى جوارها غالبيتهم من الفلسطينيين الذين كانوا يأملون في العودة إلى أراضيهم في فلسطين بين وقت وآخر. وكنا نعلم أن بعضهم يقطع المخاضات ليلاً ويدخل إلى الأراضي الفلسطينية ويتصل بأهلهم أو أقاربهم الذين ظلوا في قراهم الفلسطينية، وكانوا يعودون قبل طلوع الفجر. هذا أمر كان يحدث، أولاً لأن المسافة قريبة، ثم لأن الأهالي يعرفون الطرق والدروب التي توصلهم بسهولة ويسر إلى قراهم، فهم أهل المنطقة ويعرفونها بالشبر. بالطبع كانت حقول الألفام منتشرة على طرقي النهر من قبلنا نحن، ومن قبل الإسرائيليين لكن الأهالي كانوا يعرفونها جيداً فيحيدون عنها. وكانت المخافر السورية تتمركز عند المخاضات. أي أنه يوجد مخفر سوري عند كل مخاضة على النهر، وقد كان الأهالي على علاقة جيدة بالجنود السوريين، وكان الجنود السوريون يعرفون أن الأهالي يتسللون ليلاً باتجاه الأراضي الفلسطينية من أجل زيارة أهلهم وأقاربهم ليلاً. بعضهم، وهذه حقيقة، كان يذهب من أجل السهرة، أو حضور دبكة عرس. كان أهالي القرى، وقبل أيام عدة من إقامة حفلة العرس، والتي يكون موعدها. في العادة. يوم الجمعة يدبكون، ويغنون ويرقصون ليال عدة كسهرات تتم على شكل بروفات لحفلة العرس التي ستقام يوم الجمعة؛ طوال يوم الجمعة من الصباح وحتى الغروب. كان الأهالي يقطعون بالعشرات، خصوصاً الشباب، باتجاه الأراضي الفلسطينية للمشاركة في الأفراح، أو التعزية والأخذ بالخاطر حسب المناسبة.

الناشر البسطاء... في بلادي!

قرية جرابا، كانت واقعة على مرتفع، يقع إلى الغرب منها مباشرة طريق يحاذي النهر تماماً، وإلى الغرب منها يقع مخفر على تل اسمه (تل مشنوق). وكان إلى الجنوب الشرقي من القرية وادي الهوا، وهو من الأودية الكبيرة

والمهمة والخطيرة في أوقات الشتاء. وهو أحد أهم المراعي التي يقصدها الفلاحون في أيام الربيع. كما كان الوادي مشهوراً بينابيعه الصافية التي يشرب منها أهل القرية. كانت النساء تحمل الماء في القرب (الراويات) على ظهر الحمير من الوادي إلى القرية. وقد كانت مشاوير المساء للنساء اللواتي يتوافدن إلى الينابيع التي كانت تجري من الوادي باتجاه بحيرة طبرية. يضاف إلى ذلك أن الوادي، وفي أوقات الصيف، كان حافلاً بالعقارب والأفاعي، نهاراً، وبالحيوانات المفترسة ليلاً.

في أوقات فراغنا، أي عندما نكون غير مشاركين في دوريات الحراسة، أو الكماثن، كنا نذهب إلى قرية جرابا، إلى الدكان تحديداً لكي نأتي بما نحتاج إليه من أغراض، مثل زيت الكاز، الشمع، السكر، الشاي، الدخان، البيض، اللبن.. وكان يقابلنا أول ما يقابلنا في قرية جرابا شبابيكها الغربية المحكمة الإغلاق تخوفاً من رصاص الرشاشات الإسرائيلية. البيوت كانت من حجر البازلت الأسود المائل إلى الزرقة قليلاً، وجدرانها عريضة وقوية تماماً. والأهالي يعتاشون على الزراعة والرعي، حيث يربون الأبقار، والماعز، والأغنام. وغسيل الملابس، والصوف. والبسط التي يفرشونها على الأرضية.. يتم عند الينابيع والسواقي القريبة من القرية. وقد كانت لنا علاقات واسعة مع الأهالي خصوصاً نحن الجنود الذين كانت لنا مدد زمنية طويلة بالقرب منهم. كما كانت لنا علاقة واسعة مع الحرس الوطني، ومنهم قسم من أهالي القرية، والقرى الأمامية المعروفة في الجبهة.

في تلك الفترة، حدثت بعض المشكلات داخل السرية، وكان سببها قائد السرية النقيب بكري الزوبري، وهو رجل عصبي، دائم الهيجان، يشرب كثيراً بحيث كانت ساعات سكره أكثر من ساعات صحوه. وقد كان مغضوباً عليه فهو برتبة نقيب وقائد سرية. في حين أن قائد السرية، عادة، يكون برتبة ملازم، أو ملازم أول. وهناك من هم برتبة مساعد أو مساعد أول كانوا قادة للسرايا. وهذا الرجل كانت له على عهد الشيشكلي مكانة مهمة، وحين ذهب الشيشكلي

سأنت به الأحوال لذلك كان من المغضوب عليهم. وقد تبين لنا ذلك من خلال استلامه لسرية مشاة بينما اختصاصه الأساسي كان مدرعات. المهم أن هذا الضابط العصبي جداً، السليط اللسان.. كان على الدوام في حالة نرفزة موجهة للجميع.. الضباط، وصف الضباط، والجنود، والمجندين معاً. كان لا يعجبه أي شيء.. فهو يدين، ويتهم، ويشتم، ويصرخ لأتفه الأسباب. لعله كان يشعر بأنه مظلوم، وأنه رُمي على الجبهة إمعاناً في احتقار القيادة العسكرية له، أو أنه غدا بالنسبة إليهم لا شيء؛ لا شيء على الإطلاق.

الثورة الجزائرية.. في الجبهة!

في تلك الفترة نُظِم أسبوع للتبرع للثورة الجزائرية شمل شرائح المجتمع السوري بكاملها، وكان الجيش من بينها، والثورة الجزائرية آنذاك كانت تمشي في عروقتنا مثل الدم بالضبط. دائماً نسعى إلى معرفة أخبارها، وبطولات مقاتليها، وأحوال الناس فيها. وقد كلفني النقيب بكتابة محاضرة عن الثورة الجزائرية لأنه كان يثق بمعلوماتي عنها، ويعرف أنني أشتري الصحف والمجلات والكتب. وقد كتبت محاضرة حماسية جداً، وألقيتها على أفراد السرية، وقد قوبلت برضا كامل من الضباط والجنود الذين استمعوا إليها. في الأسبوع التضامني مع الثورة الجزائرية، سماني النقيب بكري رئيساً للجنة التبرع. فقمنا في نهاية الشهر، ومع وقت استلام الرواتب، وبدأنا حملة التبرع داخل السرية. فتحنا البطانية أولاً كي نضع الأموال التي سيتبرع بها الجنود فوقها، ثم فتحنا الأوراق ثانياً لكي نسجل أسماء المتبرعين والمبالغ التي دفعوها. كان الجميع مجتمعين، قائد السرية والضباط وصف الضباط والجنود.. وبدأ الكلام، قائد السرية قال لي: يا رقيب محمد ابدأ بنفسك. تبرع.

قلت: هذا راتبي كاملاً (90) ليرة سورية أتبرع به للثورة الجزائرية.

فصرخ أحد المرشحين قائلاً: وما أبقيت لنا. لقد بهدلتنا. وهو يقصد بأنه لن يستطيع التبرع بمبلغ يصل إلى (90) ليرة. يومذاك تبرع الجميع، وكانت الحماسة هي المسيطرة على الجميع. ذلك التبرع وما قمنا به من نشاط في الأسبوع التضامني مع الثورة الجزائرية أذاع شهرتنا في السرايا. فكان أن سأل عني عريف من أقربائي يعمل ممرضاً في الفصيلة الطبية الموجودة في مركز الحاصل العسكري المجاورة لبحيرة طبريا على مصب نهر الشريعة (مجاورة لقرية البطيحة)، فذهبت إليه وكان اللقاء الأول جميلاً. ورحت أتردد عليه بين الحين والآخر. وذلك في أيام العطل، فبدلاً من أن أذهب إلى القنيطرة من أجل قضاء العطلة فيها، أخذت أذهب إلى البطيحة لعند هذا العريف قريبي حسن يوسف الشاعر، وهو يعمل ممرضاً في السرية، وقد نشأت بيني وبين أصدقائه صداقات قوية. أذهب إليه فنتناول الغداء معاً. يشوي لي السمك ونأكل. أمضي الوقت عنده يومي الخميس والجمعة ثم أعود إلى السرية. بالطبع كانت لي علاقات صداقة مع آخرين في القرى المحيطة بالسرية مثل قرية جرابا على سبيل المثال. كنت أعرف الكثيرين من أهلها لاسيما وأن عدد السكان قليل. في البداية كنا نتردد على صاحب الدكان. ثم بدأنا نتردد على بعض الأسر بعدما قامت علاقات معرفة بيننا. أحسست بطيبة هؤلاء الناس، وميلهم الشديد إلى التعاون مع الآخرين، وعدم الشعور بأن نفوراً قائماً بين الطرفين يحول دون المخالطة أو تطوير العلاقات. وأنا بطبعي كنت ميالاً إلى إنشاء صداقات قوية وممتينة مع الآخرين. لهذا أقول إن علاقاتي مع الأهالي كانت ممتازة. في تلك الفترة، وفي أثناء وجود النقيب بكري الزوبري، وكانت رتبته تسمى (الرئيس)، حدثت مشكلة لي معه، وكانت بسبب سلاطة لسانه، وبذاءة الكلام الذي يتفوه به. لقد شتمني ذات مرة دون أي سبب فوقفت بوجهه، وقلت له: يبدو أنك لست فترياً، وأن في عقلك شيئاً ما عندما تشتم الجميع من دون سبب. وعليك أن تتعلم التهذيب. فصعق من إجابتي. لم يكن يتوقع أن أواجهه وأرد عليه، فأنا رقيب مجند، وهو نقيب. لذلك استشاط غضباً، وراح يشتمني، فقمتم ورددت

عليه بشتيمة تليق به. فجئ، وتدخل ضباط السرية. وتحولت إلى قيادة الفوج من أجل التحقيق معي. وهناك سويت الأمور ولم أعاقب لأن قائد الفوج كان يكره النقيب (كرهه للعمى). وعدت إلى السرية من دون اقتراح أية عقوبة فازداد غضب النقيب مني. وكنت آنذاك أقرأ في كتب الشهادة الثانوية من أجل تقديم الامتحان. وكنت قليل الاختلاط به.

أبقار.. نعب حفول الألغام!

في 1955/12/8 عبرت مجموعة كبيرة من الأبقار نهر الشريعة من داخل الأرض المحتلة (فلسطين) باتجاهنا، وقد أرسلنا برقية إلى قيادة الفوج أخبرناها بأن عدداً من الأبقار يقدر بـ (200) أو (250) بقرة عبرت من داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة باتجاهنا نحو قرية البطيحة، ثم وفي اليوم التالي عبرت مجموعة أخرى من الأبقار من المخاضة نفسها أي بالقرب من مخفر تل أحمر جنوب غرب قرية جرابا، من المكان نفسه التي عبرت منه المجموعة الأولى. وعلى الرغم من خلافي مع النقيب، طلبت مقابلته فوافق. فشرحت له شكوكي بهذه الأبقار التي عبرت على دفعتين وفي يومين من تل أحمر باتجاه البطيحة وجاءت إلينا. وسألني بم تشك؟ قلت: أعتقد أن عبور هذه الأبقار باتجاهنا مقدمة لشن هجوم إسرائيلي علينا. قال: كيف؟ قلت: يبدو أن الإسرائيليين يريدون معرفة نوعية ومواقع الألغام التي وضعناها، والجهة التي لا يوجد فيها ألغام نهائياً. ودخول الأبقار في حقل الألغام محاولة لتفجير الألغام أو اكتشافها. ويبدو أن النقيب اقتنع بما قلته له، فقام وأرسل برقية ثانية إلى قيادة الفوج يخبرها بأن عدداً من الأبقار يعبر النهر من داخل فلسطين وباتجاهنا. وقد قامت قيادة الفوج بإرسال البرقية إلى قيادة الجبهة، فأرسلت قيادة الجبهة لجنة من الفنيين العاملين (المساعد علي مخلوف، من بستان الباشا) في مجال الألغام والأبقار إلى قرية البطيحة من أجل الوقوف

على كل معطيات هذه المشكلة، كنا قد أصبحنا في اليوم الثالث من عبور الأبقار، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً من يوم 10/12/1955، وبينما كان علي مخلوف الذي جاء للتحقيق في عبور الأبقار يغادر قرية البطيحة، أُلقي القبض عليه من قبل القوات الإسرائيلية التي كمنت في إحدى نقاط الطريق، عند تل المشنوق، وأخذته وأفراد الطاقم، حوالي أربعة عناصر، أسرى، وبدأ العدو قصفاً شديداً على القطاع الشمالي، واتجهت أنظار الجبهة إلى القطاع الشمالي، وبعد ساعة انتقل القصف إلى القطاع الجنوبي والقرى التي تقع شرقي بحيرة طبرية، مثل السكوفية، والعال، والكرسي، والدوقا، وشرعت الزوارق الحربية الإسرائيلية من داخل بحيرة طبريا تطلق نيران رشاشاتها نحو المخافر الأمامية المواجهة لها. طبعاً في ذلك الوقت كانت الدنيا تمطر مطراً شديداً. وكنا على اتصال بمقسم البطيحة لنعرف ما الذي يحدث فكانوا يخبرونا بأن القصف يطال المواقع الجنوبية، ثم انفجر الوضع تماماً في القطاع الأوسط أي المنطقة التي نحن فيها، وتقدمت قوات إسرائيلية نحو موقع الحاصل العسكري، بعد أن حطمت القوات الإسرائيلية المخافر التي تقع شرق بحيرة طبرية، وهي مخفر الدوقا والكرسي وسكوفية. وقتل قادة السرايا وهم الملازم ممدوح قره شولي، والملازم سعيد قزيز، وملازم آخر أعتقد كنيته الصفدي. قتلوا جميعاً في المخافر شرق بحيرة طبرية، وقتل بعض العسكريين معهم. ثم انتقل الرمي إلى الحاصل العسكري، ويقع هذا الموقع في الزاوية التي يصب فيها نهر الشريعة مع بحيرة طبرية، بموقع محصن لسرية مشاة معززة برشاشات ثقيلة ومدافع هاون. وبدأت المعركة العنيفة في هذا الموقع. طبعاً كان يخبرني بذلك قريب العريف يوسف الذي يعمل في النقطة الطبية. وكنت أنا بجوار النقيب في المقسم. وقد قال لي بالحرف الواحد: أنا لا أعرف الذين أعالج جروحهم في النقطة الطبية، والدنيا ليل هل هم منا نحن السوريين أم من الإسرائيليين. طبعاً كانت المقاومة شديدة. وقد وقعت إصابات كثيرة، وعدد القتلى تجاوز العشرات من الطرفين، وذلك لأن المعركة شملت قطاعات الجبهة

الثلاثة: الشمالي، والأوسط، والجنوبي. الوضع برمته في تلك الأثناء تطور جداً. فطلب النقيب بكري دعماً من قيادة الفوج وقيادة الجبهة، ولكن لم يصل إلينا أي دعم، وقد استمرت المعركة حتى الصباح، أي حوالي ست ساعات، بحيث انتهت مع شروق الشمس. وقد قيل لنا إن الجرحى الإسرائيليين الذين كان يتم نقلهم بوساطة الزوارق صبغ دمهم شواطئ بحيرة طبريا. وقد وجدنا بعض الجرحى والقتلى الإسرائيليين الذين تم نقلهم إلى النقطة الطبية في الحاصل العسكري. في الصباح، وعند الساعة السابعة صباحاً، جاءت القوات الدولية، وبدأت تحقق بما جرى، فوقفت على كل أحداث الهجوم الإسرائيلي، وطريقة عبورهم لحقل الألغام، والنهر، ودخولهم إلى مخفر الحاصل العسكري، وتل مشنوق.. وعاینوا مواضع سقوط قتال المدفعية الإسرائيلية. كما جاءت في الصباح أيضاً سرية الهندسة مع جماعة الاستطلاع، بقيادة الملازم أول هيثم الأيوبي وعاینت حقل الألغام، ومكان عبور القوات الإسرائيلية. وأشير هنا إلى أن بطولات مهمة سجلها الجنود السوريون وهم يتصدون للهجوم الإسرائيلي وعلى رأس هؤلاء رقيب من بيت الشعار من بلدة سلمية، أطلق حوالي (4500) طلقة من رشاشه (رشاش فرنسي هوتشكيس ثقيل)، وقد استشهد فوق الرشاش بسبب نفاد الذخيرة، وقد كتب بدمه على حديد الرشاش (أموت من أجل أن يحيا الوطن). كما استشهد أيضاً قريبي العريف حسن يوسف الشاعر في النقطة الطبية، واستشهد عدد من الضباط، منهم قائد سرية في سكوفية اسمه ممدوح قرشولي، والملازم أول سعيد قزیز بالإضافة إلى حوالي (55) من العسكريين وصف الضباط، وقد فجرت مواقع و(بلوكسات) عديدة، ومنها موقع النقطة الطبية حيث قتل الممرض والجرحى بالقنابل الإسرائيلية، وتم استبدال المواقع الأمامية بحيث سحبت السرايا الموجودة وحلت في مكانها سرايا جديدة، وقد كانت سريتنا من بين السرايا التي سحبت إلى الخلف حيث انتقلت إلى منطقة العليقة، توقفنا فيها ساعات، ثم مضينا مع الفوج بالكامل إلى القنيطرة، ثم إلى منطقة المنصورة. وقد جاء فوج جديد إلى الجبهة بقيادة

الرائد مصطفى حمدون. ولم نبق طويلاً في المنصورة، لأننا انتقلنا إلى حرش مسعدة التي كانت مغطاة بالثلوج. أذكر أن هذه المعركة وقعت بعد مرور أربعين يوماً على استشهاد الملازم أول أشرف حمدي، وقد أقامت قيادة الأركان حفل تأبيني له في دمشق بمناسبة الأربعين، بعد انتهاء حفلة التآبين وقعت معركة طبرية، وهاجمت القوات الإسرائيلية مواقعنا ليلاً. لكان التوقيت كان مدبراً أو منظماً، أو لكانه كان رسالة ما يريد الأعداء توجيهها إلينا.

بعد الذي حدث، تم نقل الفوج، واستبداله بفوج آخر، كما نقل النقيب بكري الزوبري من السرية وجاء بديلاً عنه الملازم أول عبد الوهاب حسن، من مدينة حلب، أما قائد الفوج الجديد فكان اسمه رفعت خيري. كما تم تعزيز جميع السرايا. وفي منطقة مسعدة عدنا إلى عملنا المعتاد دوريات وكمائين وبالتعاون.

الانتساب للكلية الحربية...!!

عملت كقائد مفرزة في مخفر البرجيات، وكان معي جنود عدة مع بنادق ورشاش، وكنا في مواجهة مستعمرة كفر شامير التي لا تبعد عنا سوى 800م فقط. وقد هدأت الجبهة فصرنا نأخذ وقتاً أطول في القراءة والزيارات. كنت أقرأ في كتب الشهادة الثانوية والصحف والمجلات التي تصل إلينا، رحنا نقرأ عن حلف بغداد، والعدوان التركي، ومحاكمة السوريين القوميين، فقد أصبحنا في عام 1956، وأصبحت علاقاتي مع الضباط واسعة وذلك بسبب تخرج زملائي الذين كانوا معي من الكلية الحربية مثل عبد الرحمن سلامة، وقد أشعروني كم هو الأمر محزن بين أن تكون ضابطاً أو صف ضابط، لذلك صممت أن أنجح في الشهادة الثانوية وأنتسب للكلية الحربية لكي أخرج ضابطاً مثلهم. يومئذ كنت قد قدمت فحص الشهادة الثانوية إلا أنني لم أنجح فقد رسبت في مادتي الرياضيات والإنكليزي. لكنني لم أياس، وقد كان قائد

السرية متحمساً لي، قال: محمد ادرس الشهادة الثانوية بشكل جيد وانجح، وأنا من سيؤمن لك الوقت المناسب لذلك. ومما أذكره أن قائد السرية عبد الوهاب حسن كان مؤدباً ومحترماً، وعلاقتي به كانت رائعة فعلاً. فقد طلب مني أن أقوم بتدريب دورة فدائيين مع الملازم عبد الرحمن حج عبيد والمرشح أحمد الخطيب. وقد كان الهدف من تدريبهم على الحدود مباشرة أن يأخذوا المعلومات على الواقع. وقد أحضرت لنا القيادة أجهزة لاسلكي تحمل على الصدور. وكان الملازم أول عبد الوهاب حسن قائد سريتنا غير مقتنع بالدورة بعد أن رأى ضعف المتدربين، فأراد أن يخلق مشكلة لهم تعيدهم إلى الورااء وذلك لما رآه من استهتار وعدم اهتمام بالتدريب، ولأنه تأكد من أن هؤلاء المتدربين لم يستفيدوا شيئاً من التدريب اليومي.

سلة برنغال.. وامرأة!

خرجت في دورية استطلاع مع جنديين وبنديقة.. خرجنا كدورية استطلاع، وحين وصلنا إلى الطريق المعبد بين كفر شامير وكفر سلط رأينا سيارة دوج كندي بستة دواليب إسرائيلية يقودها شخص واحد وإلى جانبه امرأة، فخرجت على الطريق، وأشارت له بيدي، فما كان منه إلا أن أوقف السيارة وهرب، ثم نزلت المرأة بهدوء لأنها كانت حامل ومشيت إلى ناحية السائق الذي هرب باتجاه المستعمرة، وتقدمت مع الجنديين نحو السيارة. لم يكن بيننا من يعرف قيادة السيارة، كما لم يكن معنا قنبلة يدوية لكي نفجرها، ولا لغم لكي ننسفها.. الأمر الذي كان مخجلاً. لقد وجدت في السيارة سلة صغيرة ملأى بالبرتقال وحقيبة طبية كاملة مع قطن، فأخذنا السلة والحقيبة الطبية، وذهبنا بين الصخور عائدين إلى مخفر العقدة، واتجه السائق مع المرأة نحو مخفر العدو، لم يكن بمقدور مخفر العدو أن يطلق النار نحونا لأن السائق والمرأة حامل كانا بيننا، اختفينا بين الصخور وعدنا باتجاه مخفرنا. طبعاً لم

يكن المخفر الإسرائيلي يبعد عنا إلا (200) متر تقريباً. وحين وصل الرجل والمرأة إلى المخفر الإسرائيلي، أي بعد دقائق عدة فقط قام الإسرائيليون بتفجير السيارة ظلنا منهم أننا قمنا بلغمها، فجرّوها بطلقة من مدفع مضاد للدبابات أو الدروع. حين فجرت السيارة استنفرت المفرزة، والسرية، وبدأ إطلاق النار بقذائف الهاون على مخفرنا. طبعاً حين حكينا القصة لقائد السرية والضباط الموجودين كانوا، جميعاً، يريدون الإثبات لذلك قدمنا الحقيبة الطبية وسلة البرتقال. هذه الحادثة جعلت قائد السرية يقنع قائد الفوج بأن ينتقل العناصر الذي يتدربون لدينا إلى مقرية من مدينة حمص، وهناك يكملون تدريبهم، وهذا ما حدث فعلاً. انتقل المتدربون، وارتحنا منهم.

امتحان الكلية الحربية...!!

أعادني قائد السرية عبد الوهاب حسن إلى مخفر البرجيات، وقال لي: في البرجيات لا عمل لك سوى القراءة من أجل أن تتجح في امتحان الشهادة الثانوية، وحين ستجح لك مكافأة مهمة.

وفعلاً درست المنهاج بشكل جيد وقدمت الامتحان لكنني لم أنجح من الدورة الأولى، وكان عليّ أن أقدم الدورة الثانية من أجل إكمال المواد التي لم أنجح بها، وقد حدث ذلك في الخريف. ولم أخبر أحداً بأنني قدمت الامتحان مخافة أن أرسب من جهة، ولأن ابن عمي موسى العلي قد نجح في الامتحان من الدورة الأولى. لكن وفي الدورة الثانية قدمت بشكل أفضل من الدورة الأولى، وقد قدمت الامتحان في مبنى القيادة القطرية الحالي لأنه كان مقرراً لدار المعلمين. وحدث أن كنت في مدينة القنيطرة، في يوم صدور النتائج، اشتريت جريدة فيها أسماء الناجحين، وبحثت عن اسمي فوجدته بين أسماء الناجحين وفرحت لأنني تخلصت من ضغط نفسي غير محتمل خصوصاً أمام زملائي ورفاقي وأقربائي وأهلي. كنت في الصيف قد تقدمت بطلب شرطي

للكلية الحربية، وحين نجحت أخذت وثيقة النجاح إلى دمشق إلى نادي الضباط، وهناك قدمت مقابلة، فحصني فيها الملازم أول عبد الكريم النحلاوي. سألني عن ثورة الجزائر فأجبت إجابات انتزعت إعجابه وذلك لأنني كتبت محاضرة عن ثورة الجزائر وألقيتها على زملائي وضباط السرية وصف ضباطها. وهذا ما كنا نعيشه فعلاً، وقد أجبت إجابات حماسية فأعجب بي الملازم أول عبد الكريم النحلاوي، وقال لي: اعتبر نفسك ناجحاً بالمقابلة وحضر نفسك للالتحاق بالكلية.

التسريح من الخدمة الإلزامية والاندفاع بالكلية الحربية..!!

في أواخر شهر تشرين أول جاء تسريحي من الخدمة الإلزامية بعد أن خدمت سنتين. كانت الخدمة سنة ونصف السنة فأصبحت سنتين، فقامت بتسليم ما عليّ من عهدة للجيش وأخذت براءة ذمة، وحضرت نفسي، وحقيقتي من أجل أن أذهب إلى دير الزور كمعلم مرة ثانية. خرجت من الجبهة، وذهبت إلى القنيطرة من أجل الوصول إلى دير الزور حيث كنت أخدم في التربية، وحين وصلنا إلى النيك. جاء رقيب ونادى في جميع الركاب من منكم أدّى خدمة العلم وسرح، فنزلنا نحن الذين أدينا الخدمة وتسرحنا فأخذونا إلى معسكر بداعي الاستدعاء إلى الاحتياط، أخذونا إلى معسكر القطيفة فتجمعنا هناك بانتظار مجيء الفرز. كنا في أيام الخميس والجمعة ننزل إلى دمشق، نقضي اليومين ثم نعود إلى معسكر القطيفة. كانوا في المعسكر قد أخذوا الهويات المدنية وأعطونا وثائق عسكرية تشير إلى استدعائنا للخدمة الاحتياطية، طبعاً كان هذا الاستدعاء بسبب العدوان الثلاثي على مصر وآثاره. وقضينا شهر تشرين الثاني وكانون أول في المعسكر، فترة كانت رياضة وأكلاً وشرباً ليس إلا. وكان أن أتى أحد الرقباء في المعسكر، وفي الاجتماع الصباحي، وصاح محمد إبراهيم العلي.. عليك الالتحاق بالكلية الحربية.

وقد التحقت في 7/كانون الثاني/1957 إلى الكلية الحربية، حيث كان الطلاب قد أمضوا ثلاثة أشهر فيها. وعُينت في فصيلة يقودها الملازم جميل الجندي، وهذا أول التحاق بالكلية الحربية، لكنني خدمت برتبة رقيب مجند سنتين، فلم يختلف علي الأمر كثيراً.

السنة الأخيرة.. من الكلية الحربية!

وبوَدِّي هنا أن أعود إلى الوراء قليلاً، إلى وجودنا في الكلية الحربية في عام 1958، كنا نقدم الامتحان الأخير، وكنا مقتنعين بأننا سننجح جميعاً، خصوصاً وأن علامتنا كانت جيدة، مثلاً كنت قد أخذت علامة 20 من 24 في مادة (دورة المدرب) وهي مادة مرسبة، وهكذا تقريباً في باقي المواد. وقد كان من بين الضباط الذين يشرفون على فحصنا عواد باغ، وعدنان نجار، وعمر البيك.. ومما أذكره أنني حين دخلت إلى اللجنة التي يشرف عليها النقيب عدنان نجار.. لم يسألني أي سؤال، واكتفى بأن قال لي: أنت محمد إبراهيم العلي لا تحتاج إلى أسئلة، الله معك. طبعاً كان يعرفني، ويعرف مقدرتي ومعلوماتي في مادته المرسبة (دورة المدرب). وقد تهيئنا جميعاً للمشاركة في حفل التخرج، واشترينا هدايا للضباط عبارة عن صورة لجميلة بوحيرد، وهواري بومدين ومصاحف شريفة، جهزنا الهدايا، وحضرنا الكلمة التي سنلقها في حفل التخرج. وذلك لأنه لم يخطر ببالنا الرسوب إطلاقاً. وفجأة أخبرونا في الصباح، وكان الحفل سيقام في المساء من اليوم نفسه، بأننا راسبون نحن خمسة أو ستة طلاب، كنا خمسة طلاب بعشرين معروفين بنشاطنا وأفكارنا وآرائنا. أنا، وسليمان حداد، وصالح عمران، وطاهر الشقفة، وأحمد نديم خديجة، وكان أيضاً إبراهيم قنوت.

الوحدة.. راية ننفق في فلوبنا!

في وقت الوحدة حدثت أمور عديدة كان من أهمها بالطبع الإنجازات التي جاءت بها الوحدة مثل التأميم، وقانون الإصلاح الزراعي. والمهم في الشأن السوري أن عدداً مهماً من السياسيين السوريين الذين كانوا على رأس القيادة السورية ممن يسمون بالرعيل الأول، تدمروا من تصرفات الرئيس عبد الناصر، وذلك لأنهم تنحوا جانباً وهم لا يزالون في أوج عطائهم وحضورهم السياسي، فمثلاً أكرم الحوراني كان في حوالي الخمسين من عمره، وشكري القوتلي الذي كان يعتبر أكبرهم في السن فهو في عمر الستين فقط، لذلك انزعج هؤلاء لأن الرئيس عبد الناصر نحاهم جانباً فبعد الاتفاق على الوحدة سلم الرئيس القوتلي القيادة للرئيس عبد الناصر، أما أكرم الحوراني الذي تسلم مهمة نائب رئيس الجمهورية لم يلبث أن اختلف مع الرئيس عبد الناصر وترك كل مسؤولياته السياسية. في ذلك الوقت كان عبد الناصر في الأربعين من عمره. أي أصغرهم، ومع ذلك كان المحيطون به ينافقون.. فيوهمونه بأنهم معه، وهم في الحقيقة يعملون على مشاريعهم الخاصة. والمشكلة تتلخص بأن غالبية الوزراء الذين جاء بهم عبد الناصر كانوا من الضباط. وحين حدث الانفصال اعتبروه ثورة وخطوة إيجابية مع أنهم كانوا قبل قيامه مع الوحدة.

طبعاً كانت هناك جملة من التناقضات، منها التدهور المالي والاقتصادي للحياة المعيشية للمواطنين، وتناقض الأفكار، وتصادم التوجهات، عبد الناصر كان ضد الرجعية العربية وممارساتها كالتقرب من الأمريكان والغربيين عموماً، وقد كان ممثلو الرجعية العربية والأمريكان ضد الوحدة، وعملوا خلال سنواتها على تشجيع الكثيرين للقيام بالحركة الانفصالية، حيث كانوا يفتندون أخطاء عبد الناصر ويبالغون في تضخيمها عبر وسائل الإعلام. أكيد أن أخطاء كثيرة اقترفها الضباط المصريون الذين عملوا في سورية، فهؤلاء، في المجمل العام، لم يكن لهم من هم سوى جمع المال عن طريق التجارة، والعودة إلى أسرهم في

مصر وبحوزتهم أكبر قدر من النقود، كما أن الضباط السوريين الموجودين في مصر لم يكن لهم من هم سوى المال والتجارة والعودة إلى سورية بأكثر قدر ممكن من النقود. لذلك فإن العلاقة كانت تبادلية بين الطرفين. لهذا فإن عمل هؤلاء الضباط في المجال السياسي كان بضغط من الدوافع المالية وليس بضغط من الدوافع الوطنية والقومية. وقد عملنا طويلاً في نقاشاتنا التي كانت تجري مع الضباط المصريين والسوريين معاً على ضرورة مجاوزة الأخطاء ومعالجتها بشكل جذري، وقد كنتُ جريئاً في طرح آرائي دونما خوف أو تحسب لأي شيء، لأنه لم تكن تحكمنا سوى توجهات قومية ووطنية، أما المصالح الشخصية فهذه لم تكن واردة في الحسبان قط. أذكر أنه في نقاشي مع صلاح الدين البيطار، حيث التقيت به في القاهرة بعد حادثة اللاذقية (المتثلة بخطاب عبد الناصر)، وكنت آنذاك طالباً في الكلية الحربية، لم أخرج بعد، سألته هل صحيح أنك قدمت استقالتك يا أستاذ صلاح! فقال: لا. لكن الحقيقة أن صلاح الدين البيطار جاء إلى القاهرة، ونزل في أحد الفنادق (فندق شبرد) من دون ضجيج أو إعلام. وقد ذهبت إليه وقابلته بعد أن تحدثت زملائي طلاب الضباط. تحدثت إليه باعتباره بعثياً، وباعتباري بعثياً. فقال لي: أنصحك بأن تنتهي دورة الكلية الحربية وأن تتخرج، ودعك من السياسة الآن، لأن المصريين إن عرفوا بأنك بعثي سيراقبونك، ويتابعونك، ويخلقون لك مشكلات لا تنتهي.. وهذا الكلام أوجهه إليك لتقله إلى زملائك من البعثيين. اعملوا على التخرج من الكلية الحربية، ومسألة حزب البعث نتحدث عنها فيما بعد، لكل شيء وقته. وأذكر أن الرئيس عبد الناصر ألقى خطاباً بعد الانفصال مباشرة اتهم فيه الأيدي الشريرة التي كانت وراء الانفصال. وهنا أود الإشارة إلى أن الثقة التي منحها عبد الناصر إلى عبد الكريم النحلاوي لم تكن في محلها قط، فلقد قام النحلاوي بممارسات عجيبة كانت بمثابة الأرضية المناسبة للانفصال. لقد قام بنقل الضباط في البحرية في سورية ومصر وفقاً لما يريده هو، كما قام بأعمال عديدة في جهاز المخابرات منها اعتماده على

ضباط توجهاتهم انفصالية كما قام بنقل ضباط من الكسوة إلى قطنا وفق توجه هدفه الأساسي هو أن يضمن السيطرة على العاصمة دمشق. وقد كانت أرضية النحلاوي دينية فتعاطف مع رجال الدين وأيدهم بعد أن ألقى عبد الناصر خطابه الشهير الذي قال فيه (أكبر لفة أشتريها بديك رومي) وقد عمل رجال الدين ضد عبد الناصر ولكن بشكل مبطن، وأذكر أن الشيخ محمد الحكيم في حلب، ألقى خطاباً تأييداً لعبد الناصر في أيام الوفاق، حيث قال: أيها الأخوة في الليلة المباركة الماضية رأيت نفسي في حضرة الرسول الكريم محمد (ص)، فقلت له السلام عليكم يا رسول الله فلم يرد عليّ، فمددت يدي لأصافحه فسلم عليّ بيده الشمال، فقلت: عفوك يا سيدي يا رسول الله، ما لك لا ترد علي السلام، ولماذا تصافحني باليد اليسرى، فقال: لأن يدي مشغولة بالسلام على جمال عبد الناصر. فصاح جميع الحضور الله أكبر، الله أكبر. وقد حدث هذا قبل الخلاف مع عبد الناصر، هذا الموقف الخلافي ما بين المشايخ وعبد الناصر كان سبباً مباشراً في تأزيم المواقف تجاه الوحدة. بالطبع كان هناك نفور عام تجاه الوحدة في بعض المحافظات السورية مثل دير الزور على سبيل المثال التي كانت اتجاهاتها قريبة من الاتجاهات العراقية آنذاك، خصوصاً علاقات جلال السيد، ونوري السعيد، وكلنا يعرف الخلافات الحادة التي حدثت بين دولة الوحدة والعراق في تلك الفترة. وكان هناك نفور من قبل أبناء جبل العرب تجاه الوحدة. عموماً، والسبب في ذلك تأثير السياسة الأردنية بتحريض المحافظات المجاورة. كل هذه الأمور عملت على فك أركان الوحدة السورية المصرية، وساعدت على قيام الانفصال. وأذكر أنه كنا في القاهرة، وعلى خط قناة السويس نعد لمناورة عملية تدور حول حماية قناة السويس إذا ما تعرضت إلى هجوم مفاجئ، وقد كان الضابط المصري يشرح لنا الخطة، وهي خطة تدرس في الكليات الحربية الأمريكية، أي في الحلف الأطلسي، فجأة دخل علينا ضابط آخر واقترب من الضابط المشرف على مشروع المناورة وهمس في أذنه، وعرفنا منه أن الإذاعة السورية تذيع أخبار الانفصال، وقد

توقف مشروع المناورة بالطبع، وأعلن الاستنفار العسكري. وقد حدث أن تدخل السياسيون في سورية وأيدوا الانفصال لأن مصلحتهم كانت مع الانفصال الذي سيعيدهم إلى كراسي الحكم مرة ثانية، وقد أيدته بعض الدول العربية التي لم تكن على علاقة جيدة بالوحدة، وبذلك قويت شوكة الانفصاليين من الضباط بعد انضمام السياسيين القدامى إليهم.

الاجتماع بأكرم الحوراني!!..

اجتمع قادة الكلية بنا وأبلغونا بالرسوب، وكانت هذه من أكبر المفاجآت بالنسبة إلينا، وذلك لأنه لا يحدث رسوب عادة في الكلية. وقررنا أن نذهب إلى الأركان في دمشق لمراجعة هيئة التدريب. بعضنا اقترح أن نراجع وزير الشؤون الاجتماعية والعمل (عبد الغني قنوت كونه بعثياً)، لذلك قلت لرفاقي لماذا كل هذا الدوران فلنذهب إلى أكرم الحوراني مباشرة فهو نائب رئيس الجمهورية، والرجل ابن البلد ويعرفنا، وهو من نعرفه أكثر من غيره. وقد أخذوا برأيي، فسافرنا إلى دمشق، وتوجهنا مباشرة إلى القصر الجمهوري، وقد كان سليمان حداد أكثرنا توتراً وعصبية بينما كنت هادئاً، واجتمعنا بأكرم الحوراني، شرحنا له القصة، وخلصنا إلى القول بأن الخلافات بين قادة الكلية (كان مدير الكلية المقدم أمين الحافظ، وكان أمر الدورة الرائد عبد الكريم النحلاوي الذي نُقل إلى إدارة شؤون الضباط)، أدت إلى نتيجة الرسوب، وأن الصراعات السياسية كان لها دورها في هذا المجال، فقال: بسيطة. وأخذ الهاتف، وخاطب مصطفى حمدون في الأركان وسأله عن سبب رسوبنا، وهل يحدث مثل هذا الأمر في الكلية، فأجابه مصطفى حمدون بأن الرسوب في الكلية الحربية أمرٌ عادي في الكلية المصرية، وقد أراد المصريون أن يطبقوا نظام الرسوب على الكلية الحربية في سورية أيضاً. وهنا قال أكرم الحوراني: لكن هؤلاء الشباب متحمسون وأصحاب نخوة، وروحهم معلقة بالوحدة والقومية العربية فكيف

يرسبون؟ ورغم هذا كله لم نصل إلى نتيجة. حاول أكرم الحوراني أن يطيب خاطرنا وأن نخرج من عنده راضين.

عبد الغني فنوت ينصنا..!!

بعد ذلك ذهبنا إلى عبد الغني فنوت وقد كان وزيراً آنذاك، وهو عازب، فاستقبلنا بترحيب كبير، وقام بصنع القهوة لنا، لكن أحدنا، وهو صديق زوزو قال له لا يجوز، وأخذ من يده صينية القهوة. قال له: عيب أنت وزير، ونحن طلاب ضباط. وبينما هو يدور بالصينية وقعت الصينية من يديه واندلقت القهوة، وكُسرت الفناجين. فقال عبد الغني فنوت: بسيطة واندلاق القهوة فآل خير. وحاول أن يعود مرة ثانية ليصنع لنا قهوة جديدة، لكننا رفضنا، وقلنا له: نريد حلاً لمشكلتنا. فقال باختصار شديد: اذهبوا إلى الكلية الحربية وأكملوا السنة الدراسية، وتخرجوا من هناك أحسن لكم. وخرجنا من عنده ونحن لا ندري ماذا نفعل حقيقة. وقرّر قرارنا على أن نذهب مرة ثانية إلى أكرم الحوراني، إلى بيته هذه المرة، واخترنا اثنين من بيننا، أنا وأحمد نديم خديجة. ذهبنا إلى بيته في القصاع، وكان يسكن في شقة بالطابق الثاني. طرقتنا الباب، فخرجت إلينا فتاة، قلنا لها، نريد مقابلة (أبو رشيد)، فدخلت البنت وخرجت لتقول لنا بأنه غير موجود. عندئذ استشاط أحمد نديم خديجة غضباً وصرخ بها لاعناً وشاتماً، وقال لها: أخبريه بأننا لا نريد منه شيئاً، فأمثاله لا يخدمون الفقراء، وأبناء الفلاحين. وبينما هو يصرخ، خرج أكرم الحوراني. وحاول أن يهدئ أحمد نديم خديجة، وأن يرضيه، إلا أن أحمد ثار أكثر وقال له لو أنك تعطينا نجمة الملازم الآن لن نأخذها وخرجنا غاضبين، وعاد أكرم الحوراني إلى داخل بيته، وهو يرجونا أن ندخل إلى بيته لكننا رفضنا رفضاً قاطعاً. وذهبنا إلى الفندق حيث كان رفاقنا بالانتظار. وعندما سألونا ماذا حدث. صرخ بهم أحمد نديم خديجة، وقال لا أحد يسألني عن أكرم الحوراني،

وعليكم أن تجهزوا أنفسكم للذهاب إلى القاهرة للدراسة في الكلية الحربية والنجاح، ليس أمامنا من حلّ إلا هذا، ولن نذل أنفسنا أكثر من هذا. وفعلاً ذهبنا إلى المطار. وقد كنت أنا وأحمد نديم خديجة أول من التحق بالكلية الحربية بالقاهرة، وهناك استقبلنا الطلاب بحفاوة كبيرة. وطيبوا خاطرننا، وقالوا لنا بأن الرسوب في الكلية أمر عادي، وأنه يوجد العشرات من الطلاب الراسبين. طبعاً النظام في الكلية الحربية بالقاهرة كان أشبه بالنظام (العصملي)، ولم نلاحظ بأن الأنظمة العسكرية الإنكليزية موجودة. بصراحة كنا في حالة قرف من أنظمة الكلية والمفردات العثمانية المستخدمة مثل الشاويش، واليوزباشي، وتامام يا فندم، والميس... الخ. وهناك في القاهرة تذكرت كلمات عبد الغني قنوت التي وجهها إليّ، حين قال لي لماذا ذهبت يا محمد إلى الكلية العسكرية. مكانك الأساسي كان في التدريس أو السياسية، أو الحزب.

أخو عبد الناصر معنا في الكلية الحربية...!!

صادف أن كان في الكلية أخو الرئيس عبد الناصر فطلبنا منه بعد أن تعرفنا إليه أن يسعى لنا بمقابلة مع الرئيس عبد الناصر، لنحكي له قصة رسوبنا في الكلية الحربية في سورية ليحل لنا المشكلة، فما كان منه إلا أن ضحك بصوت عالٍ، وقال: يا جماعة أنا صار لي سنتين في هذه الكلية أرسب في صفّي (أوف كورس هكذا كان يسمي الرسوب)، ولا أجد في الأمر مشكلة. ورغم ذلك لم يقتنع سليمان حداد، وبقي مصرّاً على مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر. وحاولت، قدر الإمكان، أن أقنعه بأن علينا أن نتأقلم شيئاً فشيئاً مع أجواء الكلية وذلك لأن النظام العام في الكلية كان صعباً ومختلفاً كثيراً عما عايشناه في الكلية الحربية في حمص. وفقدنا أعصابنا مرة ثانية حين صار بعض الضباط السوريين مدربين في الكلية الحربية الذين كانوا سبب رسوبنا في حمص، وقد كانوا ضدنا من حيث المبدأ ومنهم مهيب الهندي، وناصر الدين

ناصر، وزهير الحموي.. مما يؤكد بأننا سنرسم مرة أخرى وذلك لأن هؤلاء المدربين كانوا هم أنفسهم الذين يدرّبوننا في حمص. ولذلك قررت من جهتي أن أستقيل من الكلية قبل التقدم إلى الفحص بأسبوع.

طلب استقالة من الكلية.. ومقابلة محمد فوزي!

كان مدير الكلية آنذاك اللواء محمد فوزي، وهو ضابط شديد جداً لا يتوانى عن معاقبة أي طالب أشدّ العقوبات بمجرد مروره في ساحة الكلية أثناء أوقات التدريب، ولكنه كان معروفاً بمراعاته للطلاب السوريين، ولذلك تحمست من أجل مقابله، وذهبت إليه. كان رجلاً لطيفاً. قلت له أريد أن أستقيل من الكلية لأن الضباط المدربين الذي رسّبوني في سورية أصبحوا مدربين في الكلية الحربية بالقاهرة، ولذلك أنا متخوف من أن يرسموني مرة أخرى. طبعاً قابلته قبل أسبوع من التخرج، وقلت له أريد أن أترك الكلية، ولذلك تعجب كثيراً. وسألني عن أحوال أسرتي، وأهلي فأخبرته أنني فلاح وابن فلاح، وأنتي دخلت إلى الكلية لقناعتي بأنني قادر على خدمة الوطن في هذا المجال. وفي ختام اللقاء، قال لي: عليك أن تدرس، وتتجج، ونحن نريدك ضابطاً مادمت قد اخترت هذا الاتجاه لحياتك. أما بالنسبة للمدربين فلا تتوهم بأنهم سيكونون ضدك، وأنا بنفسني سأتابع الموضوع. وانصرفت من عنده وأنا مملوء بالثقة، فلقد أعاد إليّ مدير الكلية محمد فوزي الثقة بنفسني من جهة وباختياري لأن أكون ضابطاً من جهة ثانية، وفعلاً درست قدر طاقتي، وقدمت الامتحان، ونجحت. وكنت من بين الضباط المتخرجين المتميزين في تلك الدورة. وأذكر أن من الأمور التي قلتها لمحمد فوزي أنني فرضت بالقوة على طلاب الكلية الحربية في سورية أن يستمعوا لخطاب عبد الناصر، وقد حاول قسم منهم أن يستمع إلى عبد الحليم حافظ فرفضت بشدة، وأجبرت جميع من كانوا حاضرين على الاستماع للخطاب، ودار بعد سماعه، حوار مهم حول

القومية، والوطنية، والوحدة، والأحلاف، والاستعمار. بل إن الذين كانوا يودون سماع عبد الحليم حافظ، أثتوا عليّ وقالوا: عبد الحليم من الممكن سماعه في أي وقت، لكن الرئيس لا يُسمع إلا في وقته! ولكن للأسف عاقبني ضباط الكلية على ما قمت به. وقلت له حكايتي مع تدريس البدو، ونييتي في أن أعود إلى التدريس. فقال كما ذكرت سابقاً، لا، عليك أن تدرس وتتجج لتتخرج ضابطاً. وقلت له أيضاً كنت أودّ الذهاب إلى القتال في الجزائر. وأنا الآن أريد أن أقاتل في فلسطين، وأحلم أن أكون ضابطاً في المظلات لأنزل في وسط الكيان الصهيوني. وفي نهاية المقابلة أخذ طلب استقالتني ومزّقه أمامي، وقال: أريد من أن تصبح ضابطاً، وفي المظلات أيضاً. ونادى كبير معاونيه، وقال له: انتبه لهذا الطالب، أريده أن يصبح ضابطاً، وفي المظلات أيضاً.

ضابطاً.. في سلاح المظلات!

وحقيقة الأمر أن الدخول في سلاح المظلات كان صعباً، ويحتاج إلى قرار من قبل المشير عبد الحكيم عامر، لذلك حين نجحت في الكلية، انخرطت في سلاح المظلات، وقد كانت التوصية من قبل اللواء محمد فوزي حيث قال للمشير عبد الحكيم عامر يوجد ضابط من الإقليم الشمالي ممتاز، ونريده أن يكون في المظلات، وقد تمّ ذلك فعلاً.

وحين ذهبت إلى المظلات فوجئت بوجود الرائد بسام العسلي هناك (والآن بعد مرور اثنتين وأربعين سنة أصبح بسام العسلي من أصدقائي)، وكان من جماعة النحلاوي، وخفت أن تثار المشكلات من جديد. وفعلاً حين واجهت الرائد بسام العسلي، سألتني بسخرية: تريد أن تصبح مظلياً؟! قلت له: نعم. قال بحدة: اعتبر نفسك راسباً من الآن. وقد حاول فعلاً أن يرسبني، لأنه ذهب إلى قائد الدورة وقال له: محمد إبراهيم العلي سيرسب في الدورة. فقال له مدير الدورة: أمر نجاح الدورة للجميع جاء من المشير وانتهى الأمر، فأسقط

في يده. وفعلاً اندمجت في دورة المظليين ونجحت فيها وبتفوق. ثم دخلت إلى دورة صاعقة أيضاً ونجحت فيها كذلك. وكان أن تعرفت إلى النقيب حافظ الأسد الذي جاء لزيارتي مع النقيب نزار الجندي الذي كان يتردد عليّ في مكان سكني في القاهرة. وكان نزار الجندي قد أعطى النقيب حافظ الأسد فكرة جيدة عني، ولذلك قامت بيننا صداقة وطيدة في القاهرة. كنت أذهب إليه وكان يأتي إليّ مع نزار. كما تعرفت إلى الكثير من الضباط السوريين الذين كانوا يعملون في القوات المسلحة فوق الأراضي المصرية آنذاك مثل أحمد صقر، وخالد رسلان، وكنا جميعاً في أمكنة سكن متقاربة ومتجاورة، وقد كان الرئيس حافظ الأسد عازباً في عام 1959. وكنا نشترك في العروض العسكرية، أعتقد أن جميع الضباط السوريين كانوا يشاركون في العروض العسكرية.



الفصل
الخامس

من الوحدة.. إلى الانفصال!

مقدمو الجيش يُلَنفون عبد الناصر من أجل الوحدة..!!

في أواخر عام 1956، وعلى إثر حرب السويس، والعدوان الثلاثي على مصر، كانت الجماهير العربية شديدة الفوران وقد التفت الجميع حول عبد الناصر، ونادت به الجماهير قائداً للأمة العربية. وقد أسهمت هذه الجماهير التي خرجت تردد اسم عبد الناصر في جميع أنحاء البلاد العربية.. أسهمت في إلهام الشعراء الكثير من القصائد الوطنية والقومية. أذكر أن الشاعر سليمان العيسى المعروف بقصائده الوطنية كتب قصيدة مطلعها:

من المحيط الهادر إلى الخليج النائر

لبيك عبد الناصر

صارت بمثابة شعارات يردد الناس في المظاهرات الشعبية. وقد تجاوزت الجماهير العربية مع البطولات التي جسدها الجماهير الشعبية في مصر التي أحبطت العدوان الثلاثي (الإنكليزي - الفرنسي - الإسرائيلي) في منطقة السويس، وأصبح عبد الناصر قائداً قومياً تسير وراءه الجماهير العربية، خصوصاً بعد أن أمم قناة السويس، وبعد الانتصار الشعبي الكبير في حرب السويس. وأشير هنا إلى التحالف الوطني والقومي الكبير ما بين سورية ومصر، فقد سجل أحد ضباط البحرية السوريين جول جمال مفخرة بطولية كبيرة حين دمر إحدى المدمرات الأجنبية الغازية بطوربيده الصغير، وكذلك قامت سورية بوقف ضخ البترول للبلاد العربية حين عطلت تدفق البترول في خطوط التابلاين التي تمر في الأراضي السورية.

في ظل هذه الظروف الدولية المعقدة، والانتصارات الوطنية، التفت جماهير حزب البعث العربي الاشتراكي حول فكرة الوحدة مع مصر، والمناداة بـ عبد الناصر قائداً عربياً لهذه الوحدة. وذلك لأن عبد الناصر كان القائد العربي الذي شجع الثورة الجزائرية على الاستمرار في قتال الفرنسيين حتى

ينال الشعب الجزائري الاستقلال، وقد أمد الجزائريين بالسلاح، كما شجع الحركات القومية العربية في الوطن العربي لكي تبلور مشاريعها الثورية.

في تلك الأثناء كنت طالباً في الكلية الحربية في سورية (حمص)، وقد كنا نستمع للإذاعات العربية، ونقرأ الصحف، ونتبع الأحداث، وقد كان مدير الكلية الحربية المقدم أمين الحافظ، اندفعت الجماهير العربية كلها باتجاه عبد الناصر، وباتجاه الوحدة، وفي أواخر عام 1957 في كانون الأول التهبت الجماهير أكثر، بدأت الحماسة يأخذ ذروتها، بعدما انسحب الإسرائيليون من أطراف قناة السويس، وبدأت تتضح أهداف المشاريع الأمريكية في المنطقة. هذا الضغط الجماهيري على الحكومة السورية وخاصة من قبل الجيش السوري جعل عدداً من الضباط، ومن رتب مختلفة، أقلهم مقدم وأكبرهم عقيد.. يندفعون باتجاه عبد الناصر لذلك تحمسوا فاتفقوا على الذهاب إلى القاهرة لملاقاة عبد الناصر وفعلاً ركبوا في طائرة، وذلك في كانون الثاني 1958 وذهبوا إلى القاهرة. طبعاً كانت هناك اتصالات، مع القاهرة لكي يقابلوا الرئيس عبد الناصر. بتقديري الشخصي هذه كانت مفاجأة لعبد الناصر، لأن 14 ضابطاً من الجيش السوري اجتمعوا وكتبوا مذكرة حول عزمهم الذهاب إلى القاهرة ومقابلة جمال عبد الناصر من أجل إقامة الوحدة وبشكل فوري. نسخة من هذه المذكرة أرسلوها إلى رئيس الجمهورية السورية آنذاك (شكري القوتلي)، ونسخة أخرى أرسلوها إلى صبري العسلي رئيس الوزراء. وقد بلغ رئيس الأركان هذه المذكرة بنسختيها إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة وأعلمهما بسفر الضباط إلى القاهرة. طبعاً ركب الضباط الطائرة وذهبوا إلى القاهرة، وهناك، استقبلهم معاون المشير عبد الحكيم عامر، ليعرف منهم الغرض من وراء زيارتهم، وحين اتضح له أن الهدف يتمثل في رغبتهم بإقامة الوحدة ما بين مصر وسورية، بلغ معاون المشير عبد الحكيم عامر الذي استقبلهم بدوره وعرف منهم حقيقة ما يريدونه. طبعاً نزل الضباط السوريون في قصر الطاهرة في مصر الجديدة، وهكذا انقضى اليوم الأول دون أن

يستقبلهم عبد الناصر وذلك من أجل أن يعرف من المشير عبد الحكيم عامر طلبات الضباط السوريين، وحين أعلم المشير عبد الحكيم عامر الرئيس عبد الناصر رغبة الضباط السوريين في إقامة الوحدة، استغرب عبد الناصر ذلك الأمر لما فيه من استعجال وعاطفة نبيلة، لهذا لم يجتمع بهم الرئيس مباشرة، بغية دراسة طلباتهم أولاً والنظر فيها وقد رأى بعد التدقيق أن هؤلاء الضباط متحمسون وقد أخذتهم العاطفة الوطنية والقومية معاً لذلك جاؤوا إلى القاهرة دون تخطيط أو دراسة مستفيضة لأفكارهم وطموحاتهم. وهنا أعتقد أنه كان يوجد بداخل كل واحد من هؤلاء الضباط، أعني الضباط السوريين، مصالح ذاتية جعلتهم يتسابقون إلى عرض الوحدة على عبد الناصر وأخص بذلك الضباط غير البعثيين، وأظن أن ذلك كان من حقهم الطبيعي، ولا بد من الإشارة كذلك إلى أن أعمار هؤلاء الضباط كانت متقاربة مع عمر عبد الناصر، مع أنه كان يوجد ضابطان أكبر من عبد الناصر في العمر. وفي اليوم التالي اجتمع معهم عبد الناصر، وقال لهم إن الوحدة هي حلم العرب وحلم الأجيال كافة، ولكن الاستعمار والرجعية والتآمر على الوحدة سيكون كبيراً، وكى لا نقع في مطبات علينا أن نجعل الخطوة الوحيدة الأولى على شكل اتحاد أولاً. في هذا الوقت كان رئيس الأركان السوري قد ذهب إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبلغهما المذكرة التي تركها الضباط قبل ذهابهم إلى القاهرة.. وقد كان للحزب دور كبير في الحكم، وعندئذ كُلف صلاح البيطار بالحقاق بالضباط فسافر إلى القاهرة، وهناك استقبل من قبل عبد الناصر. وقال له إن هؤلاء الضباط متحمسون للوحدة، وعلينا أن نفكر كثيراً قبل الإعلان عن قيام الوحدة. وهنا أشير إلى أن فكرة أكرم الحوراني كانت متطابقة مع فكرة عبد الناصر، أي أن يتم اتحاد بين البلدين سورية ومصر كخطوة أولى، ولكن اندفاع الضباط لم يستطع وقفه أكرم الحوراني.. وبذلك بدأت مفاوضات الوحدة، وبدأت الخطوات الأولى بتوحيد الجيش والاتجاه السياسي، ومن ثم تم الاتفاق على معالجة باقي المشاريع الوحيدة وترك أمر

صياغة الإجراءات للإداريين. وفعلاً وافق عبد الناصر على المشروع الوحدوي وعُقد اجتماع في القاهرة، وذلك حين ذهبت الوزارة السورية إلى مصر لمقابلة عبد الناصر.. أقصد أن أكرم الحوراني وكل الوجوه السياسية السورية المعروفة آنذاك ذهبت إلى مصر، حتى إن البرلمان السوري ذهب بكامل أعضائه إلى مصر، وهناك استمر الطرفان السوري والمصري في اجتماعات مطوّلة بدأت من أواخر كانون الثاني 1958 عبر نقاشات وحوارات ومراجعات وصياغة للمراسيم والتشريعات حتى 20 شباط 1958، وقرروا في هذا التاريخ أن يتم إعلان الوحدة، ولكن عبد الناصر جاء إلى سورية في 22 شباط، واستقبل استقبالاً عظيماً من قبل الجماهير السورية كافة.. وأعلنت الوحدة من قصر الضيافة في دمشق في 22/2/1958 واعتبر هذا التاريخ هو عيد الوحدة. وقد كنت يومذاك طالباً في الكلية الحربية، وكنا نستمع إلى خطاب إعلان الوحدة بصوت جمال عبد الناصر من الراديو، ونحن نجلس في (ندوة) الكلية الحربية، وفي هذه الأثناء، ونحن نستمع للخطاب قام أحد طلاب الكلية وغير الإذاعة التي تبث الخطاب إلى إذاعة أخرى، وهنا غضبتُ فقمْتُ وغيّرتُ الإذاعة وأعدتُها إلى إذاعة القاهرة التي تبث خطاب الرئيس جمال عبد الناصر لكي نعرف حقيقة ما يحدث، وهو حدث خطير بالفعل لاسيما وأنه يتعلق بالوحدة، وقد حدثت مشادة كلامية بيني وبين هذا الطالب وصلت أخبارها إلى أمر الدورة في الكلية وهو عبد الكريم النحلاوي الذي قام بوضع علامات متدنية لي في الامتحان مما سبب رسوبي بسبب موقفني الوحدوي من عبد الناصر. وظلّ عبد الكريم النحلاوي من ذلك الوقت يُضمّر لي سوء لأمرين اثنين، الأول: لأنني بعثي، والثاني: لأنني وحدوي.

حين قامت الوحدة، تابعت دراستي، وقد دفعت ثمناً غالياً بسبب موقفني منها، فتعرّضتُ للكثير من المشكلات التي أثارها ضدي الضباط الذين رأوا أن الوحدة تُفقددهم الكثير من ميزاتهم ومصالحهم.

كانت مصلحة هؤلاء الضباط تقتضي منهم الاندفاع باتجاه الوحدة لأن

الوحدة راحت تلبي مصالحهم وتحققها، ولكنهم انقلبوا على الوحدة حين أصبحت لا تحقق مصالحهم، فبدؤوا بالتآمر عليها، وهؤلاء الضباط الذين تحمسوا للوحدة في البداية هم الذين شجعوا على الانفصال، وعندما وقع الانفصال وقعوا هم على وثيقة الانفصال ولذلك فهم يستحقون اللعنة من الجماهير العربية كافة المؤمنة بالوحدة لأنهم كانوا مارقين. وذلك لأنني أستغرب كيف أنهم هم الذين وقعوا وثيقة الوحدة، ثم عادوا بعد سنتين فوقعوا وثيقة الانفصال، الخلاف يبدو من خلال مصالحهم التي لم تكفلها أو تحققها الوحدة فانقلبوا عليها.

شكري القوتلي.. الرجل النبيل!

في تلك الفترة كان موقف عبد الناصر واضحاً باتجاه حلف بغداد، فقد أرسل القوات المصرية إلى حلب، وشجع الجماهير العربية السورية على أن تقاوم الأحلاف والمعاهدات الخارجية، وكل التوجهات غير القومية مثل تغيير اللغة والحرف العربي والكتابة بالحرف اللاتيني. وأذكر أن الخلاف اشتد داخل قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي بين أكرم الحوراني من جهة، وميشيل عفلق وصلاح البيطار من جهة ثانية، فبعد أن اندفع هؤلاء الأساتذة باتجاه الوحدة، وقد كان كل منهم أكبر من عبد الناصر بسنوات عدة، ويشعر كل منهم أيضاً بأنه هو من سيقود عبد الناصر، وقد تطور هذا الخلاف إلى طرح فكرة حل الأحزاب في سورية، فما كان من هؤلاء الثلاثة إلا أن وافقوا على حل الحزب كحل لمشكلاتهم الذاتية.

في تلك الفترة، بقي أكرم الحوراني نائباً لجمال عبد الناصر، كما بقي صبري العسلي نائباً له أيضاً، أما شكري القوتلي فأخذ اسم مواطن الشرف الأول في الجمهورية العربية المتحدة، وبرأيي الشخصي أن شكري القوتلي أثبتت أنه أشرف من الآخرين، وأن مواقفه الوطنية والقومية كانت أكثر صدقاً.

وهنا بدأت الرجعية العربية بتشجيع من بعض الحكام العرب وبتشجيع من رجال الدين في سورية الذين وقفوا ضد الإصلاح الزراعي والتأميم هؤلاء قاموا بتشجيع بعض الضباط غير المؤمنين بالوحدة من أجل المبالغة بأخطاء الوحدة، ومن أجل تكبير أخطاء عبد الناصر في القيادة، وعزز هذا الاتجاه أكرم الحوراني لخلافه مع عبد الحميد السراج، فالسراج عمل على تكبير أخطاء أكرم الحوراني، كما عمل على تكبير الأخطاء في سورية إجمالاً لكي يبدو أنه هو من يعالج الخطأ بعد تكبيره على (طريقة المخابرات).. وهذا الأمر معروف في عمل المخابرات في العالم أجمع، فالسراج عمل على تكبير الأخطاء داخل سورية التي حدثت من قبل المشير عبد الحكيم عامر، حتى يبقى صاحب الثقة الكبرى عند عبد الناصر، وقد اتهم أكرم الحوراني بأنه صاحب أخطاء كثيرة في هذا المجال، وذلك لصراع صغير من أجل النفوذ المحلي في مدينة حماة بين السراج والحوراني، لهذا عمل الحوراني على تشجيع الانفصاليين من أجل إنهاء الوحدة، وهكذا تحالف عبد الكريم النحلاوي مع عدد من الضباط فعينهم في مراكز مهمة داخل الجيش السوري، وقد كان النحلاوي يتمتع بثقة مطلقة من قبل القيادة المصرية. والسبب يعود لأنه كان معاوناً لمدير إدارة شؤون الضباط المصري في سورية، وقد استطاع خداعه. وهنا لابد من أن أذكر أن المشير عبد الحكيم عامر عين بعض قادة الوحدات من الضباط السوريين المرتبطين بالمخابرات المصرية مثل جاسم علوان، وعبر التاريخ في كل العالم الضابط الذي يتسلم قيادة ويكون مرتبطاً بالمخابرات لا يكون ضابطاً حقيقياً. أقو ذلك لأن اللواء الذي قام بالانفصال هو اللواء /72/ وقد كان بقيادة جاسم علوان، مركزه في قطنا.

ومن الأمور التي أود أن أذكرها في هذا المجال، أن أحد الضباط الذين ذهبوا إلى مصر من أجل توقيع وثيقة الوحدة هو أحد الذين وقعوا على بيان الانفصال، وقد كان قريباً قبل ذلك من عبد الناصر، بل كان وزيراً حتى يوم الانفصال، هذا الضابط ألف كتاباً بعد الانفصال اعتبر فيه أن الانفصال ثورة،

وذلك من أجل يرضي الانفصاليين ومن أجل أن يتسلم منصباً. إذاً كانت مصالح هؤلاء الضباط طاغية على كل شيء، ولن أذكر اسم هذا الضابط كي لا أخلده.

لقد أظهر الجيش العربي السوري تأييده الحاسم لمطلب الوحدة الكاملة بسبب الدعاية النشطة التي شنّها حزب البعث العربي الاشتراكي داخل الجيش من جهة، والسعي الصادق لجماهير الضباط وصف الضباط نحو الوحدة من جهة أخرى.

مذكرة الضباط.. بشار الوحدة!

في 12 كانون الثاني 1958 أقول: توجه 14 ضابطاً إلى القاهرة دون علم الحكومة تاركين وراءهم الزعيم النفوري نائب رئيس الأركان لتقديم مذكرة إلى الحكومة لشرح رحلة الضباط المفاجئة إلى القاهرة. وفي صباح اليوم المذكور استقبل وزير الدفاع خالد العظم الزعيم أمين النفوري الذي سلمه مذكرة الضباط المؤرخة في 1958/1/11 والتي أكدت أن الوحدة بين سورية ومصر ضرورة قومية مستمدة من ماض وحاضر ومستقبل مشترك، وأن القطرين عبرا عن إرادتهما في الوحدة الكاملة، وخاضا المعارك ضد الرجعية الداخلية والاستعمار الخارجي، حتى توصلا إلى هذه المرحلة التي مكنتهما من إعلان إرادتهما رسمياً على لسان ممثليهما في الجلسة التاريخية المنعقدة بتاريخ 18/ تشرين الثاني / 1957 في دمشق، وحددت المذكرة شكل الوحدة بأنها (اندماجية لها دستور واحد، ورئيس واحد، وسلطتان تشريعتان وتنفيذيتان موحدتان، وقائد أعلى للقوات المسلحة، ومجلس دفاع أعلى)، وحملت المذكرة كل حكومة أو فئة تتهاون في تنفيذ هذه الوحدة خطورة عملها ونتائجها أمام الشعب.

وقد اجتمع مجلس الوزراء الذي أذهلت بعض أعضائه المفاجأة، ونوقشت

مذكرة الضباط، وتقرر إيفاد وزير الخارجية صلاح البيطار إلى القاهرة للاطلاع على محادثات الضباط مع الرئيس جمال عبد الناصر، دون تخويله سلطة البحث في أي مشروع وحدة مع مصر، فلم يجد صلاح البيطار بداً من الانضمام إلى وفد الضباط احتراماً للتسويق المسبق بين حزب البعث العربي الاشتراكي وهؤلاء الضباط القوميين.

وفي 20/كانون الثاني أعلنت صحيفة الأهرام: «أن قراراً تاريخياً قد اتخذ بعد اجتماع طويل تم بين عبد الناصر وكل من البيطار وعفيف البزري، أكد المجتمعون بأن الوحدة دخلت مرحلة حاسمة وعميقة». ونقلت الأهرام عن البيطار قوله: «تم الاتفاق على شكل الاتحاد العضوي ومحتواه بين مصر وسورية».

وفي 22/كانون الثاني اجتمع مجلس الوزراء السوري للاطلاع على محضر الاجتماع الذي عُقد بين البيطار والضباط من جهة، وبين الرئيس عبد الناصر من جهة ثانية. وقد فوجئ بعض الوزراء بنص المحضر الذي جاء فيه: «تتحد سورية ومصر في دولة واحدة نظامها جمهوري رئاسي، يتولى السلطة التنفيذية فيها رئيس منتخب هو رئيس الدولة، ويتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد منتخب انتخاباً حراً مباشراً من الشعب». ونصّ المحضر على المراحل التنفيذية لتحقيق الوحدة كما يلي:

اجتمع الرئيسان والحكومتان في القاهرة [سافر الوزراء السوريون ومجلس النواب وبعض العسكريين إلى القاهرة جميعاً وجرت اجتماعات طويلة]، واتخذت القرارات التالية:

1- اجتماع الرئيسين والحكومتين في القاهرة لإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة.

2- اجتماع المجلسين التشريعيين في دمشق والقاهرة لإصدار القرارات التالية:

1. قيام الدولة العربية الواحدة.
2. ترشيح رئيس الجمهورية الجديد.
3. تفويض رئيس الجمهورية المنتخب بإصدار دستور مؤقت.
4. استفتاء الشعب على القرارات التشريعية وانتخاب رئيس الجمهورية.
5. يعلن رئيس الجمهورية المنتخب الدستور المؤقت.
6. يتم تشكيل الوزارة الجديدة.
7. يضع رئيس الجمهورية الخطوات التنفيذية للدستور الدائم، الاتحاد القومي، الانتخابات لمجلس الأمة الجديد، توحيد مرافق الدولة.
8. وفي 30 كانون الثاني بدأت الخطوة التنفيذية الأولى لقيام الوحدة حيث انتقل رئيس الجمهورية شكري القوتلي ومجلس الوزراء ومجموعة من الضباط إلى القاهرة تمهيداً لإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة.
9. وفي 1 شباط 1958 كلف جمال عبد الناصر السيد صبري العسلي أن يعلن من شرفة قصر شويكار بالقاهرة محضر اجتماع الوفدين السوري والمصري أمام الجمهور المصري المحتشد ومما جاء في الإعلان:
10. «إن الوحدة هي ثمرة القومية العربية، وهي طريق العرب إلى الحرية والسيادة، ولهذا وجد المجتمعون أن من واجبهم الخروج بالوحدة من نطاق الأمانى إلى حيز التنفيذ».
11. وفي 5 شباط اجتمع مجلس النواب السوري لتنفيذ الخطوة الثانية، حيث تلقت رسالة رئيس الجمهورية فوقع النواب على محضر إعلان الوحدة وترشيح الرئيس جمال عبد المناصر لرئاسة الجمهورية، وإجراء الاستفتاء العام لانتخاب رئيس الجمهورية، ومنحه صلاحية إصدار الدستور المؤقت.
12. وفي 22 شباط 1958 تم الاستفتاء في سورية ومصر على انتخاب رئيس

الجمهورية ومنحه صلاحية إصدار الدستور المؤقت فجاءت نتيجة الاستفتاء فوز الرئيس جمال عبد الناصر بنسبة 99.25%.

وفي 22 شباط زار الرئيس عبد الناصر سورية، وأعلن نتيجة الاستفتاء من شرفة قصر الضيافة، وكانت الثلوج تغطي سورية، وذهب في السيارة إلى حلب، وانقطع في قارة، وتتوقف فيها إلى اليوم الثاني حيث سافر إلى حلب في اليوم الثاني بعد أن فتحت الطرق وصلى في جامع حلب الكبير.

وفي 5 آذار أعلن رئيس الجمهورية الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة، وأصدر في اليوم التالي مراسيم تشكيل أول وزارة وحدوية.



الفصل
السادس

من السجن.. إلى قيادة
الحرس القومي!

من نافذة الزنزانة..!!

كان يوم 7 آذار يوماً عصيباً بالنسبة إليّ. وقد اجتمعت مع العميد لؤي الأتاسي داخل السجن، وفي غرفته، وكان النقاش حول تنفيذ حكم الإعدام بحقي، ولكنني كنتُ متماسكاً جداً، وكأن الإعدام لا شيء بالنسبة إليّ، وكان ينظر إلى وجهي ملياً، ولا يعرف ما يقول. ويبدو أنهم قرروا تنفيذ حكم الإعدام يوم 9 آذار، هكذا عرفنا داخل السجن، ولكن ما كان يعزز ثقتي هو أن الإعدام لم ينفذ. كان مدير السجن يطمئنني أنه لا يمكن تنفيذ حكم الإعدام، ولكن على ما يبدو أن الانفصاليين قرروا تنفيذ حكم الإعدام في 11 آذار وليس في 9 آذار. ويعود ذلك إلى أنهم حضّروا مجموعة الإعدام من (11) شخصاً كما حضروا فصيل الموسيقى، وأرادوا أن يطبقوا النظام الديمقراطي، والإجراءات القانونية في تنفيذ حكم الإعدام. ومن خلال استدعائهم لمجموعة تنفيذ حكم الإعدام من القطعات العسكرية، عرف الرفاق أن تنفيذ حكم الإعدام قائم، وخاصة أن حكم تنفيذ حكم الإعدام قد صدّق بمرسوم تشريعي رقمه /157/ وتاريخه 1963/2/12 بعد ثورة العراق بأربعة أيام، وهذا ما أقلق رفاقي البعثيين، وكل الرفاق في الجيش والقوات المسلحة، ورفاقي في السجن، ولذلك كانت التحركات نشيطة وسريعة بين 12 شباط و5 آذار 1963. في هذه الفترة خرج من السجن المقدم محمد عمران، فتناءلنا خيراً بخروجه. بعض الرفاق، لا أذكر أسماءهم لأن، وفي هذا الجو الكئيب، في 7 آذار 1963 كانوا يلعبون (الطرنيب) ففي الغرفة الثلاث كانت تدور لعبة الشدة، وطاولة الزهر على مدار 24 ساعة. ورغم هذا النقاش الذي يدور حول الإعدام كانت لعبة الشدة تدور أيضاً، ثم يقطع الحديث عن الإعدام لمناقشة أمور الشدة، وهذا شأن كل المساجين الذين يدخلون في ألف موضوع دون تمهيد أو إعداد.

كانت الغرفة التي تطل نافذتها على حي الشيخ سعد في المزة، في هذه

الغرفة كان المقدم حمد عبيد، والنقيب عدنان دباغ وبعض الرفاق، وعددهم ثمانية. وفي الغرفة الوسطى كان يوجد النقيب مصطفى طلاس، والنقيب بدر جمعة، والملازم أول عمر عمرايا، والملازم أول سعيد دباح، والملازم أول جابر صبح، والنقيب مصطفى شربا، وأنا معهم، وقد كان سريري في الطابق الأول، وكان بدر جمعة ينام في السرير الذي يعلو سريري مباشرة، وكان لهذه الغرفة نافذة تطل على باب السجن، وفي الغرفة الثالثة كان يوجد العميد لؤي الأتاسي، والوزير يوسف مزاحم، والمقدم محمد عمران (قبل خروجه) وهذه الغرف الثلاث لها معبر مفتوح على بعضها بعضاً يستطيع السجين أن يتحرك بداخلها جميعاً.

الحقيقة، أنا لا أعرف لعبة الشدة، ولم أستطع تعلم هذه اللعبة، كما لم أتعلم لعبة طاولة الزهر.. ولم أحاول تعلمها في السجن، بل كنت أعكف على قراءة بعض الكتب التاريخية حول (الاتحاد الألماني) و(الولايات المتحدة الأمريكية) و(الاتحاد السوفييتي) و(الاتحاد الماليزي)، ورأيت أن مصطلح الاتحاد العربي يشبه الاتحاد الماليزي إذا ما دمجناه مع الاتحاد الألماني، وقد قمت بكتابة مخطط يدور حول تصور للوحدة العربية، وقد حدث ذلك بعد أن صدر حكم الإعدام عليّ، فبعد أن صدر الحكم كانت الكتب، والأوراق، والأقلام موجودة لديّ، حتى مكتبة السجن.. سمح لي بالاستعارة منها. وقد كان يوجد في السجن بعض المدنين مثل المحامي جهاد ضاحي من بلدة صدد في حمص، وقد كان يدافع عنا في أثناء المحاكمات، [دافع عن الملازم أول سعيد دباح]. والسجناء عادة، حين لا تصدر عليهم أحكام قاسية، يألفون السجن، ويتمتعون بروح النكتة والمزاح، والذين كانوا يلعبون الشدة هم مصطفى طلاس، حمد عبيد، وجابر صبح، وباقي الضباط المسجونين. ومن الذين كانوا لا يلعبون الشدة المقدم محمد عمران. وقد كان السجناء على نسقين، منهم من حكم، ومنهم من لم يحكم. وقد شعر الرفاق جميعاً أن حكم الإعدام قد صدّق، ومع ذلك كان المزاح وروح النكتة هما ما يميز السجناء.

الاطمئنان الذي عرفته لم يكن من رفاقي، وإنما كان من مدير السجن الملازم أول محمد سعيد وهو من جبلة، وهو أحد المتقدمين عليّ، وقد كان ناصرياً. ورغم هذا، ومع صدور الحكم، لم أكن متشائماً، كنت أقول لمن هم حولي من الرفاق، أن حكم الإعدام يشبه عدم فتح المظلة إذا ما قفزت من الطائرة.. هما أمر واحد. فأنا أحسب نفسي بأنني قفزت من الطائرة، ولم تفتح المظلة، وعندئذٍ المصير معروف!!

أعضاء اللجنة العسكرية وأدوارهم..!!

أما رفاقنا في خارج السجن، مثل الملازم أول سليمان حداد، وموسى العلي، وجلال الجهني، ومحمود حمرا، وعدد آخر، فقد كانت اللجنة العسكرية على اتصال بهم فتقوم بالتنظيم والتخطيط للقيام بدور نضالي ضد الانفصال، وهذه اللجنة تتكون من خمسة أشخاص هم محمد عمران، وعبد الكريم الجندي، وأحمد الأمير، وصلاح جديد، وحافظ الأسد، ورتبهم كانت بين مقدم ورائد.. ونقيب. وفعلاً كانت هذه اللجنة نشيطة جداً خصوصاً بعد صدور حكم الإعدام. هذه اللجنة مع بعض الضباط هم النسق الثاني الذي سيحال إلى المحاكمة، بعد تنفيذ حكم الإعدام.

في هذا الجو داخل السجن المشحون بالعواطف المؤيدة لي من رفاقي داخل السجن، ورفاقي في خارج السجن، وقيام ثورة 8 شباط 1963 في العراق.. كل هذا أعطاني أملاً بأن حكم الإعدام من الصعب تنفيذه، ولهذا كان عندي إحساس بأن هذا الحكم لن ينفذ.

ليلة قيام الثورة..!!

كانت الغيوم كثيفة مساء 7 آذار 1963 والجو ينذر بالمطر، وقد سقطت

زخات مطر خفيفة في ذلك المساء، كان قد انتهى شهر رمضان وانتهت أيام العيد أيضاً، وكان من المفترض أن ينفذ حكم الإعدام قبل هذا الوقت، إلا أن الإعدامات لا تنفذ خلال شهر رمضان. وأعتقد أنه كانت في المساء، وفي أثناء لعب الشدة، مشاحنات بين الرفاق حول الأكل، والأخبار، حتى أن لعب الشدة توقف قليلاً لأن النقاش دار حول الثورة، والوطن، وواقع الحكم الانفصالي.

في تلك الليلة كنت أقرأ، ثم ذهبت إلى غرفة حمد عبيد لأنه صديقي ورفيقي، وهو رجل جيد، ومن خلال غرفته كنت أنظر من النافذة إلى مدينة دمشق، حيث كنا نطل على البيوت، والطرق، والسيارات، وحركة الناس، وقد كانت الحياة عادية. وقد بدا الليل صافياً، لا غيوم، ولا رياح.. قلت (لأبو جلال) (حمد عبيد) ما رأيك وقد صدّق الانفصاليون الحكم (حكم الإعدام)؟ فقال لي: ولا يهمك أبو الندى (فشروا بعيونهم)، ومن حولنا، يلعب الرفاق الشدة، (أربعة يلعبون، وأربعة يتفرجون أو قل أربعة ينتظرون دروهم في اللعب).

وفي حوالي الساعة الثانية ذهبت إلى سريري ونمت. وكان بدر الدين جمعة ينام في سريره الذي يعلو سريري مباشرة. ومن حولنا مصطفى طلاس وحسن شريتح وجابر صبح وسعيد دباح يلعبون الورق، وعبد الله عمرايا يصنع لهم الطعام.

نمت في سريري، وفي حوالي الساعة الرابعة، علا صياح لاعبي الشدة، يبدو أنهم اختلفوا على اللعب، فقد كان اللعب مستمراً على مدار 24 ساعة، لذلك استيقظت بسبب صياحهم، لذلك صرخت بهم لماذا هم غاضبون، ولماذا هذا الصياح، ولعنت الشدة وساعتها، وحين حاولت أن أنام ما عدت قادراً على النوم، ذهبت إلى غرفة حمد عبيد، وكان يلعب الشدة أيضاً، فنظرت من النافذة نحو الغرب، نحو قرية المعضمية، فرأيت رتلاً من السيارات يتقدم نحو مدينة دمشق، له أضواء خافتة (ضوء حربي) فصرخت بحمد عبيد، قلت له (أبو جلال).. يوجد رتل عسكري يتقدم نحو مدينة دمشق، تعال وانظر إليه لنعرف ماذا يجري!

الخيـل.. طبت بالوعر!

هنا ترك الرفاق لعب الشدة، وقفزوا إلى السرير، وراحوا ينظرون إلى سيارات الرتل العسكري الذي يتقدم نحو مدينة دمشق، وهنا صرخ حمد عبيد منادياً بحماسة شديدة (والخيـل طبت بالوعر..) وصرنا جميعاً أمام النافذة نتدافع لنرى الرتل المتقدم بمن في ذلك لؤي الأتاسي.

مر الرتل بالقرب منا، وكان على مبعدة 500م من السجن، فرأينا دبابات، وآليات، وسيارات، ومدافع.. فأدركنا عندئذ أنه توجد حركة عسكرية غير طبيعية تتوجه نحو دمشق، ولم يمض الوقت طويلاً حتى فتح باب السجن في الساعة الخامسة تماماً، وكان أول الواصلين إليه الرائد عبد الكريم الجندي، والملازم أول عبد الرزاق العلي، وأخذوا العميد لؤي الأتاسي فقط، أخذوه بمفرده، وقال لنا عبد الكريم الجندي بأنه سيعود بعد قليل، وأننا سنخرج جميعاً. وطلبوا منا أن نصبر قليلاً، كنت غاضباً وهائجاً، فناديت عبد الكريم الجندي وصرخت به: لماذا لا تخرجونا؟! فقال اصبروا قليلاً. وقلت لـ عبد الرزاق مرشد العلي، إن الثورة لا يقوم بها إلا الضباط الفلاحون. فما كان منه إلا أن عاد إليّ وقبلني، ثم قال بأنه سيعود من أجل إخراجنا!

الآن، بدأت أنظارنا تتوجه نحو الراديو، فالتفتنا حوله، ورحنا نسمع الموسيقى الحربية ثم جاء البيان، وقد أذاعه الملازم أول سليمان حداد بصوته، ثم أذاع بياناً ثانياً بصوته أيضاً، دعا فيه الضباط المسرحين إلى الالتحاق بالجيش والقوات المسلحة، مع العلم أن اللجنة العسكرية (محمد عمران، حافظ الأسد، صلاح جديد، أحمد الأمير...) قد لبسوا اللباس العسكري والتحقوا بقيادة الأركان.

بيان الثورة الأول..!!

في حوالي الساعة السابعة صباحاً، أي بعد إذاعة بيان الثورة الأول باسم المجلس الوطني لقيادة الثورة، والبيان الثاني باسم الفريق لؤي الأتاسي رئيس مجلس الثورة. وصل إلى السجن الملازم أول سليمان حداد، وقال لنا إننا سنخرج فوراً. فخرج أغلب المساجين غير المحكومين، وبقي السجناء المحكومون، وأنا منهم، وأذكر أنه في الساعة السابعة والنصف، رأينا من نافذة السجن المطل على قيادة الأركان والمدينة.. الطيران وهو يقصف قيادة الأركان، وقد كانت القيادة موجودة داخل بساتين كثيرة الأشجار، وقد قلت لرفاقي: الطيران يقصف الأركان، وقد يقصف السجن فتموت بالمجان. ومادامت الثورة قائمة، أخرجونا لكي نقاتل في الشوارع، كي لا نموت في السجن. وقلت لمدير السجن، قل للفريق لؤي الأتاسي قائد مجلس الثورة، إذا لم أخرج في هذا اليوم، فنحن سنخرج بالقوة، في هذا الوقت، توقف الطيران عن القصف، وجاء إلينا مدير دائرة القضاء وهو برتبة عميد اسمه درويش الزوني، وكنا نحترمه جداً لأنه كان رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمتنا، وكانت عواطفه معنا، جاء إلينا وطلب منا الهدوء وتكلم معي شخصياً، قال: نريد أن تخرج بشكل قانوني كي لا يكون في قرار الخروج ثغرة قانونية. وهنا، عقد محكمة عسكرية داخل السجن مع طاقم من القضاة العسكريين، وأجرى جلسات عدة، كان خلالها يسألنا أسئلة عديدة، والقضاة يسجلون.

كنت آخر من خرج.. من سجن الهزة!

جرت هذه المحاكمة يوم 8 آذار 1963، وقد جاء إليّ في السجن العديد من الضباط رفاقي. وللحقيقة أقول إنني كنت في حالة غضب شديد حين لم أخرج منذ الساعات الأولى للثورة. وقد استمرت المحاكمة ليلاً داخل السجن. وفي

هذه الأثناء جاء مدير السجن بطعام مغاير للطعام الذي يُقدم لنا عادة في السجن كتكريم لنا. أعتقد أنه كان يوجد جدل حول خروجنا، ومع ذلك أخذ العميد درويش الزوني نتائج المحاكمة التي أجراها معنا نحن السجناء المحكومين.. إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة المعقود ليلاً ونهاراً، وقد وقّع رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة قراراً بالإفراج عن المحكومين جميعاً باستثنائي. ثم اجتمع المجلس الوطني لقيادة الثورة، وقرر إخلاء سبيلي، وشملي بقرار الإفراج السابق. بعد هذا التوقيع على القرارات وتصديقه من قبل إدارة القضاء العسكري جاء العميد درويش الزوني ومعه سليمان حداد إلى السجن، وخرجنا معهما، وقد أخذني سليمان حداد إلى قيادة الأركان، ودخلنا إلى القاعة التي تضم المجلس الوطني لقيادة الثورة وسلمت عليهم وشرينا الشاي معهم، وفي تلك الفترة لم نكن نعرف من بين هؤلاء الموجودين من هو عضو في المجلس الوطني لقيادة الثورة. ولم تتم مثل هذه التسميات إلا في يوم 10 آذار 1963، وكنا نتناول الطعام كسندويش، وقد كنا موجودين في قاعة عدنان المالكي، وكان الفريق لؤي الأتاسي، رئيس المجلس الوطني للثورة، وصلاح البيطار، والعميد زياد الحريري، والعقيد محمد عمران، ونهاد القاسم. وقد كان جالساً على درج قيادة الأركان السفلي يوسف نعيصة ومحمود جمرا. أذكر أنني ذهبت إلى اللواء زياد الحريري وسلمت عليه، ثم ذهبت إلى مكتب المقدم صلاح جديد وسلمت عليه أيضاً، فكلفني بقيادة كتيبة حراسة الأركان، بينما كلف الملازم أول سليمان حداد بالعمل في السرية /215/ الأمنية. والحقيقة أن اللواء زياد الحريري استقبلني بلباقة بعد أن رُفع إلى رتبة لواء واستلم رئاسة الأركان، أما المقدم صلاح جديد فتسلم مسؤولية معاون مدير إدارة شؤون الضباط. بعد أن خرجت من عند المقدم صلاح جديد ذهبت إلى الفريق لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، والقائد العام للجيش والقوات المسلحة، وقد كان فرحاً جداً لأنني خرجت من السجن، ولا أبالغ إن قلت إنه كان أكثر فرحاً مني بخروجي، وذلك لأنه كان يعرفني بشكل دقيق في أثناء

أحداث حلب 1963 وما تلاها من أمور مثل مؤتمر حمص. وطلب لؤي الأتاسي مني أن أكون مديراً لمكتبه، ومرافقاً شخصياً له، بالإضافة إلى عملي في قيادة كتيبة حراسة الأركان. حين طلب مني ذلك، كنت هادئاً، فابتسمت واعتذرت، وهو الذي يعرف أنني لم أوافق على أن أكون مرافقاً للرئيس جمال عبد الناصر، وقلت له من الآن إلى الغد سأنتقي لك مرافقاً. ومن عنده خرجت إلى مكتب المقدم صلاح جديد، وطلبت منه إن ندعو الملازم أول الاحتياطي محمد كنعان من مدينة حماة ليكون مرافقاً للفريق لؤي الأتاسي. فسألني إن كنت أعرفه بشكل جيد، فقلت له: إنه ممتاز، وأعرفه جيداً فوافق صلاح جديد فوراً، فنظم برقية لدعوته للالتحاق فوراً بقيادة الأركان، فأخذت البرقية ووقعتها من الفريق لؤي الأتاسي، وأرسلت البرقية إلى حماة، فالتحق الملازم أول محمد كنعان في اليوم التالي، وأصبح مرافقاً للفريق لؤي الأتاسي.

لؤي بفصيل الإحسام..!!

بعد ذلك، جمعت كتيبة حراسة الأركان في مساء يوم 9 آذار 1963، وحين قدموا لي الصف، شاهدت فصيل الموسيقى، وجماعة مشاة تقف بجانبه. وكنت أرتمي لباس المظلات والبيرة الحمراء، وسألت عن أعداد الكتيبة، وأعداد كل سرية، أي أنني أجريت تفقداً دقيقاً، فتساءلت عن سبب وجود فصيل الموسيقى في الأركان، أي سألت قائد فصيل الموسيقى عن عمله في كتيبة حراسة الأركان. فتلثم في الجواب، فسألته لماذا هو مرتبك؟ وأنا من الناحية العسكرية حازم في قيادتي. لقد توقعت أنه خاف مني!

فقال: نحن فصيل فرزنا من سرية الموسيقى من أجل أن نذهب إلى حقل المنصورة! فسألته: لماذا سيذهبون إلى حقل المنصورة! فصمت ولم يجب. فتركته وقد رأيته غير قادر على الجواب! وذهبت إلى جماعة المشاة وسألتهم عن عملهم، كانوا يشكلون جماعة منفردة، وناشرة في الكتيبة. فقال لي رقيب

الجماعة وهو يتلثم بالكلمات، معالم الاضطراب بادية عليه.. سيدي هل تسمح لنا أن نقول الحقيقة وبكل صراحة. فقلت له: تكلم. فقال: نحن جماعة فرزنا من القطعات من أجل تنفيذ حكم الإعدام بك. نحن الجماعة التي ستطلق النار عليك. وفصيل الموسيقى سيعزف أفراده الموسيقا في أثناء تنفيذ حكم الإعدام بك في حقل المنصورة.

فابتسمتُ، وربتُ على كتفه، وقلت له: جميعكم أبطال. طبعاً كنت مندهشاً. بعدئذ ناديتُ المساعد رئيس قلم كتيبة الحراسة، وطلبتُ منه أن ينهي مهمة هؤلاء الجماعة الذين كانوا سيطلقون النار علي، وأن ينهي مهمة فصيل الموسيقى أيضاً.. وقد تمنيت لهم جميعاً التوفيق، وقلت للموسيقين عليهم أن يلتحقوا بسرية الموسيقى، وهناك عليهم أن يعزفوا (على كيفهم)! ذهبَت جماعة المشاة، عادوا إلى قطعاتهم، وأفراد فصيل الموسيقى عادوا إلى سرية الموسيقى، وشددتُ الحراسة على الأركان.

كم كنتُ هادئاً في تلك اللحظة، عندما سمعت هذه القصة الغريبة من جماعة المشاة، وعناصر فصيل الموسيقى، وقد ازداد إيماني بأن لا أحد يستطيع أن ينهي حياة إنسان إذا لم يأت يومه، يقيناً مني بأن الحياة قضاء وقدر وموقف، وكما يقول رب العزة وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وكما قال الإمام علي كرم الله وجهه إن لي من أجلي درعاً تحميني.

رؤية أهلي.. للمرة الأولى بعد خروجي من السجن!

كانت الظروف صعبة جداً، وأنا أشرف على كتيبة حراسة الأركان ورتبتي آنذاك هي ملازم أول، فحتى ذلك الوقت كانت الثورة غير مستقرة، هكذا كنت أنظر في الأفق البعيد، ورغم كل هذا لم أكن متسرعاً في شيء، طبعاً كانت الابتسامة تملو وجهي دائماً، وأنا أجهد نفسي ليل نهار من أجل الحفاظ على الثورة وصيانتها على الرغم من أن صحتي كانت نحيلة، وجسمي لم يكن على

ما يرام لأن آثار السجن دنت لاتزال عالقة بي، فالوهن والضعف كانا ملازمين لي. كنت أرتدي (فلت) عسكرياً على الدوام، وبعد أن وزعت المهمات على سرايا الكتيبة، وشدت الحراسة على الأركان، عدت مرة ثانية إلى مكتب الفريق لؤي الأتاسي، كان لا يزال في مكتبه، فدخلت إليه وشرحت له ما حدث معي في كتيبة الحراسة، وبالمناسبة، الفريق لؤي الأتاسي رجل طيب ودمث، قريب من القلب. حين شرحت له القصة التي رواها لي جماعة المشاة وأفراد فصيل الموسيقى، سألتني هل هذا معقول؟! فقلت: هذا ما قالوه لي. وقد تصرف معهم بأن أنهيت مهماتهم وأرسلتهم إلى قطعاتهم.. فنهض لؤي الأتاسي وقبّلني، وقال لي: أنت رجل كبير. صدرك واسع، وقد أحسنت التصرف معهم. بعدئذٍ، استأذنت منه، وخرجت.

كانت كتيبة الحراسة في حالة استنفار شديد. بعد ذلك أخذت سيارة (جيب غاز) وذهبت إلى المزة، إلى والدي ووالدتي وزوجتي وابنتي ندى، الذين كانوا يسكنون في غرفة يستأجرها ابن عمي الملازم أول موسى العلي الذي كان يخدم في اللواء السبعين، في منطقة الكسوة.

سلمت على أهلي، الوالد والوالدة، والزوجة، والابنة الصغيرة ندى، وكان عمرها سنتين تقريباً، وقد فرحوا بي، وجاء الجيران وسلموا عليّ، وقد رأيت الفرح في عيون الجميع. وكانت أسرة من الأسر التي تسكن البناء لديها ابن برتبة ملازم موقوف في سجن المزة، وهو من جماعة عبد الكريم النحلاوي، أي أنه كان انفصالياً، فسألوني كيف خرجت من السجن وابنهم لم يخرج؟! فلم أجب لأنني قلت لهم لا أعرف. سلمت على الجميع، وقد اعتقد أهلي أنني سأنام تلك الليلة عندهم، إلا أنني لم أبق معهم إلا وقتاً قصيراً لأن قيادة الأركان طلبتني مباشرة. فعدت إلى قيادة الأركان، وعرفت أن المقدم صلاح جديد هو من طلبني. كان الوقت حوالي العاشرة ليلاً، فصلاح جديد والضباط جميعاً لم يذهب أحد منهم إلى بيته، أقصد أن الجميع كانوا في حالة استنفار، في جميع قطعات الجيش، وخاصة الرفاق البعثيين الذي طلب منهم أن يبقوا في

القطعات وعدم المغادرة لأي سبب كان، والمغادرة لا تتم إلا بعد موافقة المقدم صلاح جديد.

حافظ الأسد.. يسيطر على قاعدة الضمير!

حدثني المقدم صلاح جديد عن فكرة دعوة ضباط احتياط لكي يلتحقوا بالجيش، وقد كانوا مدنيين وموظفين في الوزارات، وقد أيدت فكرته. طبعاً، في هذه الفترة، سألت عن الرائد حافظ الأسد، فأخبرني المقدم صلاح جديد أنه موجود في قاعدة الضمير الجوية، وأنه لم يعد منها حتى الآن، وذلك من أجل السيطرة على الطيران هناك.

وفي تلك الأثناء، جاء المقدم غازي أبو عقل مدير المدرعات، وحدثنا عن كيفية ذهابه مع الرائد حافظ الأسد إلى القاعدة الجوية في الضمير، وأنهم أخذوا سرية مدرعات من كتيبة المدرعات، وقد كانت مدرسة المدرعات موجودة في القابون، وذهبوا بها إلى الضمير، واستولى الاثنان على القاعدة الجوية، وقد استلم الرائد حافظ الأسد القاعدة الجوية في الضمير. طبعاً كان الحديث شائعاً جداً. بعد ذلك ذهبت إلى الملازم أول سليمان حداد، وكان موجوداً في مبنى دار المعلمين قرب قيادة الأركان (التي هي مقر القيادة القطرية اليوم) وسليمان حداد كان يومذاك قائداً للسرية /215/ الأمنية، وقد حدثني سليمان حداد عن أعماله في الجبهة، وكيف أنه أقتع العميد زياد الحريري بإرسال القوات من الجبهة إلى دمشق من أجل قيام الثورة. (شهادة سليمان حداد في هذه المجال موجودة في ملحق الكتاب)، وسليمان حداد صديقي، وابن دورتي في الكلية الحربية، وقد خضعت وإياه لدورة مدرب صاعقة، دورة رقم (6) في أنشاص شمال القاهرة. وتربطني به من خلال وجوده معي في الكلية، وجوده معي في مصر.. علاقات طيبة، وصداقة متينة، وقد تعرفت من خلاله إلى أخيه جميل في القاهرة، وإلى أخيه الثاني أحمد، وهو من الدورة التي جاءت

بعدنا إلى الكلية الحربية.

تناولت العشاء عند سليمان حداد، وأظن أنني نمت عنده في السرية، لأن المسافة ما بين كتيبة حراسة قيادة الأركان والسرية /215/ الأمنية.. كانت قصيرة جداً لا تتجاوز الـ 50 متراً.

وفي الصباح الباكر، وبعد أن اجتمعت بأفراد كتيبة الحراسة، جاءت مظاهرات كثيرة إلى قيادة الأركان، وكان الناس يطالبون برؤيتي، والحقيقة، أنني استقبلت هذه المظاهرات عند باب قيادة الأركان، وكان يوجد مراسلون للصحافة اللبنانية والسورية ضمن هذه المظاهرات. وقد سألتني أحد الصحفيين: هل كتبت شيئاً عن أوقات وجودك في السجن، هل لديك وثيقة ما من داخل السجن، والذي سألتني هذا السؤال هو صحفي لبناني من صحيفة (الجريدة) اللبنانية.. يومذاك كان لديّ عشرون صفحة كتبت فيها أفكاراً حول الوحدة العربية، والواقع العربي، فأعطيته هذه الصفحات، وطلبت منه أن يعيد إليّ هذه الصفحات. ولكنها لم تعد إليّ مرة أخرى، وقد قام هذا الصحفي، الذي نسيت اسمه بسبب المظاهرات والزحمة الشديدة، والتهافتات العالية المؤيدة لعبد الناصر، بنشر هذه الصفحات في جريدة (الجريدة).

الوزارة الجديدة..!!

في هذا اليوم، شكلت الوزارة برئاسة صلاح البيطار، وكان نائبه نهاد القاسم الذي شغل منصب وزير العدل أيضاً، وكان أن تشكل المجلس الوطني لقيادة الثورة يوم 9 آذار 1963، وكان فيها سامي الجندي وزيراً للثقافة، والمحامي جهاد ضاحي وزيراً للمواصلات وهو من القوميين العرب، لقد شعرت أن لا مكان لي في هذه الكتيبة التي عينوني فيها، فصعدت إلى مكتب المقدم صلاح جديد، وقلت له: أنا مكاني في كتيبة المظلات. فقال لي: أعرف ذلك،

وأنت الآن موجود هنا لبضعة أيام كمفرز فقط، وسوف تعود إلى كتيبة المظلات. كنت دائماً أتردد على مكتب المقدم صلاح جديد، وقد كنا نشعر جميعاً أننا نحن أصحاب الثورة ومفجروها. لكنني كنت أكثر تردداً على مكتب الفريق لؤي الأتاسي. وقد كان يأخذني معه إلى البيت لتناول طعام الغداء. في هذه الأثناء كنت أبحث عن بيت لأسرتي ووالدي، وقد كنت أعرف العديد من الضباط الجدد والقدامى من منطقة سلمية، وكان من بينهم النقيب خالد رسلان، ذهبت إليه وطلبت منه أن يرسل أسرته إلى سلمية مدة خمسة عشر يوماً، وكان يومها خالد رسلان يخدم كقائد كتيبة في قطنا، فعلاً أرسل أسرته إلى سلمية، وفي اليوم نفسه قمت بأخذ أسرتي إلى بيته، وكان مؤلفاً من غرفتين، ويقع قرب مشفى المزة العسكري، وللعلم كان يسكن في هذا البناء نفسه المقدم صلاح جديد، في الطابق الأول، وبيته مؤلف من غرفتين أيضاً. بينما كان الرائد حافظ الأسد يسكن في منطقة المهاجرين، قرب القصر الجمهوري، وهو قصر قديم شبه أثري، وكان يسكن في الطابق الثاني، في بيت مؤلف من غرفتين، والعقيد محمد عمران كان يسكن في قبو في منطقة القصاع.

وأذكر أنه في اليوم نفسه ذهبت إلى الغداء مع سامي الجندي وزير الإعلام في بيت لؤي الأتاسي، وقد جاءت مظاهرة من أطراف مدينة دمشق إلى بيت لؤي الأتاسي، وكان يسكن في منطقة اسمها الجبة تقع إلى القرب من مبنى وزارة التربية اليوم. وكان بيت لؤي الأتاسي مؤلفاً من ثلاث غرف. أما المظاهرات فكانت تأتي بالأفواج، وكان لؤي الأتاسي يطلب مني أن أتحدث إلى المتظاهرين، حيث كان وجهاء المظاهرات يصعدون إلى بيت لؤي الأتاسي فأحاورهم حول الوحدة والبعث. وقد كنت أحس بأن الجماهير لا يعرفون اتجاهي الحقيقي هل هو ناصري أم بعثي.. وكنت دائماً، ولا أزال لليوم أرفض أن أسمح لأي أحد أن يشتم عبد الناصر.

تسريح عدد من الضباط..!!

وكان أن نمت في تلك الليلة في بيت خالد رسلان مع أهلي وأسرتي. كنت مرهقاً جداً، وحوالي الساعة الرابعة صباحاً طلبوا مني من قيادة الأركان أن أذهب إلى قيادة الأركان، فذهبت إلى القيادة. كان صلاح جديد لا يزال ساهراً حتى الساعة الرابعة صباحاً. فدخلت إلى مكتبه في 11 آذار 1963. فقال لي إن بعض الضباط غير راضين، وهم يشوشون على الثورة، وأنه من المحتمل أن نسرح بعضهم، طبعاً لم يقل لي ما هي اتجاهاتهم الحقيقية. وقد تم تسريح حوالي (8) ضباط بالفعل، وصدر قرار التسريح في الساعة التاسعة صباحاً، ومن هؤلاء الضباط أذكر اسم العقيد توفيق مخلوف، وهو من بيت مخلوف (بانياس)، وليس من بيت مخلوف (بستان الباشا) في اللاذقية. كانت هناك أحاديث وهمسات تدور في الأركان حول أسباب تسريح هؤلاء الضباط.. فقليل إن المسرحين أرادوا التآمر على الثورة. وكانت قرارات التسريح توقع من رئيس المجلس الوطني للثورة، وقد أخذت هذه الأوامر ووقعتها من لؤي الأتاسي بعد توقيع رئيس الأركان، ولا بد أن أشير هنا إلى أن صلاح جديد حين كان يريد توقيع أمر من اللواء زياد الحريري يعطي الأمر إلى سليمان حداد ليوقعه من زياد الحريري بسبب العلاقة الجيدة والحميمة بين زياد الحريري وسليمان حداد، وعندما كان يريد أن يوقع أمراً من لؤي الأتاسي، وخاصة أوامر التسريح والاستدعاء، كان يستدعيني لأخذ هذه الأوامر إلى لؤي الأتاسي لكي أوقعها منه بسبب العلاقة الحميمة والطيبة التي تربطني بـ لؤي الأتاسي.

كان يوم 11 آذار 1963 يوماً عاصفاً في قيادة الأركان بسبب تسريح هؤلاء الضباط، لكن ذلك اليوم مرّ من دون مشكلات، وقد سرح الضباط وذهبوا إلى بيوتهم. وفي هذا اليوم (11 آذار)، مساءً هاتفني العقيد حمد عبيد وطلب مني أن أذهب، وقد عين كقائد اللواء العشائر بناءً على طلبه، فذهبت إليه في منطقة المزرعة، حيث توجد قيادة لواء العشائر، ثم ذهبت وإياه إلى بيت الأستاذ

ميشيل عفلق، كان يسكن في حي المزرعة بالقرب من مكتب قيادة العشائر. وحين دخلنا إلى البيت وجدنا هناك الأستاذ علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء في العراق، والفريق صالح مهدي عماش وزير الدفاع في العراق، والعقيد نصرت من ضباط المجلس الوطني لثورة العراق.

طبعاً تعارفنا، وهنؤوني بالسلامة، خصوصاً وهم يعرفون حكم الإعدام الذي صدر بحقي، وهنا أود أن أشير إلى أن صالح مهدي عماش فعل الكثير من أجل عدم تنفيذ حكم الإعدام بي، وقد قامت الإذاعة العراقية بحملة ضد إعدامي، وهدد العراق باحتلال الجزيرة السورية إذا ما نفذ حكم الإعدام بحقي. وهذا الوفد العراقي كان قد جاء من أجل التهنئة بنجاح الثورة، وقد جاؤوا في طيارة خاصة، وفي أثناء وجود أعضاء الوفد العراقي، تشكل الحرس القومي في سورية من فروع الحزب، أي من البعثيين في المحافظات، وقد كلف العقيد حمد عبيد بقيادة الحرس القومي إضافة إلى قيادة لواء العشائر. كما عينت ضابطاً في الحرس القومي مع حمد عبيد بالإضافة إلى المهمة الموكلة إليّ في كتيبة حراسة قيادة الأركان.

وفي اليوم نفسه، ليلاً، كان الأستاذ حمدي عبد المجيد، وقد كان مشرفاً على تنظيم حزب البعث القومي والقطري في سورية، وهو واحد من الذين أسسوا الحرس القومي في ذلك اليوم. وقد صدر قرار تشكيل الحرس القومي من المجلس الوطني لقيادة الثورة، ومن أهدافه الرئيسية حماية الثورة.

كان مركز قيادة الحرس القومي موجوداً في قبو بجانب مبنى مجلس الوزراء الحالي. ويوجد أيضاً مركز للقيادة القطري يسمى المركز رقم (17)، كان مكانه في مقابل البنك المركزي في ساحة السبع بحرات، وقد سمي بهذا الرقم لأن الهاتف يبدأ برقم (1700). كانت القيادة القومية تعقد اجتماعاتها في ذلك المبنى، وكان الأستاذ ميشيل عفلق يتواجد فيه.

مظاهرات في شوارع دمشق!!

في يوم (12 آذار) كانت الأمور قد بدأت تهدأ، وقد زرت أغلب الوزراء، ومن بينهم صلاح البيطار، وزرت فرع الحزب، وكان مركزه في منطقة الحجاز وكنت أرتدي اللباس المدني. لكن الحقيقة تتمثل في أنني كنت أحس بحضوري وأهميتي بين الناس، وقد عرفت ذلك من خلال اهتمام الوزراء والضباط بي، وحين زرت وزارة الخارجية الموجودة في منطقة المالكى ومن حولها البساتين، وأنا في طريقي إليها اعترضتني مسيرة للنساء، وقد شعرت حين عرفوني بأن البنات يردن حملي على الأكتاف. لقد عرفوني من خلال قصتي ومحاكماتي لأن بعض النساء، كن من طالبات الجامعة، وكن يأتين إلى قاعة المحاكمة ليحضرن وقائع المحاكمات.. وقد أخذوا لي صوراً كثيرة.

في هذا اليوم كانت المظاهرات تجول في غالبية المحافظات.. تأييداً للثورة، ولكن عموماً، كان يوم (12 آذار) يوماً هادئاً. وأذكر أنني في المساء زرت بيت سامي الجندي وزير الإعلام، وكان موجوداً عنده الفريق لؤي الأتاسي، والعقيد محمد عمران، وجهاد ضاحي وزير المواصلات أيضاً، وقد تناولنا طعام العشاء في بيت سامي الجندي الذي كان قريباً من بيت لؤي الأتاسي. وبعد العشاء اصطحبني جهاد ضاحي معه، وكان المطر ينهمر بغزارة على مدينة دمشق حتى أنني أذكر بأن نهر بردى فاض وغمر بعض البيوت. أخذني معه إلى ساحة النجمة مقابل قصر الضيافة الحالي، وأخبرني في الطريق بأننا سنزور صديقاً له، وطلب مني ألا أتضايق من زيارة هذا الصديق، وصعدنا إلى الطابق الثاني في مبنى مؤلف من طابقين، وأنا لا أعرف من هو الصديق الذي سيزوره. وعندما فُتح الباب لنا، فوجئت بالمحامي هاني البيطار محامي الادعاء الذي كان يرافع من أجل إعدامي، وقد كان محامياً بارعاً. وسلمت عليه بكل اللباقة والاحترام، وقد ذهلت عندما شاهدني فكان أن بادرت به بالقول: إن الإسلام يجب ما قبله، وأنا معجب بادعائه ودفاعه ومواقفه في المحكمة، وقد

أثارت إعجابي، وقلت له: لكنني كنت أتمنى لو أنك كنت في موقع المدافع عنا، بدلاً من أن تدعي علينا. وأنا شخصياً لا أعتب على أي إنسان كان، ولا على المحكمة، ولا على رئيس المحكمة، وأنا أكره الحقد بطبيعتي، ولا أعرف الحقد على أي إنسان في هذا العالم. فرحب بنا، وقد دمعت عيناه بعد هذا الموقف العاطفي، وقال لي: لم أكن أتوقع أنك على هذه الأخلاق، وهذه الموضوعية، وهذه الخصال والسمات. وقد مكثنا لديه وقتاً، أعتقد بأنه امتد إلى ما بعد منتصف الليل، وكان جهاد ضاحي يتناول شرابه. وقد توفى جهاد ضاحي في عام 2002 وقد عزيت أهله بوفاته في قريته صدد قرب حمص، وقد كانت علاقتي به جيدة دائماً منذ أن تعرفت إليه إلى أن توفى. وهو من قيادة القوميين العرب (وكان متهماً بمحاولة اغتيال أديب الشيشكلي).

ساسة وضباط سوريون في طائرة مصرية..!!

وإذا ما عدت إلى الوراء قليلاً، إلى العاشر من آذار 1963، أشير إلى أنه في الساعة الخامسة مساءً وصلت طائرة مصرية إلى مطار المزة، وهي تحمل عدداً من الضباط والوزراء والقادة السياسيين الذين كانوا موجودين في مصر في أثناء فترة الانفصال، وقد عادوا إلى سورية بعد أن سمعوا بقيام الثورة. وقد عقد المجلس الوطني لقيادة الثورة جلسة اجتماع طارئة لأنه كان في حالة انعقاد دائم، وقرر عودة هؤلاء القادمين من القاهرة إلى القاهرة نفسها حتى يستقر الوضع النهائي للثورة، وعلى ما أذكر أن بعض الضباط الموجودين في قيادة الأركان، ومن بينهم العقيد توفيق مخلوف، شتم المجلس الوطني لقيادة الثورة لأن المجلس لم يوافق على هؤلاء الضباط، وهذا ما أدّى إلى تسريحه في يوم 11 آذار مع ثمانية ضباط آخرين لأن هؤلاء تحمسوا من أجل دخول الضباط، والسياسيين، والوزراء الذين جاؤوا إلى سورية من القاهرة، وقد كان قرار المجلس الوطني لقيادة الثورة يتلخص في عدم إثارة أهالي دمشق بسبب

آثار الوحدة والانفصال معاً، وقد كانت هذه الفكرة وجهة نظر اللواء زياد الحريري رئيس الأركان تحديداً، وهو أحد أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، وهنا على ما أذكر قال زياد الحريري: نحن، محمد إبراهيم العلي ما كنا نريد إخراجهم من السجن كي لا تُغضب أهالي دمشق.. وبعض الضباط الآخرين المعروفين بحساسيتهم تجاه الوحدة. لذلك فهؤلاء الناصريون الذين كانوا في مقاهي القاهرة، وكي لا يثيروا أية مشكلات، عليهم أن يعووا إلى القاهرة، ويمكثوا فيها بضعة أسابيع حتى تستقر الأمور، وقد كان زياد الحريري رئيساً للأركان فأعطى تعليمات للسرية /215/ لمخابرات التي يقودها الملازم أول سليمان حداد، وللمخابرات العامة المكلف بها المقدم عبد الكريم الجندي بأن يذهبوا إلى المطار ويعيدوا الطائرة إلى مصر. والحقيقة أن الطائرة ظلت متوقفة في المطار، ولم يفتح بابها، ولم يسمح لركابها بالنزول. وفعلاً ذهب فصيل من السرية /215/ بقيادة الملازم أول سليمان حداد، وبحضور المقدم عبد الكريم الجندي كلفت اللجنة العسكرية أن يعالج هذا الموضوع في المطار من قبل المقدم عبد الكريم الجندي شخصياً. وعلى ما أذكر أن سليمان حداد أخبرني عبر الهاتف أن الطائرة تحمل العديد من الضباط والقياديين السياسيين والوزراء، وعلى رأسهم أكرم الديري وهو وزير سابق أيام الوحدة، ومعهم أيضاً المذيع توفيق حسن، وعبد الهادي البكار، وهو مذيع أيضاً، وحين بدأ الموقف يصبح أكثر تعقيداً مع المقدم عبد الكريم الجندي، ذهب اللواء محمد الصوفي أحد أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، وهو وزير الدفاع، ذهب من أجل إقناع ركاب الطائرة بالعودة، وأن الظروف لا تساعد على دخولهم كي لا تخلق مشكلات جديدة في دمشق، ويبدو أن اللواء محمد الصوفي استثمرني، وقد كنت في تلك اللحظة في مكتب الفريق لؤي الأتاسي، فأخذني محمد الصوفي معه إلى المطار وطلب مني حين وصلنا إلى المطار أن أقنع القادمين من القاهرة بأن يعودوا إلى القاهرة، وقد اجتمع اللواء محمد الصوفي مع أكرم الديري وشخص آخر نزلنا من الطائرة، وبعد نقاش طويل عاد أكرم

الديري إلى الطائرة، بينما صعدت إلى الطائرة، وسلمت على الجميع، ثم قلت لهم أن يجلسوا في مقاعدهم، وقد كان توفيق حسن من معارفي، وذلك لأنني تعرفت إليه في إذاعة حلب، وفي أثناء أحداث حركة الضباط الأحرار في حلب عام 1962، وقد قلت لهم إنهم إذا ما نزلوا إلى دمشق، فإنهم سيخلقون مشكلات عديدة لأن الوضع غير مستقر، وطلبت منهم أن يمهلوننا وقتاً حتى يستقر الوضع وتتضح الرؤيا، وبعدها سندعوهم إلى دمشق. والحقيقة هي أن القادمين من القاهرة رحبوا بي واطمئنوا إليّ خصوصاً بعد عناقي مع توفيق حسن، وعبد الهادي البكار، وبعد نقاش مع الركاب استمر أكثر من ساعة، قال لي أحد الركاب، وأعتقد أنه المذيع عبد الهادي البكار، قال لي مماًزحاً: ما رأيك أن نأخذك معنا إلى القاهرة. فقلت له: لا، دعوني هنا لأنني أقوم بواجبي ليل نهار. وقد كان عناصر سرية 215/ التي يقودهم سليمان حداد يحيطون بالطائرة، بينما كان هو يقف إلى جوار المقدم عبد الكريم الجندي، ولا بد أن أذكر هنا أن عبد الكريم الجندي مع محمد الصوفي هما من قاد الحوار مع ركاب الطائرة في النهاية، وهما من كانا مكلفين بمعالجة الموضوع. وأنا الوحيد الذي صعد إلى الطائرة من أجل إقناع الجميع بضرورة العودة إلى القاهرة في الوقت الراهن. وقد رأينا أن هؤلاء جاؤوا من القاهرة لكي يشاركوا في الحكم. وقد تبنا وجهة نظر تقول بضرورة تعيين العقيد جاسم علوان المسرح الذي أفشل حركة الضباط الأحرار في مدينة حلب، رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة، ويبدو أن وجهة النظر هذه كانت هي وجهة نظر القاهرة أيضاً. كما أنها كانت وجهة نظر الناصريين في دمشق أيضاً، وهذا السبب هو الذي أدى إلى تسريح العقيد توفيق مخلوف مع بعض الضباط في اليوم التالي (11 آذار) لأن البعثيين شعروا بأن بعض الناصريين يتآمرون عليهم. وأخيراً أقنعنا ركاب الطائرة، بأن يعودوا إلى القاهرة. وأذكر أن بعض ركاب الطائرة طلبوا النزول لكي يناموا في دمشق ليلة واحدة، ثم يعودوا في اليوم التالي عن طريق قبرص، إلا أن اللواء محمد الصوفي والمقدم عبد الكريم الجندي رفضا هذا الطلب

رفضاً قاطعاً، وأمرنا بعودتهم مباشرة إلى القاهرة، ولكي أوضح سبب أخذ اللواء الصوفي وزير الدفاع لي إلى المطار هو أنني كنت مقبولاً من الجميع، من الناصريين والبعثيين، وحتى من الذين ليسوا هم في التنظيمين الناصري والبعثي معاً، ويبدو أن ظروفه، وأخبار السجن، وقرار إعدامي جميعها أعطتني الكثير من الاحترام والتقدير لدى الآخرين. وقد كان النقاش الذي أجريته مع ركاب الطائرة هادئاً، وأخوياً، فلم تحدث شتائم، أو مسبات، أو مشادات كلامية، كنا نتحاور بمحبة لتفهم الوضع وظروف الثورة. وقد رأيت معالم الغضب، والأسى بادية على وجوه ركاب الطائرة وأظن أن عددهم كان حوالي سبعة عشر راكباً، وقد سمعتهم يقولون ما هذه الثورة التي لا تستطيع إدخالنا؟ وكيف لها أن تخاف من مجرد وجودنا في دمشق؟ وبعد هذا النقاش الطويل ملئت خزانات الطائرة بالوقود، وزود الركاب بالطعام والشراب، وقد كانت الطائرة من نوع (كوميث) الإنكليزية، ثم في الساعة العاشرة والنصف ليلاً أقلعت الطائرة باتجاه القاهرة، وبعد أن أقلعت الطائرة تقدم مني اللواء محمد الصوفي وقبلني، وراح يثني على مهارتي في الحوار، وقال لي إنني مفاوض بارع. وقد بقينا في المطار وقتاً قصيراً حتى تأكدنا من أن الطائرة قد غادرت الأراضي السورية. وقد عدت من المطار بصحبة المقدم عبد الكريم الجندي، وذهب اللواء محمد الصوفي بمفرده، بينما بقي الملازم سليمان حداد مع عناصره في المطار. وعلى ما أذكر أنني نزلت في منطقة المزة، ولم أذهب إلى قيادة الأركان، أي أنني ذهبت إلى أسرتي. كان الوضع صعباً، وكنت حزيناً جداً بسبب عودة هؤلاء الضباط، والقادة السياسيين والوزراء، وذلك لقناعتي بأن هؤلاء وطنيون، ومحبون للثورة، وقد جاؤوا لمساندتها ونصرتها. وقد شعرت بأن بذور الخلاف راحت تتضح ما بين البعثيين والناصرين، وهذا ما جعلني أحزن أكثر عندما كنت في داخل السيارة مع المقدم عبد الكريم الجندي، وقد كان، رحمة الله عليه، سليط اللسان، فراح يشتم يميناً وشمالاً.. حزنت لكثرة الشتائم التي كالحا لهؤلاء.. كان يقول: هؤلاء الآن يأتون!! أين كانوا عندما كنا

في السجن؟! لقد كانوا في مقاهي القاهرة وباراتها.. ونحن نتجرع كؤوس الإهانة من الانفصاليين في السجن!!

وقد عقد المجلس الوطني لقيادة الثورة اجتماعاً ثانياً بعد إقلاع الطائرة، ويبدو أن الاتصالات جرت، في هذه الأثناء، مع القاهرة، وقد بين أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة.. للقاهرة بأن الظروف في سورية صعبة، والثورة لم تستقر أوضاعها بعد، وأن مجيء هؤلاء الضباط والوزراء والسياسيين إلى سورية يريك الوضع ويفاقم الأمور، وقد يخلق مشكلات نحن بغنى عنها، الآن، ولم يكن أمام القاهرة إلا أن ترضى بالأمر الواقع. وقالوا للقاهرة إنهم سيرحبون بهؤلاء الضباط والسياسيين حين تستقر الأمور.

وإذا ما تحدثت عن يوم 13 آذار في الساعة العاشرة صباحاً، فأقول القيادة القطرية لحزب البعث العربي عقدت اجتماعاً، في المكتب (17) القريب من البنك المركزي، وكان يحضر هذه الجلسة ميشيل عفلق وصالح البيطار، واللجنة العسكرية المشكلة من أعضائها الخمسة، فوافق الجميع على إرسال وفد إلى القاهرة، على أن يكون أعضاء هذا الوفد مقبولين من القاهرة، وأن يكون ضمن تشكيل هذا الوفد أحد أعضاء القيادة القطرية، هو الأستاذ عبد الكريم زهور، وقد استمر هذا الاجتماع حوالي الساعة ونصف الساعة. بعد ذلك عقد المجلس الوطني لقيادة الثورة اجتماعاً في الساعة الثانية عشرة، استمر ساعتين، شكل خلاله الوفد الذي سيذهب إلى القاهرة، وقد اتفقوا على أن يكون السيد نهاد القاسم نائب رئيس الوزراء وزير العدل رئيساً لهذا الوفد ومعه من الناصريين الضباط، الأعضاء في المجلس الوطني لقيادة الثورة: المقدم فواز محارب، والمقدم فهد الشاعر، وكان معهم اللواء راشد قطيني معاون القائد العام للقوات المسلحة، ومن الوزراء د. عبد الحليم سويدان وزير الزراعة، وعبد الكريم زهور وزير الاقتصاد، واللواء زياد الحريري رئيس هيئة الأركان.. هذا الوفد سافر في الصباح الباكر من يوم 14 آذار إلى القاهرة، وبقي هناك إلى يوم 17 آذار، وإذا ما دققنا في أسماء أعضاء الوفد، وجدنا أن بعضاً

واحداً فقد كان بينهم هو عبد الكريم زهور، والبقية ناصريون، ما عدا زياد الحريري الذي كان مستقلاً. وكان قد ذهب مع هذا الوفد الملازم أول سليمان حداد أيضاً،

وفد عراقي.. للهنئة بنبال الثورة!

وفي اليوم نفسه (14 آذار) وصل وفد عراقي إلى القاهرة يضم السيد علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء العراقي وزير الداخلية، والفريق صالح مهدي عماش وزير الدفاع، والسيد عبد الرحمن البزاز سفير العراق في القاهرة، وقد تشكل وفد الجمهورية العربية المتحدة من الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية، وعبد اللطيف البغدادي نائب رئيس الجمهورية، والمشير عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية، والسيد كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية، والسيد علي صبري عضو مجلس الرئاسة، ورئيس المجلس التنفيذي لقيادة الثورة في مصر، والسيد أمين الهويدي سفير مصر في العراق، والسيد عبد المجيد فريد سكرتير عام الجمهورية.

كانت مهمة الوفدين السوري والعراقي تهدئة القاهرة، والقبول بالمفاوضات مع عبد الناصر حول إعادة الوحدة لتصبح وحدة ثلاثية حقيقية بين مصر، وسورية، والعراق. ولا أريد أن أدخل في تفاصيل شاسعة في هذا المجال، لأن محاضر هذه الجلسات عديدة وكثيرة ومنشورة وموجودة بين أيدي القراء، ولكن أود أن أشير إلى جزء من حديث الرئيس جمال عبد الناصر في هذه المحادثات، حيث يقول: لاشك أن هذا اليوم هو من أعز الأيام إذ نلتقي من أجل الوحدة، وخاصة بين مصر، والعراق، وسورية. وإنني أعتبر ذلك أملاً يصعب تحقيقه بهذه السرعة. ومنذ شهر، كان السيد صالح السعدي موجوداً في هذا المكان نفسه، ولم نكن نعتقد أن الكلام عن الوحدة سيأتي بهذه السرعة. نحن طلاب وحدة ووحدويون وعن اقتناع، بدليل أننا قبلناها في عام

1958، والجميع يعلم أنها كانت صعبة. إنني أرحب بالوحدة مع سورية والعراق، ولكننا نريدها وحدة؟ لا انفصال لها، لأن الأمة العربية لا تحتمل جريمة انفصالية أخرى.. لقد اكتوينا بنار الانفصال بدرجة لا توصف، لقد تسبب عنها ردة في مصر، وكنت أخشى أن تصبح مصر انفصالية. إن الوحدة، أو الاتحاد المطلوب، هو ما يتمناه الشعب، ولكن لا بد أن نتناول الأمر بمنتهى الصراحة والوضوح. إننا في بداية علاقاتنا مع العراق، وليست بيننا مشكلات، ولكن مع السوريين، لنا خمس سنوات، وهناك موضوعات عدة لا بد أن نعرفها بصراحة. إن المسألة ليست مسألة أشخاص، ولكنها مسألة الأمة العربية بأسرها. هناك إقليمية في مصر وأخرى في سورية، ومن الخطأ أن نتجاهل هذا الاعتبار.. هذه مسألة هامة!!

وأذكر أن الملازم أول سعيد دباح والملازم أول حسن شريطح، سافرا مع الوفد إلى القاهرة لأن زوجتيهما موجودتان في القاهرة. كما سافر الملازم أول جابر الصبيح مع هذا الوفد، مع الملازم عبد الله عمرايا بمهمة مدتها (15) يوماً.

عبد الناصر.. منخوفاً من الوحدة الثلاثية!

وإذا ما عدنا إلى عبد الناصر، فتقديري، أنه بعد عودة الطائفة، وسفر الوفد السوري إلى القاهرة، أن عبد الناصر حاول تهدئة السوريين الناصريين الموجودين عنده من أجل أن يعرف تفاصيل ما يحدث في العراق وسورية معاً. وقد كان عبد الناصر في حالة خوف مما يحدث في سورية والعراق.. خصوصاً بعد وجود الانفصال في سورية ووجود عبد الكريم قاسم في العراق، وقد استجاب السوريون الناصريون لرغبة عبد الناصر، وما عادت تثار طلباتهم بالعودة إلى سورية بشكل مستعجل.

بعد هذه المحادثات الطويلة بين مصر، والعراق، وسورية، بدا عبد الناصر

أنه في حالة (بين بين) بين أن يوافق مباشرة على الوحدة الثلاثية، والاقتراحات المطروحة من قبل البعثيين في سورية والعراق معاً، وبين أن يظل متخوفاً من هذه الوحدة، وهذه الاقتراحات وبذلك يظهر أنه هو الانفصالي، وهذا ما لا يريده عبد الناصر حقيقة. ولذلك كان من أنصار الحوار الشامل، والدراسة المعمقة للوحدة، لمعالجة كل الأمور الصغيرة والكبيرة على نار هادئة.

ضباط بعثيون.. يدعون للخدمة!

أذكر أنه في الفترة الواقعة ما بين 11 آذار و15 آذار دعت إدارة شؤون الضباط حوالي 100 ضابطاً بعثياً، إلى الالتحاق بالخدمة. وقد قام المقدم صلاح جديد بهذا الاقتراح الذي وقعه الفريق لؤي الأتاسي، وقد كنت كما قلت سابقاً أخذ القرارات المراد توقيعها عن الفريق لؤي الأتاسي بسبب علاقتي الطيبة معه. هؤلاء الضباط المئة وزعهم المقدم صلاح جديد على التشكيلات المقاتلة الهامة المحيطة بدمشق ليكونوا هم عيون الثورة والجيش معاً داخل هذه التشكيلات. والحقيقة أن المقدم صلاح جديد لم يكن مدير إدارة شؤون الضباط، وإنما كان معاوناً لمدير هذه الإدارة، لكنه كان يقوم بالفعل دور مدير الإدارة، وقد كانت اللجنة العسكرية تجتمع يومياً في المساء، في حوالي العاشرة ليلاً. وكان يتم هذا الاجتماع خارج قيادة الأركان، يتم في واحد من بيوت أعضاء اللجنة العسكرية. وهذه الاجتماعات تكون سرية ومغلقة، ولم نكن نعلم بها، بل إن المجلس الوطني لقيادة الثورة لم يكن على علم بها، كما لم تكن القيادة القطرية، ولا الحكومة تعلم بها أيضاً. وكان ما يخطط له هؤلاء الخمسة أعضاء اللجنة العسكرية هو الذي ينفذ فوراً، والحقيقة لم يكن أحد يعرف من هو صاحب القرار في هذه اللجنة العسكرية..

وخلال وجود الوفد السوري' المفاوض في القاهرة، أي في الفترة الواقعة ما بين 14 و17 آذار التحق مئة ضابط بعثي أيضاً بقيادة الأركان، وتم توزيعهم

مباشرة على التشكيلات العسكرية، وبذلك أخذ الضباط البعثيون بمسكون بمفاصل القوات المسلحة الهامة، وقد وصل عدد الضباط البعثيين الاحتياط الذين التحقوا بالقوات المسلحة حوالي (400) ضابط خلال شهر ونصف الشهر من عمر الثورة. وقد عاد الوفد السوري المفاوض من القاهرة في 17 آذار مساءً.

اجتمع المجلس الوطني لقيادة الثورة من أجل الاستماع لأعضاء الوفد حول ما جرى من المحادثات التي دارت بين عبد الناصر ووفدي العراق وسورية. وعلى أثر هذا الاجتماع تشكل وفد جديد برئاسة الفريق لؤي الأتاسي من أجل الذهاب إلى مصر وتصفية القلوب ما بين قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية وعبد الناصر، أي مناقشة كل الأمور العالقة بين الطرفين. وقد سافر الوفد صباح 19 آذار 1963 إلى القاهرة، وبقي هناك ثلاثة أيام من أجل مناقشة كل العوالق بين البعثيين والناصريين، وقد تشكل الوفد من الفريق لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، وهو ناصري، والأستاذ ميشيل عفلق، وهو الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، وصلاح البيطار رئيس الوزراء، والمقدم فهد الشاعر عضو المجلس الوطني لقيادة الثورة. وكانت مهمة هذا الوفد الأساسية هي (تصفية القلوب) كما قلنا، وإعادة العلاقات الأخوية إلى مجاريها الطبيعية ما بين عبد الناصر والبعثيين.

مداولات... لإفخاع عبد الناصر!

الوفد السوري الأول الذي ذهب إلى القاهرة برئاسة نهاد القاسم (وهو ناصري)، وزياد الحريري (مستقل)، وعبد الكريم زهور (بعثي)، وفواز محارب (ناصر)، وفهد الشاعر (ناصر)، وعبد الحليم سويدان (ناصر)، واللواء راشد قطيني (مستقل). هذا الوفد ذهب لكي يقول لعبد الناصر بأن البعثيين ليسوا هم وحدهم الذين قاموا بالثورة، بدليل أن نصف المجلس الوطني لقيادة الثورة مؤلف من الناصريين. وقد قال عبد الناصر إن ما يسمعه في الإعلام

عن ثورة آذار يشير إلى أنها ثورة بعثية، فنفى الوفد هذا الرأي بدليل أن الناصريين هم الذين يشاركون في المجلس الوطني، وفي الوفد الذي هو معه الآن في القاهرة، أي الوفد الذي يحاوره في هذه الساعة.

أعتقد أن عبد الناصر كان مهتماً بالرجل الذي قيل إنه كان من أبرز رموز الثورة، أعني بذلك اللواء زياد الحريري، وقد أولاه اهتماماً كبيراً، بل إن الوفود السورية التي لم يكن فيها زياد الحريري كان عبد الناصر لا يعطيها الأهمية المناسبة.

في هذا الوفد السوري الأول، كان سليمان حداد برفقة زياد الحريري، فزياد الحريري يثق بسليمان حداد الذي كان يشكل صلة الوصل بينه وبين صلاح جديد والقيادة البعثية، وأعتقد أن عبد الناصر كان قد عرف أن زياد الحريري هو الذي جاء بالقوات من الجبهة في الجولان إلى دمشق، ونفذ انقلاب 8 آذار بشكل مباشر.

خلال هذه الفترة من 14 آذار إلى 17 آذار وفي أثناء وجود الوفد السوري في القاهرة، استدعى المقدم صلاح جديد الضباط البعثيين كافة ووزعهم على تشكيلات الجيش، فصار عددهم جميعاً حوالي (400) ضابط، وأذكر أن الأمور كانت تسير بهدوء، بينما ظلت المظاهرات تسير في الشوارع تأييداً للثورة والوحدة، وهي تهتف بحياة عبد الناصر، ومن الشعارات التي كانت تردد أتذكر:

لا دراسة ولا تدريس إلا بعودة الرئيس

ناصر ناصر ناصر

وأذكر أن بعض المظاهرات التي خرجت في المدن السورية كان يوجد فيها بعض التيارات التي ترفض إعادة الوحدة وذلك ما حدث في حماة، ودير الزور، والأسباب تعود إلى وجود أكرم الحوراني في حماة الذي رفض عودة الوحدة الفورية، وقد كان لأكرم الحوراني ثقل بارز في مدينة حماة. أما التوجه القطري فكان هو المغذي لتيارات المناهضة للوحدة في دير الزور.

وبين فترة (14 و18 آذار) حدثت بعض المشكلات في مدينة حلب، ومنها أن الجماهير أرادت، من خلال المظاهرات، عودة الوحدة مع مصر بشكل فوري، وبسبب هذه المشكلات ذهب أمين الحافظ الذي كان وزيراً للداخلية إلى مدينة حلب، وقد كنت في رفقته وذلك من أجل تهدئة الأوضاع فيها، وعلى ما أذكر أن أمين الحافظ كان يخطب في المظاهرات أمام السرايا.. وقد كانت الحماسة كبيرة جداً، والمتظاهرون يتدافعون نحو أمين الحافظ، وحين دخلنا إلى قاعة السرايا، طلب مني أمين الحافظ أن أدخل بعض المتظاهرين إلى داخل السرايا، وحين جئت ببعض المتظاهرين، قال أمين الحافظ لهم إن الوحدة ستقوم، وعلى الجميع أن يهدؤوا.

وقد قمت شخصياً بالاجتماع مع مظاهرات الطلبة، وطلبت منهم أن يهدؤوا أيضاً، وأذكر أن الطلاب حملوني على الأكتاف ورحت أهتف: ناصر ناصر. طبعاً كان الطلاب وأهالي حلب يسمعون عني، وقد كنت من بين حركة الضباط الأحرار في حلب 1962. وقد طلبت، بعد انتهاء المظاهرة، الاجتماع بالطلاب، وكان عددهم أربعين طالباً.. فشرحت لهم ظروف الثورة، وضرورة السيطرة على الشارع في مدينة حلب. وكان قد قال أحد العمال المتحمسين لأمين الحافظ وزير الداخلية (أذيعوا قيام الوحدة قبل أن يحدث الانقلاب عليكم)..

وعدنا من حلب ليلاً، ووصلنا إلى دمشق بعد منتصف الليل، وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى قيادة الأركان، في تلك الفترة تركت كتيبة حراسة الأركان، وأصبحت مسؤولاً عن الحرس القومي، لكن بقيت لي غرفة في قيادة الأركان، وقد كانت مهمتي الاتصال بالضباط البعثيين وتوزيع المهام عليهم، وضرورة تواجدهم في التشكيلات العسكرية، وأخبار قيادة الأركان بكل ما يحدث داخل تشكيلات الجيش.

مظاهرة نسائية أمام بيت لؤي الأتاسي..!

في مساء يوم (18 آذار)، أذكر أن مظاهرة نسائية جاءت إلى بيت لؤي الأتاسي في الساعة التاسعة ليلاً، وعلى رأس المظاهرة ثريا الحافظ، وقد كنت في بيت لؤي الأتاسي، وقد كان الحديث مع المظاهرة والجماهير في الشارع صعباً جداً، لذلك خرجت إلى ثريا الحافظ، وقلت لها بيت لؤي الأتاسي لا يتسع للجميع، وعليها أن تختار عدداً من رفيقاتها لمقابلة لؤي الأتاسي، وصرخت بالجماهير أن الفريق لؤي الأتاسي سيذهب غداً إلى القاهرة، من أجل البحث في إعادة الوحدة مع مصر. وكان أن صعد إلى بيت لؤي الأتاسي حوالي عشر نساء مع بعض الرجال، ودخلوا إلى صالون بيت لؤي الأتاسي وكان صغيراً، وقد سلم عليهم لؤي الأتاسي، وخرج، بعد أن قال لهم إن محمد إبراهيم العلي هو الذي يحاوركم، ويستمع إلى آرائكم ويسجل الملاحظات. وبدأت الحوار معهم بروح ديمقراطية عالية. طلبوا مني أن تعاد الوحدة بشكل مباشر، وأن تشرع إذاعة دمشق بالبت باسم الجمهورية العربية المتحدة، فقلت لهم إن عبد الناصر لا يريد هذا، وهو يطلب منا أن نتفاوض، ونتحاور لتكون الوحدة على أسس متينة وقوية كي لا نخفق مرة أخرى.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، خرجوا من بيت لؤي الأتاسي، وقد هدأت الخواطر، وفي صباح اليوم التالي (19 آذار) سافر الفريق لؤي الأتاسي مع وفد مؤلف من صلاح الدين بيطار، وميشيل عفلق، وفهد الشاعر. واجتمع الوفد فور وصوله إلى القاهرة مع الرئيس عبد الناصر، وقد كان هدف زيارة هذا الوفد بعث الاطمئنان في نفس الرئيس عبد الناصر بأن البعثيين الذين قاموا بالثورة ليسوا هم البعثيين الذين كان أكرم الحوراني يقف وراءهم. وقد استمرت مباحثات هذا الوفد مع الرئيس عبد الناصر من 19 آذار إلى 21 آذار، وغايتها الأساسية تصفية المشكلات مع قيادة حزب البعث مع سورية. وقد واجه الرئيس عبد الناصر صلاح البيطار بقوله لم أصدق توقيعك، يا صلاح،

على وثيقة الانفصال بصرف النظر عن أي خلاف سياسي. وهنا بكى صلاح البيطار، وقال: إنها خطيئة لا تغتفر لصالح البيطار. وقد قال لؤي الأتاسي وفهد الشاعر بأن انقلاب 8 آذار غير مرتبط بأي حزب. وهنا قد يتبادر للذهن سؤال مهم هو كيف تقبلت ثورة آذار ميشيل عفلق وصالح البيطار بين صفوفها، وهما، الأول: موافقه مزعجة تجاه الوحدة، والثاني: وقع على وثيقة الانفصال وباركه١٩؛ والجواب يتلخص في أن ثورة العراق التي سبقت ثورة آذار بشهر واحد، هي التي فرضت ميشيل عفلق وصالح البيطار على ثورة البعث، ولذلك كان لهما وجود في ثورة آذار. وقد كان لؤي الأتاسي يردد دائماً يريد الوحدة، وإذا لم تتم الوحدة فإنه سيترك مهماته جميعاً، لذلك كان يسعى جاهداً إلى تصفية القلوب ما بين عبد الناصر والبعثيين، ودائماً كان يحرص لؤي الأتاسي في تشكيل الوفود على وجود البعثيين لكي يكون الحوار مباشراً مع عبد الناصر. واتفقوا، في نهاية المباحثات، على تشكيل وفد من سورية وآخر من مصر من أجل متابعة الإعداد للوحدة وبالسرية القصوى، وبالتسويق مع العراق. وقد استمرت الاجتماعات طوال الأيام الثلاثة (19-20-21 آذار) وكان النقاش يحتدم ما بين عبد الناصر وميشيل عفلق، حيث كان عبد الناصر يسأل، هل سأقيم الوحدة مع حزب البعث في سورية والعراق، أم مع حزب البعث في العراق، ونصف حزب البعث في سورية؟ كما كان عبد الناصر يناقش ميشيل عفلق في آرائه في الاشتراكية، والكتب التي ألفها، وقد قال له إنه وبعد أن قرأ كتابين من كتبه لم يفهم شيئاً، وأنه لم يجد فكرة جديرة بالاهتمام. وقد قال عبد الناصر في الاجتماعات ربما كان ميشيل عفلق يقول سطرأً ويترك سطرأً لذلك كتابته غير منسقة أو مرتبة أو متكاملة.

اللجنة العسكرية.. والفبضة الحديدية!

إعلام القاهرة في هذه الفترة كان مؤيداً لثورة 8 آذار، والمظاهرات

الشعبية كانت مستمرة في شوارع المدن السورية. وأعتقد أن اللجنة العسكرية، وخلال خمسة عشر يوماً، وضعت قبضتها على الجيش ومفاصله الأساسية، وقد أعطوا الناصريين كل المهام الإدارية الثانوية، واستجابوا لكل طلبات الترفيع للضباط الناصريين، فكان يتم ترفيعهم في المجالات الإدارية. وفي هذه الفترة أيضاً، بدأ النقاش بين البعثيين والناصرين حول تشكيل الوفد السوري الذي سيذهب من أجل المباحثات حول الوحدة مع عبد الناصر. أذكر أنه كان لدينا اجتماع في المكتب (17) من أجل البحث في تشكيلة الوفد، وكان في هذا الاجتماع أعضاء القيادة القطرية وأمين الحافظ وزير الداخلية، وأعضاء اللجنة العسكرية الخمسة، وكنت من بين الذين حضروا الاجتماع، وقد تم هذا الاجتماع في 29 آذار، واقترح تشكيل أعضاء الوفد بحيث يمثل اللجنة العسكرية العقيد محمد عمران، وقد كان محبوباً من قبل عبد الناصر، ومن الحزب أخذوا عبد الكريم زهور، وصالح البيطار، وشبلي العيسمي، وسامي الجندي (وهو ناصري وبعثي)، ومن الجبهة العربية المتحدة نهاد القاسم، وعبد الحليم سويدان، وسامي صوفان، ومن الناصريين الحيايين محمد الصوفي، ومن القوميين العرب هاني الهندي، ومن الناصريين المستقلين درويش الزوني، وغسان حداد (مستقل)، والعقيد كمال هلال (مستقل) وفواز محارب (ناصرى مستقل)، وبذلك تكوّن الوفد السوري من (17) شخصاً وكان من ضمنهم أيضاً لؤي الأتاسي، وراشد قطيني، وفهد الشاعر، وقد تشكل الوفد المصري من عبد الناصر، وعبد اللطيف البغدادي، وعبد الحكيم عامر، وكمال الدين حسين، وعلي صبري، وكمال الدين رفعت، وأمين هويدي، وعبد المجيد فريد. والوفد العراقي تشكل من أحمد حسن البكر، وعلي صالح السعدي، وصالح مهدي عماش، وطالب شبيب، وعبد الستار عبد اللطيف، ومحمود خطاب، وسفير العراق في القاهرة. وقد اجتمعت هذه الوفود الثلاثة في قصر القبة بالقاهرة يوم 7 نيسان 1963، وقد نزل لؤي الأتاسي وأحمد حسن البكر في قصر القبة كونهما رئيسين للوفدين السوري والعراقي. وفي فندقي هيلتون، وشبرد

الواقعين على نهر النيل، كان في فندق شبرد الوفد العراقي، والبعثيين من الوفد السوري، بينما نزل الآخرون في فندق هلتون (واتجاهاتهم ناصرية). وقد كنت مشاركاً في هذا الوفد، وعندما ذهبت إلى فندق هلتون لأزور نهاد القاسم قبل انعقاد الاجتماعات، فوجئت بوجود علي بوظو، وعبد الوهاب حومد، وعبد الصمد الفتوح، وراتب الحسامي، وقد كنت أعرف أن نهاد القاسم يرأس الجبهة العربية المتحدة، وهي جبهة ناصرية، ويبدو أن هؤلاء الذين وجدتهم عنده هم قيادة هذه الجبهة. وكان هاني الهندي من القوميين العرب، بالإضافة إلى بعض القوميين العرب أيضاً ينزلون في فندق هيلتون، وكان في نهاية كل اجتماع يأتي لؤي الأتاسي وأحمد حسن البكر إلى فندق شبرد. وقد كنت، بعد

انتهاء الاجتماعات، أجلس مع لؤي الأتاسي على شرفة فندق شبرد، وكان يحدثني عن إعادة الوحدة، وهل هي حلم، وهل نستطيع إعادة الوحدة حقيقة، وقد كان لؤي الأتاسي عاطفياً. وكان يقول لي هل سيستطيع أن يقنع عبد الناصر بتوقيع وثيقة الوحدة؟! وكان يقول لي إن حوله من الأفاعي الكثير، وقد كان يتحسس من زياد الحريري كثيراً.

مقابلاتي.. لـ عبد الناصر!

والآن، أود أن أتحدث عن ما حدث لي في القاهرة في أثناء هذه الفترة، ذهبت إلى قصر القبة قبل الاجتماع بساعة، وذهبت إلى غرفة لؤي الأتاسي، وكنت ارتدي لباس المظلات العسكري، ودخلت إلى الغرفة، وقد كان لؤي الأتاسي موجوداً، وقد انتهى من تناول طعام الإفطار، وقد قال لي لؤي الأتاسي: هذه الغرفة كانت للملك فاروق، وهذا هو السرير الذي كان ينام فيه، عندئذٍ رميت نفسي على السرير وأنا ألبس الجزمة العسكرية، وقلت ها أنذا أنام على سرير الملك فاروق بالجزمة، ومن ثم ذهبت مع لؤي الأتاسي إلى قاعة الاجتماعات، فوجدنا في البهو عبد الناصر جالساً، وحوله مجموعة من أعضاء

الوفود، ونهض عبد الناصر واستقبل لؤي الأتاسي، واستقبلني أيضاً. وقال للجميع إذا كان يوجد رجل مخلص وصادق في هذه المجموعة من أجل إعادة الوحدة، فهو هذا الملازم أول محمد إبراهيم العلي، وعندما صافحته وعانقته، أخذت لنا الصور.. وقد نهض نهاد القاسم والوفد السوري من أجل أن يأخذوا الصور معنا، وقد أراد نهاد القاسم أن يفصل ما بيني وبين عبد الناصر، فقالت أنا لا أريد نهاد القاسم أن يفصل بيني وبين عبد الناصر، وهنا قال عبد الناصر: هذه هي روح الشباب يا نهاد القاسم، لذلك ذهب نهاد القاسم إلى مكان آخر بجوار عبد الناصر وبقيت إلى جواره مباشرة. كان عبد الناصر لطيفاً، وعلى وجهه معالم البشر والطيبة والرجولة، لقد أخذت صور كثيرة لنا مع عبد الناصر، كان ذلك في اليوم الثاني أو الثالث تقريباً، كنت أجتمع مرات عديدة مع العقيد محمد عمران، وفي صباح يوم 10 نيسان 1963، اجتمع بي عبد الوهاب الخطيب، أحد الضباط السوريين المقيمين في القاهرة، كان برتبة نقيب، والنقيب عبد الجواد عبارة، جاء إلى فندق شبرد واجتمعاً بالعقيد محمد عمران اجتماعاً طويلاً، وحين حضرت جزءاً من هذا الاجتماع، نهض العقيد محمد عمران وقال لهما تابعا الاجتماع مع محمد إبراهيم العلي.

الوفد السوري إلى القاهرة وميثاق 17 نيسان!

سافرت مع وفد ميثاق 17 نيسان، وهذه الملاحظات التي أروها هي حصيلة ملاحظاتي التي تكونت أخيراً، كان عدد أعضاء وفد (17 نيسان) سبعة عشر شخصاً، أي أنه كان وفداً كبيراً، يرأسه لؤي الأتاسي، وفيه صلاح البيطار، وهاني الهندي، وعبد الكريم زهور، ومحمد عمران، وراشد قطيني، وفواز محارب، وعدد من الضباط والمدنيين.

في الكواليس، كان يدور نقاش آخر بشكل علني بين كل الأطراف، التي كانت تحت ضغط جماهيري، فقد اتوا كلهم ليعقدوا ميثاق 17 نيسان، من أجل

أن يقيموا الوحدة الثلاثية، لكن المفوضين في الأطراف الثلاثة عملياً لم يكونوا مقتنعين بهذه المفاوضات. أعني، لا السوريون البعثيون مقتنعون، ولا الناصريون السوريون، ولا العراقيون، أما المصريون فقد وضعوا في ذهنهم على ما يبدو أن الموضوع موضوع وقت، بعده يزيحون البعثيين ويضعون الناصريين في مكانهم، نزل لؤي الأتاسي في قصر القبة مع رئيس وفد العراق أحمد حسن البكر، أما سائر الأعضاء فنزلوا في فندق الهلتون وشبرد، محمد عمران نزل في شبرد، وهو صديق قريب إلى القلب والعقل معاً. كما هو معروف، كان كل نهار، بعد السهرة، أو بعد أي اجتماع يأتي إليّ، أو أذهب إليه، وكان هناك أيضاً صديقي مهدي صالح عمّاش وزير الدفاع العراقي، ومهدي صالح عمّاش كما هو معروف، من الحزبين القدامى أيضاً كان يقول لي: يا محمد، حين تنتهي الاجتماعات، احجزوا لنا للسهرة كان هو وعلي صالح السعدي والعراقيون عموماً، مع بعض أعضاء الوفود، يذهبون للسهر. بعد كل اجتماع، كنا نخرج من قصر القبة إلى أماكن السهر، والمخابرات المصرية تراقبنا من بعيد أي من دون تدخل، فكان علي صالح السعدي يقول: أنا سأذهب إلى السهرة (بالشاروخ) حتى يصوروني ويأخذوا الصور لعبد الناصر، كان يقول هذا الكلام يومياً بدعابة محببة للنفس. والسعدي رجل شجاع وطيب، وحماسته للوحدة كبيرة جداً، وكان هذا هو الوفد العراقي الثاني، أي وفد 17 نيسان، برئاسة أحمد حسن البكر رئيس الوزراء، لأن الوفود التي أتت للمفاوضات قبل 10 نيسان كان رؤساؤها غير رؤساء الوفود السابقة، الوفود السابقة جاءت كمقدمة وتمهيد للتفاوض مع عبد الناصر من أجل هذه الوحدة، حتى توصلوا لتصور مشترك حول الوحدة، وقد استمر هذا النقاش ستة أيام.

في تلك الفترة كانت رتبتي صغيرة، ملازم أول، ولم يكن أعضاء الوفود يعطون أهمية لملازم أول في ذلك الحين، وهذا طبيعي، طالما أن مرافق عبد الناصر كان برتبة لواء، طبعاً لم يكونوا يعرفون أن الملازمين الأوليين يلعبون دوراً نشيطاً جداً، ويقومون بأعمال ذات أهمية، سواء أكانت إيجابية أم سلبية،

في الجيش والقوات المسلحة. وكان تقييم عمران حينذاك أنه بعثي وناصرى، وعمران كان يود أن يعرف ما هو رأي الناصريين في الوحدة، وماذا يعملون، حتى لا يكون هناك فخ منصوب من وراء ظهره. فيفاجأ به، أنا كنت أعرف عبد الوهاب الخطيب، فقد كان مدرّبي في الكلية الحربية، وسعيد دباح كان معي في القاهرة. وهو ناصري، وكان معنا محمد كنعان المرافق الشخصي للوئى الأتاسي، سعيد دباح كان ناصرياً متحمساً لعبد الناصر، وقد أقنع الآخرين بأنني ناصري أيضاً ومتحمس، فعلاً أنا أحب عبد الناصر على المستوى الشخصي ومتحمس للوحدة.

لقائى مع الناصريين في القاهرة..!!

جاء عبد الوهاب الخطيب إليّ وتناقشنا طويلاً حول البعثيين، قال لي إن هؤلاء البعثيين يشكلون خطراً على الوحدة، وإنهم انفصاليون، وعلينا أن نتخلص منهم، أما طريقة نهايتهم فستأخذ وقتاً، وتناقشنا كثيراً في هذا الموضوع، وسألني: ما رأيك أن تجتمع مع طعمة العودة الله؟ فوافقت على الاجتماع. طبعاً، في المساء اجتمعت أنا والمقدم محمد عمران، وتحدثنا في هذا الموضوع، لأنني لم أكن أثق بالمندنيين في ما يتعلق بالأمور العسكرية، صلاح البيطار، مثلاً، كان يراني يومياً، ويجلس معي، ويتكلم عن الحزب والناصريين، ويقول إنه متخوف من هذه الأمور، يعني أنه متخوف من ما يطرحه عبد الناصر، ويقول إن الأمور ليست (راكزة) كثيراً، ولكنني لم أكن أطرح معه موضوعاً مثل لقائي بـ عبد الوهاب الخطيب، وماذا قال لي: أعني لم أتحدث مع صلاح البيطار في أحاديث لها علاقة بالأشخاص الذين أقابلهم، وإنما كنت أتحدث حول هذا الأمر مع محمد عمران لأنه ضابط، ولم أكن أقول للوئى الأتاسي، لأن لؤي الأتاسي يتكهرب بسرعة، وقد يقول في الاجتماع إن فلاناً وفلاناً قالوا كذا وكذا، فيكون موقفى محرّجاً.

طبعاً، التقيت مرات عدة مع عبد الوهاب الخطيب، وعبد الجواد عبارة، وقد كانا يأخذاني معهما إلى شوارع القاهرة، كنا خلالها نتحدث عن الثورة في سورية، وعلاقة البعثيين بالناصرين ودور الطرفين في الثورة، بالطبع، كنت أعرف أماكن عديدة في القاهرة من خلال إقامتي في القاهرة، حين تواجدت في الكلية الحربية وأثناء خدمتي كضابط في كتيبة المظليين. الخطيب، وعبارة كانا يتحدثان عن ضرورة التخلص من البعثيين، وهذا الرأي ليس رأيهما فقط وإنما هو رأي المخابرات المصرية أيضاً.

في أثناء هذه اللقاءات مع عبد الوهاب الخطيب التقيت بـ طعمة العودة الله، جاء إلى مكان تواجدنا، في مطعم في منطقة الهرم، مع عبد الحميد السراج، كنت لا أعرفهما، عبد الوهاب الخطيب هو من عرفني بطعمة العودة الله، وعبد الحميد السراج وقد رحب طعمة بي ترحيباً مبالغاً به. وقد فوجئت بالسرّج لأنني كنت أظن أنه أكثر ذكاءً مما وجدته عليه، فقد بدا لي ساذجاً، وقد رحّب بي، وقال لي إنهم حدثوه عني كثيراً وأنه متشوق لكي يتعرف إليّ. لكنني في الحقيقة لم أرتح للسراج، وهو لم يمكث طويلاً معنا.

كنت أسهر مع هؤلاء الضباط في كل ليلة تقريباً، استمعت إلى مخاوف الناصريين من البعثيين وبعض الناصريين، وعرفت أنهم يتطلعون إلى الوقت الذي يقل فيه نفوذ البعثيين. وقلت لهم بوضوح شديد إن على الجميع أن يتعاونوا دون خلفيات مسبقة، لأن المرحلة دقيقة جداً.

أذكر، في تلك الفترة، أنني ذهبت برفقة صالح السعدي إلى بيت أحمد إسكندر أحمد الذي كان يدرس في الجامعة، ويسكن في القاهرة، زرناه وشرينا عنده الشاي، وقد حدثنا عن العمل السياسي ضمن صفوف الطلاب. وكان صالح السعدي مهتماً بالطلاب وتنظيمهم السياسي لأنه يشرف على العمل الطلابي في العراق.

عبد الحكيم عامر يدفع المال .. لإنفاذي من الإعدام!

ومن المفارقات المهمة حول الناصريين وعلاقتهم بي، المشير عبد الحكيم عامر استقبلني وحذثني بمرارة عن الانفصال، وقال لي إنه دفع أموالاً لأهلي وبعث أموالاً إليّ، قلت له يومها (وهو في ذمة التاريخ الآن): أهلي لم يأخذوا قرشاً واحداً من المخابرات المصرية، وأنا شخصياً لم يصلني قرش واحد، فقال: نحن كنا نرسل (الجميل) ونقول إن شاء الله يصل منه أذنه، فقلت له: حتى أذنه لم أرها، وحتى نكون واضحين، أريد أن أعرف أسماء الذين أخذوا الأموال، وتمنيت أن يعطيني أسماء من أخذوا الأموال حتى نحاسبهم ونعرف أين ذهبوا بها! وذكر لي قصة عن شخص اسمه عمر المصري، فذكر أنهم دفعوا له /150/ ألف ليرة، (وقد اعترف عمر المصري بقسم من المال، وأنه أخذه من المخابرات، لكن أين ذهب بها؟ لا أحد يعرف) إذن قالوا نحن كنا ندفع كثيراً، فقلت: أبدأ، أنا أتمنى، حتى الآن، أن تعطوني أسماء الذين كنتم تعطونهم الأموال حتى نحاسبهم لنعرف، على الأقل، ماذا عملوا بها؟ وقناعتي هي أن من أن أخذ الأموال (أكلها)! مبدأ المساعدة في هذا المجال لا يجدي شيئاً، ناقشته حول هذه الفكرة، بإيجاز شديد لأن اللقاء كان قصيراً.. (استمر حوالي نصف الساعة)، وكان بحضور علي صبري.. (الذي قال لي): الرئيس يحبك ويحترمك ويقدرك، ويتحدث عنك دائماً، وحين خرجنا من هذا الاجتماع، استقبلني عبد الناصر ورحّب بي أمام الجميع.

زيارة السد العالي ..!!

في يوم 14 نيسان 1963، أخذت القيادة المصرية أعضاء الوفدين السوري والعراقي إلى منطقة السد العالي في مدينة أسوان، كانت المسافة حوالي ساعة بالطائرة، فقد ركبنا في طائرة إنكليزية من نوع (كومييت)، كان يرافقنا من

القيادة المصرية علي صبري وعدد من معاونيه، وقد أصرّ أحمد حسن البكر أن أركب إلى جواره في الطائرة، كان يريد مني أن أحدثه عن فترة الانفصال وأخبار سورية في تلك الفترة، والظروف التي تعرضت إليها في أثناء سجنني، وقد عرفت أنه لا يرتاح لنهاد القاسم ولا للناصرين، كان يقول عنهم إنهم منافقون وانتهازيون وعملاء للمخابرات المصرية. وعندما هبطنا في مدينة إسوان، ذهبنا إلى منطقة السد العالي، كان أحمد حسن البكر يتحدث إليّ بصوت هامس بين الطرفة والدعابة، فيقول: هل تستطيع دفع نهاد القاسم من هذا المكان العالي نحو كسارات الرمل والحصى لكي يُسحق في الأسفل، ثم يعود فيقول لي: لا تدفعه لأن السد سيخرب إذا كان جسد نهاد القاسم مجبولاً مع الحصى والرمال. وبعد جولة في منطقة السد العالي، ومعرفة حيثيات العمل، والاستماع إلى شروح من قبل المهندسين، تناولنا طعام الغداء بدعوة من مشتركة المشرف على السد العالي، ومحافظ أسوان، ثم عدنا، وشعورنا أكديد بأن هذا السد على أهمية كبيرة ستؤثر إيجابياً في الاقتصاد المصري من حيث توزيع المياه، وإنارة المدن والقرى المصرية.

عدنا إلى القاهرة، بعد الغداء مباشرة، على متن الطائرة التي جاءت بنا. كم كنت حزيناً في ذلك الوقت. فقد تذكّرت فترة التدريب المظلي في منطقة السويس، ومشروع الكيلو (101) للدفاع عن القاهرة، فقد عاودني الحنين إلى القفز المظلي في منطقة الهرم، ومشاريع التكتيك التي كانت تنفذ بقيادة اللواء الحديدي (وهو ضابط مصري، قائد الفرقة الثالثة مدرعات) وفي يوم الانفصال المشؤوم 28 أيلول 1961، كنا نحضر لمشروع إنزال على المشروع (101) غربي القناة، على طريق السويس من أجل تأمين صد الهجوم عن الفرقة الثالثة مدرعات، فوق الانفصال في ذلك اليوم، فقلت يومها، وأنا على صندوق الرمل لنقلب المشروع، ونجري الإنزال المظلي في منطقة الصبورة الواقعة غرب دمشق من أجل إنهاء الانفصال، ففي الصبورة توجد محطة للإذاعة، ولكنني كنت آنذاك في رتبة ملازم أول فلم ينتبه أحد لرأبي هذا.

توقيف الميثاق.. وغضب عبد الناصر!

المهم، أننا هبطنا، قبل الغروب في مطار القاهرة، وذهبنا إلى قصر القبة، وهناك بدأت جلسة المحادثات بين الوفود الثلاثة في حوالي الساعة السابعة مساءً. وأذكر أن المحادثات استمرت طوال الليل، وطوال اليوم الثاني واليوم الثالث أيضاً في 16 نيسان 1963، وفي هذه الأثناء وصل اللواء زياد الحريري إلى القاهرة بناء على طلب عبد الناصر، فقد أراد عبد الناصر أن يوقع على الميثاق اللواء زياد الحريري، وقد اختلف أعضاء الوفود وهم في جلسة المباحثات، على بعض بنود الميثاق، وقد حدث ذلك في الساعة التاسعة ليلاً، غضب عبد الناصر وترك المباحثات، وذهب إلى منزله في منشية البكري، واتصل بقصر القبة لكي يرسلوا إليه زياد الحريري، ولكن زياد الحريري لم يذهب إليه بمفرده، وإنما أخذ معه محمود شيت خطاب، ذهب الاثنان إلى بيت عبد الناصر، وقد كان محمود شيت خطاب ناصرياً، وبقينا جميعاً في قصر القبة، أعني ظل أعضاء الوفود في القصر، كان لؤي الأتاسي قلقاً جداً، وسمعته يقول: إنه إذا لم يوقع عبد الناصر على الميثاق فلن يعود إلى دمشق. وكان أعضاء الوفدين السوري والعراقي قلقين من غضب عبد الناصر، وتخوفهم من عدم توقيعه على الميثاق. وكانوا يوزعون قلقهم في أبهاء القصر، وممراته، وغرفته وهم يمشون فرادى وجماعات. كان صلاح البيطار مثوئراً مثل الآخرين. كان يمشي هو وأحمد حسن البكر، وكنت أنا معهم أرتدي اللباس العسكري، وقد توقفوا إلى جوارى، ورحنا نتبادل الحوار والنقاش حول عدم توقيع الميثاق بعد كل هذه المحادثات، والأوقات التي أمضيناها، وقال أحمد حسن البكر بالحرف الواحد: ما رأيكم، إذا عبد الناصر لم يوقع الميثاق، وإذا لؤي الأتاسي رفض الذهاب إلى دمشق وظل في القاهرة، أن نأتي بزياد الحريري إلى قصر القبة، وننظمه في حزب البعث العربي الاشتراكي، ويقسم اليمين (طبعاً قال يطع اليمين)، ويصبح رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة في سورية. فنظر صلاح البيطار إلى

وجهي وهو يستغرب هذه الفكرة، أي وهو في حالة دهشة، وسألني ما رأيك محمد؟! كان العقيد محمد عمران يمشي في أروقة القصر مع هاني الهندي، فقلت لصلاح البيطار: دعوني أشارك العقيد محمد عمران، قالوا: لا بأس شاورة. فأتى محمد عمران، واستمع إلى رأي أحمد حسن البكر حول تنظيم زياد الحريري في حزب البعث، فضحك وقال له، هل نصبغ الناس بصبغة في حزب البعث؟! ولم يوافق على هذا الرأي. وقال: عبد الناصر سيأتي بعد قليل، وسنوقع الميثاق جميعنا. وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً، واقتربت من الواحدة صباحاً، وفعلاً، جاء عبد الناصر وزياد الحريري ومحمود شيت خطاب في الواحدة والنصف، وعقدت جلسة فورية، ووقع أعضاء الوفود جميعاً على ميثاق 17 نيسان.

بعدئذ، جهزوا طائرة للوفد السوري من أجل السفر إلى دمشق، لأن يوم 17 نيسان يصادف يوم الجلاء، ولابد للقيادة من حضور احتفالات عيد الجلاء، وقد اتفق الجميع على أن يذاع البيان في الساعة السادسة صباحاً في مصر وسورية والعراق، لكن القاهرة أذاعته في الساعة الرابعة صباحاً. وعدنا بالطائرة كوفد سوري إلى دمشق، وعاد معنا سعيد دباح، وحسن شريط، وجابر الصبح، وعبد الله عمرايا. وقد قدمت هدايا لجميع أعضاء وفدي سورية والعراق، وكانت الهدية باسم الرئيس جمال عبد الناصر، وهي عبارة عن جهاز تلفزيون نصر، أبيض وأسود، وهي صناعة مصرية، ففي ذلك الوقت لم يكن التلفزيون الملون موجوداً. والحقيقة أن هذا التلفزيون مازال يعمل حتى يومنا هذا، أي بعد أربعين سنة، وقد أهديته لابن عم لي في القرية.

عيد الجلاء، في عهد الثورة...!!

في الساعة السادسة صباحاً وصلنا إلى مطار دمشق (في المزة)، وذهبنا مباشرة إلى العرض العسكري الذي سيقام صباحاً في شارع بيروت. وقد رأينا

ال جماهير تتظاهر في شوارع دمشق، وسمعنا أنها تتظاهر أيضاً في جميع المدن السورية احتفالاً بميثاق ١7 نيسان 1963 الذي سمعوه يبث من إذاعة القاهرة في الساعة الرابعة صباحاً.

وقد بدأ العرض العسكري في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، وقد مشيت في مقدمة كتائب الحرس القومي الذي كان على رأس العرض في المقدمة، وقد انتهى العرض في الساعة الحادية عشرة ظهراً، وكانت القيادة الحزبية، والحكومة، وكل القوى السياسية المعروفة آنذاك.. حاضرة لهذا العرض. وقد كان هذا اليوم يوم عطلة بمناسبة عيد الجلاء. وقد فرحت زوجتي كثيراً بهدية عبد الناصر، إذ لم يكن لديها تلفزيون، أو براد... بل البيت كان لخالد رسلان.. استعمرته منه لمدة قصيرة.

إلخاف (الفتوة) بالحرس القومي...!!

في اليوم الثاني 18 نيسان 1963 ذهبت باكراً إلى قيادة الحرس القومي فوجدت أمامي أمراً من المجلس الوطني لقيادة الثورة، يقول الأمر: إن الفتوة (وهي المرحلة الثانوية للطلاب والطالبات في سورية) تلحق بقيادة الحرس القومي، ولفت انتباهي أن الفتوة، وهي ذات طبيعة عسكرية، تابعة لوزارة التربية. وكان وزير التربية والتعليم آنذاك هو الدكتور سامي الدروبي، ومكان وزارة التربية آنذاك، هو مكان وزارة السياحة الآن الواقعة إلى جوار المتحف الحربي على ضفة نهر بردي قرب جسر فكتوريا. وقد ذهبت إلى وزارة التربية، من أجل معرفة هذا الأمر، لكنني لم أجد وزير التربية والتعليم، لذلك ذهبت إلى مديرية الفتوة، وكان يشرف عليها مدرب للرياضة والفتوة، نسيت اسمه، وقلت له إن الفتوة باتت تابعة لقيادة الحرس القومي، فراح هذا الرجل يشرح لي مهمات عمل الفتوة، ثم ذهب معي إلى غرفة فيها ضابطان، ويوجد في داخلها ثلاث طاولات.. حدثني عن بريد الفتوة، وقال لي هذه الطاولة الفارغة

هي لك، وعليك أن تداوم في الساعة الثامنة صباحاً، وهذان الضابطان يقدمان البريد لي، وأقوم أنا برفعه إليه. فقلت له: أنا قائد الحرس القومي. فقال: هذا هو القانون! وهذا هو النظام.. وأنت مرؤوس عندي. وإذا ما أردت أن ترى وزير التربية، فأنت تستطيع أن تراه عن طريقي. لم يكن الرجل مهذباً معي، ولم يكن لطيفاً أيضاً. وقد كنت واسع الصدر استمع إليه بهدوء شديد، وتعاملت معه (على الموجة الطويلة)، وعندما اطلعت منه على جميع شؤون الفتوة، عدت إلى مكتبي في الحرس القومي. وفي المساء، زرت وزير التربية والتعليم الدكتور سامي الدروبي، وشرحت له ما حصل معي نهائياً في وزارته، عند مدير الفتوة والرياضة. وقلت له إن هذا الرجل لا يصلح أن يكون في مكانه، وأرجو أن تنقله من مديرية الفتوة. وفعلاً، جرى تبديله في اليوم الثاني بضابط رتبته ملازم أول (نسيت اسمه أيضاً) وسارت مديرية الفتوة كما أرغب، وقد أزعجني آنذاك لباس الفتوة، وقررت إعادة النظر فيه، وخاصة لباس الطالبات، وقد كان لباس الطالبات عبارة عن (تنورة) كاكية تصل إلى الركبة، وفوقها قميص كاكي أيضاً. ولباس الطلاب بنطلون، وقميص، وكان همي منصباً على أن أغير لباس البنات. وقد كانت البنات، في أثناء الرمي على البندقية، يأخذن معهن (شراشف) أو (بطانيات) من أجل تغطية أرجلهن، وهن في وضع الرماية منبطحاتاً. وقد كانت المشكلة الكبرى أن تغير عادة اجتماعية، أو تقليداً اجتماعياً، فهؤلاء الطالبات منذ عام 1949 وهن يلبسن هذا اللباس (أي التنورة)، وكان الأمر صعباً أن نغير هذه العادة، أو هذا التقليد الاجتماعي. بعد حوالي يوم أو يومين، زرت دار المعلمين والمعلمات، وقد كانت الفتيات يرتدين لباس (التنورة) أيضاً في دروس الفتوة. لقد شعرت أن تغيير هذا اللباس ضروري بالنسبة للفتيات لذلك كان لابد لي من أن أحصل على موافقة رجال الدين، أو فتوى دينية من مجلس الإفتاء، يسمح للبنات بتغيير هذا اللباس، وقد كان مفتي الجمهورية آنذاك أبو اليسر عابدين، ومفتي مدينة دمشق الشيخ أحمد كفتارو.. وقد شرحت للشيخ كفتارو أفكارني في تطوير هذا اللباس،

وقمت بشرح هذا الموضوع للشيخ أبو اليسر عابدين. فكان رأي كفتارو الموافقة المباشرة، أما أبو اليسر عابدين فطلب مني أن أمهله وقتاً لكي يسأل مجلس الإفتاء الأعلى الذي يتكون من جميع شيوخ الإفتاء في المحافظات السورية.

في هذه الفترة تم خياطة بدلات عدة كنموذج للباس الطالبات، والمدرجات معاً. بدلة كنموذج للمدرجات، وبدلة للصف العاشر، وبدلة للصف الحادي عشر، وبدلة للصف الثاني عشر، وحذاء (جزمة) طويل الساق لونه أسود، ونطاق عسكري عريض، أما الرداء العلوي فرأيت أن يصل طوله إلى الركبة، وعليه يوضع النطاق العسكري.

كنت قد جهزت هذه البدلات بانتظار اجتماع مجلس الإفتاء الأعلى عند نهاية الشهر، وقمت بأخذ ثلاث فتيات باللباس الجديد، وثلاث فتيات باللباس القديم وعرضتهن جميعاً أمام أعضاء مجلس الإفتاء الأعلى، وقلت لهم: أي الزين تختارون لبناتنا. فاختاروا اللباس الجديد، وهكذا انتهت مشكلة اللباس. وقمت بعرض هذا اللباس على شاشة التلفزيون، حيث ارتدته الممثلة ملك سكر، رحمة الله عليها، وهنا أرسلت التعليمات إلى جميع المدارس ليكون هذا اللباس هو اللباس الرسمي في المرحلة الثانوية.

وقد اتفقت مع وزير التربية والتعليم الدكتور سامي الدروبي، كي لا يكون اللباس موضع اختلاف أو تمايز ما بين الفقراء والأغنياء، اتفقت معه على أن يبقى لباس الفتوة لباساً دائماً لكل الطلاب والطالبات وعلى مدار السنة الدراسية. وبذلك غيرت هذا اللباس وأصبح طلاب المرحلة الثانوية أشبه بالجنود في منظمة الحرس القومي، وقد وافقت القيادة السياسية على هذه الرؤية.



الفصل
السابع

فُصْتي مع المرشدين

كيف تعرّفنا إليهم..!

في حوالي 25 نيسان 1963، كنت أزور ثانوية تجهيز البنات، وتسمّى اليوم ثانوية زكي الأرسوزي في منطقة الشهبندر، لفت انتباهي مساعد في الشرطة وشرطي ينظران إلى باب ثانوية التجهيز للبنات، فبدلاً من أن أدخل إلى المدرسة، توقفت إلى جوار هذا المساعد والشرطي وسألتهما ماذا يفعلان هنا، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، فأجاب المساعد، أنا رئيس مخفر حراسة أبناء سلمان المرشد الذين هم في الإقامة الجبرية في هذه الشقة القريبة منا، وأشار بيده إليها. فدفعتني الفضول، وأنا ابن الغاب وأعرف القليل عن سلمان المرشد، لأن أتعرف إلى أبناء سلمان المرشد في تلك اللحظة، وبدلاً من الدخول إلى المدرسة، صعدت الدرج من أجل التعرف إلى أبناء سلمان المرشد، ومن تلك اللحظة بدأت علاقتي مع المرشدين.

بعد 8 آذار من عام 1963 لم تكن تتوفر لدي أي فكرة أو معلومات عن المرشدين سوى ما كنت أسمعه من الدعاية الإعلامية ضدهم، وفي تلك الفترة كنت قد خرجت من السجن حديثاً بعد أن حُكم عليّ بالإعدام وعرفت ما معنى المعاناة والقهر داخل السجن. وبعد عودتنا كوفد من القاهرة لتدارس إعادة الوحدة مع عبد الناصر بدأت معرفتي بالمرشدين وعن طريق المصادفة، ورحت أتقصّي الحقائق والتفاصيل عن حياتهم التي وجدت فيها ظلماً واضحاً، فأخبرت المقدم ثابت برؤ رئيس الأمن السياسي وتحدثت معه بأن هذه الحالة غير صحيحة، ثم بحثت هذا الموضوع مع أمين الحافظ الذي كان وزيراً للداخلية يومئذ. وقد دفعه الفضول للتعرف أكثر للوقوف على حقائق الأمور، فعملت على تنسيق اجتماع عشاء بين أمين الحافظ من طرف مع ساجي وفاتح المميزين من أبناء سلمان المرشد من طرف آخر (في بيتي بالمزة والذي يقع بالقرب من المشفى العسكري الذي سكنته بعد خروجي من السجن مباشرة ولم

أكن أملك بيتاً والحقيقة هي أن هذا البيت لصديقي خالد رسلان ولم يكن معي يومئذ حتى أجرة بيت فقلت لخالد رسلان: خالد سقر زوجتك وأولادك !! أريد أن أسكن هذا البيت مدة شهر، ريثما أتدبر أمري !!) وقد حضر الاجتماع ساجي وفاتح وتحديثاً عن الظروف الصعبة التي عاناها المرشديون من الإقطاع الذي ما فتئ يحكم سورياً حتى قيام ثورة البعث، وطالبا العهد الجديد أن يلغي التعليمات الصادرة من السلطات العليا في زمن الانفصال باضطهاد المرشدين تنفيذاً لمبادئه المعلنة، ولكن لم يستجب المسؤولون في الحزب لهذا الطلب حتى حققه للمرشدين الرئيس حافظ الأسد فيما بعد عندما أصبح وزيراً للدفاع .

بعد هذه الاجتماع بأيام عدة حدثتُ صلاح البيطار رئيس الوزراء عن هذا الاجتماع وما دار فيه من نقاش فدفعه فضوله أيضاً للبحث والمعرفة ورغب أن يجتمع معهما وعلى الأثر رتبت اجتماعاً آخر له معهم وبالطريقة السابقة نفسها، ثم دار الحوار نفسه مع صلاح البيطار وبذلك تمكنت من إيصال الحقائق والملاحظات إلى أعلى السلطات في الدولة. مما عزز الثقة والمودة بيني وبين آل المرشد. وصرت أزورهم بشكل دائم وأطلع على ظروفهم.

بعد كل هذا لم تُعط الحرية الكاملة للمرشدين حتى قيام الحركة التصحيحية على يد الرئيس حافظ الأسد.

ما حدث في قرية جوبة برغال..!!

وهذه قصة حدثت معي:

كان فعلاً قد حصل خطأ في قرية قريبة من جوبة برغال من قبل أحد المواطنين فكان من نتائج هذا الخطأ أن سيقّت القرية بأكملها للعقاب، فأضربت القرى والمنطقة وتطورت الأمور إلى مشكلات كبيرة في القرية وما حولها. وكان رئيس فرع الأمن العسكري في اللاذقية الملازم أول أسعد غوثاني، ورئيس الأمن السياسي الملازم أول مطلق فلاح في اللاذقية أيضاً قد فشلوا في

إيجاد حلّ لهذه المشكلة في المنطقة، عندئذ، وبالاتفاق مع القيادة، تمّ تشكيل لجنة لحلّ هذه الورطة وكانت على الشكل التالي:
- الدكتور نور الدين الأتاسي وزير الداخلية.

- السيد إبراهيم ماخوس وزير الصحة كونه من المنطقة.

- محمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي.

كانت مهمة اللجنة أن تبحث في الأسباب التي دفعت سكان المنطقة القيام بهذا التحريض. ووجدت من واجبي أن أخبر ساخي المرشد وأخاه فاتح، فقلت لهما: غداً سوف نذهب إلى منطقة الحقة مع اللجنة، وأتمنى أن نُستقبل بشكل لائق من قبل المرشدين، وذلك تسهيلاً لحل هذه المشكلة. والحق يقال، لم يكن لهم طلبات صعبة التنفيذ، بل كانا يطلبان دائماً أن يُرفع الظلم عن المرشدين، وأن تُلغى التعليمات الصادرة من السلطات العليا في زمن الانفصال باضطهاد المرشدين.

وتوجّهنا إلى منطقة إقامة تجمّع المرشدين، واستقبلنا رئيس الوحدة الإرشادية في (جوبة برغال)، شاب طويل اسمه عيسى سلوم (والآن هو ضابط في الجيش برتبة لواء رئيس شعبة التنظيم والإدارة حالياً) واجتمعنا في قرية اسمها (مرشتي) ضمن ثكنة عسكرية تعود للحرس القومي، وجمعنا الناس في ساحة الثكنة، فألقى الدكتور نور الدين الأتاسي كلمة بالحضور تحدّث فيها الحديث المعتاد الذي تعود الناس أن يسمعه من فم المسؤولين في كل عهد جديد دون أن يلمسوا جدية بتنفيذه وهو الحديث عن الأمن وحقوق المواطنة لكل الناس، وأن حقوقهم محفوظة مثلهم مثل أي مواطن، ولا فرق بين مواطن وآخر إلا بما يقوم به من عمل!

ثم تحدّث الدكتور إبراهيم ماخوس، وبشكل مطوّل عن القومية العربية وعن القضايا الوطنية البعيدة كل البعد عن الأحداث الآنية التي تجري في هذه القرى، ثمّ تكلمت أنا وبشكل مختصر جداً قلت يومئذ: يا أخوان.. الدين لله

والوطن للجميع. ومن الآن فصاعداً تمنع منعاً باتاً المحاسبة الجماعية !! وكل من يتحدث بهذا الموضوع أو يُعاقب عقوبةً جماعيةً للمرشدين سوف تفرض بحقه العقوبات المناسبة والحاسمة أيضاً، فسّر الناس لقولي وارتاحوا له. وبعد الاحتفال توجه نور الدين الأتاسي وإبراهيم ماخوس إلى اللاذقية، وتوجهت أنا عن طريق صلنفة إلى منطقة الغاب، وكانت الطريق ترابية صعبة بوساطة سيارتين من نوع لاندروفر صالون، ترافقني مجموعة من المظليين، وفي طريقي إلى الغاب بالقرب من قرية (سلمو) صادفت الرائد سعيد الهيج مدير منطقة جسر الشغور يسوق أمامه ضيعة مرشدية بأكملها (كالمقطيع تماماً) نساءً وأطفالاً وشيوخاً حوالي (200 شخص) بسبب ارتكاب أحد سكانها ذنباً، وقد هرب مرتكب الذنب؟! ومن خلال الحوار معه عرفت: أنه يومياً يسوق هذه القرية واسمها (الخطيب) إلى جسر الشغور كل صباح وتعود مساءً إلى الخطيب مسافة (25 كم) مشياً على الأقدام ذهاباً وإياباً وقال: سوف يستمر بهذا الشكل حتى يلقي القبض على مرتكب الذنب؟! قلت له: سيادة الرائد منذ قليل كانت لجنة من القيادة مجتمعة في (جوبة برغال)، وأنا النقيب محمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي واحد من أعضائها، واتخذنا قراراً بعدم الاعتقال الجماعي للمرشدين بسبب المخالفة الفردية فترك الناس يعودون إلى منازلهم !! قال: حتى الآن لم يصلني الأمر.

قلت:

- أنا أبلغك الأمر الآن.

قال:

- أوامري آخذها من وزير الداخلية.

قلت:

- سيادة الرائد أنصحك أن تترك الناس !!

وإذا ما ركبت رأسك وصممت أن تسوقهم فسوف أزعجك بما لا يرضيك،

وغداً إن شاء الله تعتبر نفسك منقولاً من هذا المكان.

فرفض رفضاً قاطعاً وصار نوع من التجدي فاستخدمت القوة، وأعطيت أمراً للمظليين فأبعدوا الشرطة والرائد معهم عن طريق الناس، فعادوا إلى بيوتهم، وفي اليوم التالي أخبرت وزير الداخلية بما حصل، ونُقل الرائد من مكانه على الأثر. هذه الحادثة جعلت علاقتي بالمرشدين أكثر متانة ومودة من السابق بعد أن شاع الخبر بأن محمد إبراهيم العلي أطلق سراح قرية بكاملها ورفع عنها الظلم. وبعد فترة قليلة من الزمن شكلت الحكومة لجنة لدراسة أوضاع المرشدين في كل سورية.

وتألفت اللجنة من:

- النقيب محمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي رئيساً.
- الملازم أول أسعد غوثاني رئيس الأمن العسكري باللادقية عضواً.
- الملازم أول مطلق فلاح رئيس الأمن السياسي باللادقية عضواً.

وبالفعل قمت بوضع دراسة دقيقة تزيد على خمسين صفحة تعرضت فيها لحياتهم ومعيشتهم وسكنهم.. الخ. ولم أتعرض إلى القضايا الدينية إطلاقاً إيماناً مني بأن البحث في الأمور الدينية لا جدوى منه والدخول فيه يزيد الأوضاع سوءاً وتعقيداً فالمعتقد الديني لدي مقدس ولا يحق لأحد أن يقول لآخر أن معتقدك على خطأ ومعتقدي صحيح.

ورفعنا هذه الدراسة إلى وزارة الداخلية وأخذت هذه الدراسة بعين الاعتبار. وكان من نتائج هذه الدراسة أن سمحت الحكومة للمرشدين بحرية الحركة والانتقال ولكن من دون ضجيج وبصمت لأنه في الفترة نفسها أيضاً حصل بين المرشدين والحكومة نوع من القلقة. واستدعي ساجي وأخواه فاتح والنور إلى التحقيق أكثر من مرة، ولكن باحترام، أي سؤال وجواب، من دون أي مضايقات تقريباً. وكلفتني القيادة القطرية بإنشاء مدارس بالتعاون مع وزارة التربية وبإمكانات من الحرس القومي تمّ تدشين عدد كبير من المدارس سميت

بمدارس الحرس القومي ومن مختلف مراحل التعليم (ابتدائي، إعدادي، ثانوي) وفي محافظتي اللاذقية وحمص ومنطقة الغاب وأماكن أخرى مثل حوران - سلمية - القامشلي - طرطوس.

الفهر الذي تعرّض له المرشديون...!!

وقد تعرّض المرشديّون إلى الظلم والقهر والتعذيب منذ عهد شكري القوتلي مروراً بعهد الشيشكلي بعده وعلى يد السراج في عهد الوحدة وخاصة في عهد الانفصال الذي وضع ساجي وأخوته وبعض وجهاء المرشديّين في سجن المزة ثم نقلوا إلى سجن القلعة ولم يفرج عنهم إلا حين أعلن المرشديّون إضراباً عاماً عن الطعام، وخافت حكومة الانفصال من إضرابهم وكان وضع هذه الحكومة متقلّلاً داخلياً وخارجياً ووضعت ساجي وفاتح والنور في الحجز المدني، في بيوتهم طوال فترة حكم الانفصال، أمّا هم فلم يرضخوا لأحد من المضطهدين، فهم الشريحة الوحيدة في البلاد التي أعلنت رفضها انتخاب الشيشكلي، وهم رغم كل معاناتهم ورغم التعذيب بالكهرباء وشتّى وسائل الاضطهاد ما فتئوا يعلنون ويجاهرون بما يرونه صواباً أمام الجميع. أمّا بعد قيام ثورة 8 آذار سنة 1963 فقد أبعدت يد الحاكمين عن المرشديّين كثيراً وخاصة عندما استطاع وزير الدفاع يومذاك (الرئيس الخالد حافظ الأسد) إلغاء تعليمات اضطهاد المرشديّين التي صدرت زمن الانفصال من دون أن يمتنّ المرشديّين في ذلك أو حتّى يذكرها لهم وهذا نصّ إلغائها:

بلاغ

«يلجأ بعض رجال الأمن إلى توقيف من يسمّون بالمرشديّين بحجّة انطباق أحكام المادتين 307 و 308 من قانون العقوبات عليهم.

ولما كانت المادتان المذكورتان لا تعاقبان إلا على الانتساب إلى جمعية سرّية غايتها إثارة النعرات المذهبية والعنصرية والحضّ على النزاع بين

الطوائف. ولما كان من سمّوا بالمرشديّين هم فئة من العلويّين الذين يشكّلون بعدّ ذاتهم طائفة يجب أن نحترم آراءها وأفكارها، وبالتالي لا يعتبر من ينتسب إليها أنّه يثير نعرات مذهبيّة أو يحضّ على النزاع بين الطوائف، كلّ ذلك ما لم يصدر قرار من المحاكم المختصة يعتبر المرشديّة جمعيّة سرّيّة لإثارة النعرات المذهبيّة. لذلك تُلغى جميع البرقيات والكتب والبلاغات السريّة السابقة المتعلّقة بتوقيف المرشديّين وتنظيم الضبوط بحقّهم وإحالتهم إلى القضاء، ويتوجّب عدم اللّجوء إلى تنظيم الضبط أو توقيف أي مواطن استناداً إلى هذه الصفة، وإنّ إجراء مخالفة من قبل رجال الأمن قد يؤدّي هو نفسه إلى إثارة النعرات المذهبيّة. فنطلب منكم التقيد بهذا البلاغ بكلّ دقّة».

وبعد هذا سجن ساجي وفاتح في حمص بعد أن رفعت الإقامة الإجماعية عنهما سنة 1968 والتي كان قد فرضها عليهم حكم الانفصال في آخر أيّامه.

المرشديون في الحياة السياسية..!!

وبعد 16 تشرين من عام 1970 تحسنت أحوال المرشديين في مختلف نواحي الحياة، خاصة في القضايا التعليمية فكان منهم المهندسون والأطباء والقضاة.. الخ. وسكن نور المضيء في دمشق وكان يعمل في البناء ورأيته يحمل فكراً نيّراً ويتقبّل لغة الحوار بكل موضوعيّة وتربطني به علاقة وديّة وأبادله الودّ والاحترام، وأيضاً ساجي إمام المرشديّين كنت أزوره كذلك. وأذكر في الدور التشريعي الثاني لمجلس الشعب عام 1977 قد خُصّص ثلاثة مقاعد لعضوية مجلس الشعب من منطقة الغاب فاقترحت حينئذ فكرة، وبكل وضوح، أن تتوزّع هذه المقاعد على الشكل التالي:

مقعد واحد للسنة، ومقعد ثان للعلويين ومقعد ثالث للمرشديين، وبالفعل أخذ بهذه الفكرة ودخل لأوّل مرة في عهد البعث عضو في مجلس الشعب من المرشديين هو خليل جعفر وقد رشّح معه أيضاً من المرشديين نزيه وصفي

السعيد في حمص ك (مستقل) فنجح أيضاً.

طبعاً هذا كان رأي المرشدين في تلك الجولة الانتخابية وحسب طبيعة المعركة الانتخابية التي خاضوها مع الفئات الأخرى عبرت عن وعي حضاري وضمن المسيرة الوطنية الواضحة ومن خلال زياراتي المتكررة لمحافظة حمص في تلك الفترة كنت ألتقي مع الراحل غازي كنعان رئيس فرع الأمن العسكري في حمص، وأتدارس معه شؤون الانتخابات، وكيفية العمل من أجل الوصول إلى مجتمع معافى من الأمراض الطائفية والمذهبية والعشائرية بحيث تنصهر جميعها في حب الوطن. والحقيقة أنني قمت بهذا الدور النشط من تلقاء ذاتي وفي مراحل المتعاقبة مع المرشدين انطلاقاً من قناعاتي الكاملة بأن هذه الفئة قد عانت من الظلم والاضطهاد كثيراً ١٩؛ وأيضاً كان هناك توجيه من القائد الخالد حافظ الأسد لكي أقوم بهذا الدور الذي يعيد الحقوق إلى أصحابها وبعد هذه الانتخابات وفي إطار التكريم زارني في منزلي بدمشق كل من الأخوة: ساجي وفاتح والنور مع زوجاتهم، وقدموا إلي هدية قيمة جداً من حيث دلالتها وهي مسدس السيد سلمان المرشد (بلجيكي الصنع من طراز سنت 10 قصير مفضّض، مع سبع طلقات لهذا المسدس) وفيما بعد أصبح للمرشدين ثلاثة مقاعد في مجلس الشعب وبذلك صار عَرَفُاً يُعْمَلُ به بعد أن فاز في أحد الدورات واحد من اللاذقية وثانٍ من منطقة الغاب وثالث من حمص وقد كرمهم القائد الخالد حافظ الأسد وأعطاهم حق المواطنة الكاملة منذ قيام الحركة التصحيحية، كما جاء في الدستور السوري من المادة رقم (3) التي تنصّ على حرية المعتقدات.

ومن بداية السبعينيات وحتى الآن لا بدّ من أن أشير إلى الدور والعمل الإيجابي الذي قام به السيد ساجي المرشد في تفهيم وبلورة المذهب المرشدي للمرشدين وغيرهم من زائريه من حيث الإرادة الحرة والدعوة إلى الخير والانفتاح على الجميع والطقوس والمناسبات وتبادل الزيارات مع الآخرين في الأفراح ومناسبات العزاء والعلاقات الاجتماعية من زواج وطلاق وغيرها، ومن

ثم المصاهرة مع الطوائف الأخرى في حالة الوفاق والرضا من الطرفين.
هذه التطورات بمجملها دفعت بالمرشدين ليأخذوا دورهم في كل مجالات الحياة المدنية والعسكرية وتدفعوا وتطوعوا بأعداد كبيرة في صفوف الجيش كضباط وصف ضباط وجنود.

ومن ثم تعرّف رفعت الأسد عليهم بعد طلبه ووسّع علاقاته معهم أيضاً بعد أن برهن أنّ هذه العلاقة بإشراف ومباركة الرئيس، وتوطدت العلاقة بينهم وبين رفعت بشكل كبير وتعهد النور مباني معسكرات السرايا في المعضمية التي تخصّ سرايا الدفاع، كما تعهد مباني مساكن منطقة صبورة ومباني المزة الكبيرة. وقد كان يتعهد قبل ذلك مباني للجيش في أمكنة غير سرايا الدفاع كالأعمال الإنشائية في معمل الزيداني للمياه المعدنية ومعمل المعكرونة في درعا وأبنية للدولة ومراكز ثقافية في طرطوس وحمص ودرعا والسويداء، لذلك طلب منه رفعت الأسد أن يتعهد مباني سرايا الدفاع وقد بات متعهداً مشهوراً. ومن جهة أخرى أصبح لدى رفعت الأسد منهم الجناح الوفي في تشكيل سرايا الدفاع من ضباط وصف ضباط وأفراد. وفي الفترة نفسها أراد رفعت الأسد أن يبنى معسكراً في منطقة المرشدين (بالقرب من منطقة - شطحا - سلمو) بحيث يستوعب لواءً من سرايا الدفاع، في حين أقام معسكراً في منطقة (جوبة برغال) لتشكيل لواء أيضاً، وقد أطلق عليه تسمية (اللواء الجبلي) طبعاً هذه القوى والتشكيلات كان جلّ اعتمادها على المرشدين.

ومن الغريب أن يحاول رفعت الأسد القيام بحركة مضادة للرئيس مستغلاً مرضه عندما أُدخل الرئيس في حالة إسعافية إلى مشفى الشامي بعد وعكة ألّت به. سارع المرشدون بلسان إمامهم ساجي وأبلغوا الرئيس سرّاً فور أن لمسوا من رفعت الأسد ميلاً مريباً يهدف إلى القيام ضدّ الرئيس معلنين ولاءهم للرئيس، وأنّهم مستعدون أن يعملوا ما يريد منهم من دون مراعاة لأحد لأنّهم لا ينسون موقفه المشرفّ منهم أبداً، ولن يبادلوا بالشر من بادلهم بالخير، ولن يبادلوا الرئيس إلاّ بالحبّ والخير. وأرسل له ساجي المرشد هذه

الرسالة «إن أراد سيادة الرئيس أن نعلن موقفنا معه فنحن على استعداد أنا رفاتح والنور أن نقف على باب قصر الجمهورية حاملين البنادق لحمايته».

وقيامة رفعت الأسد ضد الرئيس يعلمها الجميع وليست سرّاً على أحد ولكن ما لبث القائد أن تعافى بعد أيام من وعكته، وعاد إلى القيادة وشكّل لجناً أمنية، وكي يسكت رفعت وأتباعه أصدر مرسوماً بتعيين ثلاثة نواب له: السيد عبد الحليم خدام للشؤون الخارجية.

. الدكتور رفعت الأسد للشؤون الأمنية.

. السيد محمد زهير مشاركة لشؤون رئاسة الجمهورية.

وفيما بعد: ازداد طموح رفعت الأسد أكثر من قبل، وصار يطلب المزيد من الصلاحيات والنفوذ حتى تملكه الشعور بأنه صاحب حق باستلام الدولة بمؤسساتها كلّها وتفاقم الوضع خطورة يوماً بعد يوم، وكان ذلك في آذار 1984.

أخامر.. بدياني مرة أخرى!

وهنا لا بدّ لي من أن أدخل في بعض التفاصيل الدقيقة والحساسة حيث كنت واحداً من الأشخاص الذين عاشوا هذه المحنة بظروفها الصعبة وخطورتها المريكة على القائد الخالد حافظ الأسد فتلك الفترة تُعدّ من أصعب الفترات على الوطن وعلى قائد الوطن. وقد قمتُ يومئذ وانطلاقاً من قناعاتي الشخصية بدور غامرت فيه بحياتي وأنا راض به، وذلك من أجل الوطن واستقراره وليس هذا إلّا واجباً مقدساً أملاه عليّ ضميري.

ففي يوم الأربعاء من 28 آذار 1984 عقدت قيادة فرع الحزب للوحدات اجتماعاً طارئاً بقيادة أمين الفرع اللواء علي أصلان في مقر قيادة الفرع بالأركان وفي نهاية الاجتماع وبعد أن انصرف الجميع قال اللواء أصلان:

. تفضلوا إلى مكثبي لنشرب الشاي معاً، ولنبحث في بعض الأمور الخاصة

فلبّينا الدعوة (أنا واللواء اسكندر سلامة رحمه الله، والعقيد عدنان الأسد، ثم دخل اللواء جميل حسن رئيس شعبة التنظيم والإدارة آنذاك فأصبحنا خمسة أشخاص فقط) وجميعنا أعضاء في قيادة الفرع، وجرى نقاش طويل عريض حول تمرّد رفعت الأسد والمعارضة التي يقودها، وكان النقاش يدور بين اثنين حصراً هما اللواء اسكندر سلامة من طرف والعقيد عدنان الأسد من طرف آخر، ونحن جميعاً مستمعون لهذا الحوار حيث ركّز الحوار على سؤال واحد فقط راح يطرحه العقيد عدنان الأسد وكان موجّهاً للواء اسكندر سلامة بعنف وبصوت عالٍ وعلى الشكل التالي، وكما حصل فعلاً:

. هل تقا تل رفعت إذا أصدر السيد الرئيس أمراً بذلك ؟

فيجي به اسكندر سلامة:

. السيد الرئيس حافظ الأسد رجل عظيم وحكيم لا يمكن أن يصدر أمراً

كهذا ؟

وتكرر هذا السؤال وأيضاً هذا الجواب طوال زمن الجلسة !! نقاش عقيم كما يقولون (بيزنطي) بلا جدوى أي من الساعة الثامنة والنصف من يوم الأربعاء 28 آذار وحتى الساعة الحادية عشر ليلاً.

كنتُ أستمع لهذا الحوار وأنا أتشاغل بأشياء أخرى إذ كان من عاداتي عندما لا يروق لي الحديث أو لا يعجبني أشغل نفسي أو أتلهى أو أبدو للآخرين وكأنني على وشك النوم فصرت أغمض عيني حيناً وأفتحهما حيناً آخر حتى ضاق صدري ونفد صبري، ولم يعد بمقدوري أن أستمع إلى الحوار أكثر من ذلك ؟ عندئذ اعتذرت من الجميع وقلت:

أنا أعتذر أريد أن أذهب إلى البيت فقد غلبني النعاس، ولم نصل إلى نتيجة بعد، وفي طريقي إلى الباب فاجأني اللواء علي أصلان بسؤال سريع قال: نحن سمعنا رأي اللواء اسكندر سلامة ولم نسمع بعد ما هو رأيك أنت ؟

قلت وبسرعة: أنا رأيي من رأي اسكندر سلامة !!

وتابعت طريقي باتجاه بيتي وقد رافقني قليلاً اسكندر سلامة ثم ذهب إلى بيته أيضاً، أما عدنان الأسد فلا أعلم إلى أين ذهب في حين خرج علي أصلاً باتجاه العماد حكمت الشهابي رئيس الأركان (وهذا ما عرفته فيما بعد) ليحذّره بأن المؤامرة التي يقودها رفعت الأسد ضدّ السيد الرئيس ما هي إلا من تدبير محمد إبراهيم العلي وأيّ الرأس فيها، ويسانده في ذلك اسكندر سلامة وهما اللذان يقومان بالإعداد لهذه المؤامرة والتخطيط لها ضد السيد الرئيس !! وبالوقت نفسه ذهب اللواء جميل حسن باتجاه اللواء علي دوبا رئيس شعبة المخابرات ليخبره بالحديث ذاته، ويبدو أن هذا هو ما اتفقا عليه أعني جميل حسن وعلي أصلاً!!

ثم دار اتصال هاتفي بين حكمت الشهابي وعلي دوبا للتأكيد على هذه المعلومة الخطيرة أي على الانقلاب الذي يدبّره محمد إبراهيم العلي واسكندر سلامة وعلي الفور أخبر حكمت الشهابي مصطفى طلاس وزير الدفاع بهذا الأمر الخطير، وبذلك اكتملت الحلقة وثبتت المعلومة لدى الجميع !

فقام علي دوبا وأخبر السيد الرئيس بما سمع، ومصطفى طلاس أخبر السيد الرئيس بما سمع، وحكمت الشهابي أخبر السيد الرئيس بما سمع أيضاً!

إذاً: الرجال الثلاثة أكّدوا للسيد الرئيس أن محمد إبراهيم العلي واسكندر سلامة هما معاً رأس المؤامرة وهما اللذان يخططان ويحرضان السيد رفعت الأسد للإطاحة بأخيه حافظ الأسد ولم يبق مجال للشك في ذلك أو نفي للخبر!!

فخ.. ينصبه الأصحاء!

الآن جاء دور السيد الرئيس الخالد الذي عُرف بحكمته وسعة أفقه والذي لا يحكم على الأشياء إلا بمنظار واسع ودقيق، فهو يعرفني جيداً ويعرف

أنني لا أتورط في مطبّ بسيط أو أقع في فخّ نُصب لي عن سوء نية أو حسن نية، فلم يُصدّق على الإطلاق أن محمد إبراهيم العلي يقود تآمراً ضده، لقد عرفني قبل الثورة، وتعرفت إليه في أثناء الوحدة في مصر، وكُنّا نساكن في القاهرة في شارع واحد عندما كان برتبة نقيب في الطيران، وكنت برتبة ملازم أول في المظلات وكنا نلتقي هناك كبعثيين على هدف قومي واحد، وفيما بعد كان له فضل كبير عليّ عندما كنت في السجن فقد أنقذني بالتعاون مع ابن عمي موسى العلي من مؤامرة مدبرة ترمي إلى قتلي من قبل الانفصاليين. فقد نبّه جميع رفاقنا الذين كانوا معنا في تلك الفترة إلى الهدوء والحذر وإلى كيفية التعامل لإنهاء تلك المؤامرة المدبرة!! والآن محمد إبراهيم العلي يسعى لتخريب الثورة ومنجزاتها مع رفعت الأسد هذا لا يمكن أن يكون أو يتقبّله عقل السيد الرئيس!!؟ بالرغم من أنني في تلك الفترة كنت أزور رفعت الأسد وبشكل يومي، والحقيقة أنّها كانت تربطني به علاقة صداقة منذ فترة طويلة من الزمن !

وكان الجميع يعرفون ذلك، وكانوا يخبرون السيد الرئيس أنني أزور رفعت وألتقي معه. ولكن في تلك الفترة كنت أجتمع معه من أجل تهدئة الأوضاع والمصالحة لا من أجل التخريب وإثارة الفتنة!! ولكن للأسف ما تراءى للبعض أن الذي أقوم به ما هو إلا تخريب وفتنة!!

مذامرون.. بدكم قطع رقاب!

في ذلك الموقف المتأزم والذي يزداد خطورة ساعة بعد ساعة وبكل هدوء ومن أجل قطع الشك باليقين أمر السيد الرئيس العماد حكمت الشهابي: أن يلتقي معنا، أنا واسكندر سلامة، كلا على حدة ليرى ملابسات الموقف ويطلّع على الحقيقة ومن ثمّ يخبر السيد الرئيس!! لكن العماد حكمت الشهابي قاد الأمور بقسوة وعنف عندما أبلغني في صباح 29 آذار الساعة السابعة (عن طريق اللواء واصف محمود مدير مكتبه) حيث قال لي: العماد حكمت يطلبك

في مكتبه الساعة الثامنة والنصف. قلت في نفسي (إن شاء الله خير) وذلك لأنه ليس من عادة العماد حكمت أن يطلبني باكراً؟!

ربما يريد أن يكلفني بمهمة أقوم بها، أو لسبب آخر لا أعلمه وتساءلت ما الذي خطر على بال العماد حكمت أن يطلبني في الصباح الباكر؟

وحين قلبت الأمور في رأسي أيقنت بأنه لا يوجد شيء سوى الحديث الذي دار البارحة بين اسكندر سلامة وعدنان الأسد، ويمكن أن يكون قد فسّر الموضوع بصورة غير واضحة ويريد الاستيضاح مني. أو هناك دس وغبن عليّ من قبل الأشخاص الذين كانوا في الاجتماع.

حضرت نفسي لكي أكون هادئاً ومخاوراً لأي سؤال يطرح عليّ بصدور رحب وواسع ومن ثم أجيب عن كل سؤال بحزم وقوة.. وصلت إلى مبنى الأركان مكتب اللواء واصف في الساعة الثامنة والرّبع أي قبل اللقاء بربع ساعة وقلت له:

. ها أنذا وصلت ماذا تريدون مني؟

قال:

. انتظر قليلاً فاللقاء الآن مع اللواء اسكندر سلامة حين يخرج تدخل أنت! لحظتئذ أدركت أن معركة قاسية سوف تدور بيني وبين العماد حكمت الشهابي مثلما هي تدور الآن بينه وبين اسكندر سلامة، فضحكت لأنني أعرف أن اللواء اسكندر (رحمه الله) لا يتحمل الضغط وبسرعة يغضب ويثور ويقدم استقالته لأي تهمة أو تنبيه يوجه إليه !

وفعللاً في الساعة الثامنة والنصف خرج اللواء اسكندر غاضباً يكيل السباب (طالع نازل).

فقلت له:

. (على مهلك - طول بالك، كل شيء وله حل)!

دخلت إلى مكتب العماد حكمت فوجدته واقفاً في منتصف الغرفة غاضباً راجعاً يطوف المكتب ذهاباً وإياباً. وفور وصولي إليه قلت له: احترامي. طبعاً لم يرد عليّ، بل صاح بصوت عالٍ (متآمرين بكم قطع رقاب).

قلت: وهل توجد مؤامرة؟ أنا شخصياً لا أشعر بأن هناك مؤامرة وهل قلت لي أو قال لي أحد غيرك أنه توجد مؤامرة؟ لم أسمع منك، كما لم أسمع من طلاس أو علي دوبا بأن مؤامرة تُحاك ضد الوطن أو ضد الرئيس؟ ثم لم تخاطبني بهذه اللهجة وكأنني حقاً متآمر؟

قال وقد هدأ قليلاً:

- (ألا ترى الدنيا كيف قائمة قاعدة) ورفعت الأسد يهيناً لانقلاب على الرئيس وأنت تزوره كل مساء وتبقى عنده حتى بعد منتصف الليل، وتقول لا توجد مؤامرة!!

قلت:

- حتى الآن لا أرى هناك مؤامرة وإن كل ما يجري عبارة عن مسرحية ليس إلا، حالة عادية! أضف إلى ذلك هل تتوقع أنت أو غيرك أن محمد إبراهيم العلي يتآمر على حافظ الأسد..؟

لحظتُ تسمّر في مكانه ونظر إلي وهو في حالة حيرة ودهشة، كأنه لم يتوقع هذه الإجابة ثم جلس على مقعده وقال:

- أجلس هنا بقربي، وأشار إلى كرسي قريب منه، جلست وراح ينظر إلي بتفرّس أكثر. ساد المكان صمت مطبق وبعد هذا الصمت قال:

- طيب، (وبعدين)؟

قلت:

- هل السيد الرئيس حافظ الأسد طلب مني أمراً ولم أنفذه؟ فهز رأسه متسائلاً.. بمعنى أكمل.

وأردفت: - سيادة العماد (شوف أنا لا أنفذ أمراً لك ولا أنفذ أمراً لطلاس ولا أنفذ أمراً لدوبا) لأخذ العلم لأنكم جميعاً إذا أعطيتموني أمراً لا تتحملون مسؤولية إعطاء الأمر ولي تجربة سابقة معكم إبان ظهور جمعية الإمام المرتضى فقد ورطتموني حينئذ بمشكلة ليس لها آخر في عام 1981 وأنت شخصياً قلت لي يومئذ: (سوف أعدمك بتهمة الخيانة العظمى) بعد أن انسحبتم من المواثيق المتفق عليها، وأردت أنت أيضاً أن تورطني أكثر وتتخلى عني عند المواقف الحازمة، أنتم جميعاً لا تتحملون المسؤولية (وقت يصير قص روس) أقصد بذلك العماد مصطفى طلاس، والعماد علي دوبا، والعماد حكمت الشهابي. أنا أنفذ أمراً للسيد الرئيس حافظ الأسد فقط وهو الذي يعطيني الأمر شخصياً إما بواسطة الهاتف بصوته هو لا عن طريق سواه وأنا أعرف صوته، أو بواسطة رسالة مكتوبة بخط يده وتوقيعه فأنا أعرفهما، أو يصدر الأمر لي مباشرة وبشكل شخصي في هذه الحالات الثلاث أنفذ الأمر، وبغير ذلك لا أنفذ إطلاقاً.

قال:

. أتتفد أوامر الرئيس إذا أصدرها لك ؟

قلت:

. أنفذها بدقة وعندما يصدر السيد الرئيس أمراً بشأن هذه (المعمعة) التي تقولون عنها إنها مؤامرة سوف (أفرطها) وبشكل بارد ومن دون إطلاق طلاقة واحدة، بينما أنتم تتخبطون فيما بينكم ولا تجدون حلاً لهذه المشكلة.

قال:

. شو.. الحل ؟

قلت:

. عندما يصدر الرئيس أمراً أجد الحل (وبيفرجها الله)، والآن أريد شيئاً

مني ؟

قال:

. لا شكراً.

وخرجت دون أن أودعه قصداً بعد أن قام ليصافحني لأنه حقيقة كان في داخل جسمي غليان غير عادي (مغضب) وكنت طوال الحوار أتمالك أعصابي حتى لا أتفوه بكلام غلط... وكان انزعاجي أكثر من جميل حسن وعلي أصلان الذين قادوا هذه الدسياسة، وفسّروا ونقلوا الموقف حسب مزاجهم وأهوائهم إلى السيد الرئيس.

لقاء.. مع عدنان الأسد!

قصدت عدنان الأسد في مكتبه بتل كوكب أي ذهبت من مكتب رئيس الأركان إلى مكتب عدنان الأسد مباشرة، فعدنان الأسد صديقي وكنت أستغرب كيف حصل هذا؟! ذهبت لأعاتبه، وفي طريقي إليه رحت أحدثه وكأنه أمامي: كيف تفعل هذا يا رجل؟! (هذا الكلام فيه قص روس، معقول، يا عدنان تنقل كلاماً عني غير صحيح) هكذا تصورت..

دخلت مكتب عدنان الأسد للتو كان يتحدث بالهاتف وفور وصولي إليه قال للذي يتحدث معه الآن وصل إلى المكتب، ثم قال لي: أحك على الهاتف مع أبو سليم مدير مكتب الرئيس.

أمسكت بالهاتف.. آلو، مرحباً.. أبو سليم.

فسألني:

. أين أنت الآن؟!

قلت:

. أنا في مكتب عدنان الأسد.

قال:

- السيد الرئيس يطلبك، كم تحتاج من الوقت لكي تصل إلى بيت الرئيس

في المالكي؟

قلت:

- عشر دقائق أنا في الطريق إليكم.

قال:

- السيد الرئيس يريدك فوراً.. والحرس ينتظرك بالقرب من دوار

المالكي.

لقاء مع الرئيس حافظ الأسد...!!

توجّهت إلى بيت الرئيس، وصلت حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً
استقبلني كعادته هادئاً مبتسماً وبكل الود.. أشعرتني بالاطمئنان وأنتني قريب
منه حيث تربطني به علاقة حميمة منذ أيام الوحدة كما أسلفت سابقاً.

قال:

- حكوا لي (وضحك).. بس ما صدقت !

قلت:

- سيدي معقول محمد إبراهيم العلي يتآمر عليكم !!

قال:

- أخبرني ضباط القيادة (طلّاس والشهابي ودوبا) أن محمّد إبراهيم

العلي يقود تآمراً.. واللّه (لم تركب بعقلي)!

قلت:

- واللّه الموقف أقرب إلى الطرفة وإلى الخيال من الواقع! سيدي في

اجتماع قيادة الفرع البارحة، وكما قالوا لكم.. وبعد أن دار حوار عقيم بيزنطي بين عدنان الأسد واسكندر سلامة، عدنان يسأل هل تقاتل ضد رفعت إذا أصدر الرئيس لك أمراً، ويرد عليه اسكندر السيد الرئيس رجل عظيم وحكيم ولا يمكن أن يصدر أمراً كهذا.. واستمر الحوار مدة ساعتين ونصف الساعة وعلى هذا المنوال.. حتى قلت لهم: واللّه لا جدوى من هذا الحوار وهممت بالانصراف فقالوا لي: أنت لم تحدد موقفك!! قلت لهم وبسرعة: أنا مع رأي اسكندر سلامة وخرجت، وبعدها قادوني إلى هذه المعمة! هنا ضحك السيد الرئيس وقام وقبّلني، ومن ثمّ شرح لي الأحداث بتفصيل ودقّة وأبعاد المؤامرة التي يقودها رفعت الأسد، وما وصلت إليه من تشابك وإحراج.. الخ.

فقلت له:

. سيدي أنا أزور رفعت يومياً.

قال:

. أعرف.. وقد حكوا لي ماذا يدور بينكما.

قلت:

. وجهة نظري أن نبقى بقريه حتى لا يتورّط أكثر ولا يستمرّ في الخطأ، وأنا بشكل دائم أنبهه وأنصحه ألا يقدم على الغلط، ولدي اقتراح لإنهاء هذه الأزمة من دون إراقة قطرة دم واحدة.

قال:

. كيف..؟

قلت:

. سيدي، رفعت يعتمد في قيادة سرايا الدفاع على المرشدين، وقد بذل جهداً كبيراً في تطوير هذه القاعدة على العناصر ومن مختلف الرتب من هذه الطائفة حتى صارت تمثل القوة الأساسية لديه (واسترسلت في التوصيف

والشرح منذ معرفتي بهم وعلاقتي معهم ومختلف الظروف التي مرّوا بها وكيف استطاع رفعت أن يضمهم إليه) سيدي ما هو رأيكم لو سحبنا هذه العناصر بالكامل من تشكيل سرايا الدفاع، عندئذ يصاب هذا التشكيل بالنقص وغياب الفعالية الأساسية، كما يصاب بالشلل وانعدام القدرة على التحرك، وحتى يستطيع التشكيل الترميم وإعادة البناء فقد يحتاج إلى شهرين أو أكثر، نكون في هذه الفترة وجدنا الحل المناسب.

ابتسم الرئيس عالماً بنجاح ما أخطّط له لأن جماعة المرشدين كانوا قد اتصلوا به منذ بداية الأزمة كما أسلفنا، ولم أكن على علم ساعتذاك بهذا إذ كتموها عن الجميع، وكذلك الرئيس كتمها أيضاً حرصاً على عدم معرفة رفعت بها فيسعى إلى تطويق المرشدين في السرايا ويمنعهم من الاتصال بأحد خارج السرايا.

وأردفت: سيدي لا أريد أن أخفي عليكم شيئاً (عَ المكشوف) أنا أغامر بنفسي فإذا نجحت لا بأس وأنتم تتابعون الحل للأزمة.. سيدي أنتم لا خبر لكم ولا علم بما سأقوم به بمفردي، وإذا فشلت عاقبني وحملني مسؤولية الفشل، أي أن محمد إبراهيم العلي دائماً يخالف القانون ويتصرف من تلقاء نفسه ويورطنا في إشكاليات لا تحمد عقباها.. كما أرجو منكم يا سيدي أن تعاقبوني أنتم ولا تتركوا الأمر لحكمت الشهابي ليحاكمني أو ليقول لي (أنت متآمر بدك قصّ رقبة أنت متهم بالخيانة العظمى) هذه الكلمة تجرحني كثيراً وتؤذي، لذلك أرجوكم أن تعاقبوني أنتم إن أخطأت.. فضحك.

وقال:

.. تصرف..

قلت:

.. مثلما تريد !

قال:

. معك (سبعون ساعة).

قلت:

. أنا ماشي.

.. خرجت من عنده حوالي الساعة الثانية عشر والنصف بعد أن حدثني عن أمور كثيرة خارج هذا الحديث، وعن رفاقنا وعن أيام السجن، وعن الانقلابات المتعاقبة التي مرت بها سورية من قبل الثورة وبغدها، وكم كان يحب البحث في التاريخ !! وحدثني عن زيارته لأمي في الضيعة، وكيف أنه أكل عندها البرغل وكانت أمي رحمها الله قد توفيت قبل هذا الحدث بقليل. أي خرجت من عنده بعلاقة حميمة ومفرحة أعطتني دفعا أكثر، وسألته كيف أخبرك عن النتيجة؟

قال:

. مجرد ما انتهيت من مهمتك، وفي أي وقت ولو بعد منتصف الليل أخبرني، وإذا كنت نائماً، فاترك لي خبراً مكتوباً مع إبراهيم عون على ورقة، وصدّقه بتوقيعك.

وفي طريقي إلى بيتي، ومن أمام البيت وعبر الهاتف أخبرت أمّ ندى قلت لها: أمّ ندى بسرعة أنا بانتظارك عند الباب، أنا ذاهب إلى منطقة الغاب. وفعلاً جاءتني بسرعة، لقد ظننت أن أحداً من أقرانها أصابه سوء.

قالت:

. شو.. في ١٩

قلت:

. لا شيء أنا ذاهب إلى الغاب زيارة فرغيت أن تذهبي معي.. وركبنا السيارة، ومعنا السائق فقط من دون أية مرافقة، وانطلقنا باتجاه منطقة الغاب إلى قرية الخطيب إلى منزل السيد ساجي المرشد فوجدت عنده أخاه (النور)

فزيارتي برفقة زوجتي ليست مفاجأة لهم فتبادل الزيارات العائلية قائمة ودائمة باستمرار فيما بيننا في المناسبات وفي غير المناسبات.

ثمّ جاء فاتح من بيته غربي جبل الشعرة، وصرنا جميعاً نتناقش بالأزمة والصراع الدائر فيها ومستقبل الوطن وفي تطور الحدث الذي يتفاقم ساعة بعد ساعة ويزداد أكثر خطورة.

فطرحنا عليهم فكرة سحب العسكريين المرشدين كافة من تشكيل سرايا الدفاع حلاً وتأييداً للرئيس حافظ الأسد. ووجدتهم مستعدين لكل عمل من شأنه أن يوقف هذا التمرد الذي قد يتسبب بكارثة تحيق بالبلاد.

الرئيس حافظ الأسد.. والمرشديون!

لقد قالوا لي صراحة: نحن مع الرئيس حافظ الأسد، ولن ننسى ما أعطى سيادته من خير، ولن نبادله إلا بالحبّ ونحن على استعداد أن نفعل ما يراه الرئيس مناسباً بهذه الأزمة.. ورغبوا أن يقابلوا سيادة الرئيس بخصوص هذا الأمر وجعل سيادة الرئيس موعد المقابلة في اليوم التالي.

وفي دمشق صباح اليوم التالي، قابل سيادة الرئيس السيد ساجي وفاتح والنور، وأعلنوا أمامه ما أرسلوا إليه سابقاً بالرسالة الشفهية أنّهم لم يتعاونوا مع رفعت إلاّ لأنّه تأكّد لهم أنّ هذا الأمر بمعرفة الرئيس ومباركته، وأخبرهم سيادة الرئيس أنّه فعلاً كان على علم بما يجري وإنه كلّ ما جرى بينهم وبين رفعت سابقاً كان بتوجيهه، وأنّ رفعت كان مطيعاً لرئيسه أمّا الآن فقد تغيّر الأمر وبات يُقاد من آخرين. وطلب منهم أن يعلنوا موقفهم داخل السرايا وخارجها، وأنّ يُعلن الجنود المرشديون في السرايا أنّهم مع الرئيس وأنهم لن ينفذوا أمر رفعت في حال طلب منهم أن يهاجموا دمشق والقصر الجمهوري، وأن يعمدوا إلى تخريب أيّ آلية تقع بأيديهم إذا حدث هذا الأمر. وأن يطلقوا النار على جنود السرايا وفي قلب السرايا إذا هاجمت السرايا دمشق.

وفي دمشق، أقام النور في بيت أخيه مرشد لأنّ بيته كان قريباً من السرايا وهو أراد أن ينفذ ما أوكل إليه قبل أن يعتقله رفعت كما كان منتظراً لأنّ الرئيس كان قد طلب منه أن يخبر رفعت شخصياً بهذا الأمر. وهناك أعطى تعليمات وتوجيهات السيد ساجي المرشد للمرشدين في السرايا أنّ سيادة الرئيس أراد أن يعلن الجنود المرشدين ولاءهم للرئيس داخل سرايا الدفاع وجهراً أمام الجنود والضباط، وأنّهم لن يحاربوا ضدّ الرئيس حافظ الأسد ولوا تلقوا أوامر بذلك من القائد أي رفعت كما كانوا يسمّونه في السرايا. وأعلنوا أيضاً أنّهم سيعمدون إلى تخريب كلّ آلية تقع بين أيديهم إذا أعلن رفعت القتال ضدّ الرئيس، وأعلنوا أيضاً أنّ الرئيس هو الذي أمر العسكريين المرشدين بذلك. هذا ما أخبرني به النور بعد انتهاء الأزمة.

اتصل بي النور بعد المكافحة وقال: (أبو ندى أذهب وخبر.. المهمة نفّذت كما يجب وأنا سوف أذهب إلى رفعت الأسد لأقابله ومهما تكن النتيجة، إن شاء الله يعدمني! نفّذت المهمة.. خلص).

وكان الوقت حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، فكتبت ورقة، أعطيتها لمكتب السيد الرئيس (إبراهيم عون) قلت فيها:

سيدي الرئيس قمت بالمهمة على أكمل صورة، واجتمعت مع ساجي وفاتح والنور في بيتهم، وكانوا متعاونين جداً وبالصورة نفسها التي تحدّثت فيها معكم، وقد أعطوا تعليماتك للمرشدين أي إلى الجنود المرشدين في سرايا الدفاع، ولكم تقديري واحترامي وكتبت اسمي ووقعت!

وذهب النور إلى رفعت وأعلمه بكل ما جرى بينهم وبين الرئيس، وأعلمه أيضاً أنّه بلغ توجيه الرئيس إلى المرشدين كافّة في السرايا، فاعتقله رفعت الأسد، واعتقل العديد من وجهاء المرشدين أيضاً.

الجنود المرشديون .. في السجن!

وقد سجن رفعت الأسد حوالي ثلاثة آلاف من المرشدين العسكريين، وأقام لهم مركزاً بالقرب من منطقة (رخلة) شمال غرب مدينة قطنا وشدّد الحراسة عليهم، وعندما علم السيد الرئيس أن رفعت قد سجن (النور) و المرشدين اتّصل به وحذره (حتى لا يؤذ أحداً منهم) وحملّه مسؤولية إيدائهم.. وكما أمره بإطلاق سراح النور فوراً.. طبعاً اضطرب رفعت وتمردّ في البداية، ثم أدرك أن الوضع ليس لصالحه فانصاع للأمر، وجاء إلى الرئيس رافعاً يديه مستسلماً. فدبّاباته ومدفعيته باتت عديمة الجدوى بعد أن غادرها العاملون عليها لأنّ معظم سائقي الدبّابات وبقية الآليّات كانوا من المرشديّين. ولم تمض سوى أيام حتى خرج النور من السجن، وكذلك توالى خروج البقية. هذا وقد تراجعت قوّات رفعت بعد أيّام قليلة، وكانت قد احتلّت مراكز حسّاسة داخل العاصمة.

في الصباح، اعتبرتُ أن مهمتي قد انتهت فذهبت للنوم بعد أن أُرهِقْتُ تماماً من التنقل والضغط النفسي الذي كان يلازمُني منذ بداية الدسّ والكلام الملقّق وحتى إنهاء المهمة.

في الساعة السادسة أيقظني هاتف اللواء عدنان مخلوف مرافق الرئيس وقال: السيد الرئيس أعطى تعليمات يأمر فيها بفرز عناصر من الحرس الجمهوري مرافقة وحماية لك خشية أن يعتدى عليك من قبل العناصر الموالية لرفعت الأسد فقلت له:

أنا لا أحتاج إلى حراسة، ولا أخاف من أحد لا من رفعت ولا من غيره وأنا في الطريق إلى رفعت الأسد لأقابله.

ولكنني في الحقيقة كنت قلقاً في حال مواجهة بعض العناصر الجاهلة فقط وما سوى ذلك ليس له حساب عندي وأنا مقتنع بما قمت به من عمل

وأستذكر قوله للإمام علي كرم الله وجهه (إن لي من أجلي درعاً تحميني). وفي الساعة الثامنة أيضاً اتصل العماد حكمت الشهابي وقال: أنا في المكتب أنتظرك.. بسرعة تعال!! ذهبت إليه فوجدته ينتظرني على الباب، وراح يقبلني وكأنه لا يصدق ما الذي حدث. ثم قال لي:

حدثني بالتفصيل ماذا فعلت؟! (شو.. صار) وأردف قائلاً: نحن أعطينا تعليمات مشددة للواء علي دوبا لمراقبتك وفعلاً تمت مراقبتك من قبل عناصر المخابرات، ومن اللحظة التي خرجت فيها من منزل السيد الرئيس ثم توجهت إلى بيتك وسافرت إلى حمص وسلحب والخطيب ومن ثم عدت إلى دمشق إلى مكتب الرئيس وأخيراً أعطيت رسالة لـ إبراهيم عون.

قلت له:

. لقد نفذت قناعتي وإن رغبة الرئيس لدي مقدسة.

قال:

. هذا اليوم شاهد لك.. ولن ينسى أبداً لقد شاركت بإحباط مؤامرة كبيرة.

قلت:

. إن شاء الله خير.. عندما يحين الجد تعرفون من هو محمد إبراهيم العلي لكنكم من شدة الحسد والغيرة تريدون أن تهمشوني وأنتم تتخبطون فيما بينكم ولا تعرفون كيف تجدون حلاً لأصغر مشكلة تواجهكم. الله يرضى عليكم أنت والعماد مصطفى وأجهزة الأمن والله قلبي يتسع لكم جميعاً.

قال: (خلص)!! هذا الموقف لا يمكن أن ينسى أبداً.

«وللتاريخ لو كان بودي أن أضللهم، والأمر بمنتهى البساطة لأرسلت سيارتي مع السائق في جهة ما، ومن ثم أخذت سيارة أجرة لأنفذ مهمتي بها مع احترامي لأجهزة الأمن».

لِقَائِي مَعَ رَفْعَتِ الْأَسَدِ الْغَاضِبِ...!!

بعد يومين جاء جميل الأسد (أبو المنذر) إلى دمشق والتقيته في فندق المريديان (على فنجان قهوة) وبدأت الأوضاع تتحسن، وتميل نحو الاستقرار وهذا رفعت الأسد إلى حد ما، وأطلق سراح المرشدين السجناء ولاح في الأفق بوادر مصالحة وفي جو الحوار مع جميل الأسد قلت:

- أبو المنذر أريد أن أجتمع مع رفعت الأسد، وأطرح معه مشروع مصالحة

مع الرئيس!!

قال:

- في أي مكان تريد أن تجتمع به؟!

قلت:

- في بيته.

قال:

- أذهب إلى بيته؟!

قلت:

- نعم أذهب إلى بيته وإن أراد أن يقتلني.. فليقتلني إذا جاء أجلي، وإذا لم

ينته عمري فلن يستطيع قتلي لا هو ولا غيره!!

قال:

- طيب !! في أي بيت من بيوته ترغب الاجتماع به!

قلت:

- في بيته القريب من جامع بدر وهذا المكان قريب من بيتي.

قال:

- اتفقنا.. مساء نلتقي في بيته جانب جامع بدر ونتناول طعام العشاء

عنده.

وصلت في الوقت والمكان المحددين بعد أن ارتديت لباساً أنيقاً وأنا في غاية السرور.

استقبلني الرجل حقيقة بكل أدب، ومن ثم بدأ بالعتاب، وقال:

- لقد غدرت بي !!

قلت:

- لا .. لم أغدر بك .. لقد نصحتك ولم تستجب للنصيحة، وكما يقول العرب (آخر الطب الكي) وأنت لم تترك مكاناً للصالح، وتأكد أن الذي قمت به ما هو إلا لصالحك ولصالح الجميع.

قال:

- والآن ماذا أفعل ؟!

قلت:

- الآن أنصحك أيضاً نصيحة أخ لأخيه وصديق لصديقه والتفتُ إلى جميل الأسد وقلت له:

- يا أبا المنذر اتصل بالسيد الرئيس في منزله الآن وأخبره بأن رفعت سوف يأتي إليك ثم تابعت نصيحتي لرفعت، وقلت له:

- يا أبا دريد اذهب أنت وجميل إلى بيت الرئيس واعتذر منه وقبّل يده واطلب السماح منه ونقذ رغبته في أي أمر يصدره إليك، هذه هي نصيحتي لك وليس لك خيار إلا فيها.

وفعلاً أخبر جميل الأسد (أبو المنذر) السيد الرئيس بما أشرت إليه - ونحن موجودون - ومن خلال سماعي لهاتف جميل عرفت أن الرئيس وافق على الاجتماع. وخرجنا الثلاثة من بيت رفعت الأسد، فقلت لهما:

- إن بيتي قريب من هنا وسوف أذهب إليه مشياً لأنني أرسلت السيارة مع السائق، وقد عرضا علي سيارة لتوصلني فرفضت، وقلت لا أظن أن أحداً

سوف يعتدي عليّ. بينما ذهب رفعت وجميل للقاء أخيهما السيد الرئيس.

وفيما بعد أخبرني جميل بأن الحوار بين الرئيس ورفعت استمر حتى الصباح، وبعدها أصدر السيد الرئيس أمراً يقضي بإرسال رفعت وناجي جميل وشفيق فياض وعلي حيدر إلى موسكو وكان ذلك نهاية للتمرد الذي قام به رفعت، ومن ثم عادت الأمور في سورية إلى طبيعتها وحلّ تشكيل سرايا الدفاع إلى تشكيل آخر سمي بالفرقة الرابعة، وعين اللواء حكمت إبراهيم قائداً للفرقة.

وقد كرّمني القائد الخالد بعد هذا الدور الذي قمت به بالكثير من العطاءات وعيّنني عضواً في اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي وبذلك انتهى دوري في تلك الأزمة.

ولكن استمرت علاقتي بالمرشدين وتوطّدت أكثر فيما بعد، وقد أثنى القائد الخالد على المرشدين واعتبر أن الموقف الذي قاموا به موقفاً وطنياً مشرفاً وأن لديهم أقوالاً جيدة جداً ولهم من يقظة الوجدان ما ينقص الكثيرين غيرهم، وكذلك سرّ العماد حكمت الشهابي بهذا الموقف. وعندما رحل السيد ساجي المرشد ذهبت وقدمت لذويه العزاء والمواساة، وكذلك عندما رحل أخوه فاتح قمت بالواجب ذاته.

مقالة للعماد طلاس .. نغضب المرشدين!

وأخيراً في عام (2000) نشر العماد مصطفى طلاس مقالة في جريدة (الشرق الأوسط) كان فيه غمز للسيد سلمان المرشد فاضطرب المرشدون وانزعجوا وكثر اللغط في الشارع وفي الصحف والإعلام، واحتجّ المرشدون وعبروا عن ذلك بإرسال آلاف البرقيات إلى القيادة.

عندئذ استدعاني الرفيق سليمان قذاح الأمين القطري المساعد والدكتور

أحمد درغام عضو القيادة القطرية وأطلعاني على برقيات الاحتجاج التي وصلت إليهما من المرشدين وعن ردة الفعل التي قام بها المرشدون في مناطق الغاب واللاذقية وحمص ودمشق بسبب المقال الذي نشره العماد مصطفى طلاس فقلت لهما:

. لا بد من أن أجد حلاً لهذه الورطة فالعماد طلاس رجل طيب ربما كتب المقال بنية طيبة ولم يتوقع النتائج المربكة التي وقع فيها، ومن ثم ذهبت والتقيت بالعماد طلاس وسألته: عن الدوافع والأسباب التي أدت إلى كتابة هذا المقال ؟ فأجاب:

. والله أنا لم أكتب شيئاً وإنما الطاقم الذي يعمل معي هو الذي كتب المقال وأتى به إلي فوقعت عليه ومن ثم نشره في جريدة (الشرق الأوسط) ولا أعلم حقيقة ماذا يتضمن المقال ؟

فقلت:

. إن المقال الذي كُتب ونشر (خرب الدنيا) ؟

قال:

. هكذا صار! لكنني أريد حلاً الآن فماذا تقترح عليّ أن أفعله ؟ فأنا جاهز لأستقبلهم وأعتذر منهم.

قلت:

. لا أتصور أنهم يوافقون. كيف تسيء إليهم ويأتون إليك ؟ لا يمكن أن يحصل هذا !! لا بدّ من حلّ آخر وأرى إما أن تنشر مقالاً في الجريدة نفسها التي كُتب فيها وتعتذر عن مقالك الأول بأن ليس لك يد في كتابة المقال وأظن هذا صعب عليك فأجاب: صعب.. ندخل في إرباك له أول وليس له آخر.

قلت:

. الحل الثاني أن تدعونا إلى غداء في مدينة حمص وأغديتك كثيرة ومن

ثم نذهب معاً إلى بيت (النور، أبو حيدر) وبمجرد ما دخلت معي إلى بيت أبو حيدر سيكون هذا اعتذاراً بحد ذاته، ومن ثم نتبادل وإياه الودّ والمحبة فقال: أنا موافق.

في تلك الفترة قمت بجولات، كانت ترافقني أحياناً زوجتي إلى بيت أبو حيدر من أجل إصلاح وترتيب الأوضاع ما بين المرشدين والعماد طلاس، ومهدت للقاء لكي يكون ودياً وبلا خلفيات، ولأن (النور) كان منزعجاً جداً من المقال المنشور، قال لي:

- «ما الذي دفع طلاس لأن يكتب مقالاً كهذا يسيء فيه إلى سلمان المرشد الذي قضى مسلماً نفسه وأهله إلى أعدائه كي يحمي الأمة والوطن والذي رفض الذلّ سواء للأجنبي أم للإقطاع وما قتله إلا خونة البلاد وأعوان فرنسا» هذا رأي ابنه النور طبعاً. وأضاف قائلاً: «لعلّه رتب لنا مقلباً يعيد فيه المشكلات والضجيج، ولكننا سنفضّل مقالبه!» ورأيت النور يخاف من تورط أحد المرشدين من الذين لم يستوعبوا بعد روح المرشدية التي لا تتبنّى سلاحاً إلاّ الطيب والخير، وهذا كما قال النور طبعاً.

مصالحة بين المرشدين والعماد طلاس!!

المهم رتب للقاء مع (النور).

وفي اليوم المحدّد ذهبت مع العماد طلاس في هذه المهمة، ولم يأخذ العماد حرساً أو مرافقة معنا أو أي شيء من هذا القبيل، بل ارتدى اللباس المدني، وخرج كرجل عادي ليس له علاقة بالسلطة، فوصلنا إلى بيت (النور أبو حيدر) في دمشق، وكان في استقبالنا وحده مع دكتور مرشدي صادف وجوده في بيته، واستقبلنا باحترام وبشكل جيّد، وجلس العماد طلاس مقابل (النور) وتبادلا الأحاديث الودية، وكان العماد طلاس لطيفاً في جلسته حيث قرأ علينا

شعراً غزلياً للشاعر الأخطل الصغير وبعض الطرف عن الجميلات.. فأضفى على الجلسة لوناً من السرور والانشراح، وفي نهاية الجلسة وقُبيل أن نمشي وقف العماد طلاس وقال لـ (النور):

- أخي أبو حيدر أنا إذا أخطأت فقد أخطأت بحق نفسي فأنتم أصدقائي وأهلي ورفاقي ولا أقصد أي شيء أو أي سوء فيكم.
فقال أبو حيدر وهو يودّعنا:

- بسيطة أبو فراس أنت رجل غال علينا، ونعلم أنك ما قصدت هجوماً بل كانت غلطة وقع بها الموظفون من الكتبة، ولن يحصل إلاّ الخير بين الرجال الطيبين وبذلك انتهت تلك المشكلة.

رسالة من المرشدين للرئيس بشار الأسد!!!

وكان قد حملني السيد (النور) أبو حيدر رسالة للسيد الرئيس بشار الأسد توضح :

إنّ أبناء سلمان المرشد يشجبون بشدة ما جاء في المقال المنسوب إلى وزير الدفاع، ويذكرون سيادته من خلال هذه الرسالة بمواقف المرشدين المشرفة مع الرئيس الخالد حافظ الأسد سواء في أيام الإخوان المسلمين أو أيام أزمة السرايا، وأنهم يأملون أن تستمر العلاقات الحميمة التي كانت تربطهم بالسيد الرئيس حافظ الأسد، وأن تزداد في عهد الرئيس بشار قوة ومنعة. ولكنني لم أسلم هذه الرسالة إلاّ بعد أن جرى اللقاء بين العماد مصطفى طلاس و (النور المضيء) أبو حيدر، وبعد ذلك كتبتُ رسالة قصيرة للسيد الرئيس، أنني أحمل أمانة للسيد الرئيس بشار الأسد كتبتُ فيها التالي:

«السيد الرئيس بشار الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية..

بكل الحب والاحترام

بعد أن انتهى الإشكال القائم بين المرشدين والعماد مصطفى طلاس وأنهيت هذا الإشكال بشكل ودي وقد كانوا حملوني رسالة لكم فأرجو يا سيدي الرئيس قبولها كما أرسلها أبناء سلمان المرشد».

وبعد ذلك قابل النور سيادة الرئيس بشار الأسد. وأخبرني النور قائلاً:

«إن الرئيس أكد على استمرار الخط الذي انتهجه الرئيس الراحل حافظ الأسد رحمه الله من المرشدين، ورغب إلي أن أخبر المرشدين بذلك، وأنه يود أن تبقى الروابط التي جمعتنا مع الرئيس حافظ الأسد على ما كانت عليه بل وتزداد ترسخاً. وبذلك قطع سيادته بهذا القول الطريق على الذين حاولوا التشكيك بموقف العهد منهم».

على هذا النحو أكون قد أنهيت حديثي حول تطوّر علاقتي مع المرشدين، وقد كنت بدأتها بعد أن تعرّفت مواقف سلمان المرشد الوطنية وما لاقى من الاضطهاد على أيدي الفرنسيين كنفه إلى الرقّة بقيادة ثلّة من درك فرنسا وضربه قبل ذلك وسجنه شهور عدة، وأخيراً الإقامات الإجبارية التي فرضت عليه. عرفت ذلك من خلال ما روي لي. ومن خلال الوثائق التاريخية التي حصلت عليها، ومن خلال الظروف المتوارية والمستبطنة التي أدّت إلى إعدامه ظلماً وجوراً فقط لأنّه طالب بالمساواة بين الطوائف، وهذه هي قناعتني كما أودّ أن أشير إلى أن ظلماً لحقّ بالمرشدين فترة طويلة من الزمن فكان تخريباً وتمزيقاً للوطن والمواطنين، ولا أظن أن إثارة هذه النعرات تقدّم خدمة إلّا لأعداء الوطن في الخارج وللمخربين داخل الوطن.

وما أحوجنا اليوم إلى رصّ الصفوف لنقف وقفة رجل واحد ولنرتفع إلى مستوى المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا جميعاً كقادة ومفكرين وأدباء وسياسيين ورجال دين لمواكبة روح العصر الحديث الذي دفع برجاله لارتياح الآفاق في كل مجالات الحياة.. في زمن التطوير والتحديث الذي يقوده القائد الرئيس بشار الأسد راعي الوطن والوحدة الوطنية معاً.

الفصل
الثامن

العمل مع المنظمات النسائية

الجمعيات الخيرية وعادلة بيهم الجزائري!!

بعد أن تحدثت عن قصتي مع المرشدين، وعرفت مكان سكن أولاد سلمان المرشد، ذهبت إلى الثانوية، فاجتمعت مع المديرة ومدربات الفتوة، وكان من بينهن المدرية عليا خماش، وهي أكبر مدربة بين المدربات، وقد استمعت إلى آراء المدربات حول اللباس الجديد الذي اقترحته واخترته، وحول تطوير العمل في مجال الفتوة، وإحداث يوم تدريب عسكري في كل شهر، ناقشت هذه الآراء جميعاً، وكنت على وفاق معهن في الآراء. كان العمل شاقاً، فأزور المدارس صباحاً، والقيادة القطرية مساءً، فالتقي مع الأستاذ حمدي عبد المجيد، (وهو عراقي ومسؤول العمل الحزبي القطري والقومي في سورية) ونتحاور حول تطوير العمل في الحزب، والحرس القومي. كان حمدي عبد المجيد رجلاً طيباً، ومن البعثيين القدامى في العراق، ويبدو أنه في فترة الانفصال والتنظيمات السرية، كان يعمل في التنظيم السري للحزب في سورية، وبعد الثورة، أصبح يجتمع مع القيادة القومية والقطرية على حد سواء، ويلتقي دائماً مع الفريق لؤي الأتاسي. كان الفريق لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة (يتحسس) منه، ويقول لي بين حين وآخر أين المندوب السامي العراقي؟! كنت أشعر أن لؤي الأتاسي لا يرغب بالعلاقة مع العراقيين، ويبدو أن العواطف كانت متبادلة أيضاً، فالعراقيون كانوا لا يبادلون لؤي الأتاسي الود والمحبة، فهم يعتبرونه ناصرياً ولذلك ابتعدوا عنه. في تلك الفترة كنت منصرفاً إلى تطوير العمل في الحرس القومي في جميع أنحاء سورية، وكنت على اتصال مباشر مع فرع الحزب في مدينة دمشق، وقد كان جميل حداد أحد أعضاء قيادة الفرع، أما أمين الفرع، فأنا لا أذكر اسمه الآن. وقد وردني كتاب من القيادة القطرية والمجلس الوطني لقيادة الثورة، في أواخر شهر نيسان، يقول: تنقل مسؤولية الجمعيات الخيرية النسائية كافة في سورية من إدارة التوجيه المعنوي إلى قيادة

الحرس القومي، وقد فوجئت بهذا القرار، ولم أفهم مقاصده على وجه الدقة والضبط، وتساءلت ما علاقة الحرس القومي بالجمعيات الخيرية النسائية في سورية؟ لذلك ذهبت إلى إدارة التوجيه المعنوي، وكان مديرها العقيد إبراهيم الرفاعي، وهو رجل طيب، فناقشته بهذا القرار، فقال لي: هذا هو رأي القيادة. وأعطاني فكرة مفصلة عن هذه الجمعيات الخيرية النسائية في سورية، عددها، والمسؤولات عنها، وأهدافها، وأمكنة تواجدها، وقال لي إن السيدة عادلة بيهم الجزائري في دمشق، تساعدنا على العمل في هذه الجمعيات الخيرية النسائية، وهي تعرف تفاصيل كثيرة عنها في دمشق، وباقي المحافظات.. أكثر مني. وبذلك صارت لدي فكرة عن الجمعيات الخيرية النسائية في سورية. فقسم من هذه الجمعيات مسجل في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ومرخصة، وبعضها الآخر موجود ولكنه غير مرخص. وأعطاني العقيد إبراهيم الرفاعي فكرة عن دور المرأة في هذه الجمعيات. وقد كنت أعرف أن السيدة ثريا الحافظ لديها جمعية خيرية نسائية لأنها كانت تزور المساجين في سجن المرة العسكري، وغير سجن المرة العسكري، وتقدم لهم الهدايا الرمزية، كما أنها كانت تزور المشايخ والمستوصفات للغاية ذاتها أيضاً، وهذه هي رسالة من رسالات الجمعيات الخيرية النسائية، أعني مساعدة المحتاجين من الناس للرعاية الاجتماعية. هنا، أسندت العمل المتعلق بالجمعيات الخيرية النسائية في سورية إلى ضابط أمن الحرس القومي، واسمه عبد الرزاق السوقي ورتبته ملازم أول، وهو من حمص. ولكنني فكرت، فيما بعد، أنه لا بد لي من أن أتعرف عن قرب بهذه الجمعيات، وأجتمع بالنساء المسؤولات عنها، ولذلك كنت أدرس وأحصى عدد هذه الجمعيات من خلال نقاشي مع ثريا الحافظ (وهي ناصرية)، طبعاً كان العمل في الحرس القومي مستمراً، كنت دائماً أزور أكثر من محافظة في الأسبوع الواحد من أجل تطوير عمل الحرس القومي، وتفاعله مع المجتمع.

بعد أسبوع من اتخاذ هذا القرار حول إلحاق الجمعيات الخيرية النسائية

في سورية إلى الحرس القومي، اتصلت بي السيدة عادلة بيهم الجزائري، وكان مقر قيادة الحرس القومي آنذاك في منطقة الروضة، بجانب دار التوليد العسكري، وطلبت أن تزورني مع عدد من النساء العاملات معها في الجمعيات الخيرية النسائية في سورية، فأجبتها على الفور، يا سيدتي لا حاجة لك في زيارتي، وأخبرتها بأنني سأتصل بها خلال ساعة، وعندئذٍ استدعيت ضابط الأمن الملازم أول السوقي، وكان قد جمع معلومات عن الجمعيات الخيرية النسائية في دمشق، وأنا الآن لا أذكر عددها، كما لا أذكر أسماء النساء اللواتي كن على رأس كل جمعية، كما استدعيت المسؤول عن القسم المالي للحرس القومي، وقررت أن نزور السيدة عادلة بيهم الجزائري في اليوم التالي، الساعة العاشرة صباحاً. وقد أعطيت تعليمات لضابط الأمن أن يبلغها بأنني سأزورها غداً في منزلها الساعة العاشرة صباحاً. وفعلاً، في اليوم التالي ذهبت إليها ومعني ضابط الأمن، ورئيس القسم المالي في الحرس القومي، وزرناها في بيتها، وكان يقع في أول منطقة المهاجرين، كما أعتقد، وصلت إلى البيت في الموعد الذي حددناه معها.

زيارة عادلة بيهم الجزائري !!

كانت السيدة عادلة بيهم الجزائري سيدة وقورة، وكانت في عمر يناهز عمر أمي بقليل، وعند دخولي إلى بيتها رحبت بي كثيراً، فسلمت عليها وعلى النساء الموجودات عندها في البيت، وكنت أقف عند كل سيدة وأنا أسلم عليها لكي أعرف اسمها، وإلى أي جمعية تنتمي وقد فوجئت عادلة بيهم الجزائري والنساء اللواتي كن في بيتها.. بشخصي، فقد كنت ألبس لباس المظلات العسكري المموه، وفي قدمي جزمة طويلة.. لقد فوجئت النساء بي، وبمظهري.. فأنا ملازم أول، نحيل الجسد، وفي عمر صغير، ولي سمعة غير عادية، والضجيج يقام حولي بعد أحداث الانفصال. كنت صريحاً معهن، وقد تحدثت

بوضوح عن الثورة وأهدافها وبناء المجتمع ودور المرأة فيه، وقلت لهن إن المرأة نصف المجتمع، وقد قرأت بيتاً للشاعر حافظ إبراهيم هو:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وقدمت للسيدة عادلة بيهم الجزائري مبلغاً مالياً مقداره خمسة آلاف ليرة سورية، وكان هذا المبلغ في ذلك الوقت يشتري بيتاً. ولم آخذ منها إيصالاً بالاستلام. وقلت لها، حين فوجئت بذلك، بأنني لا أرغب بأخذ إيصال مكتوب فيه اسم السيدة عادلة بيهم الجزائري. وقلت إن اسمها، وسمعتها هما عندي أهم من الإيصال باستلام المبلغ. وقد أعطيت كل واحدة منهن الثقة اللازمة لكي يتحركن بكل الحرية في عملهن، وقد طلبت منهن أن يأتين إلى قيادة الحرس القومي كلما اعترضتهن مشكلة. وقد كان لزيارتي لهن صدى شديد الأثر والوقع في نفوسهن، وسمعتن يتحدثن عن أن هذه الزيارة ستكون بداية عمل جدي في الأوساط النسائية.

بعد هذه الزيارة، رحلت أفكر وأناقش مع القيادة القطرية ضرورة تفعيل عمل المرأة في المجتمع بشكل أكثر تنظيماً وارتباطاً بحزب البعث العربي الاشتراكي. لذلك اقترحت تشكيل أندية الفتاة العربية السورية في جميع المحافظات، ووضعت خطة عمل وأهدافاً لهذه الأندية، وقد وافقت القيادة على هذا العمل، وقمنا بتأسيس أندية الفتاة العربية في جميع المحافظات.. وهنا بدأ الارتباط الوثيق ما بين الحركة النسائية في سورية مع قيادة الثورة من جهة، وقيادة الحرس القومي من جهة أخرى.

نطویر العمل بین صفوف النساء...!!

بعد فترة قصيرة، استدعينا السيدة سعاد العبد الله من الجزائر وقد كانت مدرّسة مُعارة إلى وزارة التربية في الجزائر، كونها من الحزبيات القديمات، فجاءت إلى سورية، وتسلمت هذه الأندية بكاملها في سورية،

فصارت المسؤولة عن الحركة النسائية في القطر، وقد قامت بتطوير العمل النسائي، حيث دخلت الآلات الكاتبة، وآلات الخياطة إلى هذه الأندية، وأقيمت دورات محو الأمية، والإسعافات الأولية، والخياطة، وصناعة الورد، والتدريبات العسكرية.. في هذه الأندية، وأحدثنا مجلة اسمها (الفتوة) ناطقة باسم الحركة النسائية، وحين عاد السيد أحمد إسكندر أحمد من القاهرة تسلم رئاسة تحرير هذه المجلة، وقد كان يساعده في التحرير الملازم حديثة مراد، وهذه المجلة سميت بعد سنوات عدة، وحين شكل الاتحاد النسائي، بمجلة (الطليلة)، ثم سميت فيما بعد بـ (المرأة العربية).

مخارس ثانوية.. باسم الحرس القومي...!!

وإذا ما عدت إلى بداية شهر أيار 1963، أذكر أنني قمت بزيارة للعديد من المدارس الخاصة في العديد من المحافظات والتي كانت ذات توجهات مذهبية، لذلك، حين عدت إلى دمشق زرت وزير التربية والتعليم الدكتور سامي الدروبي، وأشرت عليه أن نُحدث مدارس تابعة للحرس القومي في جميع المحافظات، تعمل بموجب التوجهات الوطنية والقومية، وتكون في الوقت نفسه ذات أقساط مالية قليلة جداً، أي شبه رمزية، وقد وافق السيد وزير التربية والتعليم على هذا الاقتراح، فقمنا بإنشاء مدارس الحرس القومي في جميع المحافظات بناء على توجيهات القيادة القطرية، وقد حملت هذه المدارس اسم مدارس الحرس القومي، وهي مازال إلى يومنا الراهن، وقد أصبحت تابعة لوزارة التربية، بعض هذه المدارس تبدلت أسماؤها، وبعضها الآخر مايزال يحمل اسم الحرس القومي. والمدارس التي بُدلت أسماؤها أخذت أسماء جديدة للشهداء. فثانوية محمد علي في الضمير مثلاً كان اسمها ثانوية الحرس القومي، وقد كان محمد العلي قائداً للحرس القومي في سلمية، وقد سمينها الثانوية التي كنا نبنيها آنذاك في الضمير باسمه، فصار اسمها محمد

سليمان العلي بعد أن استشهد في عام 1964.

وقد قمنا بإنشاء الأندية الرياضية التابعة للحرس القومي في جميع المحافظات، وطورنا النشاط الرياضي عن طريق التدريب والمتابعة والتشجيع. وقد قطعنا شوطاً كبيراً في هذه الأعمال، خلال سنتين من عمر الثورة.



الفصل
التاسع

لؤي الأتاسي..

وبرنامج (سورية في الظلام)!

أزمة تسريح الضباط الناصريين..!!

في شهر نيسان وقع زياد الحريري، وقد كان رئيساً للأركان، قرار تسريح الضباط الناصريين، وكان عددهم حوالي خمسة عشر ضابطاً. والحقيقة أن تسريح هؤلاء الضباط أحدث هزة عدم ثقة ما بين قيادة الثورة في سورية وعبد الناصر، وبدأت الشكوك بين الناصريين والبعثيين، وقد كنت حزناً لهذا التسريح لأن هذا الأمر لا يساعد على إعادة الثقة ما بين مصر وسورية، لا بل إنه زعزع الثقة ما بين البعثيين وعبد الناصر. وقد حدثت مشادة في القيادة، كان العقيد محمد عمران طرفاً فيها لأنه احتج على تسريح هؤلاء الضباط، وقد كان محمد عمران يحمل نفساً وحدوياً. وقد شرعت إذاعة القاهرة بشنّ هجوم كاسح على سورية وثورتها، فاعتبرت أن سورية دخلت مرحلة انفصالية جديدة، وهي مرحلة الدخول في الظلام. والحقيقة أن الفريق لؤي الأتاسي لم يوقع على تسريح الضباط الناصريين. وهنا وقع شرخ كبير بين اللواء زياد الحريري والفريق لؤي الأتاسي.

لؤي الأتاسي.. في زيارة مفاجئة للقاهرة!

في هذه الفترة كانت إذاعة (صوت العرب) تبث برنامجاً تحريضياً موجهاً إلى سورية، فيه دعاية كبيرة ضد الثورة، واسم هذا البرنامج (سورية في الظلام) وقد كان لهذا البرنامج تأثير كبير في الشارع السوري، فقد خلق حساسية لدى الجماهير ضد المجلس الوطني لقيادة سورية، وكان البرنامج يبتث أكثر من مرة في الليل والنهار، أي أنه يُذاع نهاراً ويُعاد ليلاً، وقد حصلت انشقاقات في المجلس الوطني لقيادة الثورة، حين استقال الناصريون من المجلس الوطني لقيادة الثورة، فاضطربت القيادة بكاملها، وقد حصلت

مهاترات داخل هذه القيادة، فأصرّ صلاح البيطار على الاستقالة في إثر هذه الأحداث، وقد كان متأثراً بقرار إبعاد زياد الحريري. وكما أعتقد أن استقالته كانت في 10 أيار 1963، واجتمع المجلس الوطني لقيادة الثورة مرة أخرى بعد أن رُمّم بأعضاء جدد، وأتذكر أن من بين الناصريين الذين استقالوا: نهاد القاسم، وعبد الحكيم سويدان، ومحمد الصوفي، وجهاد ضاحي، وهاني الهندي.. وجميع الناصريين. وقد استقالت وزارة صلاح البيطار في 10 أيار 1963.

وحين اجتمع المجلس الوطني لقيادة الثورة، كُلف الدكتور سامي الجندي بتشكيل الوزارة في 11 أيار 1963 بالمرسوم رقم /286/ وقُبِلَت استقالته بالمرسوم رقم /302/ تاريخ 13 أيار 1963، وذلك لأنه لم يشكل الحكومة، فقدّم الدكتور سامي الجندي استقالته مرة ثانية لأنه لم يستطع تشكيل الحكومة. وخلال هذين اليومين جرت مفاوضات ومشاورات، بعدها تم تكليف صلاح البيطار بتشكيل الحكومة مرة ثانية بتاريخ 13 أيار 1963 وقد كان زياد الحريري رئيس الأركان العامة للجيش والقوات المسلحة، قد كُلف بمهام وزارة الدفاع بالإضافة إلى عمله. هذه الوزارة، وبعد تشكيلها سافر وفد منها إلى الجزائر برئاسة صلاح البيطار ومعه زياد الحريري والمقدم صلاح جديد.. ووزراء من الحكومة..

وفي هذه الفترة، أي في أواخر نيسان وأوائل أيار، ذهب وفد من قيادة الثورة إلى الجزائر برئاسة صلاح الدين البيطار رئيس الوزراء، ومعه اللواء زياد الحريري، والمقدم صلاح جديد، وعدد من الوزراء، وأعضاء القيادة القطرية. وخلال وجود هذا الوفد في الجزائر، التقى أفراد بقيادة الثورة الجزائرية، وقد استمرت فترة الزيارة حوالي عشرة أيام.. في هذه الفترة.. في أثناء الزيارة، قام بعض الضباط بالاتفاق مع الفريق لؤي الأتاسي بتسريح جماعة اللواء زياد الحريري وكان عددهم حوالي عشرة ضباط وهم يتسلمون مناصب قيادية في التشكيلات العسكرية، وجرى تحريض على زياد الحريري من قبل أعضاء القيادة القطرية والقومية، وقد شجعهم الفريق لؤي الأتاسي

على تطوير هذا الاتجاه، وقال لهم إذا لم نعلم أظافر زياد الحريري سيكون أديب شيشكلي جديداً في سورية، علينا أن نبعده إلى خارج سورية... وقد قرر المجلس الوطني لقيادة الثورة وفي أثناء غياب الوفد، نقل زيادة الحريري إلى وزارة الخارجية، وتعيينه سفيراً متجولاً لسورية في أوروبا، وقد وضعت التشكيلات العسكرية في حالة استنفار حتى عودة زياد الحريري، وكان الأكثر استنفاراً هم البعثيون. وقد حصلت مشادات بين صلاح البيطار من جهة وبين عدد من الضباط الذين كانوا معه في الوفد من جهة ثانية، وقد قال الضباط: إن هذه العملية هي عملية غدر بزياد الحريري. وقد غضب المقدم صلاح جديد وصلاح البيطار من هذا التصرف، ولكن كان لابد من تنفيذ هذا القرار، وقد قال أحد الضباط الذين كانوا موجودين في القيادة: لقد تغدينا به، أي زياد الحريري، قبل أن يتعشى بنا.

في أواخر أيار، كما أذكر، وبشكل مفاجئ، طلبني الفريق لؤي الأتاسي في الصباح الباكر فذهبت إلى منزله، وحين وصلت إلى منزله، وجدت الدكتور سامي الجندي وزير الإعلام هناك، وطلب مني الفريق لؤي الأتاسي أن أركب معه في السيارة مع الدكتور سامي الجندي، وذهبنا مباشرة إلى مطار المزة، دون أن أعرف ماذا يريد، وفي الطريق عرفت منه أنه يريد الذهاب إلى القاهرة مع الدكتور سامي الجندي وأنا برفقتهم، وأنه يريد مقابلة عبد الناصر من أجل إيقاف برنامج (سورية في الظلام) الذي كان يبث ليلاً ونهاراً من إذاعة (صوت العرب). كان قائد القوى الجوية في سورية آنذاك اللواء لويس ذكر، وكان الرائد حافظ الأسد قائداً لقاعدة الضمير الجوية، ولكنه كان مسؤولاً عن مراقبة القوى الجوية بكاملها. وقد أمر قائد القوى الجوية بتحضير طائرة تقل لؤي الأتاسي والوفد الذي يرافقه، إلى القاهرة، وقد أقلعت بنا طائرة عسكرية من طراز اليوشن /14/، وهي طائرة مظلات ذات مقاعد حديدية، في السادسة والنصف صباحاً.

وفي الساعة التاسعة صباحاً، دخلنا المجال الجوي المصري، فأخبر قائد

الطائرة قيادة المطار في القاهرة أن الطائرة تحمل شخصية سورية هامة لم يُفصح عن اسمها، وأنها تريد الهبوط في مطار ألماتة الحربي، فاستجابت قيادة المطار له، وهبطت الطائرة في الساعة التاسعة والنصف، وكان في استقبالنا السيد سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر. وقد فوجئ سامي شرف بوجود الفريق لؤي الأتاسي، وبوزير الإعلام الدكتور سامي الجندي، ووجودي أنا أيضاً كملازم أول. وركبت أنا والدكتور سامي الجندي في سيارة، بينما ركب الفريق لؤي الأتاسي وسامي شرف في سيارة. وللوهلة الأولى تصوّر سامي شرف أننا هربنا من سورية، وجئنا إلى مصر لكي نطلب اللجوء السياسي، وأخذونا إلى فيلا اسمها قصر الطاهرة في مصر الجديدة، وهناك تناولنا طعام الإفطار بينما كان سامي شرف يجري اتصالاته. وفهمنا من سامي شرف أن الرئيس عبد الناصر سافر قبل يوم واحد سراً إلى الجزائر في الباخرة (المحروسة) عن طريق البحر، وأنه لن يعود إلى القاهرة إلا بعد عدة أيام، وبعد تناول طعام الإفطار، قرروا أن نجتمع مع نائب الرئيس أنور السادات، وفعلاً في الساعة الحادية عشرة جرى الاجتماع في مقر الجامعة العربية في مصر الجديدة، في صالون كان متواضعاً جداً، كنا من الطرف السوري لؤي الأتاسي والدكتور سامي الجندي وأنا، ومن الجانب المصري أنور السادات، وسامي شرف، وشخصية أخرى مهمة لم أذكر من هي، لعله كان علي صبري، بالإضافة إلى اثنين يختزلان الحديث. كانت حرارة الجو عالية جداً، وقد طلب مني الدكتور سامي الجندي أن أكتب محضراً للجلسة، فقلت له إنني لا أعرف الاختزال، فقال أكتب ما تستطيع كتابته، وهكذا كان فبعد ثلاث ساعات من الحوار والنقاش كتبت صفحتين كرؤوس أقلام! جرى حديث طويل مفصّل مع أنور السادات حول برنامج (سورية في الظلام) الذي تبثه إذاعة (صوت العرب). وقال لؤي الأتاسي إن لهذا البرنامج أثراً تخريبياً في نفوس المواطنين، فهو يخرب أواصر المودة والأخوة الوجدانية ما بين مصر وسورية، وطلب من أنور السادات أن يوقف هذا البرنامج فوراً. فقال أنور السادات بأنه ليس

صاحب قرار لكي يوقف البرنامج، والقرار هو للرئيس عبد الناصر، وأنه سينقل وجهة نظر الوفد السوري إلى عبد الناصر، وهو الآن في الجزائر، والرئيس نفسه هو من سيقدر بهذا الشأن. والحقيقة أن السادات بدأ بسؤال للؤي الأتاسي.. هو كيف تأتي يا سيادة الفريق لؤي الأتاسي إلى القاهرة دون أن تتصل بالهاتف لتعرف ما إذا كان الرئيس عبد الناصر موجوداً أم لا. فقال الفريق لؤي الأتاسي أنا ابن القاهرة، وأستطيع أن أجيء إليها متى أريد، وفي أي وقت. ومصر بلدنا مثلما هي سورية بلدكم وتستطيعون أن تأتوا إليها متى شئتم، وأنا لا أريد مواعيد، أو استقبالات في المطار، أو مدفعية تطلق قذائف الترحيب. وقد استغرق الاجتماع وقتاً طويلاً من الحادية عشرة إلى الساعة الثانية ما بعد الظهر، وقد جرى الاتفاق على أن نعود مرة ثانية، عند عودة عبد الناصر من الجزائر، وأن أنور السادات سيخبر عبد الناصر بما طلبه الفريق لؤي الأتاسي. وعدنا في الساعة الثانية إلى قصر الطاهرة، وعلى ما أذكر أننا تناولنا طعام الغداء مع سامي شرف، بينما ودعنا أنور السادات في الجامعة العربية، وقد أفلعت بنا الطائرة اليوشن /14/ السورية في الساعة الثالثة بعد الظهر، ووصلنا إلى دمشق في حوالي الساعة السادسة والنصف.

والحقيقة أنه، وبعد أن عرفت بأن لا موعد لنا مع عبد الناصر، وأن مجيء الوفد السوري إلى القاهرة يتعلق ببرنامج (سورية في الظلام)، دار نقاش طويل مع لؤي الأتاسي داخل الطائرة، فحواه هو كيف يذهب الفريق لؤي الأتاسي إلى القاهرة من دون موعد، وسألت الدكتور سامي الجندي كيف لا يعرف وهو وزير الإعلام بمواعيد زيارات عبد الناصر فقال لي، إن زيارة عبد الناصر إلى الجزائر سرية، ولا يعلم بها. بينما كان لؤي الأتاسي يقول إن مصر بلده، ويستطيع أن يزورها متى يشاء. وقد عبّر صراحة بأنه يريد أن يسكت هذا البرنامج الذي تبثه الإذاعة اللعينة (صوت العرب) كما كان يصفها. وقد كانت إذاعة دمشق تردّ على هذا البرنامج ولكن على نحو لا يتسم بالتأثير نفسه الذي يؤثره ذلك البرنامج في الوسط الشعبي..

بعد عودتنا من القاهرة كان هناك بعض القلق من هذه الزيارة التي لم يكن لها معنى، لأنها جاءت من دون مواعيد، فقد علق عليها الكثيرون من أعضاء القيادة القطرية والمجلس الوطني، وقالوا بأنها لم تكن ضرورية أبداً. والحقيقة أن برنامج (سورية في الظلام) ظل يُبث من إذاعة (صوت العرب) على الرغم من عودة عبد الناصر من الجزائر إلى القاهرة، وقد جرت اتصالات بين القاهرة ودمشق في أوائل شهر حزيران لزيارة الرئيس عبد الناصر، وأعتقد أن هذه الاتصالات التي كانت تدور لاستقبال هذا الوفد خفّت حدة لهجة هذا البرنامج ضد سورية. وفي هذه الفترة أيضاً كان الناصريون قد تركوا المجلس الوطني لقيادة الثورة والوزارة أيضاً.

في هذه الفترة كان الحرس القومي قد أخذ دوره في الشارع السوري، وتنفيذ المهام الموكلة إليه للتخلص من أعداء الثورة، وقد جرت في أعقاب هذه الفترة حملة تسريح للعديد من الضباط الناصريين، والضباط المعروفين بولائهم للواء زياد الحريري وذلك بسبب تفاقم المشكلات ما بين الأطراف جميعاً!



الفصل
العاشر

أحداث 18 تموز 1963...!!

زيارة عجيبه.. للقاهرة!!

في بداية شهر تموز جرت اتصالات ما بين القاهرة ودمشق حول عقد اجتماع بين رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة ووفد سوري مع الرئيس عبد الناصر، وأن يزور هذا الوفد الرئيس عبد الناصر في القاهرة، وقد حُدد يوم 18 تموز 1963 موعداً لهذا الاجتماع. ويبدو أن الناصريين قد أعادوا ترميم صفوفهم في سورية سراً، وأقاموا تنظيمات سرية، وخلايا عمل، وحضروا أنفسهم لكي يقوموا في يوم 18 تموز 1963 بانقلاب على البعثيين ويتسلموا السلطة. وقد شكل الوفد السوري يوم 17 تموز 1963 من الفريق لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، ووزير الإعلام الدكتور سامي الجندي، والعقيد محمد عمران قائد اللواء السبعين، والمقدم فهد الشاعر عضو المجلس الوطني لقيادة الثورة، وكنت مع هذا الوفد وقد أصبحت برتبة نقيب حيث رُفعت إلى هذه الرتبة بتاريخ 1963/7/1. وفي صباح 18 تموز 1963، في الساعة الخامسة والنصف صباحاً أقلعت الطائرة السورية وهي من طراز D.C.4 بالوفد إلى القاهرة من مطار المزة، وهبطنا في مطار ألماتة العسكري في الساعة الثامنة صباحاً، وكان في استقبالنا السيد سامي شرف مدير مكتب عبد الناصر، وعدد من الضباط، ورئاسة الجمهورية، وأخبرونا أن السيد الرئيس ينتظرنا في مدينة الإسكندرية، وهو موجود في استراحة المعمورة بالإسكندرية، وقد أحضروا لنا طائرة إنكليزية (كوميث) أقلتنا إلى مدينة الإسكندرية التي وصلنا إليها في العاشرة صباحاً، وهناك جرى لنا استقبال رسمي. وكان في الاستقبال السيد علي صبري نائب رئيس الجمهورية، ورأينا في استقبالنا فصيلاً من الشرطة العسكرية، وآخر من الدراجات العسكرية.

فاجيل اللقاء بعبد الناصر مرث عده..!!

نقلنا من مطار الإسكندرية إلى فيلا اسمها فيلا الأميرة ألمازة، وقد كانت الفيلا صغيرة ولها حديقة كبيرة، الطقس صيفياً وحاراً ورطباً أيضاً. كان الفريق لؤي الأتاسي يرتدي اللباس العسكري وكذلك العقيد محمد عمران، والمقدم فهد الشاعر، أما أنا فكنت ألبس بدلة المظلات، وحدد لنا أن نلتقي الرئيس عبد الناصر في الساعة الواحدة ظهراً لذلك استراح أعضاء الوفد في فيلا ألمازة، وشربوا الشاي والقهوة. وقبل الساعة الواحدة، أخبرنا بأن الموعد أُجِّل إلى الساعة الثالثة بعد الظهر بحجة اقتراب موعد الغداء، وعلينا أن نتناول طعام الغداء قبل ذهابنا إلى الرئيس عبد الناصر في المعمورة. وفي الساعة الثانية عشرة حضر السيد علي صبري. كانت الاستراحة جميلة، وذات هندسة بديعة لذلك قلت لمن هم حولي بأن هذه الأميرة صاحبة ذوق ولطف في اختيارها لهذه الفيلا في هذا المكان. وقد كان يوجد بداخلها طاقم كبير من الخدم يطوفون حولنا وكأننا في مطعم عام.

أخبار انقلاب في سورية..!!

بعد أن جلس علي صبري معنا وقتاً قليلاً، وكانت الطاولة تعدّ من أجل الغداء، خرج علي صبري من الغرفة التي كنا نجلس فيها جميعاً، واستدعاني، فتبعته، ورحت أمشي وإياه في حديقة الفيلا، كنت مسروراً لأن عبد الناصر وافق على هذا اللقاء، كما كنت مسروراً لأنه بمجرد لقائنا بعبد الناصر.. فهذا يعني عودة المحادثات حول الوحدة. بدأنا الحديث في الأمور العامة، مجاملات، وأسئلة عن الصحة، والحرارة، والرطوبة، وحدثته عن الفيلا وجمالها، وسألته لماذا لا يسكن هذه الفيلا أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، فقال لي إنها دار للضيافة. كنت أقرأ في وجه علي صبري علامات القلق والاضطراب. وفجأة

سمعتة يسألني عن الأوضاع في سورية، فأجبتة بأن الأمور تسير بشكل جيد، وأن لقاء الرئيس عبد الناصر بالوفد السوري، سيكون بمثابة تصفية للقلوب، أو غسيل للقلوب. وبينما نحن نسير أخرج من جيبي شريطاً مسحوباً على (التل برنتر) للأخبار، ملفوفاً على شكل قرص. وقال لي: اقرأ يا محمد هذا الكلام، وأعطني رأيك وأخبرني بشكل سريع بأنه يوجد انقلاب في سورية، وقتال في الشوارع، والإذاعة متوقفة، وهناك تضارب في الأنباء.. وهذا ما يقوله الشريط. قرأت ما جاء في الشريط، ولم أكمله. كنت هادئاً جداً، بينما كان هو يتفرس في وجهي. لم أعرف الاضطراب إطلاقاً من هذه الأخبار. كنت أقرأ في الشريط، وكان هو يقرأ في وجهي. كنت وإياه نقف في ظل شجرة لأن الحرارة شديدة، والرطوبة عالية.. ومن خلال قراءتي لأنباء الشريط، تبين لي أن الناصريين قاموا بمحاولة انقلاب. لذلك رفعت نظري إليه وقلت له: إذا كانت المخابرات المصرية وراء هذا العمل.. فإنهم ارتكبوا خطأ جسيماً! قال: نحن لا نتدخل في شؤون سورية الداخلية! قلت: هذا العمل سيفشل لأنه عمل تخريبي ضد الوحدة، ويسيء لعلاقة البلدين مصر وسورية، بل يسيء للعلاقة ما بين الشعب في سورية والرئيس عبد الناصر. وأضفت أيضاً: هذه العملية الفاشلة سيذهب ضحيتها الكثيرون. وهنا سألتني علي صبري: كيف لي أن أخبر لؤي الأتاسي بما يحدث في سورية، فقلت له بهدوء: دعنا من هذه الأخبار الآن، لأنني إن أخبرت أعضاء الوفد.. فلن يتناول أحد منهم طعام الغداء. ففوجئ علي صبري لأن أعصابي كانت حديداً، بل كانت في ثلاثة حقائق. وقلت له: سأخبر الفريق لؤي الأتاسي على طريقتي فلا يقلق. ودخلت معه إلى القاعة لكي نتناول الطعام بعد أن وضعت الشريط في جيبي.. جلست إلى جوار العقيد محمد عمران، ورحت أتناول الطعام معه، بينما الخدم يضعون صحناً، ويأخذون صحناً. ثم نهضت وخرجت بمفردي إلى المغاسل، والتفت نحو العقيد محمد عمران، وغمزته، فنهض وتبعني إلى القرب من المغاسل. فقلت له هناك أحداث خطيرة في سورية، والإذاعة، كما يقال، متوقفة. كنت أيضاً هادئاً جداً،

ثم أخرجت الشريط من جيبي وناولته له لكي يقرأه، فهزّ برأسه وهو يقرأ الأخبار، وقال: أوباش، خربوا كل شيء.. وسألته: هل نخبر لؤي الأتاسي؟ فقال: دعه حتى ينتهي من تناول طعامه!

عاد العقيد محمد عمران إلى طاولة الطعام وشرع بتناول الطعام، وقد كان محمد عمران رجلاً شجاعاً. ثم أومأت للدكتور سامي الجندي، فنهض وجاء إليّ، وخرجت معه إلى خارج الفيلا وناولته الشريط، وقلت له اقرأ، فأنت وزير للإعلام ويجب أن تعرف وتفهم ما هو موجود فيه. ورحت أراقبه فرأيت ألوان وجهه تتغير وهو يقرأ. وقلت له إياك أن تخبر الفريق لؤي الأتاسي لأننا سنلتقي بعبد الناصر بعد قليل. وعدنا معاً إلى طاولة الطعام لكي ننهي طعامنا، وقلت لهم وعلى سماعهم جميعاً إن الرئيس عبد الناصر قد أجل الاجتماع إلى الرابعة ظهراً.. كما فهمت من السيد علي صبري. وأكد علي صبري ما قلته معتزلاً بأنه ما كان يودّ أن يخبرنا.. كي لا يفسد شهيتنا للطعام.

إخبار لؤي الأتاسي.. بأحداث الانقلاب!

بعد أن انتهينا من الطعام، خرجنا إلى الصالون، وجلسنا لكي نشرب القهوة، فخرج محمد عمران من الصالون، ونادى المقدم فهد الشاعر، ويبدو أنه أخبره، وكما فهمت أنه أوصاه ألا يتكلم كثيراً، وعندما أصبحنا جميعاً في الصالون، وكلنا يعرف الخبر، ما عدا لؤي الأتاسي، غادر علي صبري الفيلا دون أن ندري إلى أين. لحظتُذ.. مهدّ محمد عمران في حديث طويل عن الناصريين وتنظيمهم في سورية، وتخوّف من تصرفاتهم الحمقاء، وقال لهم خلقوا مشكلات في هذا اليوم ونحن موجودون في مصر من أجل الوحدة لكي يشوشوا علينا. وتحدث الدكتور سامي الجندي حول الموضوع نفسه، فقال إن هؤلاء الناصريين أوباش. وهنا قطعت الحديث على الجميع، وقد كان لؤي

الأتاسي يستمع وقد بدأ يترفض ويغضب منهما، فتدخلت وقلت: لنقل بصراحة يا سيدي الفريق، حاول الناصريون اليوم أن يقوموا بانقلاب في سورية بعد إقلاعنا من دمشق مباشرة، في الساعة الحادية عشرة ظهراً، وقد استولوا على الإذاعة، فتوقفت الإذاعة، وهناك مشكلات كثيرة في سورية، وعلى ما أعتقد أن الإذاعة عادت إلى البث في هذا الوقت. نزلت الكلمات على رأس لؤي الأتاسي كالصاعقة. قلت الأخبار دفعة واحدة. كان يحرق إليّ، والشرر يتطاير من عينيه، وبدأت علامات الغضب عليه، فنهض إلى المذيع، كان يوجد إلى جوارنا مذيع كبير يتوسط الصالون. حاول كثيراً أن يلتقط الإرسال إلا أنه لم يستطع التقاط إذاعة دمشق، لذلك التقط إذاعة لندن، فسمعنا أن محاولة للانقلاب حدثت في سورية، وقد فشلت، وعادت الإذاعة السورية إلى البث، وأن محكمة عسكرية ميدانية، ومجلس عرقي عسكري تشكل فوراً، وقد وقعت ضحايا حول الإذاعة، لأن القتال يجري الآن حول الإذاعة، وقد اعتقل بعض المهاجمين وقتلوا. عندئذ هدأ الفريق لؤي الأتاسي، وسألنا: ما العمل؟! ودون أن ينتظر الإجابة قال: سنلتقي عبد الناصر على الرغم من كل هذه الأحداث! وأذكر أن بعض الإذاعات راحت تذكر اسم أمين الحافظ كوزير للداخلية ونائب لرئيس الوزراء، ولكي نجلوا الأمور حاولنا الاتصال بسورية إلا أننا لم نستطع الاتصال بأحد.

وفي الساعة الرابعة إلا ربعاً بعد الظهر، عاد السيد علي صبري وأخبرنا أن الاجتماع سيكون في الساعة الخامسة مساءً مع الرئيس جمال عبد الناصر في استراحة المعمورة. ومن خلال تفهمنا لتمديد الوقت، عرفنا أن الرئيس عبد الناصر كان يريد أن يعرف ماذا جرى بالضبط في سورية، لكي يعرف على أية أسس يدير المحادثات مع الوفد السوري.

ومن الساعة الرابعة إلى الساعة الخامسة كان النقاش يدور بيننا نحن كأعضاء للوفد السوري، وبصوت عالٍ حول الناصريين والوحدة، ومحاولة الانقلاب، كنا نتساءل من من الناصريين يقف وراء هذه العملية؟! ولأن النقاش

كان حاداً ومتشعباً. خرجت إلى الحديقة، ورحت أسير فيها بمفردي. الحقيقة هي أنني كنت أفكر كيف سنقابل عبد الناصر، أو كيف سيقابلنا عبد الناصر بعد هذه الأحداث التي قامت في سورية. ورأيت علي صبري يترك أعضاء الوفد داخل الفيلا، ويلحق بي، حين وصل إليّ سألتني بماذا تفكر يا محمد، وما الذي سيحدث بتقديرك؟! فقلت: علينا أن نعود إلى سورية فوراً لأننا إن لم نعد بسرعة ستكون هناك إعدامات كثيرة بحق الآخرين. وأعتقد أنكم لا تعرفون البعثيين على حقيقتهم. فقال: برأيك يعود الفريق لؤي الأتاسي إلى سورية الآن أم أنه يطلب حق اللجوء السياسي. فقلت له: لا، يجب أن يعود لأنه هو رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة. وعلينا أن نعود جميعاً.

قال: والدكتور سامي الجندي أيضاً (كنا نعرف أن الجندي ناصري)؟
قلت: وسامي الجندي. علينا أن نعود جميعاً.

لقاء عبد الناصر.. أخيراً!

في الساعة الخامسة، ذهبنا إلى لقاء عبد الناصر في استراحة المعمورة، كان الرئيس عبد الناصر في الحديقة، هو والمشير عبد الحكيم عامر، وصلنا إليه ومعنا علي صبري. بدا الرئيس عبد الناصر وكأنه لا يعلم شيئاً عما دار في سورية، فقد استقبلنا بترحاب شديد. وجلس الجميع على كراسي الخيزران المخصصة للحدائق، كان عبد الناصر يتوسطنا، وبجانبه الفريق لؤي الأتاسي، وعلى يمينه المشير عبد الحكيم عامر، ومن حولهما بقية أعضاء الوفد. وكانت الجلسة على شكل دائرة. بدونا وكأننا لسنا في اجتماع رسمي. وبعد حديث المجاملة، والاطمئنان على الصحة والمعنويات، قال: سمعتم عن الذي حصل في سورية. فأجابه الفريق لؤي الأتاسي: نعم، وعلى الرغم من كل ما حصل في سورية، علينا أن نتفق حول الوحدة من أجل الأمة العربية، لأن الجماهير لن تغفر لنا إطلاقاً.. إذا لم تقم الوحدة مرة ثانية، ونتجاوز كل الخلافات

والمشكلات. هنا جرى نقاش طويل حول حزب البعث، والوحدة، والاتحاد، وتجربة الوحدة السابقة، وقد استمر هذا الاجتماع من الخامسة إلى العاشرة مساءً. وقد جاؤوا (بسندويشات) إلى الاستراحة، فرحنا نأكلها عبر استراحة قصيرة. كنت بين وقت وآخر أذهب إلى مركز الإعلام في الاستراحة لأقرأ على شريط جهاز (ال تل برنتر) ما يحدث في سورية، وأعود فأخبرهم بما حدث من جديد في سورية، وكان الرئيس عبد الناصر يقول إن محمد يعرف أكثر مني ما يدور في سورية. وقد انتهى هذا الاجتماع عند منتصف الليل، وطلبنا من الرئيس عبد الناصر أن نعود فوراً إلى سورية، وكانت طائرتنا لاتزال في القاهرة، فاستدعوا الطائرة من القاهرة إلى الإسكندرية، وطلب منا الرئيس عبد الناصر أن نستريح قليلاً مخافة أن يعترض الطيران الإسرائيلي طائرتنا ليلاً، فعدنا إلى استراحة الأميرة أمارة حوالي الساعة الواحدة، ووصلت الطائرة التي ستقلنا إلى سورية في حوالي الساعة الواحدة والنصف، وفي المطار ودّعنا علي صبري في الساعة الرابعة صباحاً، حيث انطلقت الطائرة بنا باتجاه قبرص ثم إلى دمشق بناء على نصيحة عبد الناصر كي لا يعترضنا الطيران الإسرائيلي. فوصلنا إلى دمشق في الساعة السادسة والنصف صباحاً؛ وصلنا إلى مطار المزة العسكري؛ حيث كان الصمت يسود الطائرة تماماً، لا يقطعه سوى صوت المضيفة الأرمنية التي تسألنا إن كنا نودّ شرب أي شيء من القهوة أو الشاي. كان يجلس بجانبني الدكتور سامي الجندي ويناقشني بصوت خافت، حتى لا يزعج لؤي الأتاسي، وبعد نصف ساعة من إقلاع الطائرة من مطار الإسكندرية، رجعت إلى آخر مقعد في الطائرة ونمت، ولم أستيقظ إلا على نداء الطيار كي نربط الأحزمة لأننا سنهبط في مطار المزة، فتقدمت إلى مقدمة الطائرة، وجلست على الكرسي المجاور لكرسي الطيار لكي أشاهد هبوط الطائرة. كانت قد مرت عليّ أربع وعشرون ساعة لم أخلع فيها ثيابي أو جزمتي. كان الوقت عند شروق الشمس، وقد راحت والحرارة تشتد رويداً رويداً، وحين فتح باب الطائرة، ووضع السلم، نزل الفريق لؤي الأتاسي وبقية

أعضاء الوفد، كان في استقبالنا عدد من الضباط باللباس الميداني الكامل، والخوذ الحديدية على رؤوسهم، وكان أول المستقبليين لنا الرائد حسين ملحهم، وبعد أن قدم التحية للوئي الأتاسي، قال له: سيدي لقد أعدمت اثنين من المجرمين. وهنا صرخ لوئي الأتاسي الله لا يعطيك العافية، هل تظن أنك تقدم لي باقة ورد حين تخبرني بهذا الخبر الزفت. وتغالى صوت لوئي الأتاسي: أوقفوا الإعدامات. ثم التفت إليّ، وقال: محمد، اصعد إلى سجن المزة، وأوقف الإعدامات فوراً. وقد ذهب لوئي الأتاسي يرافقه محمد عمران بسيارة واحدة، بينما ذهب الدكتور سامي الجندي بسيارة إلى وزارة الإعلام. أما أنا فقد ذهبت إلى سجن المزة من أجل إيقاف أوامر تنفيذ الإعدام. لم أكن أعرف كيف دارت أحداث 18 تموز 1963 ولكن عندما وصلت إلى سجن المزة العسكري، وجدت محكمة عسكرية ميدانية معقودة هناك. وقد رحب بي رئيس المحكمة العسكرية المقدم صلاح الضلي ومعه النقيب خالد رسلان والنقيب محمود حمرا، وجلسنا الأربعة في غرفة مدير السجن، وقد توقف التحقيق قليلاً بسبب مجيئي، وبدؤوا يشرحون لي كيف حدثت أحداث 18 تموز 1963. ولا أريد هنا أن أدخل في تفاصيلها.





الفصل الحادي عشر

أمين الحافظ..

رئيساً لمجلس قيادة الثورة!

في سجن المزة مرة ثانية.. ولكن!

كان الوقت ضحى، حين صعدت إلى السجن، ورحبت أستمع لصلاح الضلي ومحمود حمرا وهما يشرحان لي عن ما حدث في 18 تموز 1963، كنت حزيناُ جداً، وازددت حزني عندما علمت أن محمد نبهان (وهو برتبة نقيب، ومن منطقة الصبورة الواقعة شرق مدينة سلمية) مشترك في أحداث 18 تموز 1963، وهو معتقل الآن في الزنزانة الإفرادية في الطابق العلوي من السجن - وهو السجن نفسه الذي سجنْتُ فيه مدة سنة، وحُكِم عليّ بالإعدام، وقد فقدتُ حاسة الشم فيه - [وسجن المزة بناه الأتراك ومن ثم عدّله الفرنسيون، وهو مؤلف من طابقين، في الطابق الأرضي تتمركز إدارة السجن وغرف التحقيق أو غرف التعذيب، إذا شئنا الدقة، والمطبخ والخدمات الأخرى.. مثل مهاجع نوم الجنود.. ومخزن السلاح والذخيرة ومخزن التموين والحمام الجماعي الخ.. بالإضافة إلى سبع غرف منفردات لا يأتيها النور إطلاقاً. أما الطابق العلوي، فيتألف من 39 غرفة منفردة متقابلة يفصل بينها ممر صغير بعرض حوالي متر ونصف المتر، وفي نهاية الغرف مفسلة عامة وتوالت عام أيضاً. وإلى الجوار أربعة مهاجع نوم كبيرة يوضع فيها السجناء الذين صدرت بحقهم أحكام قضائية، ويستوعب المجمع الواحد ما يقارب 60 سجيناً ينامون فوق بعضهم بعضاً، من شدة الازدحام. وبالإضافة لهذا، يوجد خمس غرف منفردة كبيرة مع مفسلة وتوالت عام يوضع فيها الموقوفون السياسيون ذوو المراتب العالية.. وفي مدخل السجن يوجد مستوصف يستخدم للسجناء المرضى، أو لمن تعطف عليه إدارة السجن.. ويمكن أن يضم بعض السجينات.. كما يمكن أن يوضع فيه المتعاملون مع العدو الإسرائيلي ليصار إلى فصلهم عن مجموعة الموقوفين الآخرين.. وبخاصة أن أغلبهم من العاملين في الحقل السياسي. وخلف السجن يوجد ملعب كرة طائرة وملعب كرة سلة.. ليمارس

الجنود أو السجناء رياضتهم الصباحية حسبما يريد مدير السجن.. وغالباً ما تعطى الأفضلية لحرس السجن وليس للموقوفين..].

محمد نبهان.. رأس التنظيم!

كنا في غرفة مدير السجن، وقد أزعجني جداً تورط محمد نبهان بهذه المؤامرة، فمحمد نبهان صديقي، وأخوه علي درست وإياه في المدرسة الابتدائية في مدينة حماة، سكنت وإياه في غرفة واحدة، وأسرتي وأسرتيه على علاقة شديدة من الصداقة، وأقول إن ذلك أزعجني لأن محمد نبهان من البعثيين القدامى، وقد بنى محمد نبهان إعدادية في قريته الصبورة (الواقعة شرق مدينة سلمية) اسمها إعدادية عدنان المالكي، وكان أنموذجاً متفانياً للمناضل البعثي الذي يخدم الوطن والحزب بإخلاص شديد. كنت وإياه في عمر متقارب. كان ضابطاً في الجيش، ثم أصبح ضابطاً في المكتب الخاص التابع لعبد الناصر أيام الوحدة، في سورية. ويبدو أنه تأثر كثيراً بالناصرية إلى درجة أنه ترك حزب البعث. وعندما قامت ثورة 8 آذار 1963 لم توافق اللجنة العسكرية على إعادة محمد نبهان إلى الجيش، فظل مسرحاً.

وقد دار نقاشي مع المقدم صلاح الضلي رئيس المحكمة العسكرية الميدانية، والنقيب خالد رسلان، والنقيب محمود حمرا حول محمد نبهان تحديداً، وقد كان رأيهم أن يعدموه فوراً، على الرغم من أن خالد رسلان كان من أصدقائه. وقد اعتقدت نظراً لأنني أعرف إمكانات محمد نبهان التنظيمية، بأنه هو رأس التنظيم، وهو المخطط والمدير لمؤامرة 18 تموز 1963، لذلك طلبت من المقدم صلاح الضلي وأعضاء المحكمة العسكرية الميدانية الهدوء، والتروي، والتريث في اتخاذ قرار الإعدام بحق محمد نبهان، وذلك من أجل أن نستثمر الوقت في التحقيق مع محمد نبهان لنعرف منه الأسس الأولى للتنظيم الذي يشرف عليه، وأسماء الذين تعاونوا معه.. فوافقوا على رأيي،

واتفقتُ معهم أن نحاكم محمد نبهان أولاً محاكمة حزبية، فهو حزبي ومن البعثيين الأوائل في الحزب، فوافقوا بالإجماع! عندئذٍ لم نستدعه فوراً لأنه كان مرهقاً وقد نال منه التعذيب، لذلك طلبت منهم أن يرسلوا إليه الصحف، والشاي لكي يرتاح ويطمئن، وفي تلك اللحظة طلبت من أعضاء المحكمة أن يوقفوا الإعدامات بحق الآخرين، وكانوا قد عرفوا مني أن هذه هي أوامر الفريق لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، بإيقاف كل الإعدامات، وللحقيقة أنني كنتُ أكره حكم الإعدام، وأرفضه لأن هذه التجربة تعرضتُ لها، وعانيت منها الأمرين.. وفي داخل هذا السجن نفسه. وإن كلمة الإعدام، أو تهمة الإعدام ليست سهلة بحق الناس، وهي مؤذية جداً، ومدمرة للذات الإنسانية، كما أنها مدمرة لمشاعر الشارع بشكل عام. وقد كان المقدم صلاح الضلي في حالة من الهيجان والتوتر، وكذلك كانت حالة محمود حمرا وخالد رسلان.. كانوا في حالة غليان وتشویش، وبعد أن هدؤوا.. استدعينا محمد نبهان، بعد أن قرأ الصحف وشرب الشاي، وبعد أن أرسلت إليه خبراً بأنني موجود في السجن مع أعضاء المحكمة العسكرية الميدانية.. لقد اطمأن محمد نبهان لوجودي. وكانت المحكمة العسكرية الميدانية قد أحضرت مسجلة وميكروفونات لأول مرة من أجل تسجيل وقائع التحقيق، وذلك بعد أن عرفوا بأنه من الممكن أن يتحدث محمد نبهان عن أسماء ووقائع مهمة، وقد أصرّت المحكمة على وضع المسجلة على مبعدة من محمد نبهان لكي يسجلوا أقواله واعترافاته دون أن يشعر بذلك، وجاء محمد نبهان، وقد رأيته متماسكاً، ولكن حالة الإعياء، والتعب، والإرهاق بادية عليه.. وعلى الرغم من ذلك كان هادئاً، وعندما شاهدني اطمأن أكثر. كنا نجلس في ساحة السجن، حول بركة الماء بالقرب من بوابة السجن، وكان النهار حاراً جداً، حتى أن النقيب خالد رسلان عضو المحكمة خلع حذاءه وجواربه، ووضع قدميه في البركة، وأحضروا لنا الشاي. كنا نتحدث فيما بيننا، ومحمد نبهان صامت. ونظرتُ إليه، وقلت له: أبا الحارث.. اشرب الشاي. واطمئن. بعدئذٍ جاؤوا بطعام الإفطار، دون أن

نسأل محمد نبهان أي سؤال، وتناولنا الطعام معاً، مع مدير السجن، ومحمد نبهان أيضاً. ونحن نتناول الطعام، كنا نتحدث، ونسأل محمد نبهان: فكان يجيب بقوله: هكذا حصل! قلت له: أنت من البعثيين القدامى، وأحد المناضلين الكبار، تتأمر على حزب البعث العربي الاشتراكي، وأنت الذي بنى إعدادية الشهيد عدنان المالكي في الصبورة باسم حزب البعث.. تتأمر الآن يا محمد على حزب البعث. حقيقةً، كان مرتبكاً. وقد جرى حديث طويل متبادل ما بين محمد نبهان وخالد رسلان لأنهما صديقان، ومن منطقة واحدة، ومن حزب واحد. وتدخل في الحديث صلاح الضلي ومحمود حمرا. كانت لهجة الحديث متوترة في البداية، ثم راحت تهدأ رويداً رويداً، وقد اقترحت على أعضاء المحكمة أن نحاكم محمد نبهان محاكمة حزبية، وأن يكون رئيس المحكمة الحزبية الآن هو خالد رسلان، وأن أكون أنا ومحمود حمرا عضوين في المحكمة، وللحقيقة أقول بأن صلاح الضلي كان رجلاً طيباً، فقد وافق على اقتراحي فوراً، وكنا نتحدث ونضحك. قلت لـ محمد نبهان: أبا الحارث اعتقادي أكيد أنك أنت رأس التنظيم، لأن جاسم علوان رجل لا يفهم في أمور التنظيم، وأنا لا أعتقد أن محمد نبهان الذكي الذي أعرفه يسلم نفسه لجاسم علوان، وإنما أنت جعلت منه واجهة الأحداث. لكن الحقيقة هي أنك أنت رئيس التنظيم، ومدير الأحداث ونحن لن نقنع بغير هذا. وإذا لم تعترف بهذا، فإن آخرين سيدفعون الثمن غالياً، وما عليك إلا أن تتحدث بصراحة. ولم يخب ظني فقد تحدث محمد نبهان بالتفصيل عن التنظيم، وبين لنا شجرة التنظيم من الأعلى إلى الأسفل، وقد كان هو رأس التنظيم حقيقة..

في أثناء التحقيق مع محمد نبهان كان أعضاء المحكمة الميدانية يتناوبون على الخروج والدخول، وترك وقائع التحقيق للذين كانوا موجودين معه. ولم يكن هناك من يسجل محضراً للتحقيق، وقد أشعرنا محمد نبهان أنه رفيقنا، وأنا جميعاً رفاق نتبادل الحديث حول مؤامرة 18 تموز 1963. وقد انتهى التحقيق بعد ساعتين، كنا خلالها قد عرفنا غالبية أسماء التنظيم، وأسماء

القياديين فيه، وخلال هاتين الساعتين كان كل من ورد اسمه في التحقيق قد جلب إلى فروع الأمن بعد أن اعتقلتهم الأجهزة الأمنية من بيوتهم.

في ذلك اليوم توقفت الأحكام العرفية نهائياً، وبذلك نجا محمد نبهان وغيره من حكم الإعدام الذي كان سيطالهم لو تأخرنا في القاهرة. رفعنا جلسة المحاكمة، وذهبنا إلى رئاسة الأركان، فوجدنا أن المجلس الوطني لقيادة الثورة في حالة انعقاد. وتوجد خلافات حادة حول مؤامرة 18 تموز 1963 وآثارها.

لؤي الأتاسي .. محبطاً!

كان أعضاء المجلس الوطني في حالة اضطراب.. وقد بدأت الخلافات تتفاقم داخل المجلس الوطني وخاصة بين أمين الحافظ (وزير الداخلية) والفريق لؤي الأتاسي، فقد شعر الفريق لؤي الأتاسي بالإحباط نتيجة هذه الأحداث، ولم يكن راضياً عن ما حدث في سجن المزة من إعدامات، وشعر أن حزب البعث العربي الاشتراكي.. وضع قبضته كاملة على السلطة في سورية في المجالين العسكري والمدني.. لذلك قرر أن يستقيل، ويذهب إلى منزله في دمشق. كان حزيناً، ومحبطاً، ويشعر بالوحدة والمرارة.

في المساء، ذهبتُ إلى منزله، فوجدته وحيداً وحزيناً، وفي حالة حيرة، وقد ذهبت وإياه إلى بيت الدكتور سامي الجندي القريب من منزله، وقد لحق بنا، بعد فترة قصيرة من الزمن، العقيد محمد عمران، وقد حاول العقيد محمد عمران أن يرفع من معنويات الفريق لؤي الأتاسي، وذلك حين أدار النقاش والحوار بهدوء شديد، وبدا معظم كلام الفريق لؤي الأتاسي يدور حول فكرة أن البعثيين يريدون استلام الحكم، وأنه لن يرضى بأن يكون واجهة لهم، أو ستارة. وقد طالت السهرة بنا في بيت الدكتور سامي الجندي إلى وقت متأخر من الليل.

لؤي الأتاسي .. يصرّ على الاستقالة!!

وعلى الرغم من الحوار الطويل مع الفريق لؤي الأتاسي إلا أنه كان مصرّاً على الاستقالة لشعوره أن البعثيين استولوا على السلطة، وأنهم يكرهون عبد الناصر، وخاصة بعد أحداث 18 تموز 1963. وأنه لم يعد أحد منهم مقتنعاً بضرورة إعادة الوحدة مع مصر. وفي هذه الفترة عادت إذاعة (صوت العرب) تحرّض الجماهير السورية على حزب البعث، وكان العراقيون قد شدّدوا من عزيمة قيادة حزب البعث في سورية، وأنه على البعثيين أن يستلموا السلطة بكاملها، وألا يتركوا أي دور لأي شخص آخر من الناصريين. لذلك، في هذا الوقت، اجتمعت القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، وقررت ترفيع أمين الحافظ إلى رتبة فريق بدلاً من الفريق لؤي الأتاسي الذي قدم استقالته في يوم 27 تموز 1963، والتي قبلت فوراً بناءً على طلبه، وانسحب من الحياة السياسية، وقد عين أمين الحافظ بدلاً منه كرئيس للمجلس الوطني لقيادة الثورة.

وفيما بعد جرت محاكمة ميدانية في المسرح العسكري لمحمد نبهان وجاسم علوان (الذي أُلقي القبض عليه بعد يومين من اختفائه) ومجموعة أخرى من الضباط، وصدرت أحكام الإعدام بحقهم. والحقيقة أن سعاد العبد الله ودعد عبد الله، وسعاد بالدرجة الأولى، عملت للتوسط من أجل محمد نبهان كي لا يعدم، وقد كان لها احترام كبير في القيادة، وذلك لأن محمد نبهان هو زوج أختها دعد العبد الله، وكما أعتقد أن هوارى بومدين توسط لدى القيادة للإفراج عن المحكومين، وكذلك توسط عبد الناصر لدى القيادة للأمر نفسه، كما توسط الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو من أجل تخفيف الأحكام.. واستجابة لكل هذه التوسّطات أفرجت القيادة عن المحكومين وأطلقت سراحهم، ولكن طلبت منهم جميعاً أن يسافروا إلى خارج سورية، فجاسم علوان سافر إلى القاهرة، وما يزال فيها حتى اليوم، بينما ذهب محمد

نبهان إلى الجزائر، ولم يعد منها إلا في عام 1970. وهو مازال حياً. وقد سرني هذا الإجراء لأنني كنت ضد أحكام الإعدام بشكل قاطع.

فايز إسماعيل.. يلجأ إلى بيثي!

وفي أثناء الأزمة، أي أحداث 18 تموز 1963، جرى البحث والتحري عن فايز إسماعيل، وهو ناصري. (وهو الآن، وأنا أكتب هذه المذكرات، عضو في الجبهة الوطنية في سورية، وأمين عام حركة الوندوين الاشتراكيين)، عرفنا أن فايز إسماعيل هرب، وبدأت مخابرات أمن الدولة تبحث عنه، وتضيق الخناق على حركته، وأخيراً خاف فايز إسماعيل، فجاء إلى منزلي، وكنت أسكن في غرفتين في منطقة الشيخ سعد (بالمزة)، وكانت زوجتي لا تعرف فايز إسماعيل، وحين قرع الباب، وفتحت زوجتي الباب له، دخل مباشرة وأغلق الباب وراءه، وهنا صرخت به زوجتي كيف تدخل هكذا ومن أنت؟ فقال: أنا فايز إسماعيل، هارب من المخابرات، ولا أريد أن أسلم نفسي إلا لمحمد إبراهيم العلي. فاطمئنتي ولا تخبري أحداً. طبعاً لم يكن يوجد لدي هاتف، ولهذا لم يتصل فايز إسماعيل بي ليخبرني بأنه سيأتي لاجئاً إلى بيتي. وحين عدت إلى المنزل عند الظهيرة، وجدته في البيت، وقد كنت أعرفه، ولكن لم تربطني به أية علاقة شخصية. فقال لي مباشرة: أنا مطلوب للمقدم عبد الكريم الجندي. ولم أسلم نفسي إلا لك. فإن كنت تريد أن تسلمني له، فسلمني. فقلت له: ابق في البيت حتى أعطيك خبراً. وفي المساء ذهبت إلى عبد الكريم الجندي، في مكتب أمن الدولة، [وكانت تربطني بعبد الكريم الجندي علاقة طيبة، وخلافاً لما يُشاع عن عبد الكريم الجندي من أنه جلف، وقاس، أقول إن عبد الكريم الجندي يحب الفقراء، وهو رجل وطني ومخلص في وطنيته عكس ما يشاع عنه، وقد اتهموه كثيراً بأشياء مختلفة هو وزوجته، ولكن في الحقيقة كان مناضلاً حقيقياً، وليس له أولاد. وعندما انتحر، انتحرت

زوجته بعد أربعين يوماً من انتحاره. ولو أنها كانت صاحبة سلوك سيء لما انتحرت]. وحين التقيت عبد الكريم الجندي حدثته عن فايز إسماعيل، وماذا فعل لكي يكون مطلوباً للمخابرات. فقال لي إنه متآمر مع جماعة 18 تموز 1963، لذلك سأسلخ جلده. فقلت له مماًزحاً: ماذا تريد! عندئذٍ عرفت منه أنه أدرك أنني أملك معلومات عن فايز إسماعيل كان عبد الكريم الجندي صاحب فراسة وفطنة، لذلك قلت له بصراحة: سأسلمك إياه شريطة أن تحترمه، وألا تضربه، وأن تطلق سراحه فوراً.

حين سمع كلامي هذا، غضب جداً، وأصبح نزقاً لا يعرف ماذا يقول. ولكنني كنت في حالة هدوء عجيبة، وابتسم، لأنني أردت أن أحل مشكلة فايز إسماعيل. وأخيراً، قال لي عبد الكريم الجندي: أنت غال عليّ، ولن أخالف لك أمراً. هات فايز إسماعيل إلى هنا، ولن يحصل له أي مكروه. فعدت إلى البيت، وأخذت معي فايز إسماعيل إلى عبد الكريم الجندي. وهناك. قال عبد الكريم الجندي له: لقد غلبتني يا فايز حين ذهبت إلى بيت محمد إبراهيم العلي. ومع ذلك احك لنا كل ما تعرفه عن أحداث 18 تموز 1963. فتدخلت مباشرة، وقلت له: فايز إسماعيل لا يعرف شيئاً. دعه وشأنه. وهات لنا شاياً لنشربه معاً. وهنا للتاريخ أقول إن عبد الكريم الجندي بمقدار ما كان قاسياً كان طيب القلب ونبيلاً أيضاً. وبعد أن شربنا الشاي خرج فايز إسماعيل طليقاً، وأرسل عبد الكريم فوراً برقية كف بحث عن فايز إسماعيل.



الفصل
الثاني عشر

وفود عربية.. في دمشق!

عبد الله السلال .. مهنتاً بقيام الثورة!

بعد قيام الثورة في 8 آذار 1963، وفي الفترة الواقعة ما بين 23 آذار و30 آذار، كما أعتقد، قام المشير عبد الله السلال رئيس مجلس قيادة الثورة في اليمن مع وفد حكومي وقبلي وعشائري، ومعه شيخ قبيلة حاشد، وزعماء عشائر أخرى، وأذكر أن الوفد كان كبيراً، وقد ارتبط اسم عبد الله الأحمر أحد زعماء العشائر في ذهني بسبب ارتدائه للباس اليمني التقليدي، فحين ذهبنا إلى استقبال الوفد في مطار المزة العسكري، رأيت العديد من زعماء العشائر يرتدون اللباس اليمني التقليدي وهو عبارة عن (شرشف) ملون يلف على الخصر بحيث يصل إلى الركبة، وعلى البطن جنبية (خنجر عريض) والرأس ملفوف بشال عريض مبرقع، وما لفت انتباهي إلى عبد الله الأحمر هو أنه لبس حذاءً أبيض، وجرابات ملونة بالأحمر، كانت سيقان أرجل أعضاء الوفد الذين يلبسون اللباس التقليدي رفيعة، عليها شعر أسود طويل، وقالوا إن عبد الله الأحمر هو زعيم قبائل حاشد، وقد استقبل المشير عبد الله السلال، استقبالاً رسمياً، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة، وكان يرتدي اللباس العسكري. وأذكر أن الملازم أول جابر الصباح كان قائداً لسرية المراسم في المطار، حيث قدم حرس الشرف للضيف السلال. وحين مضت السيارات بأعضاء الوفد اليمني والفريق لؤي الأتاسي الذي استقبل المشير.. ظللت في المطار، فتأخرت عن اللحاق بهم قليلاً، كان وصول الوفد اليمني عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، وحين انتهت مراسم الاستقبال كانت الساعة قد أصبحت الواحدة ظهراً تقريباً. ذهب الوفد اليمني إلى قصر الضيافة. وتأخرت لأن الملازم أول جابر الصباح دعاني لكي أشرب القهوة معه في قاعة المطعم بالمطار، وهناك فوجئت بوجود فتاة متوسطة الجمال، سمراء اللون، صغيرة الحجم قدّمتها لي الملازم أول جابر الصباح، وقال: هذه غادة السمان، وهي كاتبة

وأديبة، إنها خطيبتي، لقد خطبتها. فضحكت كثيراً لأنني أعلم أن جابر الصباح لا يمكن أن يرتبط بأي فتاة من أجل الخطبة أو الزواج، لذلك قلت لغادة السمان: وهل صدّقت جابر الصباح؟ فقالت: ولماذا لا أصدقّه. فتجاوزتها، وقلت: إن شاء الله سيكون خيراً، وعليكما بإرسال دعوة لي لكي أحضر زفافكما. ثم سمعتها تقول لي: أنت محمد إبراهيم العلي.. الذي (صرعنا) وسائل الإعلام به خلال فترة الانفصال؟ قلت: نعم.

فعلق جابر الصباح: وهل أعجبك؟ فقالت: نعم!

قلت: ظلّيت مع جابر الصباح، إياك والاقتراب مني لأنني متزوج وضحكنا معاً. وقد جلست معهما حوالي ساعة. بعد ذلك غادرت المطار إلى قصر الضيافة، وهناك، تعرفت إلى أعضاء الوفد اليمني، وقضيت قسماً من السهرة مع بعضهم. وكنت مذهولاً ومندهبلاً لهذا اللباس اليمني التقليدي. وقد أحسست بأنهم فرحون بالثورة، وتظهر عليهم معالم الطيبة ولكن هذه الطيبة غير مطمئنة، وكوني أعرف البدو وسلوكهم، فالبدو مسالم في النهار، وذئب في الليل.. والبدو إيمانه قليل. وكونهم زعماء قبائل بدوية يمنية عدتُ بالذاكرة إلى أيام العثمانيين وكيف أن اليمن ظلّت عصيّة على العثمانيين. وأذكر أنه كانت أمام القصر مظاهرة جماهيرية زحفت إلى القصر تهتف ترحيباً بالمشير السلال، وتعلو الهتافات أيضاً (ناصر ناصر ناصر)، وأخرى تؤيد حزب البعث العربي الاشتراكي، وأتصور أن هذه الجماهير كانت تهتف في أول المظاهرات غير ما تهتف به في آخرها.. بل قد يكون مناقضاً لها هكذا كانت حال المظاهرات في دمشق، أولها في وادٍ وآخرها في وادٍ آخر. كان المشير عبد الله السلال متحمساً جداً لعبد الناصر، وقدرتُ أن عبد الناصر هو من أرسل هذا الوفد اليمني الكبير إلى سورية من أجل التهنئة بقيام الثورة الأمر الذي أدّى إلى إنزال أعضاء الوفد اليمني في فندق سميراميس لأن قصر الضيافة لم يستوعبهم جميعاً. وقد زار أعضاء هذا الوفد العديد من المدن السورية. وقد قدّمني الفريق لؤي الأتاسي إلى المشير عبد الله السلال. ومن الطريف أن

الكثير من أبناء سورية كانوا يتفرجون باندھاش على لباس اليمنيين التقليدي حين يمشون في الأسواق، وقد كان من ضمن الوفد اليمني عدد من الشعراء، وأعتقد أن الشاعر عبد الله البردوني كان من بينهم، وقد ألقى بعض قصائده مع غيره من الشعراء في شرفة قصر الضيافة المطلّة على الجماهير المحتشدة يحييون فيها الوحدة، والبعث العربي الاشتراكي، وعبد الناصر، ومصر، وثورة آذار. وأعتقد أنه جرى اتفاق ثنائي ما بين ثورة اليمن وثورة آذار في سورية من أجل أن تدعم إحداها الأخرى، وقد وجهت للعديد من قادة ثورة آذار دعوات لزيارة اليمن، وكنت من ضمن الذين وجهت الدعوة إليهم، وقد استخرجت جواز سفر من أجل أن أذهب إلى اليمن لكي أراها، لكن هذه السفرة لم تتم بسبب الظروف الصعبة التي مرّت بها الثورة، وأنا لليوم لم أزر اليمن السعيد. وقد استدعاني الفضول إلى أن أזור الطلبة اليمنيين في سورية، وحين اجتمعت بهم رحّلت أسألهم عن القبائل التي ينتمون إليها، وقد تعززت علاقتي معهم، وطلبت منهم أن يكتبوا لي معلومات كافية عن النظام القبلي والعشائري في اليمن، لكي أعرف العادات، والتقاليد، وأماكن التواجد، والأعراف التي يؤمنون بها، وبذلك أوضحت فضولي لكي أعرف اليمن. ولأنني في تلك الفترة، لم أحسب حساباً للمذكرات.. لم أحتفظ بتلك المعلومات المهمة التي جمعتها عن القبائل اليمنية، ومنذ ذلك اليوم، وحتى يومنا الراهن، أي بعد مرور أربعين عاماً، لازلت أذكر أن أحد شعراء اليمن عارض قصيدة أحمد شوقي التي ألّفها عن دمشق حين جاء إليها، والتي مطلعها:

جرى وصفق يلقانا بها بردى

وحين أراد الشاعر اليمني أن يلقي قصيدته في شرفة قصر الضيافة أصرّ على ارتداء اللباس اليمني التقليدي. وخلال إقامة المشير عبد الله السلال في قصر الضيافة، كنت أזור القصر كضابط في الحرس القومي، وكان المشير عبد الله السلال يرحب بي بعدما شعر أن الفريق لؤي الأتاسي يهتم بي كثيراً.

أعتقد أن زيارة الوفد اليمني الكبير إلى سورية في ذلك الوقت المبكر من عمر الثورة.. هي دعم للثورة من جهة، ودعم لسياسة عبد الناصر من جهة ثانية، هكذا فهمت تلك الزيارة ومغازيها آنذاك.

هوارى بومدين في دمشق..!!

وفي أواخر نيسان وأوائل أيار 1963، زار سورية وفد جزائري برئاسة وزير الدفاع هوارى بومدين، وقد كان معه عدد من الوزراء والضباط، وأنا الآن لا أذكر منهم أحداً، استقبل الوفد في مطار المزة العسكري استقبلاً شعبياً حاشداً، وقد خرج أهالي دمشق جميعاً لاستقبال أحد رموز الثورة الجزائرية هوارى بومدين، وذلك لأن استقلال الجزائر كان في بدايته، ولأن أهالي سورية جميعاً يعرفون الثورة الجزائرية، فالتبرعات، ومظاهرات التأييد للثورة الجزائرية كانت أشبه بالحدث اليومي في سورية، وأذكر أنني، وفي هذا السياق، قد أقيمت محاضرة حول الثورة الجزائرية وأنا طالب في الكلية الحربية عام 1958، وأذكر أيضاً أنني، وحين كنت صف ضابط أخدم على خط الجبهة الأممية قرب نهر الأردن، أقيمت محاضرة حول الثورة الجزائرية أيضاً على مسامع ضباط وأفراد السرية التي كنت أخدم فيها، كما أذكر أنني، في عام 1955، كنت رئيس لجنة التبرعات للثورة الجزائرية في السرية نفسها.. كما أذكر أنه كان معنا في الكلية الحربية العديد من طلاب الضباط الجزائريين في الكلية الحربية، وكنت على علاقة ممتازة معهم، وأذكر من هؤلاء طلاب الضباط: عبد الرزاق بوحارة، والعربي الحسن، وقد تسلم هؤلاء الطلاب الكثير من المناصب المهمة والحساسة في الجزائر.

هذا الوفد الذي استقبل استقبلاً رائعاً، كان حدثاً مهماً في حياة ثورة آذار، وكنت للمرة الأولى أرى هوارى بومدين، فسمعتة الطيبة سبقته إلى سورية، كان أشقر الشعر، أبيض البشرة، نحيل الجسد. وقد كانت الجماهير

مصطفة على جانبي الطريق من مطار المزة إلى قصر الضيافة، وهي تهتف لعبد الناصر، وللثورة الجزائرية، ولحزب البعث العربي الاشتراكي. وكما أذكر أن الفريق لؤي الأتاسي هو من استقبله في المطار، فقد استقبله كبطل ثورة، مخالفاً بذلك البروتوكول الرسمي. وحين هدأت الجماهير قليلاً. دخلت إلى قصر الضيافة، وذهبتُ إلى الصالون الذي يجلس فيه الفريق لؤي الأتاسي وهواري بومدين وأعضاء الوفد الجزائري، وقد قدمني الفريق لؤي الأتاسي لهواري بومدين، فرحب بي مبتسماً، وقال: لقد سمعت عنك الكثير خصوصاً قصة حكم إعدامك فشكرته. ولم يستمر الحوار بيني وبينه كثيراً لأنه مازال في أول قدومه. وقد اجتمع الوفد الجزائري مع أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، وغادر سورية بعد يومين، غادرها إلى بغداد لتقديم التهنئة للقيادة العراقية بنجاح ثورة 8 شباط 1963 كما أظن.

كان انطباعي عن هذه الزيارة للوفد الجزائري من خلال معرفتي بما يدور عن الثورة الجزائرية، ورئيسها أحمد بن بيللا، بأن هواري بومدين سينقض على أحمد بن بيللا ويأكله مثل الذئب، لأن من يرى وجه بومدين لا يقرأ فيه الطيبة والصفاء، على عكس ما يقرؤه في وجه أحمد بن بيللا. كانت مع الوفد الجزائري سعاد العبد الله التي كانت تُدرّس في ثانويات الجزائر، وقد قدمت لنا فكرة مبالغ فيها عن هواري بومدين، لقد مدحته كثيراً.. رحمة الله عليها وعليه. وما توقعته حدث بالفعل فقد انقض بومدين على أحمد بن بيللا وقام بانقلاب عليه، فتسلم مقاليد الحكم، وأودع أحمد بن بيللا السجن.



الفصل
الثالث عشر

أحداث كبرى .. تواجه الحزب!

عبد السلام عارف.. والحزب!

وقد رمم المجلس الوطني لقيادة الثورة، بعد انسحاب الناصريين، فدخل بعض الأعضاء الجدد، وأعتقد أن أمين الحافظ كان عضواً آنذاك في حزب البعث العربي الاشتراكي، ولكن بعض الناس يقولون إنه أقسم اليمين بعد أن رفع إلى رتبة فريق، ولكنني أعتقد أن أمين الحافظ كان عضواً في الحزب، لأنني شاهدته أكثر من مرة في المكتب (17) التابع للقيادة القطرية، وفي هذه الفترة شكل صلاح البيطار وزارة جديدة في 4 آب 1963، وعين فيها نور الدين الأتاسي وزيراً للداخلية، وقد ازداد عدد الوزراء في الوزارة الجديدة بعد أن أحدثت وزارات جديدة. وقد كان دور العراقيين واضحاً في الشد من إزر القيادة الحزبية في سورية، وقد التفتت القيادة القطرية في سورية نحو العراق بشكل كبير. وقد جرت اتصالات عديدة بين القيادة القطرية للحزب في سورية من جهة أمين الحافظ، والمشير عبد السلام عارف من العراق، وقد ذهب وفد سوري برئاسة صلاح البيطار رئيس الوزراء، ومعه الأستاذ ميشيل عفلق، وكذلك العقيد محمد عمران، وحمود الشوفي، وفهد الشاعر كأعضاء من المجلس الوطني لقيادة الثورة، كما كان من ضمن أعضاء الوفد الوزيران أحمد أبو صالح، والدكتور سامي الجندي.

وتدارسوا العلاقات بين القطرين الشقيقين، والأوضاع العربية، وما حصل بشأن ميثاق 17 نيسان 1963، وتدارسوا أيضاً الجو المشحون بالخلافات والحذر ما بين مصر وسورية وأكدوا على ضرورة التعاون ما بينهما، وقد صدر بيان مشترك بتاريخ 9/8/1963، بشر هذا البيان بإعلان وحدة عسكرية بين القطرين العراقي والسوري، وتشكيل مجلس دفاع أعلى، وتعيين الفريق الركن صالح مهدي عماش وزير الدفاع العراقي رئيساً للقوات المسلحة المشتركة، وأن يسير القطران باتجاه الوحدة مع الجزائر، واليمن، ومصر. وأن يكون البلدان

نواة ثورة قومية، وثم التأكيد على أن الوحدة العسكرية بين القطرين هي الكينونة الأولى والحاسمة للوحدة الشاملة بينهما. وكذلك في هذه الفترة، أي بعد شهر من 18 تموز 1963، ذهبت وحدة عسكرية إلى شمال الموصل وتمركزت هناك، وهذا شكل دعماً للقوات العراقية من أجل القضاء على قوات البرزاني، وأضيف إليها 150 عنصراً من قوات صلاح الدين العراقية، وكانت هذه الوحدة بقيادة العقيد فهد الشاعر، وأطلق عليها اسم قوات اليرموك. وقد سيطرت هذه الوحدة على المنطقة التي تواجدت فيها. وقد اتضح لنا أن القوات العراقية غير جادة في التخلص من قوات البرزاني، والعملية أولاً وأخيراً هي عملية دعاية وابتزاز. وقد حدث في هذه الفترة مظاهرات واضطرابات، وكانت الآراء تشكك في مصداقية صلاح البيطار لأنه وقع على وثيقة الانفصال، لذلك كلف أمين الحافظ بتشكيل الوزارة، بالإضافة إلى مهمته كرئيس للمجلس الوطني لقيادة الثورة.

وفي 12/11/1963 رفع العقيد محمد عمران إلى رتبة لواء، والمقدم صلاح جديد إلى رتبة لواء أيضاً وأسند إليه منصب رئيس هيئة الأركان العامة، وشكلت الوزارة بتاريخ 12/11/1963 برئاسة الفريق أمين الحافظ، وعين فيها اللواء محمد عمران نائباً لرئيس الوزراء.

وقبل تشكيل الوزارة في شهر تشرين الأول عقد المؤتمر القطري الأول للحزب في ثانوية أمية، وانتخبت قيادة قطرية جديدة. وقد اقترحت هذه القيادة ترفيع العقيد محمد عمران إلى رتبة لواء، والمقدم صلاح جديد إلى رتبة لواء أيضاً. ومن أعضاء هذه القيادة القطرية صلاح جديد، ومحمد عمران، وأمين الحافظ. في هذه الفترة كانت العلاقات تزداد متانة مع القطر العراقي، وكانت قوات اليرموك مازال في شمال العراق. وفي أواخر شهر تشرين الأول عام 1963 عقد المؤتمر القومي السادس للحزب، وشدد في توصياته على بناء النظام الاشتراكي المتين، وعلى قيام الديمقراطية المركزية، وقد انتخب المقدم حافظ الأسد عضواً في القيادة القومية المنبثقة عن هذا

المؤتمر، وقد كان غالبية أعضاء القيادة القومية من العراقيين. وقد شكل الأستاذ ميشيل عفلق منصب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي.

وفي أواخر عام 1963 وأوائل عام 1964 عقد المؤتمر القطري الأول الاستثنائي، وفيه تم اقتراح ترفيع المقدم حافظ الأسد إلى رتبة لواء وتعيينه قائداً للقوى الجوية في سورية. وفي هذه الفترة نقل العقيد حمد عبید من قيادة لواء العشائر إلى اللواء (72) في قطنا وتسلم قيادته، وعين بدلاً منه المقدم صلاح الضلي قائداً للواء العشائر.

ولابد لي هنا أن اذكر أنه في أواخر عام 1963، في شهر تشرين الثاني عصفت بالعراق أزمة بين الحزب ورئيس الدولة المشير عبد السلام عارف، وقد استغل عبد السلام عارف بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض أعضاء الحرس القومي في العراق، فقام الجيش العراقي، بأوامر من عبد السلام عارف بمداهمة مكاتب الحزب، ومقرات الحرس القومي.. الأمر الذي دعا القيادة في سورية أن تتوجه بكل ثقلها إلى بغداد، وعقد هناك على الفور اجتماع للقيادة القومية في مقر الحرس القومي برئاسة الأستاذ ميشيل عفلق الأمين العام للحزب، والفريق أمين الحافظ رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، واللواء صلاح جديد رئيس هيئة الأركان العامة، وبعد دراسة دقيقة وشاملة للأزمة، أصدرت القيادة القومية بياناً أوضح فيه بصراحة تامة أسباب الأزمة، ومن أبرز ما جاء في البيان اعتبار المؤتمر القطري المنعقد في بغداد بتاريخ 11 تشرين الثاني مؤتمراً غير شرعي، وحل القيادة المنبثقة عنه، وقرارات أخرى توحى بضبط القيادة القطرية للحزب في العراق، وأن القيادة القومية تجدد عزمها على تنفيذ مقررات المؤتمر القومي السادس، وقد صدر هذا البيان في 14 تشرين الثاني 1963. والحقيقة أن القيادة القطرية للحزب في العراق كانت في واد وعبد السلام عارف وجماعته في واد آخر، ومما أذكره هنا أن عبد السلام عارف لم يستقبل أمين الحافظ كرئيس للمجلس الوطني لقيادة الثورة في سورية لأنه اعتبره في مهمة حزبية، وليس في زيارة رسمية للعراق،

لهذا أقول بأن الحزب في بغداد كان في واد وعبد السلام عارف في واد آخر. وفي قناعتني أن عبد السلام عارف كان ناصرياً، وقد اتهمه الناس بأنه هو من شق الحزب في العراق، وأخذ معه أحمد حسن البكر وصادم حسين، وتغلى عن الآخرين. وقد حسم الجيش العراقي الأزمة لصالحه وصالح رئيس الدولة عبد السلام عارف.

وفي 18/11/1963، سمح عبد السلام عارف للرفاق الحزبيين بالسفر إلى دمشق، أي سمح لأمين الحافظ، وميشيل عفلق، وصلاح جديد بالعودة إلى دمشق، وأعتقد أنه دعاهم إلى تناول طعام الغداء قبل سفرهم. وهكذا انتهى حلم الوحدة العسكرية بين القطرين بعد أن ألغي ميثاق 17 نيسان 1963 بعد مؤامرة 18 تموز 1963.

بعد أن عاد أمين الحافظ إلى دمشق، عقد مؤتمراً صحفياً شرح فيه ملابسات الأزمة بين حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق ورئيس الدولة عبد السلام عارف. وخلال هذا المؤتمر امتدح أمين الحافظ عبد السلام عارف، ولم يتعرض له بأية انتقادات، بل وصفه بالشهامة، والرجولة، والصدق. لكن الحقيقة هي أن عبد السلام عارف حجم دور الحزب في العراق، كما حجم دور الحرس القومي، وأبعدهما عن المراكز الأساسية في الدولة. في إثر هذه الأزمة أعاد عبد السلام عارف قوات اليرموك من شمال العراق التي استقبلت في سورية استقبالاً حافلاً على اعتبار أنها قامت بدور قومي مشرف.

في هذه الأزمة كانت مشكلة تحويل مجرى نهر الأردن تتفاعل ما بين العرب والكيان الصهيوني، لذلك دعت الجامعة العربية القادة العرب إلى عقد مؤتمر للقمة، وكانت الدعوة موجهة من الرئيس عبد الناصر شخصياً، وقد عقد المؤتمر في القاهرة.

وهنا أودّ أن أعود إلى الوراء قليلاً، أذكر أنه عندما نقل العقيد حمد عبيد من لواء العشائر إلى اللواء (72) الموجود في قطنا، والمقدم صلاح الضلي

إلى لواء العشائر كقائد له، أصبحتُ قائداً عاماً للحرس القومي، وقد تُبِتُ في هذا المنصب بقرار من المجلس الوطني لقيادة الثورة، أي في أوائل عام 1964.

مشكلات مع الأخوان المسلمين...!!

وفي أوائل عام 1964، ظهرت مشكلات مع الإخوان المسلمين، وقد بدأت هذه المشكلات في مدينة بانياس التابعة لمحافظة اللاذقية في ذلك الوقت، وكان لا بد من أن تنتهي هذه المشكلات، فشكل المجلس الوطني لقيادة الثورة لجنة برئاسة وزير الداخلية الدكتور نور الدين الأتاسي وعضوية الدكتور إبراهيم ماخوس، وزير الصحة، ومحمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي، وقد ذهبنا إلى بانياس مساءً، كانت الأمطار غزيرة جداً، والوضع صعباً (وأنا أسجل هذا الكلام، أذكر الأزمة التي كانت الممثلة بين الحزب وعبد السلام عارف، وبعد أربعين سنة، والآن تُقصف بغداد في هذه الساعة 2003/3/26 الساعة الثامنة مساءً، تقصف من قبل القوات الأمريكية - البريطانية الغازية، والقتال يدور في كل مكان، وكل الحكومات العربية متخاذلة، والزعماء العرب لا يستطيعون فعل أي شيء، والعراق يحترق: ولكن، وكما جاء في القرآن الكريم، وخاب كل جبار عنيد، سواء من أميركا أو غير أميركا، وأخيراً لن تنتصر إلا الشعوب). فاجتمعنا فور وصولنا في بيت الأستاذ عبد الحليم خدام، وقد كان محافظاً لمدينة حماة آنذاك، وكان لا بد من حل تلك المشكلة المتمثلة في أن الإخوان المسلمين أضربوا، فأغلقوا الطرق والمدينة، وقد كانت قرى الفلاحين المحيطة بمدينة بانياس تريد القضاء عليهم. وقد اعتبرتها آنذاك فتنة قبلية ومذهبية يجب القضاء عليها فوراً. واستدعينا سرية من الجيش من مدينة اللاذقية بقيادة ملازم أول اسمه مورييس قدسية مع قوة من الحرس القومي بقيادة قائد الحرس القومي في اللاذقية، وقد أعطيت الأوامر للجميع أن يحلوا المشكلة بعنف، وبينما كانت المشكلة تحل خارج الاجتماع القائم في بيت الأستاذ عبد

الحليم خدام، كان النقاش يدور حول ضرورة استدعاء رجال الدين وزعماء العشائر من أجل حلّ المشكلة، وخلال فترة قصيرة، لم تتجاوز الساعة، تم حلّ المشكلة ليلاً بقوة السلاح، ففتحت الطرق وانتهت المشكلة. وحين عدت إلى الاجتماع رأيت أن النقاش يتجدد مرة ثانية، فقلت للحاضرين: لا داعي لرجال الدين ولا لزعماء العشائر، لقد أنهيت المشكلة، وإذا كنتم تريدون استدعاء هؤلاء من أجل أن يشربوا القهوة فأهلاً وسهلاً بهم. وقد قضينا الليل في بيت عبد الحليم خدام الذي كان موجوداً في المنزل، كنا قد مررنا بمدينة حماة وأخذناه معنا إلى مدينة بانياس. وفي الصباح الباكر، وبعد تناول طعام الإفطار تجولنا في المدينة التي كانت هادئة، والأسواق مشرعة الأبواب.. وكان المشكلة لم تكن أصلاً، وقد دعنا شعبة الحزب في بانياس إلى تناول طعام الغداء في نادي عمال النفط في المدينة، وقد ألقى خطابات كثيرة تشيد بدور القيادة الحزبية، والعمال، والمواطنين، بعدما انتهت مشكلة بانياس. وأذكر أن الدكتور نور الدين الأتاسي، والدكتور إبراهيم ماخوس ألقيا كلمتين بالحاضرين، وقد تحدثت أنا أيضاً للحاضرين وبقوة شديدة، بدوت عنيفاً جداً. وأنا أتكلم بقسوة بحق الحزبيين الذين لم يلتحقوا بالثورة، وخصوصاً البعثيين من جماعة أكرم الحوراني. وكان رأيي أن حل المشكلة من قبل المشايخ، وزعماء العشائر إنما يعني تجسيدهم لسلطة هؤلاء المشايخ وزعماء العشائر، ونحن في الحزب لا نريد تعزيز مثل هذه السلطة المذهبية والقبلية والعشائرية، فالحزب ضد المذهبية والعشائرية والقبلية أيضاً. وقد كان لكلمتي وقعها الطيب في نفوس الحاضرين.



الفصل
الرابع عشر

فلسطين.. في بيتي!

علافتي ب ياسر عرفات..!!

في بداية 1964 وصل إلى سورية من الخليج، أظنّ من الكويت، ياسر عرفات و خليل الوزير و خالد الحسن، وقد عرفني إليهم الأستاذ سليمان الخش، وكان يعمل في وزارة الثقافة، ثم أصبح فيما بعد وزيراً للثقافة، وكنت على علاقة طيبة مع سليمان الخش، وقد أطلعني على مجيئهم عبر الهاتف، وطلب مني أن أقوم، باعتباري قائداً للحرس القومي، بمساعدة هؤلاء الشباب فهم مناضلون فلسطينيون ولديهم الرغبة في تشكيل منظمة فلسطينية تقوم بأعمال فدائية داخل الأراضي المحتلة، ولأنتي ضابط مظلي وقائد للحرس القومي، وعندي الهاجس الوطني والقومي عقيدة وعمل، فقد رحبت بهم كثيراً، وكان أن اجتمعت بهم في اليوم التالي على طعام غداء، ومن دون سليمان الخش، وقد حضر هذا اللقاء النقيب موسى العلي، وكان مكان الغداء عندي في البيت. وأشارت عليهم أن يستأجروا بيتاً في مخيم اليرموك باعتباره تجمعاً للفلسطينيين، وبعد فترة وجيزة استأجرت لهم بيتاً في شارع الباكستان وهو عبارة عن شقة صغيرة، غدت فيما بعد مقراً للعمل الفدائي، ينام فيها بعض الفلسطينيين. وقد عرفت منهم أنهم اتفقوا على تشكيل منظمة فلسطينية واتفقوا على تسميتها ب (فتح) عندما كانوا في الكويت. ولم يكن لديهم نظام داخلي لهذه المنظمة، أي أنهم لم يضعوا هذا النظام بعد، وقد عرفوني في تلك الفترة بفاروق القدومي، وأبو علي إياد، ومحمود عباس، وهاني الحسن شقيق خالد الحسن، كانوا جميعاً في دمشق، في تلك الفترة. وقد أحدثتُ لهم مكتباً آخر في منطقة دمر، وقد كان هذا المكتب أحد مكاتب الحرس القومي، وكذلك أعطيتهم معسكراً للتدريب في منطقة دمر. وقد كنت على علاقة وطيدة بهم ألتقيهم كل يوم، حتى إن إحدى غرف قيادة الحرس القومي صارت مخصصة لهم، يجتمعون، وينامون فيها أيضاً. وعلى ما أذكر كان موسى العلي قد درّب

مجموعة صغيرة لهم من الفدائيين على رمي القنابل الدفاعية والهجومية، وقد أطلعت القيادة القطرية على هذا الأمر، وخاصة اللواء صلاح جديد رئيس هيئة الأركان العامة، وأمين الحافظ رئيس الدولة، وبعض الرفاق في القيادة القطرية.. فتحمسوا للعمل الفدائي، ولذلك أنشأنا معسكراً للتدريب في منطقة حرسنا، وأشرفت عليه شخصياً، وكان يضمّ شباناً وشابات من الفلسطينيين، وكان التدريب قاسياً، مثل الرمي على الدبابات بالقاذف /B2/، والتصويب بالمسدسات، والرمي على البندقية الآلية.

وخلال اجتماعي معهم كان النقاش يدور حول تسمية الجناح العسكري لمنظمة فتح، كانوا يرغبون بتسميتها بالصاعقة، لكنني قلت لهم هذه تسمية عسكرية بحتة، دعونا نسميها اسماً جديداً، لنقل العاصفة، وقد وافقوا على هذه التسمية، ومن ذلك اليوم أصبح الجناح العسكري لحركة (فتح) يُسمى بالعاصفة.

وأحدثتُ معسكراً آخر لتدريب الفلسطينيين في منطقة بيرود، كما أحدثتُ معسكراً آخر للتدريب، بعد فترة، في منطقة مصياف. وفي هذه الأثناء تشكّلت قيادة فلسطينية لمنظمة (فتح) على رأسها ياسر عرفات، وخليل الوزير، وخالد الحسن، وفاروق القدومي، وأبو علي إياد، ومحمود عباس الذي التحق بها متأخراً، وكان من الضباط الفلسطينيين الموجودين فيها النقيب يوسف عرابي، وكذلك يوجد شخص اسمه صيدم كان معهم أيضاً. أما النسق الثاني من المنظمة فكان يضمّ الكثير من الفلسطينيين.

عرفات.. والمئة ألف ليلة!

هنا أذكر أن مشكلة واجهتني، حين قررت القيادة الفلسطينية إرسال ياسر عرفات إلى فرنسا والجزائر لفتح مكاتبين للحركة هناك، ولكن لم تكن النقود متوفرة لتغطية نفقات سفره ذهاباً وإياباً، وهنا خطرت على بالي فكرة،

وقد كان الدولار آنذاك يساوي 3.5 ليرة سورية، فقلت لياسر عرفات ما رأيك أن أجلب لك 30 ألف دولار، أي ما يوازي 100.000 ليرة سورية. فسألني كيف ستأتي بهذا المبلغ؟! قلت: هات لي (100) اسم من أسماء الطلاب الفلسطينيين من المخيم، فجاء بمئة اسم فعلاً، وهنا، سجلت إيصالات بأسماء الطلاب بأن كل واحد منهم أخذ (1000) ليرة سورية مساعدة له من قيادة الحرس القومي. وأخذت هذه الإيصالات وسلمتُ المبلغ إلى ياسر عرفات. ففرح بالمبلغ الذي مكّنه من الذهاب إلى فرنسا والجزائر. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟! ما حدث هو أن بعض الطلاب كتبوا تقارير للمخابرات وقيادة الحزب قالوا فيه إن محمد إبراهيم العلي وقّعنا على إيصالات باستلام ألف ليرة سورية لكل واحد منّا، ولكنه لم يعطنا شيئاً. وهنا استدعاني اللواء صلاح جديد رئيس هيئة الأركان العامة، وسألني عن هذه المشكلة. فقلت له هذه مشكلة سرية خاصة. فقال: كيف؟! وهنا شرحتُ له الموضوع بالتفصيل، وأخبرته أن المبلغ قبضه ياسر عرفات وسافر به إلى فرنسا والجزائر. وكون القيادة القطرية قد تبنت ياسر عرفات وحركة فتح فقد طُوي الحديث حول هذه المشكلة. وقد كانت هذه أول مشكلة تواجهني في عملي مع الفلسطينيين وهم في بداية انطلاقتهم، من الناحية المالية، لأن محاسب الحرس القومي كانت لديه الإيصالات، وهو الذي دفع المبلغ لياسر عرفات. ولكن بيني وبين نفسي كنت مسروراً بهذا التصرف. أما ما يتعلق بالذخائر والأسلحة، والتدريب فقد قامت قيادة الحرس القومي بإعطاء الفلسطينيين كل ما طلبوه في تلك الأوقات. ويبدو أن حركة فتح بدأت تتوسع أنشطتها السياسية، فقد افتتح لها مكتب في الجزائر وتسلمه محمد أبو ميزر، وقد تبنت الثورة الجزائرية حركة فتح، وأعطتها صلاحيات واسعة في الجزائر، وقد كان محمد أبو ميزر وشقيقه محسن أبو ميزر من الرفاق البعثيين، وقد كان محسن يعمل في جريدة البعث. وقد كسبت حركة فتح بتعيين محمد أبو ميزر في الجزائر مندوباً لها ثقة القيادة السياسية، والقيادة القطرية في سورية، والحقيقة أن من تبنى حركة فتح في الجزائر هي سعاد العبد الله

التي كان لها سمعة طيبة في سورية. وكون محمد نبهان قد نُفي إلى الجزائر، فقد قام بمساعدة محمد أبو ميزر في العمل الفدائي والسياسي داخل الساحة الجزائرية.

وإذا ما أردتُ الحديث عن القضية الفلسطينية في تلك الفترة، فأقول إن الحماس طغى عليّ من أجل العمل بكل الإخلاص لتطوير الكوادر الفلسطينية وإعدادها، فلم أنظر إلى أخطاء وعثرات القيادة الفلسطينية آنذاك، لكنني كنت أشعر أن أكثرهم إخلاصاً وإيماناً بالثورة الفلسطينية هو خليل الوزير، وذلك لأنه ذو عقل تنظمي دقيق، وقليل الكلام، ومخلص جداً في العمل. كان متزوجاً حديثاً، ولم تكن زوجته في سورية، في ذلك الوقت، وقد جاء بها بعد مرور وقت لا بأس به، وأخذ لها شقة في منطقة ركن الدين، وماتزال هذه الشقة مسجلة باسم زوجته. وأنا هنا لا أريد أن أتحدث عن صفات قيادي حركة فتح. لكن أقول إن ياسر عرفات كان أكبرهم سناً، ويبدو أنه أكثرهم خبرة، وهو مهندس. كانوا جميعاً ينامون قليلاً، ما عدا خالد الحسن الذي كان ينام كثيراً. وكان أكثرهم قريباً مني خليل الوزير، لذلك أحدثتُ له مكتباً قريباً من مكنتي أي بجوار قيادة الحرس القومي كي لا أكلفه مشقة الذهاب والإياب. وقد تطورت العلاقات بيني وبين قيادة حركة فتح كثيراً، وكنتُ أوقعُ شهادات تخرج دورات العاصفة باسمي، وقد وزعتها على الخريجين أنا وياسر عرفات وخليل الوزير، وهذه الشهادات كانت تحمل اسم العاصفة، وفيها اسم الفدائي، ونوع الدورة التي خضع لها، والفترة التي تمت فيها.

زيارتي للجزائر!!

في تلك الأوقات، كان لي ارتباط وثيق مع الفلسطينيين حيث الدورات تعقد باستمرار، والتدريب يتم بشكل ممتاز، فجأة حصل انقلاب في الجزائر، فاستلم هواري بومدين قيادة الثورة الجزائرية، ونُحي أحمد بن بيللا، بعد أن

كان هوارى بومدين وزيراً للدفاع، وقد شجعنا سعاد العبد الله على أن نعترف بنظام بومدين فوراً، وكان أمين الحافظ ليس صاحب فكر في السياسة فاعترف فوراً بنظام بومدين، وقرروا في عيد الثورة الجزائرية إرسال وفد كبير يعبر عن تضامن سورية مع التوجه الجديد للثورة الجزائرية، وكان الوفد برئاسة الدكتور إبراهيم ماخوس نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، ومعه عدد من البعثيين. كان سفير الجزائر في سورية يقيم حفلة عشاء في نادي الشرق بمناسبة عيد الثورة (لا أذكر اسمه الآن)، وقد كنت مدعواً لحضور هذا العشاء الرسمي مع العديد من المسؤولين من رجال الدولة المدعوين أيضاً، ذهبت إلى العشاء باللباس المدني، وقد أخبرني السفير في أثناء هذه العشاء، بأنني مدعو إلى الجزائر، وعليّ أن أكون الآن في الجزائر (كنا آنذاك في 1/11/1964)، وقال لي إن وزير الدفاع حمد عبيد يبحث عني، لأن الدعوة مسلمة إليه. وذهبت بعد ساعة إلى وزير الدفاع في قيادة الأركان، فوجدت عنده ياسر عرفات، وكان قد جهّز لي جواز سفر، وأخبرني أن الجزائر لا تحتاج إلى (فيزا) من أجل دخولها، وأن الدعوة موجهة إليّ من وزارة الشباب في الجزائر، من قبل وزير الشباب عبد الكريم بن محمود الذي كان سفيراً للجزائر في سورية في بداية عام 1964، وقد كانت بطاقة الطائرة موجودة مع الجواز، وأخبرت أنه توجد طائرة من نوع (D.6) ستقلع من مطار المزة الساعة الثانية عشرة ليلاً إلى فرنسا، وعليّ أن أذهب بها إلى فرنسا، ومن فرنسا أخذ طائرة أخرى لكي أحضر احتفالات الثورة في صباح الغد. والحقيقة أنني لم آخذ معي حقيبة ثياب، إذا لم آخذ سوى حقيبة صغيرة فيها قميص، وأدوات حلاقة، وذهبت بهذه الطائرة التي لم يكن فيها سوى أربعة ركاب. كان سفيرنا في فرنسا آنذاك الدكتور سامي الجندي. وقد وجدت زوجته على الطائرة الذاهبة إلى فرنسا، وكانت تعرفني جيداً. فقلت لها: هذا فال حسن، فسامي سيقوم بكل الإجراءات في المطار لأنني لا أعرف اللغة الفرنسية، كانت مضيضة الطائرة أرمنية، سألتني ماذا أريد أن أتناول من المشروبات الكحولية؟! فقلت

لها: أنا لا أشرب إلا الماء، ولكن إن كان لديها شاي فلتأتني بكأس من الشاي. وأذكر أنني قبل السفر أخبرت اللواء حافظ الأسد قائد القوى الجوية بأني سأذهب إلى الجزائر، فقال: الله معك!

وصلتُ إلى فرنسا الساعة الثامنة صباحاً لأن الطائرة توقفت في مطار ميونخ على ما أعتقد، ولم ننزل من الطائرة في مطار ميونخ، في الصباح، وحين أصبحنا في فرنسا، وجدنا الدكتور سامي الجندي سفير سورية في فرنسا، قد جاء ليستقبل زوجته، وفوجئ برؤيتي وذهابي إلى الجزائر، ولكن للأسف وجدتُ أنني ممنوع من دخول فرنسا، هكذا قال لي السفير الدكتور سامي الجندي، فقلت له: أنا لا أريد الدخول إلى فرنسا. أنا جئتُ إلى هنا (ترانزيت) كي أذهب إلى الجزائر. وبقينا في المطار حوالي ساعة ونصف، ويبدو أن سامي الجندي قد سهّل الأمور، وحلّ المشكلة، وبذلك تابعت السير عبر سيارة السفير إلى مطار أورلي لكي أذهب من هناك إلى الجزائر كي أصل إلى مستقبلي دون مشكلات. وأذكر أنني وصلت إلى الجزائر في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان في استقبالني شخصان على باب الطائرة، نائب وزير الشباب ومعاون له، وقالوا لي إن العرض العسكري انتهى الآن فور وصولي. وقد أخذاني إلى فندق في وسط العاصمة له اسم فرنسي (لا أذكره الآن) وهو فندق من الدرجة الأولى، وكان ينزل فيه أغلب أعضاء الوفد السوري الذي كان برئاسة الدكتور إبراهيم ماخوس. بعد ساعة من وصولي إلى الفندق، زارني الوزير عبد الكريم بن محمود، وكنت قد ارتحتُ قليلاً. وأخذني معه إلى منزله، وتناولت معه طعام الغداء بحضور زوجته التي كانت تعرفني جيداً. وفي المساء زرت الدكتور إبراهيم ماخوس الذي كان ينزل في فندق الأوراسي، مع بعض أعضاء الوفد السوري. ومنهم سعاد العبد الله. وبعد أن تحدثنا لوقت قصير، عدتُ إلى الفندق الذي أنزلوني فيه. فحضر في المساء عبد الكريم بن محمود وصالح صوت العرب (واسمه الحقيقي صالح بو بنيدر) ومعهما شخص آخر من قيادة الثورة الجزائرية، وعرفهم الوزير عبد الكريم بن محمود عليّ. وذهبنا جميعاً

إلى مطعم في وسط مدينة الجزائر وتناولنا نحن الأربعة طعام العشاء. ولم أعد إلى الفندق إلا برفقتهم عند الساعة الثانية عشرة ليلاً. في صباح اليوم التالي، حضر الوزير عبد الكريم بن محمود إلى غرفتي، وقال لي إن الكولونيل هوارى بومدين رئيس الدولة يسلم عليك، ولكنه مشغول كثيراً، وهو يعتذر عن عدم استقباله لك، وقد كلف رئيس أركان الجيش الجزائري العقيد الطاهر الزبيري باستقبالك. والحقيقة لم تكن لدي أية مشكلة فيمن يستقبلني فالوزير عبد الكريم بن محمود الذي وجه إلي الدعوة من جهة ولأنني أعرفه جيداً في دمشق سابقاً من جهة ثانية وهذا الرجل معي على الدوام. حوالي الساعة العاشرة صباحاً، ذهبت برفقة وزير الشباب عبد الكريم بن محمود إلى رئاسة الأركان الجزائرية، وهناك استقبلني العقيد الطاهر الزبيري بكل الود والاحترام، ومن دون (كلفة) أو بروتوكولات، وكأنتني أعرفه منذ زمن بعيد، وقال لي: قبل وصولك حدثني بعض الضباط الجزائريين الذي كانوا يدرسون معك في الكلية الحربية في سورية، وفي مصر. وقالوا لي إنك كنت متحمساً جداً لثورة الجزائر، كما حدثني سعاد العبد الله عنك أيضاً. لذلك كان ترحيبه بي كبيراً. وقد غادر عبد الكريم بن محمود، وبقيت أنا عند رئيس الأركان. تحدث كثيراً عن الثورة الجزائرية، منذ البداية وحتى الوقت الذي كنا فيه، وقد أسفت لما حدث بين الثوار في الجزائر، أعني ما حدث بين هوارى بومدين وأحمد بن بيللا، ولكن هكذا هي أحوال وظروف الثورات في مختلف أنحاء العالم. ثم تحدثنا عن الثورة الفلسطينية، فحدثني الطاهر الزبيري عن أحمد الشقيري الذي كان رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

حين جلبت الأسلحة للفلسطينيين...!!

وقال لي الطاهر الزبيري: نحن سندعم الثورة الفلسطينية بالمعدات من الجزائر، وقد درسنا أوضاع الحرس القومي في سورية، وقد عرفنا عنك

الكثير، ودورك في التعاون مع الفلسطينيين، وقد قررنا أن نتعاون مع الحرس القومي في سورية كقناة لإيصال المعدات إلى الفلسطينيين، سنرسل المعدات باسم الحرس القومي لكي يقوم بتوزيعها على الفلسطينيين. وقال لي: لك أنت حرية التصرف. وإننا سنعدّ شحنة بكمية تقدر بـ 12 طناً من المعدات العسكرية مثل مسدسات شارلينغ إنكليزية رشاشة مع ذخيرتها، ومسدسات طاحونة بلجيكية، ومسدسات فرنسية مع ذخائرها أيضاً، وقنابل يدوية دفاعية وهجومية، وألغام مضادة للأفراد والآليات معاً، هذا العتاد تقدر حمولته بـ 12 طناً، سيصل إلى سورية بعد أن تعود إليها، وقد استدعيناك من سورية لمناقشة هذا الأمر معك مباشرة. وقد تحدثنا معك الآن كي لا تتفاجأ القيادة السورية. وسألني الطاهر الزبيري عن الطريقة المناسبة لإخبار القيادة السورية؟ أعجبني العقيد الطاهر الزبيدي، فقد كان وجه ممتلئاً بالطيبة والصدق، وفي صوته رنة الإخلاص والوطنية. كنت، وهو يتحدث إليّ، أنظر في عينيه، فأرى معاني الطيبة والصدق. وهنا سألته عن الطريقة التي سيتم بموجبها إرسال العتاد. فقال: بوساطة الجو، عبر الطائرات. ونحن لم نعلم أحداً من القيادة السورية بذلك سواك. فقلت له شاكراً وممتناً لهذه المبادرة الوطنية. وأخبرته أنني سأخبر القيادة السورية بهذا الأمر. وبعد أن انتهينا من هذا الموضوع، راح يحدثني عن ذكرياته حول الثورة الجزائرية. وفي نهاية المقابلة، وصل محمد أبو ميزر مندوب حركة فتح في الجزائر، وقد كنت أعرفه جيداً، ففرح بوجودي، وكنت قد التقيته في الليلة الماضية، كان برفقة سعاد العبد الله، التقيته في فندق الأوراسي. وفي أثناء وجود محمد أبو ميزر لم يتحدث الطاهر الزبيري حول العتاد الذي سيرسل إلى سورية من أجل تسليمه إلى القيادة الفلسطينية، وبعد حوالي ساعة ونصف من المقابلة، وصل إلى مقر رئاسة هيئة الأركان صالح بو بنيدر عضو قيادة مجلس الثورة الجزائري، وهو الرجل الثاني في الثورة بعد هوارى بو مدين. والكولونيل العباسي مدير الكلية الحربية في منطقة شرشال الواقع غربي مدينة الجزائر. وخرجنا نحن الأربعة العباسي،

وعبد الكريم بن محمود وصالح بو بنيدر، وأنا، وكان يقود السيارة صالح بو بنيدر، وقد ذهبنا إلى شرشال حيث تقع الكلية الحربية، كانت الإذاعة الجزائرية تذيع باللغة الفرنسية. ودخلنا إلى الكلية، وشاهدت أقسامها برفقة الكولونيل العباسي الذي راح يشرح لي عن مناهج التدريس في الكلية، وأقسامها، وعدد المنتسبين إليها من الضباط الجزائريين. وقد تناولنا الغداء في الكلية، وعلى طريقة البدو البدائية، حيث جاؤوا بعدة خراف، شكوها بالسياخ، فراحوا يشوونها على النار، وعندئذ يقوم أي واحد منها، ويأخذ سكيناً وصحناً ويقطع قطعة اللحم التي يريدها ويأكلها. وكان موقع الغداء في الطبيعة المحيطة بالكلية وهي طبيعة جميلة جداً. في تلك الأثناء كنت معجباً ومفتوناً بالثورة الجزائرية، ومعجباً بالطبيعة الخلابة التي تطل على البحر. ففي الجزائر تتداخل الجبال، والسهول بطبيعتها الساحرة مع البحر. وقد ذهب الخيال بي إلى أيام كنت فيها صف ضابط وأقدم على خط الجبهة قرب نهر الأردن. آنذاك، رحت أقصّ صور قادة الثورة الجزائرية، مثل جميلة بوحيرد، وهواري بومدين، وأحمد بن بيللا، وعدد آخر من المناضلين الجزائريين، لكنهم اليوم هم أمامي. كانت فرحتي بهم كبيرة. وعند انتهاء الطعام، عدت برفقتهم وزرنا مدرسة لبنات الشهداء الجزائريين، وأخرى لأبناء الشهداء برفقة صالح بو بنيدر وعبد الكريم بن محمود. وقد قدم لنا مدراء تلك المدارس عرضاً مفصلاً عن طبيعة هذه المدارس، والمناهج التي تدرس فيها، كما قد قدموا لي هدايا تذكارية منها خريطة للجزائر.. وأنا الآن لا أدري أين صار مصير تلك الخريطة التي أعزب بها. لكن المعاني والمشاعر لاتزال مزروعة في خاطري. وقد وصلنا إلى الجزائر عند الغروب تقريباً. وقد ذهبت بمفردي إلى فندق الأوراسي، والتقيت بنائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الدكتور إبراهيم ماخوس رئيس الوفد السوري، كما التقيت بسعاد العبد الله. وكان لدى نائب رئيس الوزراء برنامج لكي يزوروا بعض المناطق، والأمكنة، والمواقع الجزائرية. فطلبت من إبراهيم ماخوس أن أرافقهم في هذه الزيارة، فرحب الرجل، وذهبت

مع سعاد العبد الله إلى منزلها في الجزائر العاصمة، وهناك التقيت به محمد نبهان زوج أختها دعد العبد الله الذي نُفي إلى الجزائر بعد أحداث ومحاكمات 18 تموز 1963، وكانت سعاد العبد الله تسكن في بيت واحد مع محمد نبهان وأختها فاطمة العبد الله التي تعمل صيدلانية في الجزائر، وقد كانت زوجة محمد نبهان دعد العبد الله في سورية آنذاك. وبعد فترة قصيرة وصل إلى المنزل محمد أبو ميزر ممثل حركة فتح في الجزائر. تحدثنا كثيراً عن الثورة الجزائرية، والحياة الجزائرية، ومن خلال مجرى الحديث أحسست أن محمد أبو ميزر هو خطيب فاطمة العبد الله، وقد تناولت طعام العشاء في بيت سعاد العبد الله، وسهرت مع المجموعة حتى وقت متأخر من الليل. وأودّ أن أذكر هنا أن لقائي بمحمد نبهان كان ودوداً، وقد وعدته بأن أبذل جهداً كبيراً لكي يعود إلى دمشق، وقد كانت هذه هي رغبته، كي لا يظلّ وقتاً أطول في الجزائر. وفي منتصف الليل تقريباً، وصل عبد الكريم بن محمود وزير الشباب إلى بيت سعاد العبد الله. ولم يبق طويلاً، فأخذني إلى الفندق، وقد اتفقت معه أن ألتحق بالوفد السوري صباحاً لكي نتعرف على مناطق عديدة من الجزائر. وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى فندق الأوراسي، وقد تحركت بنا السيارات في الساعة العاشرة صباحاً، باتجاه مدينة قسنطينة، كان يرافقنا ضباط من الجيش الجزائري، وقد ركبت في السيارة الأولى وهي من نوع سيتروين، ركبت بجانب السائق، وفي المقعد الخلفي جلس إبراهيم ماخوس وسعاد العبد الله، وبقية أعضاء الوفد ركبوا في سيارات بيجو 404، كنا في خمس سيارات، ومعنا سيارة مرافقة، وصلنا إلى مدينة اصطيف حوالي الساعة الواحدة والنصف، وتناولنا طعام الغداء فيها، وقد شرحوا لنا المعارك التي كانت تدور بين الجزائريين والفرنسيين هناك، ومدينة اصطيف هي مدينة وزير الشباب عبد الكريم بن محمود. بعد الغداء تابعنا سيرنا إلى مدينة قسنطينة وهي المدينة الثانية بعد الجزائر العاصمة من حيث الاتساع والمساحة وعدد السكان، وقد كانت مدينة واقعة بين جبلين، وفيها جسور عديدة، والمرء إن كان شارداً قد

يدوخ. وقد قطعنا الجسر مشياً عن الأقدام ونحن نشاهد المناظر الخلابة للمدينة، وقد جرى لنا استقبال شعبي كبير، وقد ألقى إبراهيم ماخوس كلمة بالجماهير، ثم تحدث سكرتير الثورة الجزائرية السيد شريف مساعدي، شرح فيها دور سورية في دعم الثورة الجزائرية، وقد كان الدكتور إبراهيم ماخوس هو الطبيب الذي سافر مع الدكتور نور الدين الأتاسي والدكتور يوسف زعين إلى الجزائر في أثناء ثورتها، وقاموا بمعالجة جرحى الثورة. وقد قمت بمفردتي، وأمكنتها العامة. أذكر أن الناس كانوا في حالة ضيق اقتصادي، وأن الكثير منهم كانوا فقراء. طبعاً أعطى مرافقونا فكرة جميلة عن مدينة قسنطينة، وإن اسمها يعود إلى أكثر من أربعمئة سنة، وهي تعود إلى أيام البيزنطيين، ومدينة القسطنطينية تحديداً. وقد كان يرافقنا في هذه الزيارة شريف مساعدي، وقد نمنا في المدينة ليلتين متتاليتين. وفي اليوم الثالث سافرنا إلى مدينة بطنة على حدود جبال الأوراس، وهناك زرنا آثاراً قديمة تعود إلى الحضارة البربرية، وكان الرجل الذي يشرح لنا عن الآثار لا يميز بين الحضارة البربرية والحضارة العربية، وقد كانت سعاد العبد الله تشرح الكثير عن هذه الآثار فبدت وكأنها هي الدليل، لا الرجل الذي يشرح لنا، وحدثونا عن كثرة المعارك التي دارت في هذه المدينة بين الجزائريين والفرنسيين، وكان انطباعي أن هذه المدينة فقيرة، وقد نمنا فيها ليلة.

امرأة.. في المفبرة الجزائرية!

في اليوم التالي وبعد تناول طعام الإفطار مباشرة، ذهبنا إلى جبال الأوراس، وفي الطريق، وقفنا عند قرية كبيرة (نسيت اسمها) ثم صعدنا أحد الجبال وكان عالياً من أجل أن نزور مقبرة للشهداء، ومنها قبر بو العيد أحد قادة الثورة الجزائريين الأوائل، وقد استشهد في إحدى المعارك التي دارت في تلك المنطقة، وقد كان قبره غير مميز عن القبور الأخرى. لم نشاهد أحداً في

المقبرة سوى امرأة عجوز. يبدو أنها فقدت عقلها. وبينما كنا نقرأ الفاتحة على الشهداء، وصلت إلينا، وضربت على قبر بو العيد بحذائها، وقد شرح لنا المرافق، أن أولادها الأربعة قتلوا بأوامر من بو العيد، وذلك لأن نضراً من إحدى القرى وشوا بالثوار الذين يقودهم بو العيد، لدى الفرنسيين الذين قتلوا من الثوار عدداً كبيراً، لذلك جمع بو العيد سكان القرية وطلب منهم أن يعلموه بمن وشى به وبرفاقه الثوار، غير أن الأهالي لم يخبروه بالواشين، لذلك هدد القرية بالموت.. وحين لم يصل إلى نتيجة، أمر بقتل العديد من أبناء القرية كي لا تنتشر لوثة الجاسوسية في المناطق الجزائرية، وكي لا يصير التعامل مع الفرنسيين حالة طبيعية. ويبدو أن أولاد تلك العجوز كانوا من بين أبناء القرية الذين قتلوا! وأن هذه العجوز تنام في القرية، ثم وعند الصباح تأتي إلى المقبرة لكي تشتم بو العيد وتدوس قبره! [بعد سنوات عديدة زرت مدينة قازان عاصمة دولة تتارية إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، زرت قرية كان لينين يدرس فيها، وهذه الجمهورية إسلامية، فكانت هناك عجوز تقف قريبة من منطقة آثار كنا نزورها، رأيته تهرز رأسها وتشتم أجداد لينين، فسألته لماذا تشتم لينين وأجداده، وأنا أعرف بعض الكلمات الروسية فقالت لأن لينين قتل أجدادها. في تلك المقبرة الجزائرية تذكرت تلك المرأة التتارية وأنا أرى العجوز الجزائرية تقوم بالدور نفسها] بعد ذلك توجهنا إلى مدينة بسكرة في الصحراء الجزائرية الموجودة في عمق الصحراء. وهناك نمنا ليلة واحدة في مدينة بسكرة. حدثونا عن البربر في تلك المنطقة، وفي الصباح الباكر تابعنا سيرنا في الصحراء حتى وصلنا إلى سيدي عقبة بن نافع المدفون في بوابة الصحراء الجزائرية. وهي قرية صغيرة تسمى بـ (سيدي عقبة) أبنيته من الطين المجلول بالقش، وسقفها من سعف النخيل، وفيها واحة صغيرة ممتلئة بأشجار النخيل، وقد رأيت قطعاناً من الجمال، وأخرى من الماعز. كان قبر سيدي عقبة أشبه بقبور الولاية الصالحين، أي أنه كان مزاراً، له مقام صغير مغطى بقماش أخضر، تعلوها قبة، الآن، أقول مسكين عقبة بن نافع

هذا البطل الإسلامي الشهير والكبير يقبع هنا في هذا المكان الصغير... هذا الفاتح الكبير موجود في هذا الحيز الصغير! وفي مقدمة المقام توجد لوحة كتب عليها نبذة عن عقبة بن نافع، وقد نمنا في قرية سيدي عقبة تلك الليلة، وفي الصباح الباكر عدنا إلى الجزائر عن طريق آخر، بعد أن قطعنا مسافة تقدر بـ 800 كم، وقد لقيت الوزير عبد الكريم بن محمود بانتظاري في الفندق. وقد ذهبت معه إلى بيته وتناولت الطعام عنده. وفي اليوم التالي أخذني جولة في حي القصبة الجزائري، وبعض ساحات الجزائر. وهناك أهداني عبد الكريم بن محمود عباية (برنس) جزائرية، أذكر أنني زرت معه بعض المنشآت الجزائرية أيضاً.

العودة إلى باريس..!!

عند الساعة الحادية عشرة ظهراً ذهبت إلى المطار وكان في وداعي الوزير عبد الكريم بن محمود بعد ساعتين ووصلت إلى مطار أورلي في باريس ولم أكن أعرف اللغة الفرنسية، ومع أنني لم أتعذب في إجراءات معاملة السفر في المطار، إلا أنني لم أجد أحداً في استقبالي، لا السفير السوري، ولا أحد من السفارة، ويبدو أن البرقية التي أرسلتها إلى السفير لكي أعلمه بموعد سفري لم تصل إلى السفارة لأن يوم وصولي كان يوم أحد، وهو عطلة رسمية في فرنسا، فتذكرت قصة (البدوي في باريس) ووقفت في باب المطار، وأنا أفكر بطريقة أفهم بها السائق بأنني أريد الذهاب إلى السفارة السورية، وبينما أنا في هذا الموقف المربك، وإذا بشخص يربت على كتفي، فالتفت إليه، وإذا به الباهي محمد من المغرب، وقد كان مسؤولاً عن تحرير جريدة البعث في سورية. وقد كان ذاهباً إلى المغرب. فسررت بهذه المفاجأة، وقلت له: جئت في وقتك تماماً، قال: أنا مسافر إلى المغرب. فقلت له: دعك من السفر الآن، وتعال معي إلى السفارة السورية، أرشدني إليها، وبعدئذٍ سافر إلى أي مكان

تشاء، بالفعل أخذنا سيارة إلى السفارة، وحين وصلنا، وجدنا السفارة مغلقة، لكن الباهي محمد كان يعرف بيت السفير الدكتور سامي الجندي، فذهبنا إليه. وعندما وصلنا إلى البيت رحّب بنا سامي الجندي، وكون سامي الجندي يكتب الرواية، طلبت منه أن يكتب لنا رواية عنوانها (البدوي في باريس)، فضحك طويلاً، ثم أعاد الباهي محمد إلى المطار لكي يواصل سفره إلى المغرب. بعد ذلك أخذني سامي الجندي إلى فندق (نسيت اسمه الآن)، وأنا لا أعرف ما هي أهمية هذا الفندق، الذي كانت تشرف عليه امرأة، كان الفندق أشبه بالبائسيون، لأنه صغير.

لغائري، كمال ناصر في باريس..!

بعد أن استرحت فيه قليلاً، خرجت إلى الشارع لكي أتفرج على حركة الناس، فذهبت إلى مقهى قريب من الفندق، وجلست فيه، وقد كنت أسمع أصواتاً بالعربية، وتعرفت إلى أشخاص من سورية يعيشون في باريس، وقد وزعت عليهم بطاقات التعريف بالفندق التي أعطتني إياها صاحبة الفندق. وبينما أنا جالس، جاء الشاعر الفلسطيني كمال ناصر، وكنت أعرفه جيداً في دمشق، لأننا كنا نغده شاعر البعث، وشاعر فلسطين، فأخذني من المقهى مباشرة لكي يطلعني على معالم باريس، وشوارعها، وأمكنتها العامة، وراح يشرح لي عن باريس وأهلها. وقد أخبرته أنني على موعد مع السفير الدكتور سامي الجندي، وعليّ أن أعود إلى الفندق فسألني أين هو الفندق فقلت لا أدري. قال: وما اسمه. قلت: لا أدري أيضاً. كل ما أعرفه أن شكله كذا وكذا فضحك.

بحثنا عن الفندق، ولكننا لم نعرف مكانه، والبطاقات التي أعطتني إياها صاحبة الفندق وزعتها جميعاً على الناس في المقهى، وراح كمال ناصر يشتم لأن الناس لم يتعاونوا معنا لكي نعرف مكان الفندق، وما كان أمامنا إلا أن

ندخل إلى أحد الفنادق لنسأل عن الفندق الذي أسكن فيه، ورحت أوصف مكان الفندق وشكله من الخارج للفتاة الموجودة في الفندق، كمال ناصر كان يتحدث اللغة الإنكليزية، وأخيراً عرفت الفتاة الفندق فأرشدتنا إليه، ولم يكن بعيداً عنا. في الطريق إليه كان كمال ناصر يحدثني عن فلسطين ويلعن أجداد أجداد الصهاينة. وقد خرجت الفتاة معنا إلى أول الشارع لكي ترشدنا إلى مكان الفندق الذي سكنت فيه، وأخيراً فاجأتنا بأنها تتحدث العربية، حين قالت: يا أستاذ كمال ناصر.. فلسطين لا تعود بالشتائم على اليهود والصهاينة، فصعق كمال ناصر من هذا الموقف، ومن معرفتها باللغة العربية، وقالت له: لا تجتهد كثيراً لكي تعرف كيف أعرف اللغة العربية.. فأنا تونسية! فقال كمال ناصر.. طبعاً أنت تونسية يهودية، فقالت له: نعم أنا يهودية! ومع ذلك التفت إليها، وقلت لها: شكراً لأنك أرشدتنا إلى الفندق. وذهبنا إلى الفندق، وجاء السفير سامي الجندي فوجد كمال ناصر عندي. لكن كمال ناصر لم يبق طويلاً عندنا، وبينما هو يمضي أوصاني ألا أتوه عن الفندق مرة أخرى، فقلت له: إنني سأقضي فيه بعض الوقت من هذه الليلة فقط، وفي آخر الليل سأسافر إلى دمشق.

ودعاني سامي الجندي إلى طعام العشاء في مطعم أسباني، وقبل ذلك. وبينما أنا في السفارة، التقيت بزياد الحريري في السفارة السورية، التقيته عند سامي الجندي حين جاء إلى السفارة باعتباره سفيراً متجولاً، وقد رحّب بي كثيراً، وكان ودوداً. وفي نهاية العشاء غادرت باريس إلى مطار (بوجيه) وكان موعد الطائرة السورية المغادرة إلى دمشق هو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وهكذا عدت ليلاً إلى دمشق، كان الطقس سيئاً لأن الطائرة ومنذ إقلاعها كانت في حالة ارتباك، وكنا نحن في حالة حذر وقلق والأحزمة التي ربطناها لم نفكها إلا في دمشق، وقد ذهبت الطائرة قبل وصولها إلى دمشق، إلى مطار ميونخ، ثم إلى مطار لارنكا في قبرص، ولم تغادر الطائرة إلا في الساعة الثامنة صباحاً حين وصلت إلى مطار المزة. وقد ذهبت إلى منزلي

فوراً، كنت قد اشتريت منزلاً في منطقة الروضة من أموال (السلفة العسكرية)، وفي البيت نمت قليلاً، ثم ذهبت إلى مقر القيادة في الساعة الواحدة ظهراً، كان مكتبي لا يزال في منطقة الروضة، وبعد وصولي إلى المكتب ارتحت قليلاً، واتصلت باللواء حافظ الأسد، وقد كان مكتبه في شارع بغداد، فطلب مني أن أزوره. فذهبت إليه وحدثته عن رحلتي إلى الجزائر، وأخبرته عن العتاد الذي تنوي القيادة الجزائرية إرساله إلى قيادة الحرس القومي من أجل تسليمه إلى القيادة الفلسطينية، فقال لي لا تتحدث لأحد عن هذا الأمر حتى يصل العتاد. وفعلاً لم أخبر أحداً من القيادة السورية بموضوع العتاد سوى اللواء حافظ الأسد قائد القوى الجوية.

وفي اليوم التالي، وبينما أنا في مكتبي اتصل بي مدير مطار المزة (ولا أذكر اسمه الآن) وقد كان مطار المزة مطاراً عسكرياً ومدنياً، وأخبرني أنه توجد طائرتان دخلتا المجال الجوي السوري، وأحد قادة الطائرتين يطلبني شخصياً، فأخبرت اللواء حافظ الأسد بالموضوع، فقال لي: اذهب إلى المطار، واستقبل الوفد القادم على متن الطائرتين. فذهبت فوراً. وقد هبطت الطائرة الأولى في حوالي الساعة الثانية والنصف، تبعها بعد ربع ساعة الطائرة الثانية، ولم يكن في الطائرتين، وهما من طراز انطونوف. المخصصة للشحن، سوى طواقم الطيران، وقد أفرغنا الحمولة في السيارات زيل 157، وقد أمر اللواء حافظ الأسد بتزويد الطائرتين بالوقود بعد أن طلب قائد المطار إذناً بتزويد الطائرتين بالوقود. وقمتُ بإعداد مأدبة غداء لطاقم الطائرتين، وبعد الانتهاء.. غادرت الطائرتان عائدتين للجزائر. وكما كان الاتفاق، فإن هذه الحمولة سلمت إلى مستودعات الحرس القومي، ثم نقلت فيما بعد، وخلال أسبوع، إلى مكاتب ومستودعات حركة فتح، وقد نقلتها بنفسني، وبداخل سيارتي، وقد حملت قسماً من هذه العتاد إلى مخيم اليرموك، وقسماً آخر إلى بيت خليل الوزير، وقسماً ثالثاً إلى معسكر يقع في غوطة دمشق. كل هذه الأسلحة التي وصلت هي ما اتفقت عليه مع رئيس الأركان الجزائري العقيد

الطاهر الزبيري . وقد سلمت هذا العتاد إلى ياسر عرفات و خليل الوزير شخصياً . وعلى ما أذكر أن سليمان حداد أخذ بعض المسدسات الرشاشة من هذا العتاد ، حين كان لا يزال قائداً للسرية 215 . وهكذا انتهت رحلتي إلى الجزائر .





الفصل الخامس عشر

فرق وجهات.. داخل الحزب!

البعثيون في وزارة البيطار...!!

لنعد مرة أخرى إلى وزارة صلاح البيطار التي تشكلت بعد 18 تموز 1963 في 4 آب 1963 واستمرت إلى 12 تشرين الثاني 1963، بالمرسوم /781/ تاريخ 1963/8/4 ونشرت أسماء الوزارة في الجريدة للجمهورية العربية السورية العدد (53) 1963، ومما لفت نظري في تشكيل الوزارة أن عدد البعثيين هو أقل من النصف، وقد استمر الدكتور سامي الجندي في هذه الوزارة وزيراً للإعلام، كما كان منصور الأطرش وأحمد أبو صالح وإبراهيم ماخوس وشبلي العيسى أعضاء القيادة القطرية أصبحوا وزراء في هذه الوزارة. كان صلاح جديد رئيساً لهيئة الأركان في الجيش، وكلف العميد أركان حرب عبد الله زيادة بمهام وزير الدفاع إضافة إلى عمله في وزارة الدفاع. في خلال فترة هذه الوزارة عقد المؤتمر القطري الأول في النصف الأول من شهر تشرين الأول 1963، في ثانوية أمية، وقد صدرت عقب انتهاء أعمال هذا المؤتمر قرارات عديدة، ولكون تجربة الحزب في الحكم جديدة فقد تعذر تنفيذ هذه القرارات، وخاصة ما يتعلق منها بعلاقة الحزب بالحكم، وعلاقة الحزب بالعمل الوحدوي. وكما أذكر، فقد جرى تشكيل لجان انبثقت عن المؤتمر تتعلق بالتحويل الاشتراكي، والإصلاح الزراعي، وقانون الإصلاح الزراعي، فشكلت لجنة برئاسة العقيد محمد عمران من أجل صياغة قانون العلاقات الزراعية، وكان وزير الإصلاح الزراعي شبلي العيسى، والدكتور عادل طربين وزير الزراعة، والدكتور جورج طعمة وزير الاقتصاد، ومحمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي أعضاء في هذه اللجنة، وأضيف إليها لاحقاً عدد من المستشارين في الشؤون الزراعية. وإذا ما تساءلنا لماذا كان العقيد محمد عمران رئيساً لهذه اللجنة، فالإجابة هي أنه كان عضواً في المجلس الوطني لقيادة الثورة، وقائداً للواء السبعين. وحين انعقدت اجتماعات هذه اللجنة.. كان الحوار يدور حول قانون الإصلاح

الزراعي، وكنت أعول على هذا القانون كثيراً كي لا يعود الإقطاع مرة أخرى إلى سورية. كنت مقتنعاً أن أي قانون يوضع في تلك الفترة سيخضع للتعديل لاحقاً. وأذكر أنني كنت متشدداً في وضع عبارات وصيغ متشددة لصالح الفلاحين، وكان يتضامن معي في ذلك العقيد محمد عمران، وكما قلت كنت أتخوف من التعديلات التي ستطرأ على هذا القانون، وأتخوف من إلغائه أيضاً. وإذا ما أُلغي بعد سنوات يكون الجيل الذي نفذ في وقتهم.. يكون أفرادهم قد ماتوا. وهكذا وبعد مرور أربعين سنة من عمر الثورة، أقول جرت عليه تعديلات كثيرة لكنه لم يُلغ، والآن بتُّ مقتنعاً بأنه سيلغى ربما في السنوات العشر القادمة. وقد أخذت تلك النقاشات وقتاً طويلاً حتى توصلنا إلى دراسة شاملة عن الإصلاح الزراعي، أخذها المستشارون من أجل أن يصاغ قانون الإصلاح الزراعي بموجبها. كانت هناك الكثير من الأفكار والنظريات حول الإصلاح الزراعي والتعامل مع الإقطاعيات.. فاستفدنا من تجربة الإقطاع والفلاحين لدى الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وتجربة يوغوسلافيا، وأخذنا بالاعتبار قانون العلاقات الزراعية الذي وجد في أثناء حكم الوحدة أيام عبد الناصر، كانت عواطف محمد عمران مع الناصريين. لذلك كان ميالاً للأخذ بالعلاقات التي نظمت شؤون الزراعة في مصر.

نكثنا الحزب.. في سورية!

في تلك الفترة جرت اتصالات كثيرة بين الجهات الحزبية والسياسية داخل سورية، وكان لي شخصياً اتصالات مع مختلف الاتجاهات السياسية المنشقة عن حزب البعث العربي الاشتراكي. كانت لي صلات مع مجموعة أكرم الحوراني في حماة، وهذه المجموعة كانت داخل الحزب وانشقت عنه، وكان لي صلات مع مجموعة الناصريين على اختلاف اتجاهاتهم ورؤاهم، كما لي صلات مع القطريين من الديريين بالإضافة إلى سليمان الخش، ومنير العبد

الله. هذه الاتصالات جعلت لي سمعة طيبة في كل الأوساط. كان لي اتصال مع زعماء العشائر البدوية في سورية، واتصالات مع رجال مشايخ الدين على اختلاف زواياهم ومشاربهم ومذاهبهم، وهكذا عززت علاقاتي مع المجتمع بكامله. كان الناصريون يعتبرونني ناصرياً، والمشايخ يعدونني متديناً، وزعماء العشائر يعدونني منهم أيضاً، وأنا في الحقيقة كنت كل هذا وذلك لأنني مؤمن بالجماهير، وكنت أتمنى أن يلتقي عبد الناصر مع البعث، غير أنني كنت صامتاً في هذا الاتجاه أراقب ما يحدث، وأتفحص الأفكار والآراء والنفوس وما يصدر عنها حول الوحدة العربية. كان السياسيون يعتبرونني وسيطاً متحمساً في علاقاتي بين الجميع، وقد كانت لدي الرغبة كاملة في اجتماع الجميع لصالح الوطن، كما كنت حريصاً على أن أكون بعيداً عن التشردم مع أي طرف من الأطراف، وخائفاً من الانزلاق في مستنقع التشردم. ورغم هذه الخفية التي أشرحها الآن، فقد كنت عضواً في المؤتمر القطري الأول، ولأنني تحدثت كثيراً فيه بسبب قلة عدد أعضاء هذا المؤتمر، فقد كانوا يحبونني جميعاً، وقد خشي صلاح جديد وتخوف من أن أرشح نفسي لعضوية القيادة القطرية، لذلك جاء وجلس إلى جانبي، وقد كنت أجلس في آخر الصفوف. وقال لي: لا داعي لكي ترشح لعضوية القيادة القطرية. ولكن رشح نفسك كعضو متمم للقيادة القومية. فوافقت على رأيه، وقلت له: لا أريد الترشح للقيادة القطرية ولا للقيادة القومية. فقال: لا، لي رغبة أن ترشح للقيادة القومية. وقد تشكلت القيادة القطرية من أحمد أبو صالح، ومنصور الأطرش، وشبلي العيسمي، وإبراهيم ماخوس، ومحمد عمران، وصلاح جديد، وصلاح البيطار، وأمين الحافظ، وسامي الجندي.. وآخرين.

حافظ الأسد.. عضواً في القيادة القومية!

وبعد فترة قليلة عقد المؤتمر القومي السادس، وكان أن انتخب لعضوية

القيادة القومية حافظ الأسد، ومحمد إبراهيم العلي وآخرون كأعضاء متممين في عضوية المؤتمر القومي السادس. في أثناء هذا النقاش داخل المؤتمر القومي تحدثت طويلاً عن وجهة نظري في الوحدة، فقدمت عرضاً حول الأشكال والأنماط الوحدوية في العالم، وأخذت مثلاً الاتحاد اليوغسلافي، والاتحاد الماليزي، والاتحاد السوفييتي، ووقفت طويلاً عند الاتحاد الماليزي لسبب فحواه أن البلدان العربية تشبه إلى حد ما الوضع في ماليزيا، ففي بلادنا العربية شيوخ، وأمراء، وملوك، ورؤساء، ومذاهبات، وإقطاعيات، وتجار، وفي ماليزيا يوجد سلاطين، وكل سلطان يحكم البلاد مدة سنة، والاتحاد يمكن رئيس الوزراء من التمتع الصلاحيات المطلقة في اتخاذ القرارات مثلما يحدث في ألمانيا تقريباً، كما أن الاتحاد السوفييتي فيه جمهوريات عديدة متفاوتة، ولكل جمهورية، أيّاً كان حجمها أو عدد سكانها، ممثل في المكتب السياسي، وبذلك لا تشعر أية جمهورية بأنها مغبونة في التمثيل داخل الاتحاد، وهذه الأفكار توصلت إليها وأنا في السجن، وقد قال لي ميشيل عفلق حين طرحت هذه الآراء والأفكار: (صاير عم تنظريا محمد) والحقيقة أن ميشيل عفلق كان لا يريد من أحد أن يشاركه في الأفكار أو ينافسها في طرحها، كان يريد أن يكون استثناء للجميع. وبعد أن فهمت لعبة القيادة، والظروف الديمغرافية للمجتمع تأكدت أن القيادة لا تقبل أن أكون عضواً فيها، كما أنها لا تريد أن تبعدني عنها كثيراً، ولذلك كانت تضعني في بعض المواقع الثانوية في القيادة، مثلاً: عضو متمم للمؤتمر، عضو محكمة حزبية... هكذا كان دوري في المؤتمرات، وقد كنت أحس بأن الجميع يريدون وجودي في جميع المؤتمرات.

في هذا المؤتمر القومي السادس، انتخب حافظ الأسد عضو قيادة قومية عن العسكريين.

في أواخر تشرين أول وبداية تشرين الثاني 1963، حصل خلاف بين صلاح البيطار من طرف وأمين الحافظ من طرف آخر، وحصلت بعض المشكلات داخل الجيش كاحتجاج الضباط على حكومة صلاح البيطار، وكان

يشجع على ذلك أمين الحافظ باعتباره رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة، وحدثت بعض المشكلات بين القيادتين القطرية والقومية التي أخذت طابع التجاذب حول عمل الحزب، والحكومة وقيادة الجيش، وعلاقات سورية مع البلاد العربية، وقد عقدت بعض الاجتماعات بين القيادتين القطرية والقومية كان على إثرها أن استقالت حكومة صلاح الدين البيطار.

بحايات الخلاف بين الفياضين القومية والقطرية..!!

ونتيجة تفاقم الخلافات بين المدنيين الحزبيين والعسكريين الحزبيين، والحزبيين المدنيين فيما بينهم، والحزبيين العسكريين فيما بينهم، وحسماً لهذه المشكلات قررت القيادة القومية دعوة مؤتمر قطري استثنائي للانعقاد في أول من شباط 1964، أي بعد أقل من خمسة شهور على انعقاد المؤتمر القطري الأول، وتعود أسباب انعقاد هذا المؤتمر إلى نكسة حكم الحزب في العراق، والخلافات التي حصلت بين عبد السلام عارف والحزبيين هناك، وكذلك الخلاف الذي حصل بين الأستاذ ميشيل عفلق وبعض أعضاء القيادة القطرية السورية حول مسائل وقضايا عديدة، وإن كان هذا الخلاف قد بدأ بين الطرفين منذ المؤتمر القطري الأول، وقد اتّهمت القيادة القومية القيادة القطرية بتمزيق وحدة الحزب وتصنيف الحزبين إلى حزبيين وغير حزبيين، وثوريين وغير ثوريين، واشتراكيين وغير اشتراكيين ووحديين وغير وحديين، وقد كان هذا الجدل المثار، وهذه النقاشات موجودة منذ المؤتمر الأول وحتى انعقاد هذا المؤتمر القطري الاستثنائي، وأصبحت الأعمال والمناقشات والتقييمات تتم خارج المنظمة الحزبية، وبذلك فقد الحزب، على المستوى التنظيمي، هيئته، وازداد هذا التمزيق في 13 تشرين الثاني في العراق، حيث فقدت القيادة القومية سيطرتها على التنظيمات القطرية والبعثيين جميعاً. كما أن بعض الأفراد أرسلوا بعض النشرات إلى بعض المنظمات الحزبية داخل

الحزب متجاوزين التنظيم الحزبي (القيادة القطرية) ورأت القيادة القومية أن وضع الحزب في سورية يستدعي انعقاد مؤتمر قطري استثنائي، واتهمت القيادة القومية القيادة القطرية بالتهرب من الدعوة إلى انعقاد هذا المؤتمر، فبادرت القيادة القومية إلى عقد اجتماع مشترك من أعضاء القيادة القومية (السوريين) والقيادة القطرية في سورية تم التوصل في نهايته إقرار انعقاد المؤتمر القطري الاستثنائي في 1 شباط 1964، وعقد المؤتمر في الموعد الذي حدد له بحضور أعضاء المؤتمر العادي مع وقوع بعض الثغرات التنظيمية لأسباب تتعلق بالأسس التنظيمية، وحضر المؤتمر أعضاء القيادة القومية، وعددهم ستة أعضاء..

ومنذ اللحظة الأولى لانعقاد المؤتمر الاستثنائي سيطر موضوع أزمة الحزب على أعمال المؤتمر القطري الاستثنائي، وعلى الرغم من الصفة القطرية للمؤتمر إلا أنه طرحت فيه جميع المسائل التي كانت تشغل الحزب، ودار فيه جدل بيننطي، كما أعتقد، بين القيادتين القومية والقطرية في سورية، وقد ردت القيادة القطرية على القيادة القومية بالاتهامات حول التكتلات التي تصنعها، وأن الأمين العام للحزب هو الذي يقود هذه التكتلات ويغذيها، وهكذا كانت الروح الشللية، كما أراها، أشبه بقميص عثمان لمن يريد هدم الحزب من الداخل، والسبب يعود إلى الشكل التالي:

أولاً: إن الحزب دخلته مجموعات متناقضة في الأهداف والمصالح.

وثانياً: كانت مجموعات خارج الحزب لها نفوذ داخل المؤتمر وهي من خارج المؤتمر (الوحدويون الناصريون)، و(الرجعيون) و(الشخصيات السياسية المستقلة).

طبعاً، القيادة القطرية قدمت مذكرة طويلة تشرح فيها أزمة الحزب، ومن أهم مسائلها هو التناقض الرئيسي القائم بين القيادتين القومية والقطرية.. الذي يستكره جميع الحزبيين من الناحية القطرية، ومن وجوه هذا التناقض

أيضاً الاختلاف في وجهات النظر حول الوحدة، والاشتراكية، وإيمان الحزب بالجماهير، وعزلة الجماهير عن الحزب، وتناقضات حول الأعمال الثورية التي صنفت أحياناً بالثورية وأحياناً أخرى باللاثورية، واتهام الحزب بأنه لم يستطع تطوير المنظمات الشعبية، ووصول عناصر حزبية إلى قيادة الحزب (القومية والقطرية) وهي من دون ثقافة حزبية، أو أدبية، أو تنظيمية، وقد سلكت سلوكاً انتهازياً واستغلالياً من أجل السيطرة على الحزب وجعله في خدمة أهدافها وغاياتها البعيدة كل البعد عن أهداف الجماهير وغاياتها. لكن رغم كل هذا خرج المؤتمر القطري الاستثنائي بقرارات من أبرزها توسيع عدد أعضاء القيادة القطرية إلى خمسة عشر عضواً لمواجهة المسؤوليات المتزايدة، وتكليف القيادة القطرية بإيجاد الصيغة الفعالة في التعاون بين مختلف السلطات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، والتي تمكن الحزب من توجيه السلطة ومراقبتها، كما توصل المؤتمر إلى توصيات من أهمها جعل الحزب وحدة متماسكة، وتمتين الاتصال بالقاعدة الحزبية عن طريق مؤتمرات أمناء الفروع، وقيادات الفروع شهرياً، ومكافحة الآراء الشخصية والفدية ونبذها إلى خارج الحزب،.. بالإضافة إلى اتخاذ توصيات أخرى في الجانب التنظيمي، ثم انتخب المؤتمر قيادة قطرية من خمسة عشر عضواً، أصبح فيها أمين الحافظ أميناً قطعياً للحزب بالإضافة إلى مسؤوليته في رئاسة المجلس الوطني لقيادة الثورة، ورئاسة الدولة. وهذه القيادة القطرية الجديدة كانت غير متجانسة فيما بينها، وقد كان ميشيل عفلق يغذي هذا الخلاف من أجل إبعاد العناصر التي لا يرغب بوجودها في القيادة القطرية، وهكذا لم تصل القيادة القطرية المنتخبة إلى انسجام يوفر لها العمل بشكل صحيح خدمة للجماهير والحزب والدولة في آن معاً، لذلك، وبعد أن برز هذا التناقض بين أعضاء هذه القيادة، دعت القيادتان القومية والقطرية إلى انعقاد المؤتمر القومي السابع في شهر شباط 1964، أي خلال شهر واحد فقط انعقد مؤتمرات الأول قطري استثنائي، والثاني قومي.

في هذه الفترة كنت منهمكاً في أمرين أساسيين، الأول ضرورة تماسك الحرس القومي في المحافظات وإعداده وتطويره، والثاني فكرة بناء مدارس الحرس القومي في المحافظات بالتعاون مع وزارة التربية، وكما ذكرت سابقاً، زرت مدير تربية درعا محمد جابر بجبوج، وهو اليوم عضو قيادة قومية، وقد كان أميناً قطرياً، زرت بعض مدارس درعا ومعني محمد جابر بجبوج، ومنها الثانوية في مدينة درعا (التجهيز)، صاح محمد جابر بجبوج بالطلاب: أمة عربية واحدة، فردّد الطلاب من ورائه: أمة عربية واحدة، ثم صاح بهم وحدة حرية اشتراكية، فردّدوا وراءه أيضاً وحدة حرية اشتراكية، وكان المتفق عليه أن المعلمين، ومدربي الفتوة لا يرددون شعار الحزب كاملاً في المدارس، لذلك طلبت من محمد جابر بجبوج أن يكمل هذا الشعار، فيقول أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة لكي يردّد الطلاب وراءه الشعار كاملاً.. ففعل ذلك، ومن يومها صار المدربون والطلاب يرددون الشعار كاملاً. وخلال أسبوع من هذه الواقعة ردّد الحزب كاملاً في سورية كلها.

وعندما ذهبت إلى المدارس الأخرى في محافظة درعا.. ردّد المعلمون الطلاب الشعار كاملاً، أقول هذا لأن بعض مدراء التربية، ومدراء المدارس من غير البعثيين لا يرددون الشعار كاملاً أو ناقصاً. وقد كان محمد جابر بجبوج حزبياً، وعضواً في قيادة فرع درعا للحزب، كما كان متحمساً للحزب، وهنا أذكر أن الأستاذ زكي الأرسوزي قال إن العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة، وليس أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، أقصد أن هذا التعديل حدث فيما بعد. وعندما وجدتُ هذا الحماس للحزب من قبل محمد جابر بجبوج باعتباره مديراً للتربية حثته على بناء مدارس الحرس القومي في درعا، وأن تكون المشورة قائمة فيما بيننا، وقد لمست منه استجابة فورية للعمل في هذا الاتجاه.

المؤتمر القومي السابع...!!

في المؤتمر القومي السابع الذي انعقد في شهر شباط 1964 في دمشق، حضر الكثير من الرفاق العراقيين، وقد عولجت فيه، من خلال المناقشات والحوارات، أزمة الحزب قومياً مع القيادة القطرية في سورية، وقد جرى نقاش طويل وموسع حول الأخطاء التي وقع فيها الحزب في أثناء تسلمه للحكم في سورية والعراق. كما نوقش النظام الداخلي للحزب. وقد جاء في النشر، الداخلية التي أصدرتها القيادة القومية عن نتائج المؤتمر القومي السابع الذي انعقد في 22 شباط 1964. حول الأخطاء التي ارتكبت في العراق، وأدت إلى إبعاد الحزب عن السلطة، وسيطرة عبد السلام عارف على الحكم، وحول الظروف الصعبة التي يعيشها الحزب في أثناء تسلمه للسلطة، وقد بات الحزب يواجه محاولات انقسامية عدة وتكتلات حزبية بين اليمين واليسار، وحدث الكثير من المشادات الكلامية بين جماعة اليمين وجماعة اليسار حول الأفكار الاشتراكية، ومفهوم الرجعية العربية، وفي نهاية المؤتمر شكلت قيادة قومية جديدة مؤقتة من الرفاق: ميشيل عفلق. صلاح جديد. شبلي العيسمي، وجبران مجدلاني، وعبد الرحمن الرافعي (لبنان)، وأحمد حسن البكر (العراق)، منيف الرزاز (الأردن)، وأمين الحافظ، ومحمد عمران، ومنصور الأطرش (سورية)، وخالد العلي (لبنان)، وعلي غنام (السعودية)، وعلي خليل (لبنان)، وهم ثلاثة عشر عضواً، وقد حدث انشقاق في هذا المؤتمر، يتزعمه علي صالح السعدي (العراق)، وحمد عبد المجيد (العراق أيضاً)، ومحسن الشيخ راضي (العراق)، فأنشأ المنشقون قيادة قومية لأنفسهم حاولت أن تجرّ إلى صفوفها عدداً من الحزبيين، غير أن هذه القيادة لم تتجج، وما لبثت أن تشرذمت، وتفككت، ولكنها استمرت سرياً تحت اسم حزب العمال الثوري، لكن هذا التنظيم انهار أيضاً، وقد ذهب هؤلاء إلى دول عديدة، أي أنهم غادروا سورية.

الرجعية.. بثوب جديد!

نتيجة لابتعاد الحزب عن السلطة، فقد تشجعت الرجعية في سورية ولبست لبوساً دينياً لاستقطاب الناس، وخاصة في دمشق، وحماة وحمص وحلب في تلك الفترة 1964، والحقيقة، أنه كان وراء تشجيع هذه الحركات الرجعية المستترة بالدين، بعض الحزبيين المنشقين.. خاصة في حماة أعني جماعة أكرم الحوراني، وبعض المنشقين في دمشق، وبانياس، وبعض الانفصاليين من البعثيين الذين اشتركوا في أحداث الانفصال. هؤلاء جميعاً شجّعوا الحركات الرجعية لمناهضة ثورة الثامن من آذار والوقوف بوجهها، وقد كان الأساسيون لهذه الحركات الرجعية موجودين في مدينة حماة، الأمر الذي حدا بأمين الحافظ وصلاح جديد أن يذهب إلى حماة للسيطرة على المدينة من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، لأن مدينة حماة اضطربت بشكل قوي وباتت أخبارها لا تبشر بخير. وقد كان أمين الحافظ متشدداً في قمع هذه الحركات، وإطفاء نار الأحداث التي جرت، وقد قتل فيها قائد الحرس القومي في مدينة حماة نزار الشماعي، وقد هوجمت قيادة الحرس القومي وقتل من فيها، كما قتل قائد الحرس القومي في مدينة سلمية، فاستدعيت قوات عسكرية من اللواء (17) في قطنا إلى مدينة حماة بقيادة العقيد حمد عبيد، ومعه النقيب خالد رسلان وعدد من الضباط، كما استدعيت كتيبة دبابات بقيادة الرائد عزت جديد، واستدعيت كتيبة مظلات بقيادة الرائد مصطفى شربا. وحاول صلاح جديد أن يهدئ الوضع، فعقدت اجتماعات ما بين أمين الحافظ وصلاح جديد من جهة وجماعة أكرم الحوراني (وهم من البعثيين المنشقين) من أجل إطفاء نار الفتنة، وقد كنت موجوداً في المدينة ومتابعاً لما يجري. وهدأت المدينة بعد أن حسم الأمر أمين الحافظ بقوة شديدة. وقتل أحد المواطنين في جامع خالد بن الوليد لأنه كان يرتدي بدلة قريبة في لونها من لون اللباس الذي يرتديه أفراد الحرس القومي. في هذه الفترة كلفت سرية دبابة بقيادة المقدم

مصطفى طلاس، ومعه النقيب علي زيود.. بإنهاء التمرد الذي حدث داخل جامع خالد بن الوليد، حيث حوَّصر المتمرِّدون داخل الجامع، واستسلموا بعد أن قتلوا مواطناً من إِدلب يرتدي لباساً قريباً في لونه من اللباس الذي يرتديه أفراد الحرس القومي، وقد شكَّلت محكمة ميدانية برئاسة المقدم مصطفى طلاس للتحقيق مع الناس الذين حوَّصروا داخل المسجد، وقد كان وزير الداخلية آنذاك نور الدين الأتاسي الذي جاء إلى المدينة أيضاً، أما الأستاذ عبد الحليم خدام فقد كان محافظاً لمدينة حماة. وقد اتخذ وزير الداخلية أمراً عرفياً بمنع التجول في مدينة حماة حتى لا يتعرض أي مواطن بريء للخطر. وقد استغرقت فترة حماة حوالي أربعة أيام متواصلة.

وعلى إثر ذلك نقل الأستاذ عبد الحليم خدام من حماة إلى دمشق، وكلف العقيد عبد الرحمن خليفاوي الذي كان قائداً للمنطقة الوسطى بمنصب محافظ مدينة حماة بالإضافة إلى مهمته العسكرية. وقد جاءت وفود الوجهاء والمشايخ من مدينة حماة وطالبت المسؤولين في القيادة بالتوسط للإفراج عن المعتقلين من أجل تهدئة الخواطر والنفوس. وأذكر أن الجماهير في حماة، وخصوصاً جموع العمال، خرجت في مظاهرات تدين هؤلاء العصاة والمتمردين. وحدثت أحداث مشابهة في منطقة الميدان في دمشق، ولكن هذه الأحداث كانت بسيطة، لأنه سرعان ما هدأت الأوضاع في دمشق. هذه الأحداث جميعها حدثت في شهر نيسان، وفي مستهل شهر أيار، وفي عيد العمال خرج العمال مع الجماهير في مظاهرات كبيرة من أجل نصرة الحزب، وكانت الهتافات تدين عبد السلام عارف لأنه أبعد الحزب عن الحكم، وقد ألقى الأستاذ أمين الحافظ كلمة شرح فيها أبعاد المؤامرة الداخلية والخارجية على ثورة الثامن من آذار، وشدد على دور العمال المهم في حياة الثورة ودعمها. وكان المجلس العرفي في حمص، برئاسة المقدم مصطفى طلاس قد حكم على الكثيرين من الذين قاموا بفترة حماة وحمص. لكن توسط الوجهاء والوفود الشعبية.. جعلت القيادة القطرية والحكومة تستجيبان معاً للنفوذ عندهم. والحقيقة أن الصراع

الذي دار بين القيادة القطرية والمجلس الوطني لقيادة الثورة أدى إلى تشكيل مجلس رئاسة يقود الدولة مؤلف من الفريق أمين الحافظ وصلاح البيطار، ومحمد عمران، ومنصور الأطرش، ونور الدين الأتاسي. هذا المجلس هو الذي أصدر العديد من القرارات المهمة في الجانب الاقتصادي والتحويل الاشتراكي، ولذلك حاول رجال الدين مرة أخرى أن يقفوا بوجه هذه القرارات التي أصدرتها الثورة، ولذلك أعيد تشكيل المحكمة الميدانية العسكرية لمحاكمة التجار الذين احتكروا المواد الغذائية وتلاعبوا بأسعارها في الأسواق. وذلك من: صلاح الضلي، خالد رسلان، محمود حمرا، وسليم حاطوم، محمد رباح الطويل وجميعهم ضباط. وهنا أذكر أن الحرس القومي أسهم في التصدي للتجار الذين أغلقوا الأسواق. فقد انتشر أفراد الحرس القومي في الأسواق المغلقة، وباشروا بفتح المتاجر بالقوة. كان أصحاب المتاجر يقفون بعيداً عن متاجرتهم يراقبون، وما أن يفتح أفراد الحرس القومي المتاجر حتى يهرعوا إلى متاجرهم. وأذكر أن أجهزة الأمن كشفت الكثير من المؤامرات الخارجية التي كان يقودها السياسيون الذين ضربت مصالحهم بعد مجيء ثورة آذار مثل معروف الدواليبي، ومنير العجلاني، فقد كانا على صلات مع بعض السفارات الغربية والعربية ينسقون من أجل تدمير الثورة. وقد كشفت خطط هدفها نسف وتدمير المصالح الاقتصادية في سورية، وعملت مع بقايا الانفصاليين، أي أن جميع المتضررين من ثورة آذار اجتمعوا من أجل الانقضاض عليها. وللحق أقول إن الكثير من رجال الدين تراجعوا عن دعم الخط الرجعي بعد أن تكشفت لهم أبعاده ومخاطره وأهدافه التي تريد إشغال الفتنة في جميع المدن السورية. الفتنة كانت كبيرة ولكنها لم تستمر إلا وقتاً قصيراً. وقد جرت المحاكمات التي انتهت إلى إعدام عض الضالعين في المؤامرة، وتم سجن الكثيرين منهم أيضاً.

في ربيع سنة 1964 طلب مني أمين الحافظ أن أدعو زعماء العشائر (البدو) وكان المقدم صلاح الضلي قائداً للواء العشائر. من أجل رفع الروح

المعنوية لدى أبناء المجتمع، وجمع فئات المجتمع وطبقاته في وحدة تامة. وقد دعوت هؤلاء الزعماء، ونصبت لهم خياماً في منطقة القابون، وقد كان عددهم حوالي (400) وجيهاً وزعيماً وشيخاً للقبائل، والعشائر، وقد ذبحنا لهم خرافاً عديدة، وقد حضر هذا اللقاء رئيس الدولة أمين الحافظ فتناول طعام الغداء معهم، ومن خلال هذه الدعوة التي وجهها الحرس القومي تعرفت إلى جميع زعماء العشائر والقبائل وعقدت معهم صداقات ظلت (استمرت) سنوات طويلة، ومنها صداقات مازالت قائمة حتى الآن، فأنباء هؤلاء الزعماء والشيخ ويأتون لزيارتي، وأذهب لزيارتهم أيضاً. وقد تحدث الرفيق أمين الحافظ في هذا الحفل حديثاً طويلاً، كما تحدث قائد لواء العسكر صلاح الضلي، وقد استمر هذا الحفل ساعات طويلة. وقد كان هذا الحفل من ضمن نشاطات الحرس القومي بالقبائل والعشائر، ونشاطات الحزب الاجتماعية. وبعد هذا الانفصال، عرفنا أن خلافاً كان موجوداً بين أفراد عشيرة الموالي، وضمن عائلة الأمير عبد الإبراهيم، وقد لجأوا إلى التحكيم في إحدى المشكلات التي واجهتهم حول (زواج عشائري)، وكنت أنا المحكم في هذه المشكلة ففضنا نزاعاً لو تطور لأحدث مشكلات معقدة بين أفراد العشيرة الواحدة.

وكان للحرس القومي دور كبير في إخماد نار هذه الفتن، وبكل الهدوء، والحكمة. ولكن للأسف وبسبب الصبغة الدموية التي اتصف بها الحرس القومي في العراق، فإن هذه الصبغة أثرت في سمعة الحرس القومي في سورية، ولكنه في الحقيقة كان الحرس القومي يحرس الثورة من الطامعين بها وبكل الموضوعية على الرغم من التحالف الشرس للرجعيين والشيوعيين وبعض الناصريين، والانفصاليين من أجل طحن ثورة الثامن من آذار، حتى ولو استعانوا مع الشيطان. لكن هذا التحالف فشل فشلاً ذريعاً على الرغم من الخلافات التي كانت موجودة بين أعضاء القيادة في الدولة. وبسبب من هذه الخلافات المتواترة في تلك الفترة.. بدأ الإعداد والتهيئة للمؤتمر القطري العادي الثاني والمؤتمر القومي الثامن.

لماذا شكل أمين الحافظ.. الوزارة!

هنا لابدّ من السؤال عن سبب تشكيل الفرق أمين الحافظ للحكومة، بعد استقالة صلاح البيطار؟ للإجابة عن هذا السؤال، أقول هناك أسباب عديدة أدت إلى هذا التكليف بتشكيل الحكومة، منها التشرذم داخل قيادة الحزب، مما أدّى إلى فصل صلاح البيطار من الحزب بسبب موافقه من الاشتراكية والتأميم، وتوقيعه على وثيقة الانفصال هذا التوقيع الذي اعتبر نقطة سوداء في تاريخه، وزوال الدعم الذي منحته له القيادة القطرية في العراق، وقد هدّدت القيادة القومية القيادة القطرية في حال تعميمها لهذا الفصل على الجهاز الحزبي، وخصوصاً أن التهديد جاء من قبل الأمين العام للحزب ميشيل عفلق الذي قال أنه إذا ما تم ذلك فإنه سيسافر إلى ألمانيا ويترك سورية. لذلك استجابت القيادة القطرية لرغبة الأمين العام وجمّدت قرار الفصل وأبقته لديها، وأذكر أنني تدخلت من أجل ترميم المشكلة ما بين القيادة القطرية والقومية وبدوافع الغيرة على الحزب، وقد ناقشت الأستاذ ميشيل عفلق طويلاً، وقلت له لماذا، كلما حدثت مشكلة صغيرة تهدد بالسفر إلى ألمانيا وترك سورية. وطلبت منه أن يبقى، ويحل المشكلات، وهنا قال لي: رفاقنا في القيادة القطرية متحمسون يريدون اقتلاع ميشيل عفلق وصلاح البيطار. وطلب مني أن أقول لرفاقنا في القيادة القطرية أن يهدؤوا قليلاً كي تمضي الثورة بأمان. لهذه الأسباب، وعلى الرغم من تجميد قرار الفصل بحق صلاح البيطار، شكل أمين الحافظ الوزارة، وبقي صلاح البيطار عضواً في القيادة القطرية. وفي أثر تشكيل هذه الحكومة تشكل مجلس رئاسي شغل فيه صلاح البيطار منصب نائب رئيس المجلس الرئاسي، أي كان نائباً لأمين الحافظ رئيس المجلس الرئاسي. كل هذه الأحداث كانت المقدمة لانعقاد المؤتمر القطري الثاني، والإعداد للمؤتمر القومي الثامن.

قبل انعقاد المؤتمر القطري الثاني (الذي انعقد في 18 آذار 1965) بحوالي

شهر تقريباً، أبعد اللواء محمد عمران من سورية، بعد أن اتهم بأن له اتصالات بالناصرين والوحدويين الاشتراكيين، وله اعتراضات على بعض قرارات التأمين والقوانين والتحويل الاشتراكي، كما اعترض أيضاً على القرارات التي أصدرتها القيادة القطرية، ورفض تشكيل لجنة عسكرية داخل الجيش، وقيل إن اللواء محمد عمران اتصالات مع القاهرة من خلف ظهر القيادتين القومية والقطرية من أجل أن يغير منحى القيادة القطرية تجاه القاهرة، لكل هذه الأسباب قرزت القيادة القطرية واللجنة العسكرية إبعاد اللواء محمد عمران من سورية وتعيينه سفيراً لسورية في أسبانيا، على الرغم من أن ماضي محمد عمران النضالي كله كان من أجل الحزب، هذا التاريخ المهم لم يشفع له لتجاوز غلطة اتصالاته بالقيادة المصرية والناصرين. والحقيقة أن أمين الحافظ كان يريد التخلص من محمد عمران، لهذا وجد في قرار اللجنة العسكرية التي طرحت فكرة إبعاد محمد عمران وتعيينه سفيراً لسورية في أسبانيا.. فرصة لكي يتخلص منه، فأيد قرار هذه اللجنة. وأبعد محمد عمران. وعلى ما أذكر أنه في تلك الفترة، أي في أواخر 1964 وبداية 1965 جرت مساعي عديدة من أجل تجميع فصائل الحزب المقسمة والتي كنت على علاقة جيدة بها، فجميع الفصائل داخل الحزب كان أفرادها يحبونني، فكان أن أقتعت البعثيين الناصريين أن يجتمعوا مع محمد عمران، وقد اجتمع الطرفان فعلاً، وتوصلوا إلى قناعة بضرورة عودتهم إلى الحزب، ومن أبرز الأسماء: هنا مصطفى الحلاج، ومعين إسماعيل، وسامي صوفان، وأدهم مصطفى، وفايز إسماعيل، وآخرون من منطقة دوما، كنا نجتمع جميعاً في بيت محمد عمران أسبوعياً من أجل إعادتهم إلى الحزب، وقد حضرت هذه الاجتماعات جميعاً. كما أنني دعوت مجموعة من البعثيين الحمويين المحسويين على اتجاه أكرم الحوراني لكي يزوروا الجبهة، وكان عددهم حوالي 200 شخصاً، وقد زرنا مواقع (الحمة)، وتناولنا طعام الغداء هناك، وفي أثناء العودة إلى دمشق، أبقيت منهم حوالي 25 شخصاً، اجتمعت وإياهم مع الفريق أمين الحافظ، لأن أمين الحافظ

كان يكنّ الود لجماعة أكرم الحوراني. وقد عقد الاجتماع في مقر قيادة الحرس القومي. في منطقة الروضة. وأذكر أن الغرفة التي عقد الاجتماع فيها لم تتسع للجميع، ولأنه لم تكن توجد كراسي بعدد الحاضرين، لذلك أتينا ببطانية، وفرشناها على الأرض، وجلسنا جميعاً، بعضنا يجلس على الكراسي، وبعضنا الآخر يجلس على البطانية.. وقد اجتمع أمين الحافظ معهم أكثر من مرة، وقد تكفلت قيادة الحرس القومي بنفقات إقامتهم وسفرهم. وقد توصل الطرفان أمين الحافظ وأنا من طرف، والرفاق من بعثي جماعة أكرم الحوراني من طرف آخر إلى اقتناعهم بالعودة إلى صفوف الحزب بعد أن انقطعوا عن الحزب منذ سنوات، وقد وافقوا على ذلك، فعاد القسم الأكبر منهم إلى صفوف الحزب، وبنتيجة هذه العودة، عين سليمان أذن نقيب المعلمين في محافظة حماة محافظاً لمدينة حمص، وقد كان من أبرز المحاورين نيابة عن جماعته، كما أنه قام بحوار طويل مع البعثيين الذين تركوا الحزب في مدينة حمص وأقنعهم بالعودة إلى صفوف الحزب. لهذا أقول إذا ما أردنا تحليل شخصية أمين الحافظ فإننا نجد أن أمين الحافظ كان ميلاً للعمل مع البعثيين من جماعة أكرم الحوراني، وأن ولائه ظلت لهم، ولم تتوافق طباعه مع طباع أعضاء القيادة القطرية الموجودين آنذاك، وأعضاء اللجنة العسكرية، وكذلك كانت ميول محمد عمران أكثر توجهاً نحو الناصريين.

أما القسم الثالث من البعثيين فكان يمثلهم البعثيون القطريون، وهؤلاء يشكلون كتلة أساسية خارج الحزب، مع أنهم بعثيون وقد كانت علاقاتي بهم جيدة، ومن أبرزهم سليمان الخش (مصياف) وفوزي رضا، ومصالح سالم، وإسماعيل العزيفي (دير الزور)، وكذلك كان يوجد معلمون من اللاذقية منهم جورج صدقني، وزكريا شريقي.. وهؤلاء القطريون كانت اتصالاتي بهم قوية لذلك سعيت لعقد اجتماع أو أكثر بينهم وبين صلاح جديد، وهذه الاجتماعات تمت في مقر قيادة الحرس القومي، وكان من نتيجة هذه الاجتماعات أن انقسم هؤلاء القطريون على أنفسهم، قسم منهم عاد إلى صفوف الحزب، وقسم

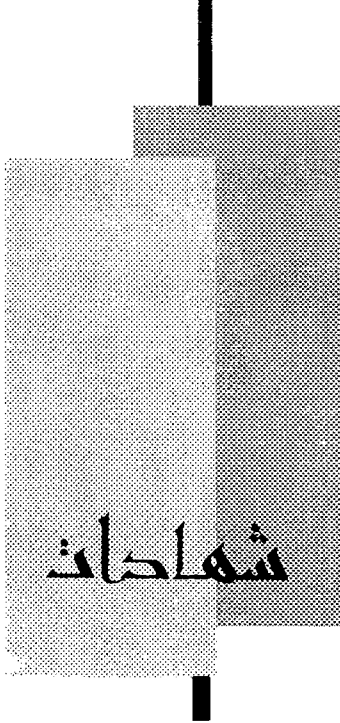
رفض هذه العودة، ومن أبرز الرافضين منير العبد الله وإسماعيل العريفي، ومن الذين وافقوا على العودة إلى صفوف الحزب.. عدد من البعثيين من مدينة دير الزور، وسليمان الخش من مصياف، وزكريا شريقي من اللاذقية وقد مهدت لهذه اللقاءات مع البعثيين القطريين حين عينت أحدهم مديراً لثانوية الحرس القومي في اللاذقية.. هذا التعيين الذي عدّ بادرة خير من قبل البعثيين الموجودين في الحكم. وأعتقد أن نشاطي هذا لم يكن غائباً عن أعضاء اللجنة العسكرية الخمسة ويبدو أنهم كانوا يتابعون نشاطي بالتكتم ليعرفوا ماذا ستصير عليه الأمور، وقد سروا بالنتائج التي توصلت إليها، وذلك من خلال إعادة اللحمة إلى صفوف الحزب بضمه غالبية البعثيين من جماعة أكرم الحوراني، وغالبية البعثيين القطريين في دير الزور واللاذقية ومصياف. وللحقيقة والتاريخ أقول إن الرفيق حافظ الأسد كان يراقب هذا الأمر ولا يتدخل في شؤونه ثقة منه بأعضاء اللجنة العسكرية ولانصرافه إلى تطوير القوى الجوية، بينما كان الآخرون من أعضاء اللجنة العسكرية يتصلون بي ليعرفوا الأشواط التي قطعتها في حوار مع البعثيين الذي هم خارج صفوف الحزب. بينما كان الرفيق عبد الكريم الجندي يراقبهم من الناحية الأمنية.

وفي النهاية حدث ما يلي: لقد سيطر البعثيون القطريون على الرفيق صلاح جديد فأصبح قطرياً وبات يمثل رمزاً للقطريين، وسيطر الناصريون على الرفيق محمد عمران فأصبح يمثل رمزاً للناصرين، وسيطر البعثيون من جماعة أكرم الحوراني على الرفيق أمين الحافظ فأصبح يمثل رمزاً لجماعة أكرم الحوراني. وأستطيع أن أقول إن الرفيقتين أحمد الأمير وعبد الكريم الجندي انحازا إلى جماعة القطريين أي أنهما كانا في صف الرفيق صلاح جديد. وهذا الذي حدث في الجهاز الحزبي أثر على القيادتين القومية والقطرية، فجعلها ثلاثة أقسام، وكذلك أثر على الجيش، فحدثت في داخله تكتلات تابعة لهذه الخطوط الثلاثة، التي تحدثت عنها سابقاً. وفي هذه الدوامة، والصراع بين هذه التيارات داخل الحزب الواحد (القيادة القطرية،

القيادة القومية) اتهم محمد عمران بأن له اتصالات مع الرئيس جمال عبد الناصر، وأنه يحضر لانقلاب عسكري، وقد قررت القيادة القطرية واللجنة العسكرية إبعاده من سورية والتخلص منه بتعيينه سفيراً لسورية في أسبانيا.

وفي شباط 1965 أبعاد محمد عمران إلى خارج سورية، وبذلك تمّ الخلاص منه، وانتهى دوره في القيادة السورية، آنذاك. وهنا دعت القيادتان القومية والقطرية لعقد المؤتمر القطري الثاني العادي في 18 آذار 1965. وهنا أودّ أن أجيب عن تساؤل قد يخطر ببال القارئ، وهو لماذا أؤكد دائماً أنني كنت محبوباً من جميع الأطراف، في ظنّي أن ذلك يعود لأسباب عديدة منها أنني كنت أعمل من أجل وحدة الحزب، والدولة. والجمع ما بين جميع التيارات والاتجاهات لكي تقف سورية على قدميها بين الدول العربية، أولاً، ودول العالم ثانياً، ولكن الأهم بتقديري يعود إلى أن الجميع، على مختلف مشاربهم، وتياراتهم، وتوجهاتهم، كانوا يعرفون جيداً أنني أعمل كثيراً ولا غايات لي أو أهداف شخصية لأكون في موقع معين، أو منصب قيادي، هذه المعرفة جعلت الجميع يثقون بي، لأنني لم أطرح اسمي لتسلم أي موقع من المواقع القيادية داخل الجهاز الحزبي أو المؤسسة العسكرية، وأعتقد أن سلوكي هذا هو الذي جعل لي مكانة واعتباراً بين الجميع.





شهادات

- ❖ لؤي الأتاسي.
- ❖ مصطفى طلاس.
- ❖ سليمان حداد.
- ❖ موسى العلي.
- ❖ عبد الكريم الناعم.
- ❖ محمود حمرا.
- ❖ يوسف نعيسة.

شهادة لؤي الأتاسي^(*)

^(*) الفريق لؤي الأتاسي من مدينة حمص تسلّم رئاسة الدولة في أول أيام ثورة 8 آذار 1963، ورئاسة مجلس قيادة الثورة أيضاً. كان رجلاً وحدوياً، ومناضلاً متحمساً لإعادة الوحدة بين مصر وسورية.

الانفصال.. خيبة الخيالات!

لم أشعر في حياتي بخيبة توازي خيبتني بنكبة فلسطين.. إلا عندما وقع الانفصال. أحسست أن عالماً آخر يفتح على الخراب، والتشظي، والخوف، والتمزق. فحلّم الوحدة الذي تحقق ما بين سورية ومصر، على الرغم من الأغلط والأخطاء العديدة، كان حلماً جماهيرياً، بل كان هدفاً أقصى للقومية العربية. صحيح أن الوحدة كانت انفعالية، وغير مدروسة، ولكنها كانت مهمة، وقد شعر بآثارها جميع أبناء الشعب، وجميع الفئات، وتنفس الفقراء والكادحون لأول مرة في تاريخهم الحديث، أحسوا بأن الكرامة تعود إليهم، وأنهم يبدؤون حياة جديدة تليق بتعبهم وشرفهم وطموحاتهم لذلك التفوا بغفوية كاملة، وحب جارف حول الوحدة، واعتبروها هي خلاصهم في تحقيق أهدافهم. وقد كان عبد الناصر رجلاً محبوباً، وقائداً وطنياً وقومياً استطاع بوعي شديد أن يعيد صياغة الواقع العربي بعيداً عن الأقوام، والأعراف، والمذاهب، والتيارات الدينية، وهذا أمر مهم في الحياة العربية الجديدة. لكل هذه الأسباب والنتائج، كان الانفصال شرخاً في التاريخ العربي، وخيبة أمل كبيرة لكل المتعطشين إلى قيام أمة عربية تنفض عن كاهلها آثار الاستعمار، وتبعد عنها مخالب القيادة الصهيونية التي احتلت فلسطين وطردت أهلها بقوة. كما كانت ضربة شديدة البطش لكل أصحاب النفوس الوطنية والقومية في المجتمع بعامة، وداخل صفوف الجيش بخاصة. لكل هذا، وحين قامت زمرة الانفصال بتخليص المجتمع من آثار الوحدة، أي حين ألغت القوانين الحدودية حول الزراعة، والإصلاح الزراعي، والتأمين.. شعرنا في الجيش أن هذه الزمرة لن تستمر طويلاً في الحكم، بل لا يجوز لها أن تستمر طويلاً في الحكم، وقد كانت القيادة العسكرية تغلي في أكثر من موقع، وفي أكثر من اتجاه، ذلك لأن الزمرة الانفصالية كانت محدودة النشاط، ومحدودة الحركة داخل صفوف الجيش، لذلك كان الجميع، الذين أحبوا الوحدة، وتحمسوا لها

ينتظرون الشرارة التي تقدح إعلاناً بعودة الوحدة مع مصر، ولم تكن الأشهر الأولى من حكم الانفصال في سورية سوى التقاط للأنفاس للتخلص من هول هذه الصدمة الفاجعة. أقول هذا لأن قيادات الجيش الوطنية، على مختلف انتماءاتها القومية، كانت على استعداد فطري لإعادة الوحدة، ولكن بشروط مدروسة، كي لا تنقضّ عليها زمرة انفصالية أخرى. وللحق أقول إننا شعرنا بأهمية الوحدة ودورها في حياتنا من تخوف أعدائنا منها ومحاربتنا، وفرحتهم الكبيرة بحدوث الانفصال، والشرح الوطني القومي في المجتمع العربي.

إذن، بعد أشهر فقط من قيام حكم الانفصال، وإدراكنا المباشر بأن الانفصاليين في حالة عزلة داخلية وخارجية، أي بعد حوالي خمسة أشهر من حكم الانفصال، تنادت مجموعة من الضباط في الجيش السوري إلى التحرك من أجل إعادة الوحدة. كانت الاتصالات سرية، وخاصة جداً، وكنت على علم بها. وحين حدثت أحداث حمص في 28 آذار، وهمدت في 29 آذار تخوفت كثيراً من الخيبة مرة أخرى، تخوفت من أن مؤامرة الانفصال ستستمر، وأن محاولة حركة الضباط الأحرار في سورية ستفشل، لكن ما حدث في حمص من عصيان يتزعمه بدر الدين الأعسر لم يكن سوى سوء توقيت، وعدم تعاون مباشر مع حلب، واللاذقية، والسويداء، ولكن الأمل عاد مرة أخرى بعد يوم واحد في مدينة حلب، حين استطاعت كتيبة المظلات، مع المغاوير، مع بعض الضباط الذين سرحوا من الخدمة بأوامر انفصالية.. من السيطرة على مقر القيادة الشمالية في حلب، سيطرة كاملة، وقد أخبرت بما حدث بوساطة الهاتف، وطلبوا مني أن أتقدم من منطقة دير الزور (المنطقة الشرقية) باتجاه حلب (المنطقة الشمالية) لأكون على رأس الحركة، فوافقتهم فوراً دونما تذمر أو إبطاء. ذهبت إلى حلب مع قوة عسكرية وبرفقة بعض الضباط، وطلبت من الجميع الاستنفار فالثورة قامت، وإن غايتها هي إعادة الوحدة مع مصر والخلاص من الانفصاليين، وإعادة الضباط المسرّحين الذين ظلمتهم زمرة الانفصال.

حين نزعمت حركة الضباط الأحرار في حلب...!!

وصلت إلى حلب، فوجدت القيادة أشبه بخلية النحل، الخارجون خارجون، والداخلون داخلون، وحالة من الفوضى تسود الأجواء. منذ البداية سألت عن الضباط الذين قاموا بالتنفيذ فعرفت أن الملازم أول محمد إبراهيم العلي من كتيبة المظليين هو من كان على رأس المنفذين، وأنه صلة الوصل مع العديد من الضباط العاملين في الخدمة مثل الرائد حمد عبيد، والنقيب حسن شهبان، والملازم أول سعيد دباح، والملازم أول جابر صبح، والملازم أول محمد حاج رحمون، والملازم حسن شريتج، وضباط مسرحين مثل حافظ الأسد، وصالح جديد، ومحمد عمران، وعدنان دباغ، ووليد حمدون، ومصطفى طلاس.. وآخرين.

وفي القيادة، وجدت الضباط المسرحين قد ارتدوا ملابسهم العسكرية ووضعوا رتبهم التي كانت لهم قبل أن يسرحوا، وكان من بين الضباط الموجودين جاسم علوان. ومنذ البداية جعلت الملازم أول محمد إبراهيم العلي إلى جانبي أستشيريه في كل أمر لقناعتي بأنه هو من يعرف الموقف جيداً في حلب، كما يعرف الضباط الذين يسيطرون على الوضع حقيقة. وعلى وجه السرعة، ومن أجل السيطرة على الوضع في القيادة الشمالية، أصدرت أوامر تعيين للعديد من الضباط ليكونوا في مواقع المسؤولية، في قيادة الشرطة العسكرية، والشعبة السياسية، والمخابرات العسكرية، وكتيبة المغاوير (82) وذلك بدلاً من القيادة القديمة.

جاسم علوان.. يلعب في النفاق!

أذكر الآن، أن سيطرتي على الوضع كانت جيدة ولكن لم تكن دقيقة، لأن جاسم علوان راح يتصرف من وراء ظهري، ففوجئت بأن إذاعة حلب راحت تدعي بيانات باسم الجمهورية العربية المتحدة، وإن كنت مع هذا الأمر من حيث

المبدأ، لكنني كنت لا أريد الاستعجال بتصريف كهذا قبل أن نعرف ما هو موقف القوات في اللاذقية، وحمص، والسويداء، ودرعا، ومحيط دمشق. كانت الأخبار غير مطمئنة، فالقواعد الجوية، وخصوصاً قاعدة الضمير لم تتم السيطرة عليها بعد، وقوات المدفعية الموجودة في القطيفة القريبة من دمشق لم نعرف ما هو موقفها وهل تمت السيطرة عليها أم لا، كما لم نعرف ما هو موقف القوات البحرية في اللاذقية، وقد كانت الأخبار تفيدنا بأن الرائد البحري عدنان عبد الله ينسّق مع حركة الضباط الأحرار عن طريق النقيب حافظ الأسد والرائد صلاح جديد. وسعيت إلى وقف إذاعة البيانات من إذاعة حلب، طلبت من محمد إبراهيم العلي أن يبلغ الملازم أول عبد الله عمرايا بضرورة وقف مثل هذه البيانات لأنها تحدث بلبلة في الشارع من دون مصداقية في العمل. وقد تحرك الانفصاليون لتطويق الأحداث، فحومت طائرات في سماء حلب منذرة بالقصف، لذلك توجهت قوة عسكرية لاحتلال مطار حلب، وقد حدث هذا بالفعل وتمت السيطرة على المطار. ولكن جرت مفاجأة أخرى في الإذاعة، وذلك حين أذيع بيان باسم حركة الضباط الأحرار يطلب من مصر قوات مظليين تهبط في اللاذقية، وأن ترسل قوات برية.. إلخ، هنا طار صواب الانفصاليين، وأحسوا أن الأمور تقلت من أيديهم، لذلك سعوا بكل ثقلهم لوأد حركة الضباط الأحرار وهي لا تزال في المهد، فجرت اتصالات عديدة مع قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين كان خلاصتها الدعوة إلى عقد مؤتمر لقيادة الجيش في مدينة حمص، قيادة المنطقة، وذلك من أجل حل المشكلات، والاستجابة لطلبات حركة الضباط الأحرار. وفعلاً، عقد مؤتمر حمص في اليوم التالي، ذهبت إليه، ومعني الملازم أول محمد إبراهيم العلي لقناعتي بأنه كان جديراً بحضور المؤتمر لأنه هو من كان على رأس الضباط الذين نفذوا وسيطروا على القيادة في حلب، كما ذهب معي العقيد عادل حاج مراد لكي يمثل القيادتين الشرقية والشمالية في المؤتمر.

كان الاجتماع برئاسة اللواء وديع المقعبري، ودار النقاش حول أمور عديدة

في مقدمتها إعادة الوحدة مع مصر بطريقة مدروسة وعلى أسس متينة، والتخلص من الضباط الانفصاليين الذين أضروا بوحدة الجيش والوحدة وعلى رأسهم عبد الكريم النحلاوي، وذلك بإخراجهم إلى خارج البلاد، وإعادة الضباط الذين سرحوا ظلماً إلى الجيش، والعفو عن مجمل الأحداث التي جرت في حلب واعتبارها عمليات عسكرية.. وقد تمت الموافقة على هذه الطلبات جميعاً.

وللحقيقة أقول إنني شعرت بأن الانفصاليين يريدون إلقاء القبض على العديد من الضباط الذين حضروا مؤتمر حمص، وخصوصاً الملازم أول محمد إبراهيم العلي لأنهم تأكدوا من أنه يشكل صلة الوصل الأساسية في تنظيم حركة الضباط الأحرار فهو ضابط الارتباط المنفذ ما بين الضباط العاملين والضباط المسرحين. وقد صدق شعوري هذا، لأنني ما أن انتهيت من أعمال المؤتمر، حتى سألت عن محمد إبراهيم العلي فلم أجده وقد عرفت أنه اخذ سيارتي (وهي سيارة قائد المنطقة الشرقية، وهي هدية شخصية لي من المشير عبد الحكيم عامر) وطار بها عائداً إلى حلب بعد أن أخبره أحد رفاقه الضباط بأن الانفصاليين سيعتقلونه عندما تنتهي أعمال المؤتمر. ولكم كانت مفاجأتي كبيرة حين طلبني محمد إبراهيم العلي على الهاتف، سألته: أين هو؟ فقال: أنا الآن في حلب. فقلت له مدهوشاً، وصلت إلى حلب! قال: وصلت، ولا تخاف عليّ. وأخبرني أنه هاتف قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين من أجل أن يحافظ على سلامتي، وأنه هددته بعمل الكثير إذا ما تعرضت شخصياً لأي أذى، وقال لي: لقد أرسلت إليك السيارة سيدي، واعتذرتني على تصريحهم لأنهم كانوا يريدون اعتقالني.

حدث الشهادة.. فأصبحت سجيناً!

دهشت من تصرف محمد إبراهيم العلي، وسرعة الخاطر لديه، كما أعجبت بهذه الرجولة وقدرتها على التنفيذ الفوري دونما إبطاء أو مناورة.

وعدنا إلى حلب. وانتظرنا تنفيذ طلبات مؤتمر حمص التي لم ينفذ منها سوى أمرين اثنين، الأول: إخراج الضباط الانفصاليين إلى خارج سورية، والثاني: عودة الضباط الذين سرحوا ظلماً لأن ميولهم وحدوية وقومية. أما العفو عن ما جرى من أمور في أحداث حلب فلم يتم. ذلك لأن زمرة الانفصال راحت تتصيد الضباط والمناوئين لها واحداً واحداً.

في هذه الفترة ذهب ملحقاً عسكرياً، وتركت سورية، وقد عرفت أن العديد من الضباط وعددهم قارب ستين ضابطاً أدخلوا إلى سجن المزة، وكان من بينهم محمد إبراهيم العلي، ومع بدء المحاكمات عرفت انه سينال أقصى العقوبات لأن الانفصاليين كانوا يكرهونه من جهة، ويعتبرونه المنفذ رقم واحد لأحداث حلب من جهة ثانية. وقد استمرت المحاكمات وقتاً طويلاً، وحدث أن المحكمة طلبتني شاهداً، فعدت إلى سورية، وقدمت شهادتي، ولأن الشهادة لم تعجب المحققين أودعت السجن، وبذلك انضمت إلى مجموعة الضباط الذين اتهموا بأحداث حلب. وقد كانت فترة السجن فترة كافية لأتعرف على الضباط جميعاً.

كنت أختلط بالجميع ذلك لأنهم كانوا يأتون إليّ، فأيام السجن طويلة، ولياليه أكثر طولاً، وأستطيع أن أقول بأنني عرفتهم (أي الضباط) على حقيقتهم في تلك الفترة.

ففي السجن لا يوجد نفاق ولا مزادة ولا عنتريات، كانوا جميعاً وطنيين، وأحاديثهم تدور حول الوحدة، وأكد أقول أن ما من أحد منهم إلا وكان متخوفاً من أن الانفصاليين يقودون البلاد إلى الهاوية. محمد إبراهيم العلي كان أكثر قريباً مني، أحببت فيه شهامته وصدقه وعرويته الصافية، كان كابن طبقة فقيرة يتغنى دائماً بالوحدة، وما أعطته لطيفة الفلاحين التي ينتمي إليها، وكان يحلم أمامي وبصوت عال متمنياً عودة الوحدة أيّاً كان شكلها. وهذا لا يعني بأنني لم أكن أعرف دواخل الضباط الآخرين فجميعهم ينتمون إلى طبقات فقيرة ويريدون الوحدة. ليس لأن الانفصاليين يتحكمون بالبلاد، وإنما لأن

الانفصال يقف عقبة مؤلمة تحول دون الوحدة.

الحاصل: أن الجميع كانوا وطنيين، وينتظرون حدثاً ما، أو ثورة ما، أو انقلاباً ما، أو وضعاً دولياً ما يقلب السفينة بالانفصاليين فيخرجون هم من السجن، بمن في ذلك محمد إبراهيم العلي الذي كان محكوماً بالإعدام. أعني أنهم كانوا متفائلين بالخروج، ومقتنعين بأن الانفصاليين لن ينفذوا الأحكام التي صدرت بحقهم.

كان محمد إبراهيم العلي يأتي إليّ في كل يوم، وأذهب إليه أيضاً، خصوصاً بعدما أخرجوه من الزنزانة المنفردة رقم (7) التي كانت أبشع زنزانة موجودة في السجن. كان يقول لي: حكموني بالإعدام، فهل ينفذون الحكم بعدما صدّقه رئيس الجمهورية. فأقول له: لا، لن ينفذوه! هم أضعف من أن ينفذوه؛ فيقول لي: هذا صحيح. سنخرج من السجن، ونحاكم الانفصاليين! كان إيمانه بالخروج كبيراً، وأن الثورة ستقوم قريباً. محمد إبراهيم العلي كان قريباً من قلبي، وثقتي به مطلقة.

كنت أرى الضباط يفتتون الوقت بلعب الورق، وكتابة الشعر، والقراءة، والحديث، والمزاح، وتبادل الأخبار. ولكنهم حقيقة كانوا ينتظرون زلزالاً سيحدث خارج جدران السجن ينقذهم من هذا الظلم الذي وقع عليهم لأنهم وحدويون، وعروبيون، وضد الانفصال. وفعلاً هذا ما حدث.

ليلة قيام الثورة..!!

أذكر أنني في ليلة 8 آذار 1963، كنت في غرفتي العلوية، أتجاذب أطراف الحديث مع محمد إبراهيم العلي الذي لم يكن مغرمًا بلعبة الورق التي كان الضباط يلعبونها ليل نهار على شكل أفواج وفرق.. كانت السماء ملبدة في الخارج، والهدوء عاماً.. وفجأة رأيت محمد إبراهيم العلي يقفز نحو النافذة، قال لي: إنني أسمع أصوات آليات تقترب، وقلت له: لعلك تتخيل. هذا السجن

سيطير عقولكم. قال: لا، إنها آليات تتحرك، وأصواتها تقترب. فنهضت ودنوت من النافذة، وسمعت فعلاً أصوات آليات، كان الوقت يقترب من الفجر تماماً. وتكاثرت الأصوات، وجاء الضباط، وراحوا يطلّون برؤوسهم من الشباك الصغير، بدأت أضواء آليات الرتل تتضح، كانت أشبه بحبل مضى راحت مقدمته تظهر جليلة، لاسيما وأن طريقها كان قريباً من السجن، هتافات الضباط، وأقوالهم، وأحاديثهم في تلك الساعة كانت منصبة على أن الثورة ستقوم هذه الليلة وأن الفرج بات قريباً. الضباط الذين كانوا ساهرين ازدادوا يقظة، والذين كانوا نياماً استيقظوا، فتحول السجن إلى حالة من الهزج والمرج، والأسئلة والأجوبة، والتوقعات...

من السجن إلى رئاسة الدولة..!!

لم تمض سوى ساعات حتى انبلج الفجر على الثورة، ثورة 8 آذار، فجاء، عند الساعات الأولى من الصباح، عدد من الضباط وأخرجوني من السجن، فذهبت مباشرة إلى قيادة الأركان وشكلنا مجلساً لقيادة الثورة.. وبدأ الضباط يخرجون من السجن تبعاً، الوحيد الذي بقي في السجن مدة يومين إضافيين هو محمد إبراهيم العلي، وما أن خرج حتى جعلته قريباً مني حيث تسلّم كتيبة حراسة قيادة الأركان. لقد ظللت على علاقة وطيدة بمحمد إبراهيم العلي على الرغم من أنني تسلّمت رئاسة الدولة ورئاسة مجلس قيادة الثورة لقناعتي بأنه شهم، ووطني، ووحدوي، وذو طبع أصيل. وصادق.

الآن، وبعد مرور سنوات طويلة، وبعيدة على تركي السياسة والقيادة، لاتزال علاقتي بمحمد إبراهيم العلي علاقة أخوية فهو دائم الاتصال بي والاطمئنان على أحوالي وصحتي. وهنا أودّ أن أقول إن إخلاص هذا الرجل يكاد يكون نادراً في زمن كثرت فيه المصالح، والانتهازية. وبودي أن أقول شيئاً آخر هو أنني لا أضيف الكثير إلى مصداقية محمد إبراهيم العلي وحبه لوطنه

وعرويته، لأن ما قلته ليس سوى شهادة مني كوني عشت وإياه فترة من فترات
النضال الوطني، وقناعتي بأن الشهادة الأهم عن مصداقيته ووطنيته هي
شهادة الزمن، فهو لم يتزحزح عن إيمانه بالوطن، والوحدة، والعروبة قيد أنملة،
وهذه الشهادة، شهادة الزمن به، هي الأهم، وهي التي تتصفه بحق.



شهادة مصطفى طلاس^(*)

(*) العماد مصطفى طلاس نائب رئيس الوزراء وزير الدفاع. تسلم مهمات ومناصب عديدة في الدولة. عضو في القيادة القطرية. له مؤلفات عديدة في الفكر، والسياسة، والأدب.

أحداث حلب 1962..!!

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، في يوم 31/3/1962، بدأت عناصر المظلات بتطويق قيادة المنطقة الشمالية، وكنت أسمع صوت العربات المدرعة (ب.ت.ر) وأنا بين النوم واليقظة. وخطر لي وأنا في ذلك البحران بيت لحميد بن أبي ثور.. خلت نفسي قد رددته وكأنه تعبير عن وضعي الذي كنت فيه:

ينام بإحدى مقلتيه.. ويتقي

بأخرى الأعادي.. فهو يقظان.. هاجع

وفي الساعة المحددة، تم اقتحام المنطقة من قبل مجموعة من رجال كتبية المظلات يقودهم الرفيق الملازم الأول محمد إبراهيم العلي، ومعه الملازم الأول محمد سعيد دباح.

وهنا.. وحتى يكون القارئ في الصورة تماماً.. فإنني سأعرض جانباً من الاتصالات التي تمت قبيل عملية اقتحام قيادة المنطقة الشمالية.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم السابق للحركة، مرّ الرائد حمد عبيد على قيادة المنطقة ليهمس في أذن الرفيق محمد إبراهيم العلي:

- الاجتماع بعد نصف ساعة في بيتي.. تعال وحدك.

كان بيت الرائد حمد في الجميلية، وبيت الرفيق محمد إبراهيم العلي في الفيض أي كان قريباً من الأول.

استأذن الرفيق محمد إبراهيم العلي من النقيب حسن شهوان رئيس عمليات الكتبية 82 مظلات في أن يذهب إلى بيته لمدة نصف ساعة.. وذهب إلى بيت الرائد حمد. وعندما قرع الجرس فتح له الباب النقيب حسين ملحم ومعه الرائد محمد شنيوي، وكان النقيب حسين ملحم منفصلاً جداً فلم ينطق إلا بكلمة واحدة:

. التنفيذ الساعة الثانية من صباح 1962/4/1 وكلمة السر: «كل سنة وأنت سالم». بلغ الرفاق.

والتفت الرفيق محمد إبراهيم العلي إلى الرائد محمد شنيوي وقال له:
. يجب أن تمر على بيت عم النقيب حسن شهوان ليشجعه أكثر.

وذهب الرفيق محمد إبراهيم العلي لترتيب الأمور وتهيئة الأسباب لإنجاح المهمة. فلم يبلغ كلمة السر والتوقيت لأحد اعتقاداً منه أن الوقت ما يزال مبكراً. غير أن بلغ النقيب حسن شهوان أن زوجة الأخير تنتظره في البيت لأسباب عاجلة. وقد فعل ذلك كي يهيئ مقابلة الرائد شنيوي له، هناك. ثم تحدث الرفيق محمد إبراهيم العلي مع الرفيق الملازم الأول سعيد دباح وكلفه بمهمة تطبيق سرية المغاوير المتمركزة في الإذاعة بقيادة الملازم الأول عبد الله عمرايا، وأخذ على عاتقه هو تطبيق سرية المغاوير المتمركزة في باب الفرج بقيادة الملازم أول جابر صبح. أما قيادة المنطقة فإن فصيلة الإشارة التي كانت بقيادة الرفيق سعيد دباح تتمركز فيها، الأمر الذي سمح له أن يتردد باستمرار على مركز القيادة بحجة تمديد الخطوط الهاتفية إلى السرايا أو تصليحها. كما أن الملازم الأول سعيد كان قائداً لفصيلة الدفاع الجوي والإشارة، فسهلت له قيادته تلك التردد على مركز القيادة لتفقد المقاومات الأرضية المتمركزة على أسطح بناء القيادة.

أما باقي الوحدات فكانت موزعة كالتالي:

1. سرية م/د بقيادة الرفيق الملازم محمد حاج رحمون، وهو يسيطر سيطرة كاملة على سرية. وللحق أشهد أن هذا الضابط يعتبر من خيرة الرفاق الذين ناضلوا في تلك الفترة.

وقد أعلن الرفيق الرائد حمد عبيد أن هناك حركة تحضر ضد الانفصال ولصالح حزب البعث العربي الاشتراكي، وتولى الملازم الأول عدنان دباغ إبلاغ الملازم الأول رحمون ترتيبات الحركة الأخيرة.. ثم أبلغ الرائد حمد

بأن الملازم الأول رحمون جاهز للتنفيذ، وهو أهل لكل ثقة.

2 سرية الهاون بقيادة الملازم الأول صلاح مسكة.

3 فصيلة استطلاع بقيادة الملازم الأول نادر مهنا، وهو من الرفاق

الحزبيين.

4 السرية الأولى بقيادة الملازم الأول: أرغون دباغ وهو خارج التنظيم إلا

أنه كان صديقاً للنقيب حسن شهوان رئيس قسم العمليات.

أما مبنى الإذاعة والهاتف الآلي ومدرسة الصناعة، فكان محلاً لتمرکز السرية التي يقودها الملازم الأول عبد الله غمرايا وقد زكى الرفيق أحمد أبو صالح الملازم عمر ايا أمام الرائد حمد عبيد مؤكداً أنه جيد وهو الذي تربطه به صلات قريى متينة، وأنهما من حي واحد هو حي المشاركة في حلب. مؤكداً أن الملازم عمر ايا ضابط وحدوي وقومي جيد يمكن الاعتماد عليه. وهذا ما شجع حمد عبيد لمفاتحته بالموضوع أمام الملازم جابر صبح الذي بقي صامتاً، فأبدى عبد الله عمر ايا كل استعداد للعمل، وفسر الرائد حمد سكوت جابر صبح بأنه موافقة ضمنية، وأعطى حمد عبيد كلمة السر لعبد الله عمر ايا وتمنى عليه أن تكون الأغنية الصباحية الأولى بعد فتح الإذاعة، هي أغنية فيروز التي تقول في مطلعها: «يا بلادي! زمانا طويلاً! أذلك الغاصبون».

والخلاصة، فإن مجمل القوات كانت تتمركز في نقاط تقاطع الطرق حول قيادة المنطقة، وقد ألحق في يوم 30 آذار 1962 خمس ناقلات جنود مدرعة (ب.ت.ر) بكتيبة المظلات.

وفي حوالي الساعة الخامسة بالضبط، أخبر الرفيق محمد الملازم الأول محمد حاج رحمون قائد سرية م/د بأن هناك عملاً سيقوم به الرجال لدعم المنطقة الوسطى، وذلك في الليلة نفسها، وعليه أن يتهيأ للأمر. ولم يستغرق حديثه معه إلا دقائق لأن الملازم الأول رحمون كان معهم على خط واحد. وافترقا على أن يوافيه محمد بتفصيلات موقف النقيب حسن شهوان الذي

كان على اطلاع كامل على الحركة، كما أكد ذلك الرائد حمد عبيد الذي كان قد أبلغه . أي أبلغ النقيب حسن التوقيت . بحضور الرائد محمد شنيوي . والنقيب حسين ملحم .

وقد تحدث الرفيق محمد إبراهيم العلي مع الملازم الأول نادر مهنا مفصلاً .. ولعدة دقائق عن الأحداث التي تحصل في سورية وحمص بخاصة، وكذلك حول الوحدة ومؤامرة الانفصال وحول رفاق السلاح من الضباط المسرحين .. من دون أن يلمح له بأننا سنقوم بأي عمل . لكنه قال له : علينا دائماً أن نراقب الوضع، وأخشى الانفجار الشعبي في هذه المدينة . وكان الرفيق محمد إبراهيم العلي يتحدث معه بأسلوب مسرحي (خالطاً الجد بالهزل) ومما قال له : لو هجم السكان علينا ماذا نعمل؟ فأجاب الرفيق نادر وعيناه تشعان ببريق بارد يملؤه الخبث:

. إذا نتضم إلى السكان ..

فأجابه الملازم محمد إبراهيم العلي وقد فوجئ برده ..

. لكل حادث حديث . وعلى كل حال، فعلى الرفاق أن يكونوا يقظين . أما الملازم حسن شريتح فقد كان متحمساً جداً لإعادة الوحدة، وكان جار بيت الرفيق محمد إبراهيم العلي، فتحدث قليلاً، وقد قال محمد مفسراً ..

. قد تكون ليلتنا هذه ليلة عاصفة . والرجال تختبر في أيام المحن . والوحدة لا تكون بالكلام أو بالخطابات . الوحدة التي لا تجبل لبنتها بدماء المناضلين، ستفصل كما حدث في أيلول الأسود .. فكان جواب الملازم حسن كلمة واحدة:

. لعينيك «أبو ندى» .. عندما يصدر الأمر سوف تراني جاهزاً .

أما بقية الضباط فكان دورهم غير واضح، وكان أغلبهم أصدقاء . وأما الموقف الرائع فكان موقف صف الضباط والجنود . ذلك أنه عبر السنين والحقب فإن الفقراء والكادحين للحقيقة والتاريخ، يكونون دائماً أوفياء لشعبهم

ويقدمون التضحيات الكبيرة عندما يطلب منهم ذلك.

كم كانوا رائعين.. داخل التنظيم؟ وكم كانوا مؤمنين ومخلصين للوحدة العربية وللهدف النبيل الذي ناضل من أجله الأجداد.

قد يقول بعضهم: إن الجنود يطيعون قادتهم بالغريزة وينفذون الأوامر. فأجيب هؤلاء: إنَّ الجنود يضحون بأنفسهم أمام القادة الذين يعبرون عن أهدافهم وتطلعاتهم إلى الحياة. صحيح أنهم قد ينفذون أوامر كلاسيكية لقائد كلاسيكي، لكنهم لا يضحون بأنفسهم ما لم يكن هذا القائد مثلهم الأعلى.

محمد إبراهيم العلي .. ينصل بالضباط!

كان جنود كتيبة المظليين من الفلاحين الفقراء، وكنت عندما أتحدث إليهم بعد نجاح الحركة، يقرؤون هم في وجهي أيضاً ذلك الفلاح المقهور الذي يجسد آلامهم وآمالهم. لذلك كانوا ينظرون إليّ كقائد فعلي لهم، على الرغم من كوني من سلاح المدرعات. وكنت أبادلهم شعورهم وأحاسيسهم نفسها.

أخذ الملازم الأول سعيد دباح على عاتقه ترتيب سرية الملازم الأول عبد الله عمرايا. في الإذاعة. وقد قام بهذا العمل على أكمل وجه بتسهيل من الملازم الأول عمرايا الذي لم يكن داخل التنظيم، ولكنه عمل كل ما باستطاعته نتيجة إيمانه بالوحدة.

أما محمد إبراهيم العلي، فقام بترتيب الرفاق في الكتيبة كافة.

وبقيت فقط سرية الملازم الأول جابر الصبح، وكان قد تكفل الرفيق محمد إبراهيم العلي بأمره، فاجتمع معه حوالي الساعة التاسعة مساءً في نادي الضباط وتناولوا طعام العشاء، ثم اتفقا على ما يلي:

جابر الصبح معنا إذا نجحت الحركة، على أن يسافر إلى القاهرة لأن حبيبته هناك.. أما إذا فشلنا، فليس له أية علاقة بالموضوع.

وكان تمرکز وحدته يساعده على فرض أمثال هذه الشروط. وتشاء المصادفات أن يحدث خطأ صغير يكاد يودي بكل التدابير التي قمنا بها. فقد شوه كل من النقيب مصطفى شريا والنقيب عدنان دباغ المسرحين، وهما يرتديان اللباس العسكري.. مما خلق نوعاً من الهرج والمرج في صفوف المغاوير وعناصر الأمن.. ووصلت في الوقت نفسه معلومات إلى المخابرات العسكرية تقول: إن المظليين سيقومون بعمل من أجل دعم المنطقة الوسطى، فبادر عندئذ قائد المنطقة الشمالية إلى عقد اجتماع عسكري لقادة الوحدات في الساعة الواحدة والنصف ليلاً. وكان الحديث موجزاً والاجتماع (على الواقف) فشكر قائد المنطقة الحاضرين وأبلغهم بالنسبة للمظليين، أن عليهم أن يسيروا فوراً إلى رسم العبود، ومن هناك، قال: سوف تتوجهون إلى الجبهة. وانفض الاجتماع، فخرج الجميع من دون أية قناعة بذلك الكلام.

وهكذا أعطيت التعليمات في الساعة 2.30 دقيقة إلى الملازم الأول سعيد الدباح للاستيلاء على المنطقة من الداخل، ليؤمن اقتحامها من قبل الرفيق محمد إبراهيم العلي من الخارج في الموعد المحدد.

افتحام الفيادة.. والسيطرة عليها!

وفي الساعة الرابعة صباحاً اقتحم الرفيق محمد إبراهيم العلي والرفيق سعيد دباح معاً، مبنى قيادة المنطقة الوسطى، وكان وراءهم جماعة من المظليين، إضافة إلى جماعتي إسناد كانتا جاهزتين للتدخل والدعم بالنيران، إذا اقتضى الموقف ذلك.

وبعد ربع ساعة فقط، سيطر المهاجمون على المبنى وقتل أربعة من المسؤولين العسكريين البارزين في المنطقة وهم:

. الرائد صفوت حللي، رئيس الشعبة السياسية.

. الرائد نصوح النعال، قائد كتيبة المغاوير.

. النقيب كامل عرنوس، رئيس فرع المخابرات العسكرية.

. النقيب جميل قباني، قائد سرية الشرطة العسكرية.

كما تمّ اعتقال قائد المنطقة الشمالية العميد محمد هشام الميداني واحتل الملازم الأول عبد الله عمرايا مبنى الإذاعة، أما جابر الصبح فقد بقي في مكانه من باب الفرج، لأن خطة العملية كانت تقضي ذلك.

ووصل في الخامسة صباحاً إلى مبنى القيادة الضباط المسرحون جميعهم إلا قلة منهم حالت دون وصولهم ظروف خاصة.

وبعد أن تشاورنا في الإجراءات التي يجب أن نتخذ، تمّ الاتفاق على ما يلي:

1. دعوة اللواء خمسين احتياط، وقوامه من محافظة حلب، وأسلحته مخزنة فيها.

2. تعيين الرائد محمد شنيوي قائداً للشرطة العسكرية.

3. تعيين النقيب مصطفى طلاس رئيساً للشعبة السياسية.

4. تعيين النقيب مصطفى شربا قائداً للكتيبة 82 مظلات.

5. تعيين النقيب حسين ملحم رئيساً لفرع المخابرات العسكرية.

وعندما أردت التوجه لاستلام منصبي الجديد، سألتني الرائد حمد عبيد كم عنصراً من المفاوير أحتاج لاحتلال الشعبة السياسية فأجبتة أحتاج اثنين فقط. قال:

. خذ أكثر، يمكن إعطاؤك حتى ثلاثين.

فأجبتة:

. ليس من عادة ضباط الشرطة التصدي أو الوقوف في وجه الانقلابات العسكرية، وينطبق عليهم أبداً المثل الدارج (مين ما تزوج أمي يصبح عمي).

فقال:

- سر على بركة الله، والله يوفقك..

وركبت السيارة إلى جانب السائق وخلفي اثنان فقط من جنود المظلات فوهات بنادقهم إلى الخارج لكي يشعر الناس بالرهبة، فوصلت الساعة السابعة صباحاً إلى مبنى قيادة الشعبة. وكان قد انتشر أمام مدخلها زهاء ثلاثين شرطياً بأسلحتهم الكاملة وبأمرة العميد بهاء الداغستاني قائد شرطة حلب الذي بدا متعاطفاً معنا منذ الدقائق الأولى، وأنا أعرفه شخصياً وهو من بلدي حمص. فقلت لهم:

. افسحوا لي الطريق واستدعوا الضباط، فأنا قائدكم منذ الآن.

وسرعان ما استجابوا للأمر، وتمت عملية الاستيلاء على الشعبة في غضون خمس دقائق لا أكثر.

كلف الملازم الأول صلاح الدباغ - الضابط الأقدم في الشعبة - أن يجمع الضباط، وشرحت لهم الظروف التي حتمت قيام الحركة، وأن غايتنا إعادة الوحدة مع مصر بشكل مدروس يتلافى كل سلبيات الماضي ويستفيد من التجربة المرة التي كانت السبب في حدوث كارثة الانفصال، وطمأنتهم على أن كل واحد منهم بأمان، لن ينقل أحد ولن يسرح أحد، وأكدت لهم أن عملي مؤقت؛ لأنني لا أبدل اختصاصي في سلاح المدرعات حتى ولا بمنصب وزير الداخلية. فارتاحت نفوسهم، وكانوا متأكدين من أنني أقول الحقيقة ولا شيء سواها.

عدت فيما يقارب التاسعة فتوجهت إلى قيادة المنطقة وأعلمتهم بتنفيذ المهمة، والتقيت هناك بالعميد لؤي الأتاسي الذي حضر مؤيداً من المنطقة الشرقية ومعه من كتيبة الاستطلاع الملازم أول كاسر محمود. كما التقيت هناك بالعقيد جاسم علوان، والمقدم محمد عمران، والرائد عبد الكريم الجندي، والرائد أحمد المير محمود، والرائد أحمد سويداني، والرائد محمد

شنيوي، والنقيب حسين ملحم، والنقيب عزت جديد، والملازم الأول وليد حمدون والملازم الأول رثيف علواني بالإضافة إلى حمد عبيد ومحمد إبراهيم العلي وآخرين لا تحضرني أسماؤهم. وبدأنا بإعداد بيان الضباط الأحرار.

توليت الكتابة. وكان يملي عليّ الأفكار الرائد عبد الكريم الجندي حيناً، وحيناً آخر الرائد أحمد المير محمود، وكان يشارك في الإملاء أحياناً الرائد حمد عبيد، إلا أنني بقيت مفوضاً بالصياغة لاعتقاد الرفاق بأن أسلوبني الأدبي جيد وسهل الفهم.

كان البيان موجزاً وحاسماً، وكم أتمنى الآن لو احتفظنا بمسودته، إلا أنني دفعتها للإذاعة بوساطة النقيب حسين زيدان (الذي كان له دور كبير في تطبيق صف الضباط والأفراد المظليين) وأذيع البيان بصوت الأخ توفيق حسن حوالي الساعة الحادية عشرة.

انعقاد مؤتمر حمص...!!

في اليوم التالي أي بتاريخ 1962/4/1 دعت القيادة العامة للقوات المسلحة باسم الفريق عبد الكريم زهر الدين (قائد الجيش) إلى مؤتمر يعقده الضباط في قيادة المنطقة، في مدينة حمص في تاريخ الدعوة نفسه، يرأسه اللواء وديع المقعبري قائد سلاح الطيران. وحضر المؤتمر واحد وأربعون ضابطاً يمثلون أسلحة الجيش وهيئاته وشعبه وإداراته المختلفة، ومنشأته التعليمية، والمقاومة الشعبية.

وقد مثل المنطقة الشمالية والشرقية العميد لؤي أتاسي والعقيد عادل حاج مراد. والملازم الأول محمد إبراهيم العلي، باعتباره الرجل الذي تحمل مسؤولية التنفيذ في قيادة المنطقة الشمالية (عملية الاقتحام)..

وانعقد المؤتمر في نادي ضباط حامية حمص الساعة السابعة عشرة

حيث اجتمع المؤتمرين وجرى استعراض طلبات المناطق العسكرية بفرض دراستها وتقديم التوصيات والحلول المقترحة إلى القائد العام للجيش والقوات المسلحة.

وشعوراً من المجتمعين بأهمية الظرف الذي تمر به البلاد بوجه عام والجيش بوجه خاص على ضوء الوضع الداخلي في مختلف القطاعات، وتقديراً لما يمكن أن ينتج عن هذا الوضع من أخطار تهدد أمن الوطن وسلامته واستقلاله، فقد قرّر المجتمعون بادئ الأمر استعراض الطلبات المهمة والمستعجلة التي أجمع عليها قادة ومندوبو المناطق وممثلو الألوية، والتي اعتبر الاتفاق على حلّها أساساً لعودة الحياة الطبيعية إلى الجيش، وتوحيد الصف.

وتتلخص تلك الطلبات بما يلي:

1. نقل الضباط التالية أسماؤهم إلى خارج البلاد وهم: العميد. ا. ح. عبد الغني دهمان، العقيد عبد الكريم نحلاوي، العقيد مهيب هندي، المقدم هشام عبد ربه، الرائد بسام عسلي، النقيب عادل الحج علي.
 2. إعادة تشكيل هيئة القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة.
 3. دراسة موضوع الوحدة.
 4. تشكيل حكومة انتقالية لإدارة البلاد في خلال تلك الفترة، وأسس هذا التشكيل.
 5. إعادة النظر بوضع الضباط المحالين إلى التقاعد بعد 1962/9/28 على ضوء نتائج التحقيق في وضع كل منهم من قبل لجنة حيادية.
 6. العفو العام عن العسكريين الذين اشتركوا في حوادث يوم 1962/3/31 وإلى موعد انعقاد المؤتمر، والتعويض على العسكريين الذين قتلوا أو أصيبوا في تلك الأحداث بأحسن الشروط التي تسمح بها القوانين النافذة المفعول.
- وقد اختتم المؤتمر في تمام الساعة الواحدة من صباح يوم الاثنين

1962/4/2 بعد أن اتفق مع قيادة المنطقة الوسطى وقيادة المنطقة الشمالية، على أن تعود القطعات التي اشتركت بحركة 1962/3/31. إلى ثكناتها فور موافقة القيادة العامة على هذه المقررات وتنفيذ البند الأول منها. وقد بقي قسم كبير من الضباط مجتمعين في قيادة موقع حمص، إلا أن الأساسيين عادوا إلى دمشق وإلى تشكيلاتهم.

محمد إبراهيم العلي .. ينبو من الاعتقال!

وعندما قرّر العميد لؤي الأتاسي العودة إلى حلب، وجد أن سيارته قد طارت، إذ كان الملازم الأول محمد إبراهيم العلي قد خطفها في حين كان العميد يتحدث مع بعض الضباط في النادي. ذلك أن النقيب محمد رباح الطويل همس في أذن محمد قائلاً:

. أن هناك أخباراً شبه مؤكدة تدور خلف الكواليس مفادها أن الجماعة (يقصد الانفصاليين) سيقومون باعتقالك. وعليك أن تغادر النادي فوراً.

وما أن سمح الرفيق محمد هذه الأنباء حتى أصبح كالمجنون الذي لدغه زنبور، فأخذ السيارة وطار بها إلى حلب.

وكان جو التردد والاختلاف في قيادة حركة الضباط الأحرار في حلب قد مدّ ظلاله على المؤتمر، فلم يكن أحد في الدنيا يرضى أن يغامر بمستقبله العسكري من أجل قيادة لا تعرف ما تريد. غير أن المראה التي كانت تحز في النفوس من جراء تصرفات الزمرة الانفصالية وتسلطها على قيادة الجيش، كانت هي الأخرى في الميزان، لذلك خرجت النتائج شبه متوازنة في المرحلة الأولى تلك على الأقل. ولكن للحقيقة والتاريخ فإن ثورة آذار ما كانت لتتم بعد أقل من سنة بهذه السهولة، ومن دون إراقة نقطة دم واحدة لو لم يتم إخراج زمرة النحلوي خارج البلاد.

ومن هذا المنطق أؤكد اليوم أن حركة الضباط الأحرار كانت بمثابة استطلاع بالقوة لثورة الثامن من آذار.

بعد كل هذا الكلام عن حركة الضباط الأحرار، لابدّ للقارئ من أن يتساءل عن دور الرفيقين حافظ الأسد، وصلاح جديد في هذه العملية.

كان الرفيقان حافظ وصلاح من المخططيين الأساسيين لحركة الضباط الأحرار، باعتبارهما من الأعضاء المهمين في اللجنة العسكرية بل ومن مؤسسيها. وقد كان دور الرفيق صلاح والرفيق عبد الكريم الجندي يتلخص في أن يؤمن لهما الرفيق النقيب محمد رباح الطويل الدخول إلى معسكرات المدفعية في القطيفة ومعهما الرفيق حافظ الأسد الذي كان عليه أن يأخذ من هناك سرية مدفعية وبعض عناصر من المشاة ثم يتوجه بهذه القوة إلى مطار الضمير فيستولي عليه، وبذلك تتم السيطرة على أهم قاعدة جوية وأكبرها. فإذا أضفنا إلى هذا سيطرة الرفاق في حمص وحلب والمنطقة الشرقية (ومنطقة السويداء والمنطقة الساحلية كما كان مفترضاً) تكون الحركة قد سيطرت على معظم تشكيلات الجيش السوري المقاتلة.

ولكن مبادرة العميد الأعسر بإعلان العصيان في المنطقة الوسطى نبهت المسؤولين في دمشق، فاستنفروا القوات القريبة من العاصمة كافة وبذلك فوتوا على الرفيق محمد رباح الطويل إمكانية السيطرة على موقع القطيفة، فاضطر الرفيقان حافظ وصلاح إلى أن يتوجها في 31 آذار إلى مدينة حمص المدينة التي أعلنت قبل غيرها من المدن السورية غضبتها على العهد الانفصالي الرجعي، ونزلا في فندق رغدان ليكونا قريبين من المقدم محمد عمران الذي كان حلقة الاتصال مع العميد بدر الأعسر، فيتمكنان بذلك من مراقبة تطور الأحداث.

وهناك اتصلا بالمقدم محمد عمران في قيادة المنطقة الوسطى فحضر إليهما ومعه العقيد حسن حدة. واستغرب الرفيقان حافظ وصلاح وجود هذا

الرجل المحسوب على خانة أكرم الحوراني. ولكن المقدم عمران حاول أن يطمس الموضوع ويقلل من أهميته، ولكنه قوبل برفض حقيقي من قبلهما لهذا الضيف الثقيل. عندئذ قال لهما:

. بصراحة، لقد أردت أن تشمل دائرة الاتصالات الفئات السياسية كافة بما في ذلك جماعة أكرم الحوراني لأنه عن طريق مشاركة هؤلاء معنا في التمرد على السلطة، يمكننا المساومة مع المسؤولين عن الانفصال، وبذلك نحمي رقابتنا.

غير أن الرفيقين بقيا غاضبين من هذا التصرف. وقال لهما المقدم عمران بعد أن لاحظ ثبات موقفهما:

. أنه سوف يتوجه إلى حلب، ومن الأفضل أن يلحقا به صباح الغد أو في أي وقت مناسب حتى إذا ألقى القبض على واحد منّا بقي الآخرون سالمين.

وبعد أن وقعت أحداث حلب وتداعى الضباط إلى مؤتمر حمص، سمع محمد إبراهيم العلي بأن الرفيقين حافظاً وصلاًحاً في فندق رغدان، فذهب إليهما ودعاهما إلى السفر معه قائلاً لهما أنه سينتظرهما أمام مطحنة الزهراء على مدخل حمص الشمال، إلى يمين الطريق الساعة الحادية عشرة صباحاً.

ولما كان محمد قد شمع الخيط بعد أن سمع ما سمع من الرفيق محمد رباح الطويل، لذلك لم يجد الرفيقان حافظاً وجديداً أي أثر للرفيق محمد إبراهيم العلي قرب مطحنة الزهراء، في الموعد المتفق عليه، فقررا أن يتابعا بالتكسي الذي أقلهما إلى هناك حتى الرستن، ومنها إلى حماة عليهما يعثران على الرفيق محمد في ظل شجرة(*) أو عند منعطف طريق. ولكنهما لم يظفرا بطائل. عندئذ قررا التوجه إلى مصياف ومن هناك إلى القدموس فبانياس فاللاذقية لمحاولة إنقاذ الموقف بضم المنطقة الساحلية وقيادة القوى البحرية

(*) كان الوقت ليلاً، وقد بدأ العماد أبو فراس يخطط الجذب بالمرح.

إلى المنطقة الشمالية، وبذلك يعوضان جزئياً عما أحدثه غدر العميد الأعسر، وقد اطمأننا إلى هذا القرار لأن الرفيق الرائد البحري عدنان عبد الله كان قد وعد اللجنة العسكرية بأن القوى البحرية ستكون في صف الحركة المناهضة للانفصال.

وفي اللاذقية، بعد أن استعرض الرفيقتان الوضع العسكري وضرورة إسهام القوى البحرية في مؤازرة حركة الضباط الأحرار أبدى الرائد عدنان تخوفاً كبيراً من الفشل.

والآن، بعد النظر إلى الأمور في ذلك الزمن بمنظار محايد، يمكننا أن نجد مسوغاً منطقياً لعدم استجابة الرائد عدنان عبد الله للحركة.. ذلك أن طبعه وتكوينه هما طبع وتكوين مسالم لا يحب المغامرة، وذلك أن مؤتمر حمص أيضاً كان قد امتص نقمة القسم الأكبر من الضباط، بموافقته على إخراج قادة الانفصال إلى خارج البلاد، وعدم محاكمة المتمردين من رجال الحركة.

وهكذا عاد الرفيقتان حافظ وجديد بخيبة مرة وبألم من تصرفات الرائد عدنان وتركوا اللاذقية ليلاً متوجهين إلى بانياس حيث كان الرفيق رفعت الأسد يخدم كمعاون ضابط في الأمن العام.. ومن هناك توجه الثلاثة إلى طرطوس، وكان رفعت هو الدليل الذي أوصلهما حتى اجتازا الحدود السورية ودخلا لبنان ثم تابع الرفيقتان حافظ وجديد باتجاه طرابلس، حيث هبطا من السيارة على مدخل البلدة ودخلاها سيراً على الأقدام فباتا في أحد الفنادق. وفي الصباح في أثناء تجولهما في السوق تعرفت إليهما دورية من المخابرات العسكرية اللبنانية فألقت القبض عليهما وأودعتهما سجن (الميه وميه) وفي اليوم التالي نقلتا إلى سجن الرمل في بيروت، وبعد أسبوع سلّما إلى المخابرات العسكرية السورية التي وضعتهما مع رفاقهما في سجن المزة.

وحول اختفائي بعيداً عن أنظار الانفصاليين علمت أجهزة الأمن، بعد مراقبتها لزوجتي وأهلها، أنني أقيم في منزل علاء الدين الجابري: ابن عمه زوجتي. وبدؤوا ينغمون له بالرمز حيناً، وبكل وضوح حيناً آخر. وكان ردّ فعله

يؤكد ظنون المخابرات لأنه كان يجاوبهم دائماً، بأنه يفتخر بأن يضم بيته رجلاً لا كالرجال.

ولكنني عندما تأكدت من أن معظم رفاقي قد سلموا أنفسهم للسلطة، ومنهم العميد لؤي الأتاسي، ومحمد النسر، ومحمد عمران، وصلاح جديد، ومحمد شنيوي، والرفيق حافظ الأسد، وماجد رداوي، ومصطفى شربا، ومحمد إبراهيم العلي، ومحمد رباح الطويل، وجابر الصبح، وعبد الله عمرايا وغيرهم. وأن مجموع المعتقلين قد أضحى ستة وخمسين ضابطاً بين بعثي وناصرية وتقدمي.

اللقاء.. بالرفاق في السجن!

عندئذ، قررت أن أسلم نفسي، وبالدرجة الأولى لكي لا أزعج مضيفي، وأتجمل وحدي مسؤولية عملي. ولأنني كنت واثقاً من أن العهد الانفصالي كان أعجز من أن يبطش بهؤلاء الضباط جميعهم، ولا سيما أنهم يرفعون علم الوحدة العربية. ومن ورائهم الشعب العربي في سورية أولاً وفي الأمة كلها ثانياً.. والجيش العربي السوري الذي لو وجد قادة في فرصة جديدة ليقوم بما يمليه عليه الواجب الوطني والشرف العسكري معاً.

هكذا، قررت في نهاية المطاف الانضمام إلى رفاقي، ولاقى هذا القرار ارتياحاً في أوساط العائلة.. التي كلفت السيد علاء الدين الجابري التفاوض مع قائد المنطقة الشمالية بخصوص التسليم، ووعد هذا، (وكان كاذباً بالطبع) أن التوقيف لن يتعدى ثلاثة أيام يتم في خلالها إعداد التقرير وعرضه على المختصين في شؤون الأمن.

وقلت له:

- بيني وبينك، أنا لا أصدق شيئاً من هذا، ولكنني قررت أن أتجمل مسؤوليتي وأنهى تلك الحالة مهما تكن النتائج.

قبل إنهاء هذا الفصل، لابد من كلمة حول تقييم حركة الضباط الأحرار..
1. لاشك أن الذين نفذوا أو شاركوا في الحركة كانوا من الضباط المناضلين الشجعان. وإذا كانت الخبرة السياسية تتقصصهم، فإن إيمانهم بالوحدة كان فوق حدود التصور.

2 كان لانعدام وحدة القيادة أثر بعيد في إخفاقها.. كما أسهمت المناورات الثعلبانية التي كان يقوم بها الناصريون وجرّ اللحاف إلى ناحيتهم، في خلق جو من عدم الثقة بين الطرفين الأساسيين في الحركة «عنيت البعثيين والناصرين» كل ذلك أدى إلى الفوضى والارتجال وعدم الجدية في التصدي للأمر الطارئة والمستقبلية.

3 فتحت الحركة وعي الضباط في القوات المسلحة في أنه لا يجوز للطغمة الانفصالية أن تستمر في قيادة البلد، وبخاصة أن طابع الحكم أصبح رجعيًا أيام الانفصال. وهذا أمر تجاوزته سورية بدءاً من أوائل الخمسينات. ولذلك لا يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. فالتاريخ دائماً مع التقدم، ولا يسير أبداً إلى الأمام.

4. كان لخروج دهاقنة الانفصال خارج سورية أثر إيجابي على القوات المسلحة. وأصبح القادة الجدد لا يهتمهم النظام، لا بكثير ولا بقليل، لأن معظمهم من الضباط الحيايين والذين صفا لهم الجو بعد خروج البعثيين والانفصاليين والناصرين من الساحة. وهذا الأمر سهل على رفاقنا توجيه ضربة نهائية للنظام في صبيحة الثامن من آذار من دون إراقة نقطة دم. ولو كان الانفصاليون على سروج خيلهم، كما يقول المثل، لما تمّت ثورة 8 آذار في موعدها الذي قامت به، ولكانت الضحايا أكثر.

5 أحدث إخفاق الحركة موجة من الحزن العميق لفّ القوات المسلحة جميعها، مع عطف حقيقي على الرجال الذين قاموا بها. وكان كل جندي وضابط يشعر بالخجل وتبكيك الضمير، لأنه لم يكن له شرف الإسهام في هذه الحركة.

6. استفاد الرفاق من الأخطاء كافة التي وقعت في حركة الضباط الأحرار وتمّ تلافيها في أثناء ثورة الثامن من آذار. ومن هذا المنطلق أستطيع القول: إن حركة الضباط الأحرار، كانت هي بداية الطريق إلى ثورة آذار.

فرائد الرفاق.. تجود بالشعر!

وحول فترة السجن أقول: في سجن المزة كان الرائد صلاح جديد في المنفردة التي تحمل الرقم 1 ومعه النقيب حافظ الأسد، والرائد حمد عبيد في المنفردة 19 والرائد عبد الكريم الجندي في المنفردة 7 كما كان موجوداً في السجن كل من الرفاق: مصطفى شربا وعدنان الدباغ ومحمد إبراهيم العلي وسعيد الدباح ومحمد الحاج رحمون وثابت بلال ولؤي الأتاسي ومحمد النسر ورثيف علواني ووليد حمدون ومحمد شنيوي ومحمد عمران وعبد الله عمرايا وجابر الصبح وآخرون. وكان معنا من الرفاق المدنيين كل من: أديب النحوي وأبو النور طيارة وشقيقه زائري، وسامي صوفان ويوسف مزاحم.. وعدد من الرفاق الناصريين لم أعد أذكر أسماءهم.

كنا في المنفردات ننام على تخت عسكري خاص بأفراد القوات المسلحة، مع ثلاث بطانيات. وكان مسموحاً لنا أن ندخل ما نشاء من وسائل النوم.. ولكن المطقس كان قد بدأ ربيعياً، والبرودة النسبية مقبولة وليست مزعجة.. وكان ينام إلى جوارى، كما ذكرت، النقيب عزت جديد وهو مستجدي في الكلية الحربية، وقد تقرب في أثناء الخدمة في مصر من الرفيق صلاح جديد بفعل تشابه الكنية، وأعطاه الرفيق صلاح ثقته الكاملة.. وطلب منه الانضمام إلى صفوف الحزب.

حاول بعض الرفاق أن يمدوا يدهم إلى الشعر أي إلى ثمرة الشجرة التي هي أصعب من شجرة السدره الألوهية، وكان أول المتطاولين إليها، بقامته الفارهة، وباعه الطويل الرفيق عبد الكريم الجندي. فقد اكتشف أن علبة

دخان الطاطلي سرت الغليظة هي أجمل محل لإفراغ الشحنات الشعورية الرائعة.. وكثيراً ما كان يحبس تلك النبضات العجيبات، حتى تفرغ العلبة من محتوياتها، وعندئذ ينهض إلى الحارس المناوب ليستعير منه قلم الرصاص،.. ويصير هو والقلم، والعلبة الفارغة محلاً لنزول الوحي.. وكان كثيراً ما يقع فريسة حيرة مريكة: أيقده زناد فكرة أولاً، أو يترث حتى يقده آخر لفافة في العلبة؟

وكان أول بيت كتبه، وطلب إلي أن أجيزه، هو التالي:

وحدوي يزجّ في قعر سجن وانفصالي ضاربٌ في العلا

وتأملت في هذا البيت العليل الذي لا يصلح ليكون مطلع قصيدة فكحاء، فضلاً عن عصماء.. وقلت له: ماذا تريدني أن أفعل؟ فقال أن نرسي البناء جميعه على هذا الأساس المتين.

فكتبت على الورقة نفسها البيتين التاليين:

إيه زهر القنبيط.. لا تكن يوماً عبيط

أنت لولا ثورة الأحرار في الشهباء.. طيط

وقد تعمدت الهروب من الجدية، والزورية في السخرية، ليكون هامش المناورة واسعاً، يسهل فيه التحرك ولا أقع فريسة الأصولية والالتزام، في هذه الأجواء التي تقطع النفس.

وتهدأ العاصفة قليلاً، لتعود بعد برهة من الزمن أشد ما تكون زخماً وحماسة، وذلك على لسان الرفيق محمد إبراهيم العلي، ولكن بقوالب جديدة، وطرائق تتلاءم مع رحم العصر المولد، وروحية الشعر الحديث.. وخصوصاً مع عصارة المعاناة التي شرب كأسها المرير.. صديقنا العزيز!..

ذاك أنه في أعقاب البدء بالحاكمات القضائية الخاصة في محكمة أمن الدولة للضباط الأحرار، فقد عزل مدير السجن بتدبير من عنده أو بأوامر من

فوق، الرفاق بعضاً عن بعض، ووضع كلاً منهم في زنزانة خصوصية.. وكان نصيب الرفيق محمد إبراهيم العلي، الزنزانة 7 تحتاني.. وللقارئ أن يتأمل في كلمات هذا العنوان:

فالزنزانة بحد ذاتها تجنن، ورقم 7 يدخل في الهستريا، وأما تحتاني فتالثة الأثافي.. وبالفعل فقد أتيح لي، فيما بعد أن أمر بتلك الزنزانة، فإذا هي اقذر غرفة انفرادية في سجن المزة وأقبحها.. بمعنى أن هذه الحفرة كانت نقلة نوعية جيدة، وممهدة، بل ممرنة على القبر..

وهبط الرفيق محمد إبراهيم العلي إلى هذه المصيبة، وبقي عدة قرون^(*) حتى تمكنت عيناه من تأمين عملية المطابقة بين الحديقة والمرثيات، وأصبح يشبه له من الأشياء تشبيهاً.. أقولها وأضحك لخلو ما حوله من أي شيء من الأشياء..

وليس من الضروري النص علماً أن القراءة كانت محظورة علينا (عندما نكون في المنفردات)، فالموضوع لا يحتاج إلى قانون، والقراءة مستحيلة الوقوع في مثل هذه الظروف الإضائية النادرة..

ولكن ما حدث لم يكن في الحساب.. فقد قرأ أبو الندى على حائط الزنزانة كلاماً، وصرخ: أوريكا أوريكا.. تماماً على شاكلة صاحبنا اليوناني، الذي خرج عارياً من الحمام، بعد اكتشافه ذلك القانون الذي نسيت اسمه.

وصرت ألتقط أنفاسي متمنياً، بل مستعجلاً نوبة التنفس القصيرة لأسأل محمداً عن تلك اللقيا، وبادرني قبل التحية بالقول: أريد قلماً وورقاً، وإلا فالحالة تجنن!..

ولما استوضحته أجاب:

أنت تعرف أن الحيطان هي دفاتر المجانين إلا في السجن، فهي قراطيس

(*) 186 يوم في هذه الزنزانة وفقد حاسة الشم.

العباقرة، لكنهم لم يتركوا لي محلاً على الحيط، الذي قرأت عليه هذا البيت:

وعلى الحصير، حصير آبائي تعلمت النضالا

وأنت تعرف أن هذا البيت لرفيقنا سليمان العيسى، وهو بخط يده، وقد لمعت برأسي فكرة: أن البؤس والأسى، والظلم، وخصوصاً العتمة، من أكبر دوافع الشعر، لذلك قررت أن أكون شاعراً فأنجدني بالقلم والورق!..

وبالفعل، فقد عمق حقي على الانفصاليين، عمقاً صار أبعد من مدى سيفي ورقابهم لو طلّت.. لم يكتف الأشرار بتمزيق الوحدة الأمل الجماعي للأمة حتى انقضوا على الشعور الشخصي، وإلا فما معنى أن يتصرف النائب العام لدى المحكمة العسكرية مع الرفيق محمد إبراهيم العلي هذا التصرف الذي يسوق قطعاً إلى مشايخ الأمراض العقلية؟ ولولا معرفتي الجيدة به، وبروحه المرحّة لخفت فعلاً على الرجل.. ولكنني انسجمت معه وشجعته، أرسلت له ما أراد من أوراق بيض وأقلام رصاص، ليريني كيف ينزل اسود المسك على أبيض العاج.

وبعد سبعة أيام بلياليها، أو بتعبير آخر، بعد سبع ليال بأيامها.. لأن الأصل هنا العتمة، خرجت العصماء إلى النور.. وكان قد خرج هو من تحتاني إلى الفوقاني^(*).

واخذت القصيدة من يده، ورحت أتلوها بصوت مرتفع على مسامع الرفاق، ولكن كانت سقيمة إلى حد أنني كنت أشعر بأنها تشدني من أذني، وتسكب ماء مثلجاً على ظهري..

وانقاداً للموقف، قلت للرفيق محمد:

حتى نستطيع أن نندمج جميعاً في النشوة، ولا يفوتنا شيء من المشاركة، فيا حبذا لو شرح الشاعر لنا.. معشر المتذوقين، الجو الذي ولدت فيه

(*) بعد الحكم عليه بالإعدام.

القصيدة لتكون النشوة مشتركة، فقال:

لقد استهواني بيت الشعر.. الذي كتبه سليمان العيسى.. وقلت: لماذا لا
أصير شاعراً، فتصورت أنني أسد، حبيس في قفص، والسجان الذي يمر من
أمام غرفتي طريدة، وقلت: أنقض عليه: ثم صرفت النظر، لأن أمني بالمستقبل
عظيم، ثم تذكرت أيام الضيعة، وكيف كنا نذهب لصيد القطا، (بجفت الدك)..
وكنا نحلم (بجفت) الكسر.. وتذكرت الزنزانة، واشتبكت في رأسي الصور.. هل
فهمتهم؟.. وقلت: نعم! رحم الله بروتون، والبيان السريالي، لو حظي بك
جماعته، لكانوا أمروك بمظاهرة!..

قصيدة (أبو الندى) .. العصماء!

وبدأت عملية التنقيح، وإعادة القصيدة إلى اللغة العربية أولاً لأنها كانت
مكتوبة بالبدوي.. كان يساعدنني في الإخراج الرفيق محمد الحاج رحمون،
معاونة لا تخلو من جدية، أما الرفيق حمد عبيد، فقد تولى الماكياج، والمونتاج،
وكان خلط الجد بالهزل، والمزاح بالفكاهة.. وبعد هياط ومياط، وكثير من
العياط تمكنا من إخراج القصيدة إلى النور، ويا ليتها بقيت في الظلمة!..
وقبل نشر عرض القصيدة على صنوبر بيروت، كما يقول أخواننا في
لبنان.. لا بد من الإشارة إلى أننا بذلنا المستحيل لإقناع الرفيق محمد إبراهيم
العلي بأن كلمة «عش»، التي استخدمها لا تصلح بيتاً للأسد وإنما هي تعني في
لغتنا العربية بيوت الطيور والعصافير، إلا أنه سامحه الله أصر على موقفه..
وقال: إن للشاعر مطلق الحرية في اختيار كلماته على ذوقه، فتأتي القصيدة
كالوشى المنمنم، على حد تعبيره.. وحيال إصراره توكلنا على الله ونشرنا
القصيدة:

أسد في عشه قد زار
والفرائس من أمامه قد تمر
سوف يرضى الهيثم

سوف يرضى الهيثم
إنه السيلول سبعة
شكلها في شكل ضبعة
حالة المسجون في بلباله
حالة السالح في سرواله
أذكر الصياد في تجواله
قطوات صاها جفت الكسر
وقريباً سوف يصطاد آخر

وأحدثت قصيدة الرفيق محمد إبراهيم العلي ضجة في صفوف الثوار
كما يفعل لويس أراغون بطل المقاومة الفرنسية في رفاقه وتغللت القصيدة في
المهاجع والمنفردات، حتى خرجت إلى الساحات والباحات: ثم إنها تناهبتها
الروح المتعطشة إلى الحرية.. وتناقلها الرفاق والأصدقاء وقمنا بتلحينها على
اللحن المستخدم في نشيد الثورة الجزائرية نفسه:
قسماً بالنازلات الماحقات

وكنا نخرجها بإنشاد جماعي، لنعطيهها هيبة، وننفي عنها كل ريبة!..
ونبعد عنها أي تفسير سريالي محتمل.. ولا يكاد الأخ الملازم الأول جابر
الصباح، يشاهد بأم عينه النجاح المنقطع النظير الذي لاقتة قصيدة الرفيق
محمد إبراهيم العلي حتى يبدأ يعدّ العدة.. ويشحذ الهمة.

وقد كتب جابر صباح بعض الأبيات لكنها كانت عادية، ولم يهتم الرفاق
بكل هذه الثروة الكلامية، فأسقطوا الرجل من حسابهم، وبقيت قصيدة العلي
على ركاكتها النادرة، متريعة على عرش القلوب والأفواء، كما مقولة أرسطو
المشهورة:

الكلمة هي الرجل.. أولاً.



شهادة سليمان حداد(*)

(*) سليمان حداد من مدينة اللاذقية. ضابط في القوات المسلحة. تسلم مهمات ومناصب قيادية عديدة داخل الجيش والقوات المسلحة. أحد المشاركين الفعالين في أحداث ثورة 8 آذار 1963. عمل سفيراً لسورية في قبرص، وألمانيا. ونائباً لوزير الخارجية. وهو اليوم أحد أعضاء مجلس الشعب.

بداية معرفتي .. بمحمد إبراهيم العلي !

علاقتي بالرفيق محمد إبراهيم العلي قديمة، وأنا أحترم جداً الأصدقاء القدامى فهم رمز الفداء والمحبة والتضحية، لا بل هم التاريخ، لاسيما أمثال أخي محمد إبراهيم العلي الذي قارب السبعين من عمره، هذه العقود السبعة كانت نضالاً وكانت طريقاً مليئة بالأشواك، لكن الرجال الذين يؤمنون بالقضية تهون عليهم الصعاب.. دائماً.

لا أحب أن أدخل في تفاصيل حياة صديقي محمد إبراهيم العلي، لكنني أقف أمام هذه السنين لأرفع تحية إكبار وتقدير لمن ناضل في سبيل وطنه حتى بروحه.. فعلاقتي مع الرفيق محمد إبراهيم العلي قديمة، إنها علاقة نضال طويل، لأننا من منبت واحد، فلقد اتسمت طفولتنا بالمرارة والعذاب والفقر المدقع، كل هذا لم يكن عائقاً أمام إيماننا الكامل بالوحدة العربية وبالوطن العربي من محيطه إلى خليجه. دخلت الكلية الحربية عام 1956 وهناك تعرفت إلى محمد إبراهيم العلي. كان بيني وبينه أكثر من قاسم مشترك، فنحن ننتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ونؤمن بالوحدة العربية، ونعيش في خندق واحد مع العامل والفلاح.

في الكلية العسكرية شكلنا مجموعة عرفت فيما بعد باسم المجموعة البعثية، كما كنا نسميها، أو كما كانوا يطلقون هذه التسمية علينا، وكنا معروفين من قبل الجميع أننا بعثيون. كنا نعقد اجتماعات سرية في الكلية الحربية. كان أمر دورتنا آنذاك النقيب عبد الكريم النحلاوي، وهو من قام بالانفصال فيما بعد. كان شديد الكره لنا، أقصد المجموعة البعثية أنا ومحمد إبراهيم العلي وأحمد نديم خديجة وآخرين.. بالرغم من تفوقنا إلا أننا كنا لا نلقى سوى العقوبات والإهانات ومهما نسيت لا أستطيع أن أنسى الحادثة التالية، في إحدى الليالي وبينما كنت نائماً، والساعة تقترب من منتصف الليل، وإذا بأسبوعي الدورة يوقظني من نوم عميق ليطلب مني ارتداء ثيابي والنزول

فوراً لمقابلة النقيب عبد الكريم النحلاوي آمر الدورة. دخلت إلى غرفته فوجدته منفجلاً جداً رأيت في يده كتاباً راح يقلبه بين يديه، نظر إلي بغضب واضح ثم سألتني: «هل قرأت هذا الكتاب؟ قلت: «لا». كان عنوان الكتاب 'الصوم' قال: كذاب'. قلت له: 'ماذا يحتوي هذا الكتاب'. قال: 'إن الكتابة الموجودة على هوامش الكتاب هي بخط يدك، هي سوداء مثل صفاتك'. وعرفت فيما بعد أن ما كتب على حواشي هذا الكتاب تعليق ما معناه ضد الصوم. فوقع الظن بل اليقين على أنني من كتب هذه الحواشي. وللحقيقة، وللتاريخ لم أمس ولم أطلع على ذلك الكتاب ولا على مضمونه حتى هذه اللحظة. أمرني النقيب عبد الكريم بالصعود إلى مهجعي لآخذ بطايتي والذهاب إلى السجن فوراً، فبقيت في السجن أسابيع طويلة، وحتى هذه اللحظة، عندما تمر ببالي أيام السجن، وكيف دخلته ظمأً وتعسفاً، وأنا في وحدتي كنت أناجي القمر وأسأله أليست هناك عدالة؟ أين المنطق؟ أين الموضوعية؟ ما أقسى وما أصعب الظلم!! وهنا لابد لي أن أقف وقفة صادقة من عبد الكريم النحلاوي، فهو ضابط ذكي ومتميز، يحب العمل، محافظ جداً، يصلي ويصوم، وطبعاً هذه من الصفات الجيدة للإنسان، لكنه كان مثلاً يجمع طلبة الكلية ويأخذهم للجامع ومن يخالف مثل هذه الأمور توضع أكثر من إشارة استفهام أمام اسمه. كان يكره عبد الناصر وغير مؤمن بالوحدة. لقد ترك السجن عقدة في نفسي لازمتني طوال حياتي وتأثرت جداً من هذا القرار التعسفي في فترة السجن. كنت أنام ليلاً وأتابع دروسي أثناء الدوام. وأذكر في تلك الفترة أنه تم تعيين المقدم أمين الحافظ مديراً للكلية الحربية فكتبت له رسالة طويلة مازلت أحتفظ بها إلى اليوم، شرحت فيها كل شيء، خلفيات هذه الإشكالية التي ليس لي فيها أية صلة، وكانت رسالة تتسم بالمصادقية وآلام الأيام الظالمية في السجن التي كانت محزنة ومعبرة، وبعد ساعات من وصول رسالتي إليه طلبني أمين الحافظ، فذهبت إليه وقدمت له التحية العسكرية، وكان إلى جانبه عبد الكريم النحلاوي فسألني: 'هل تتكلم أمام عبد الكريم

النحلاوي أم في غيابه؟

قلت له أريد أن أتكلم الحقيقة كما هي وأمام أمر دورتي سيادة النقيب عبد الكريم النحلاوي، وسردت الرواية بألم وحرقة بالغين، نسيت أن أذكر أنه عندما قرؤوا الخط المكتوب على كتاب 'الصوم' أرسلوه إلى الشرطة العسكرية وحلوه وللأسف أقروا بأن هذا الخط المكتوب هو خطي، فثبتت الأدلة ضدي، وليس لدي ما أعتمد عليه سوى الله.. المهم تكلمت أمام أمين الحافظ وعبد الكريم النحلاوي وشرحت لهما مضمون الرسالة، وقلت لهما بقوة أنا رجل شجاع وصادق في كل كلمة أقولها فلا داع للكذب فلو كنت أنا من كتب أو علق على هذا الكتاب لقلت ذلك، وأنا لست خائفاً لأنني أقول الحقيقة بالرغم من أنكم أرسلتم الخط للتحليل في الأمن الجنائي، فهذا الخط ليس خطي. كنت أتحدث بقوة، وقلت لهم كل ما أريده هو الوصول إلى الحقيقة، ومن الذي كتبه. كنت أشعر أن المقدم أمين الحافظ كان يتفهمني بشكل جيد وكل كلمة أقولها يفهمها تماماً، ويستمع إليّ بأذان صاغية، فدخل الارتياح والطمأنينة إلى قلبي وشعرت بالانفراج فكأن الدنيا فتحت أمامي أبواباً جديدة، ثم قال: يا بني هل تريد شيئاً آخر. قلت: لا، سيدي. قال: شكراً، التحق بدورتك. خرجت من عنده تملؤني السعادة، وأبواب السماء مفتوحة أمامي، وكأنني خلقت من جديد. كان زملائي وقتها في تمرين قتال فالتحقت بهم وانخرطت في الدرس وكانت الفرضية عبارة عن بيان عملي في منطقة 'خرخر' باتجاه مدينة مصياف وبحضور المدربين، الملازم أول زهير الحموي، والملازم الأول محفوظ دعاس. وبعد قليل جاء النقيب عبد الكريم النحلاوي، وكانت تظهر على ملامحه علائم الغضب والانفعال بحيث لا تستطيع النظر إلى وجهه. وقاد البيان العسكري على أساس نظرية افتراضية وهي كيفية القضاء على الإنزالات الجوية. ثم جاء أمين الحافظ ليشرح على البيان من أجل تقييمه بشكل عام، لم ينته النحلاوي من متابعة تنفيذ المشروع حتى تدخل المقدم أمين الحافظ لينسف ويسفه كل ما تقدم به النحلاوي من شروحات وتفاصيل فعرفت بأن الأمر تأزم

بشكل كبير بين أمين الحافظ وعبد الكريم النحلاوي، وبدأت تظهر بشكل ما، الخلافات بين البعثيين وخصوصهم، فالملازم أول صلاح نعيسة والملازم أول شفيق عبود بعثيان، وأمين الحافظ كان صديق البعث، وعواطفه معنا، المهم تصعدت الأمور بشكل واضح، لذلك قررت القيادة نقل أمين الحافظ إلى المنطقة الشرقية، وعبد الكريم النحلاوي نقل إلى قيادة العمليات في القنيطرة، وعين آنذاك رئيساً للجنة الفاحصة وأمرأً لدورتنا الرائد مهيب الهندي الذي هو صهر عبد الكريم النحلاوي.

مشكلتنا... في الكلية الحربية!

أذكر حتى الآن اللقاء الأول الذي جرى مع مهيب الهندي عندما قال: لن يتعدى عتبة هذه الكلية كل من لا يرضى عنه عبد الكريم النحلاوي، أي لن يتخرج من الكلية، وكنا على أبواب الامتحانات من أجل التخرج، هذه الكلمة التي قالها مهيب الهندي بقيت محفورة في رأسي، كان بعض المدرسين ومنهم الملازم عبد الجواد عبارة بعثياً ومتعاطفاً معنا، وينقل لنا صورة الموقف المتبدل، وشعرنا نحن كمجموعة بعثية أن الأمور تسير ضدنا تماماً، وقلت للرفاق: إن هناك غدراً سيقع علينا، سوف يرسبونا في الامتحان، طبعاً بنيت هذه الفكرة بعد تصريح مهيب الهندي الذي جاء صريحاً، رغم أننا كنا من المتفوقين، وأنا شخصياً كنت من الأوائل، ثم خلقوا لنا مشكلة في مادة دور المدرب، هذه المادة ليس لها ضابط أو ناظم، وإنما تقع علاماتها على تقدير المدرب فمن يرضى عنه المدرب، ينال العلامة الممتازة، ومن لا يرضى عنه المدرب لا ينال إلا الرسوب وأخذوا قراراً، باعتبارها مادة مرسبة، وبعد نهاية الامتحانات، وفي اليوم الأخير أذكر تماماً حيث كنا في الندوة، فدخل علينا الطالب الضابط وليد حمامية، وهو أسبوعي الدورة، وقال بصوت عالٍ: 'سكت، أي صمت. ومعروف أن هذا النداء العسكري يطلق عندما يكون هناك تجمع في المطعم أو الندوة،

فساد الندوة سكون كامل، وصمت مطبق. ثم تلا الأسماء التالية: محمد إبراهيم العلي، سليمان حداد، أحمد نديم خديجة، صالح عمران، مصطفى الشقفة، وضياء رعوان وآخرين، وقال على هؤلاء طلاب الضباط الذهاب فوراً لمقابلة مدير الكلية، فتحركنا لمقابلة الرائد مهيب الهندي مدير الكلية، فقال لنا: أنتم رسبتم في الصف المتقدم، وأعطانا تاريخاً من أجل الالتحاق بالعام الدراسي الجديد مع الصف المستجد الذي يلينا في الرتبة. آنذاك توقفت الكلية الحربية بجمص، مع بداية فترة الوحدة مع القطر المصري الشقيق، وتقرر التحاق طلاب الضباط إلى الكلية العسكرية في مصر كما تقرر رسوبنا، المهم في الأمر أعطانا الرائد مهيب الهندي إجازة من أجل الاستعداد للذهاب إلى الكلية الحربية في القاهرة، أما زملاؤنا الذين نجحوا وتخرجوا، فقد تم فرزهم على القطاعات العسكرية، وخرجنا من مكتب الرائد مهيب الهندي، والألم يعتصرنا، لست قادراً على وصف ذلك الموقف القاسي، وصلنا إلى دمشق، وقررنا أن نراجع أكرم الحوراني، وعبد الغني قنوت، ومصطفى حمدون، لعلهم يجدون لنا حلاً، أكرم الحوراني كان يسكن في القصور، وعبد الغني قنوت يسكن في القصاع، وأذكر أن أحمد نديم خديجة تكلم بلهجة قاسية جداً مع أكرم الحوراني لأنه رفض أن يقابلنا قال له: أنا أعلم أنك في الداخل، داخل الغرفة، ولا تريد مقابلتنا وخرجنا، وعندئذ عرفنا أنه لا أمل من أحد. ثم التقينا بعبد الغني قنوت وهو عقيد، لكنه استقبلنا وضيّفنا، حيث إن القضية أصبحت معروفة.. هناك تحامل وتجن على الرفاق البعثيين، لأن الرسوب لم يطل إلا المجموعة البعثية، ولا أحب أن أطيل في هذا الموضوع، المهم ذهبت مع زملائي إلى الكلية العسكرية بالقاهرة في الطائرة يوشن /14/ وكنت أشعر أن محمد إبراهيم العلي أقربهم إليّ، وصلنا القاهرة وفوجئنا بجو خانق وقاس، كنا نتدرب مع من هم أحدث منا في الحياة العسكرية، مع رفاقنا المستجدين التقفنا حول بعضنا أنا ومحمد إبراهيم العلي ومحمد شريف سعيد، وصديق زوزو، كنا أمام خيارين إما التسريح وترك الجيش، والفقر المدقع ينتظرنا أمام

الباب، وإما أن نتابع الطريق مهما كلف ذلك من ثمن، وأمامنا أهداف ومشاريع قومية كبيرة، إيماننا كان كبيراً بالوحدة، وبمصير هذه الأمة، وهو الذي عزز ثقتنا بأنفسنا، وجعلنا نكمل السير رغم الصعاب، والجدير بالذكر، أنهم عينوا مهيب الهندي، وزهير الحموي مدرّبين في الكلية الحربية بالقاهرة، كانا يشعران بالذنب تجاهنا، وبأنهما أخطأا بحقنا، لدرجة أنهما في الامتحان النهائي حاولا أن يكفرا عن ذنبيهما، فلم يسألانا أي سؤال على الإطلاق، ووضعنا لنا علامات جيدة، دون فحص.

النزج.. من الكلية الحربية!

وتخرجنا من الكلية العسكرية في 1959/4/6 برتبة ملازم. تنفسنا الصعداء فشددنا من عزائمتنا، وراحت تلوح في الأفق أهدافنا، بقينا جميعاً في مصر حيث عين الملازم محمد إبراهيم العلي في الكتيبة 76 مظلات في منشية البكري بالقاهرة، طبعاً هذا أمر ممتاز بالنسبة إليه، وعينت أنا في سيناء لاتباع دورة معلم صاعقة فحصلت على الدرجة الأولى في الصاعقة على السوريين، ثم تدرّبت على المظلات، وتفوقت أيضاً. وعلى ضوء ذلك صدر أمر بتعييني في الكتيبة 76/ مظلات أي مع الملازم محمد إبراهيم العلي، فاستبشرت خيراً، وقد أرسل كتاب تعييني إلى دمشق للاستشارة، لكن كان جواب دمشق جاء مع الرفض لأن عبد الكريم النحلاوي هو مدير شؤون الضباط فنصحهم بأن لا أعين في المظلات. فعينت في مصر باللواء 11/ وسكنت في شقة قريبة من سكن الملازم محمد إبراهيم العلي، نلتقي مع مجموعة من الضباط البعثيين، أذكر منهم حافظ الأسد، صلاح جديد، أحمد الأمير، عبد الكريم الجندي، صلاح نعيصة، شفيق عبده، كان يجمعنا هاجس الوحدة والوطن والقومية العربية. عندما حصل الانفصال كنت في دمشق، في (إجازة)، وكان معي مبلغ قيمته 900/ جنيه مصري، وهو مبلغ غير قليل آنذاك، هذه الأسماء التي

ذكرتها كلهم رفاق بعثيون نلتقي مع بعضنا كما أسلفت ليس بشكل دوري، لكن كلما سنحت لنا الفرصة، نتدارس وضع الحزب ومفهوم الوحدة العربية، لقد تأثرت كثيراً عندما انتهى دور الحزب أو ألغي دوره أثناء الوحدة وأصبح هناك نوع من الخلافات والاختلاف حول الحزب فمنهم من قال: لا بأس إذا حل الحزب وعبد الناصر على رأس الوحدة العربية، ومنهم من قال: لا، الحزب يبقى وأول أهدافه الوحدة فكنا نشعر مع احترامنا الشديد لعبد الناصر أن عبد الناصر يمارس نوعاً من الديكتاتورية والأسلوب المخابراتي غير المحبذ لدينا؛ بكلمة أخرى أنه يعتمد على أشخاص هم في الخندق الآخر للوحدة العربية وللنفس القومي، فمثلاً اعتمد على عبد الكريم النحلاوي وجماعة النحلاوي ووضعهم في أعلى المناصب، وهذا مأخذ وموقف على عبد الناصر، كما وضع السراج في أهم مركز في الإقليم الشمالي. فالنحلاوي والسراج كانا في أهم مركزين في الإقليم الشمالي. فالنحلاوي ومجموعته هم الذين قاموا بالانفصال وانقضوا على الوحدة.

مع عبد الكريم النحلاوي.. مرة أخرى!

نعود للحديث عن اللجنة العسكرية التي كانت معروفة بالنسبة إلينا. كنا نتداول معاً الحوار، وكان لنا تقريباً موقف واحد، وعندما تأتينا أي معلومات من رفاقنا القادمين من دمشق نأخذ الموضوع ونحلله ونتدارس موقف كل واحد من رفاقنا البعثيين. أيضاً كنا نلتقي مع صلاح البيطار، أما أكرم الحوراني فلا أذكر أنني التقيته بعد ذلك اللقاء الذي تحدثت عنه في دمشق، وعندما حصل الانفصال 28/أيلول/1961م كنت في دمشق أيضاً، وسلمت نفسي إلى المقر العام كضابط من أجل معرفة ما هو مصيري، وفي هذه الفترة كنت مكلفاً من رفاقنا البعثيين بالاتصال مع رفاقنا في دمشق، أذكر أنني التقيت مع ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومنصور الأطرش وفهمي العاشوري وشقيقي جميل حداد. كان

المسؤول عن المقر العام ضابط انفصالي فكلفني بقيادة فصيل ضمن سرية لحماية البرلمان، وهو متقدمي في الكلية الحربية، وبكل ألم أشعر وأتساءل بهذه البساطة كيف حصل الانفصال وماذا جرى. هل هي حقيقة أم حلم، هل بمقدور هؤلاء الناس أن يقوموا بالانفصال ولماذا ينته الأمر بهذا الشكل؟ فقد سرح الانفصاليون عدداً من رفاقنا الضباط كان عددهم /65/ ضابطاً. طبعاً أنا ومحمد إبراهيم العلي لم نسرح، وبعيد الانفصال، وقبل التحاقني بوحدتي الجديدة طُلبت من قبل النحلاوي، وكان مدير مكتبه ملازم أول من دورتنا واسمه صفوان جبري، حيث طلب إليّ الحضور لمكتب النحلاوي في اليوم الثاني في الساعة العاشرة صباحاً. فذهبت في الوقت المحدد، وانتظرت طويلاً، وبقيت أنتظر إلى أن تمت المقابلة الساعة الثانية عشر ليلاً.. أنا أعرف تماماً أن النحلاوي حاقد على البعث وعلى الوحدة، لكن للحقيقة هو من الضباط المثقفين عسكرياً كما ذكرت سابقاً. المهم دخلت إلى مكتبه فقال لي: أنا أعرف أنك بعثي وأنت فقير وكان في وسعي أن أسرحك من الجيش.. وأنا أنذرك الإنذار الأخير كونك فقيراً فقط.. وسوف أسرح مجموعة كبيرة من الضباط ولكنني سأبقيك، وسوف أعينك في اللواء السادس، وعليك أن تتضبط، واعلم أنك مراقب في كل تحركاتك.. التحقت في اللواء السادس المتمركز في القطاع الشمالي بمنطقة مسعدة المحتلة حالياً، عينت في الكتيبة في منطقة واسط وكان قائد الكتيبة الرائد محمود حاج محمود والسرية التابعة لهذه الكتيبة تتمركز في الدرباشية. هذه السرية من سرايا الحرس الوطني، كانت العادة، هي أن يعين في هذه السرية من يراد التخلص منه.

وأيضاً عين أخي الملازم أحمد حداد في الحرس الوطني في قرية الجليينة. كانت هذه القرية قريبة مني على يسار الدرباشية، نظرت إلى وضع العساكر، فلم ترق لي حالهم، بحثت في أمورهم. وأشرفت على تنظيم حياتهم ومعيشتهم ونظافتهم اليومية، أذكر أنني وجدت عدداً من العساكر مقلمين، واستشترى المرض فيهم فراعني الموقف. فعمدت إلى شراء حمار من أجل نقل

الماء عليه، وأجبرت العناصر على الاستحمام وغسيل ملابسهم. كان راتبي يكفيني وأعيش في بحبوحة كنت أتقاضى خمسمائة ليرة سورية فلو صرفت مائة ليرة على المصلحة العامة لا يحدث شيء. ورحت أدرب العناصر على الرياضة بمختلف أنواعها وأعطيتهم الدروس التكتيكية، وأنفذ معهم نصب الكمائن والإغارة والاستطلاع، كنا بالقرب من العدو أي في حالة التماس المباشر التي تعني أنه لا بد من الحذر والسهر والحراسة المشددة.

بحاية نعرف إلى زياد الحريري !!

في يوم هادئ جميل بشمسه الساطعة وأنا أجلس في خيمتي النظيفة والمرتبة وعلى جانبي خزان ماء عملته بسواعدي وسواعد جنودي كي يقينا من العطش، ويوفر لي ولجنودي النظافة المطلوبة وكان نظري السارح إلى الأرض المحتلة وكيف يعيش أعدائي الذين هم على بعد أمتار منا، إنهم يتعمون بخيرات بلادنا، ها هم يقطعون ثمار الأشجار ويركضون في البساتين، ويسبحون في الأنهار، والمساح الفاخرة، وينعمون بالماء والكهرباء، ونحن نعيش كل حالات التخلف. يا إلهي متى تعود الأرض إلى أصحابها. لم يقطع صمتي وشرودي هذا إلا صوت أحد الجنود وهو يصيح إلى السلاح، وكلمة إلى السلاح تعني أن قائد اللواء قد قدم إلى وحدتنا. كان تمرکزنا بعيداً والوصول إلينا ليس بالسهولة المتاحة، فالرواحل (البغال) تنهك حتى تأتي إلينا. كنا نكس الأرزاق والذخائر وكل ما نحتاج إليه خلال فترات زمنية طويلة بوساطة الرواحل (البغال) فلم يؤنس وحدتي سوى عناصر سرיתי وحماري الذي اشتريته للخدمة، وجلب الماء فصنعت مستودعاً للأرزاق، وآخر للأسلحة والذخائر. كان للفئران قبل أن أستلم هذه السرية نصيب كبير من الطعام، لها نصف الطعام، وللعساكر النصف الآخر. كانت تتوسط خيمتي طاولة متواضعة زينت بلوحة كتب عليها بيت شعر هو: 'ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد

الدهر بين الحفر، وفعلاً كانت المفاجأة حين دخل العقيد زياد الحريري قائد اللواء السادس فوق بصره مباشرة على بيت الشعر، وبعد أن قدمت له السلاح ومراسم الاستقبال، كان ذلك في بداية كانون الثاني من عام 1962م سألني هل أنت بعثي يا سليمان؟

قلت له: سيدي في الجيش ما في حزب، أنا مؤمن بالقومية والوحدة العربية وتقصدت ألا أقول الاشتراكية كي لا يتحسس، وأردف قائلاً: حقيقة، لقد حدثني عبد الكريم النحلاوي عنك وأعطاني وصفاً كاملاً عن تحركاتك، وقد حذرني منك (كان يتحدث إلي صراحة بكل مودة ومحبة، أريدك أن تكون حذراً، وانتبه جيداً لأنهم سيجيبون أجلك).

كان يخدم عندي مجند نشيط أذكر اسمه الآن ضيف الله من قرية العتيبة قرب دمشق، يحبني كثيراً، كان صياداً ماهراً وذكياً، وكانت المنطقة مليئة بالطيور، وكان على مقربة منا أسراب من طيور الزراير، وبسرعة البرق أحضر ضيف الله كمية من طيور الزراير، فقلت للعقيد زياد الحريري ما رأيك سيدي أن نتناول طعام الغداء هنا.

فقال متعجباً أ تستطيع أن تطعمنا وليس لديك حيلة، فقلت ما رأيك بلحم الزراير، أجاب حسناً. ولم تمض ساعة من الزمن حتى أحضرت مائدة فيها ما لذ وطاب من الطيور (مشوية، مقلية، وسلوكة) مع حواشيها، لقد سر زياد الحريري، ثم قام بجولة تفتيشية على العناصر، وتفقد أحوالهم، يسأل كل جندي ما هي مهمتك ما هو واجبك؟ كان كل فرد يجيب بشكل منظم وانضباط عاليين نتيجة التدريب والسهر المتواصل، لقد تعبت كثيراً في تدريبهم ونظافتهم حتى أصبح المقاتل جاهزاً لخوض معركة يحقق فيها نصراً ونحن على الخط الأمامي.

لقد مضى على الانفصال حوالي خمسة شهور، ونحن ما زلنا متألمين من هذا الشرخ الذي هدد مستقبلنا نحن البعثيين، ثم التفت إلي زياد الحريري

بعين الرضا وقال: أنا أحترمك وأحبك يا سليمان، أنت ضابط نشيط، انتبه جيداً، كلهم يقولون إنك بعثي. غادر العقيد زياد الحريري وهو يحمل انطباعاً جيداً عني، وكنت أشعر أنه يقاسمني همومي خاصة بعد أن عرفت أنه هو ضد الانفصال، وهو على خلاف مع النحلاوي. في تلك الفترة (جرت) مسابقات رياضية بين الجنود: 'جري، شد حبل، ثابت.. الخ' وفعلاً شاركنا في هذه المسابقات، وكانت الفصيلة التي فازت في البطولة هي إحدى فصائلي. وانتشر الخبر بأن فصيلة تعسكر على الخط الأمامي فازت على فصائل اللواء فارتفعت أسهمي، وراح اسمي ينتشر على مستوى اللواء، بعد ذلك تكررت زيارة العقيد زياد مرات عديدة إلى معسكري.

وفي إحدى الزيارات قال لي: تكريماً لك سوف أنقلك إلى منطقة 'قنبرة' فقلت له لا يمكن أن يوافق عبد الكريم النحلاوي فقال: هذه التنقلات ضمن اللواء وأنا مخول بالتصرف داخل اللواء.. قلت في نفسي هذا بالنسبة لي حلم فهل يتحقق، هذه القرية هي آخر منطقة تتصل بالطريق المعبد بعد واسط بـ 5 كم، شتان ما بين (الدرباشية) و(حضر امامي)، الذي تتمركز بهما سريتي وبين قرية (قنبرة)، هناك الماء والكهرباء والحياة والمكاتب أما هنا فالعقارب والأفاعي ولا تصل إلينا إلا الرواحل القوية.

وفعلاً انتقلت إلى القنبرة، مكان جميل يستطيع أي إنسان أن يصل إليه بوساطة السيارة. أسست ملاعب رياضية بكل أنواعها وزرعت أشجاراً، وأذكر أنه في يوم عاصف رياحه عاتية مجنونة كانت غرفتي مغطاة بألواح التوتياء ومثبتة هذه الألواح بأحجار كبيرة فوقها، وفي ليلة عاصفة ممطرة، وبينما أنا في نوم عميق وإذا بحجر كبير يسقط من سقف البراكية جانب سريري كاد أن يقتلني.. من يومها كتب الله لي عمراً جديداً. وجهزت بلوكساً ميدانياً لا تؤثر به هذه العواصف واهتممت بنظافة العساكر وتدريبهم، بدأت أموري تتحسن من موقع جيد إلى موقع أفضل وخاصة عندما قال لي العقيد زياد الحريري:

سوف أنقلك قريباً إلى حرش مسعدة لتستلم سرية استطلاع اللواء. فطرت من الفرح، فأنا أنتقل من عالم إلى عالم يعني أنه سوف يكون بحوزتي سيارة وبأمرتي عدد كبير من الآليات والـ (ب. ت. ر).. وماء عبر الحنفية، وبيوت مبنية. كانت فرحتي كبيرة، خاصة بعد أن نلت رضا قائدي وثقته أيضاً فأصبح يكلفني بمهمات إلى دمشق، وهنا يكمن بيت القصيد، فبدأت أتصل بكل الرفاق البعثيين، وعرفت موقع كلا منهم فمثلاً في القطاع الشمالي فلان.. في القطاع الأوسط فلان.. في الداخل فلان.. الخ. في إحدى المرات اتصل بي شقيقي أحمد حداد هو وإبراهيم العمر وقالوا: تعال إلينا نحن في الجليبية، فعلاً أخذت حصاناً أصيلاً ما أن ركبته حتى طار بي كالمجنون الطائش، انطلق الحصان فخرج عن سيطرتي وراح يجري داخل حقل كبير مزروع بالأغنام وكأنما مسه الجن لكن عناية إلهية غمرتنا بلطفها فلم ينفجر أي لغم بنا، وكان العساكر والأهالي الذين يشاهدونا يتضرعون إلى الله أن يحمينا، ويصرخون بي حتى أخرج من حقل الأغنام، ونجوت، ونجا الحصان معي (والحمد لله) وذهبت به إلى منطقة الجليبية. وبدأنا نجتمع في الجبهة ونتعاون، ونحدد هوية كل شخص من هو مع الوحدة ومن هو ضد الوحدة، وللحقيقة كان زياد الحريري مع الوحدة. ورحنا نعمل بكل هدوء.. وفجأة سمعنا بأحداث حلب المشهورة في 31 آذار عام 1962م، ومن قبلها بأحداث 28 آذار في حمص حيث اختلف الانفصاليون فيما بينهم. أصبحت العلاقة مكشوفة تماماً بيني وبين العقيد زياد الحريري، وكان يعلم أنني عندما أتحرك باتجاه دمشق ألتقي مع صلاح جديد، حافظ الأسد، محمد عمران، عبد الكريم الجندي، قلت له الوضع أصبح خطيراً أعني الوضع الداخلي فدعنا نحرك كتيبة مشاة إلى خان أرنبه. هنا أصبحت الأمور معقدة، النحلاوي في دمشق شعر بتحركات على الجبهة أيضاً، اختلف النحلاوي مع جماعته عندما انقلب على رئيس الدولة ناظم القدسي، ورئيس الوزراء معروف الدواليبي، كان النحلاوي في حينئذ يريد أن يستلم كامل الأمور على طريقة أديب الشيشكلي. فتصاعدت الأمور، استنفار

في الجبهة، حركه في حمص، وفي حلب محمد إبراهيم العلي يهاجم رموز الانفصال، ويعتقل قائد المنطقة هناك، وبعدها تقرر عقد مؤتمر عسكري في حمص، من أبرز مقرراته: نفي عدد من الضباط الانفصاليين، وعلى رأسهم العقيد عبد الكريم النحلاوي. لا بد لي من أن أذكر في اجتماع كان يترأسه العميد رفعت خيري وزياي الحريري وعدد من الضباط ورئيس أركان الجبهة والعقيد توفيق الشوا.. تقدمت باتجاه العميد رفعت خيري، وقلت له أنا الملازم الأول سليمان حداد رئيس الاستطلاع في الجبهة، القطاع الشمالي، أريد أن أنقل لكم الصورة الحقيقية للقوات التي تحركت من الخط الأمامي باتجاه خان أرنبه ولا أستطيع إبقاءها. فالتحلاوي أمام خيارين، إما أن يعتقل أو يغادر البلاد فوراً، والله وللتاريخ هذا القرار اتخذته بمفردي وهو من وحي أفكاره. فقلت في نفسي كيفما تأتي النتائج تأتي، لأنني وقتذاك للحقيقة تذكرت مآسي النحلاوي، وكيف أنه خلق لنا هذا التمزق في الصف العربي، والنتائج التي مازلنا نعيش كابوسها (والكتيبة التي قلت إنها تحركت، تحركت قليلاً من مواقعها ولم تقطع سوى مسافة بسيطة، ومن السهل السيطرة عليها، وفعلاً أسفرت فكرتي عن نتائج إيجابية منها كانت مقررات مؤتمر حمص الشهيرة، وكانت أحداث حلب والنتائج التي خصلت وبسببه والتفاصيل هنا طويلة، والذي يستطيع أن يغني هذه الأحداث بحثاً وعمقاً وتحليلاً هو الرفيق محمد إبراهيم العلي فهو الذي سيطر على مدينة حلب مع رفاقه البعثيين والوحدويين أمثال سعيد دباح، مصطفى شربا، حسن شريتح، عبد الله عمرايا، حمد عبيد، مصطفى طلاس، محمد حاج رحمون والقائمة طويلة. ولكن أحداث حلب هي المهيئ الأساسي والمحرك والمعرض لثورة الثامن من آذار فنحن في الجبهة وصلت إلينا هذه الأخبار وانتشرت كانتشار النار في الهشيم فلم يبق في سوريا مواطن لم يسمع بأحداث حلب، كيف هاجم الضباط الوحدويون رموز الانفصال في حلب ومن ثم كيدف أحبطت هذه الحركة وزج بالضباط في السجون، وأخلي سبيل البعض منهم، أما نصيب صديقي ورفيقي في الكلية وفي

الفقر وفي مختلف الهموم فقد كان متميزاً حيث حكم عليه بالإعدام وهذا بات
أمراً معروفاً للبعيد والقريب.

كنت فلاناً.. علي صديقي!

لقد أقلقني هذا الأمر، وكان هاجسي، وأتساءل مع نفسي ومع رفاقي ونقول لا يمكن أن نسمح للحكومة الانفصالية أن تعدم محمد إبراهيم العلي. ولا بد أن نقول عندما قامت الأحداث في حلب كان الموقف مريباً حقيقة ومشوباً بالحدز، لقد كان يهدئ من روعنا المقدم محمد عمران رحمه الله خاصة عندما رحنا نسمع إذاعة حلب وهي تذيع هنا الجمهورية العربية المتحدة مرة على لسان العقيد جاسم علوان ومرة على لسان الملازم عبد الله عمرايا، لم يكن الأمر مدروساً أو منظماً، وإنما كان عفوية تخييطياً، كنا على موقف وحدوي مع الناصريين، ولكن علائم الحدز والفدر نتوقعها في كل لحظة فجاسم علوان حقيقة أجهض هذه الحركة، وبأسلوب مخابراتي. وخطأ عبد الله عمرايا في البلاغات المتناقضة من إذاعة حلب آنذاك أيضاً لم يساعد في إنجاح الحركة. فأننا أعرف مثلاً هوية محمد إبراهيم العلي جيداً وموقفه الوجدوي، ورجعت بالذاكرة إلى القضايا أو الأحداث التي كنا نتناولها وإياه من الطفولة إلى الكلية الحربية وخدمتنا معاً في مصر إلى أن تم الحكم عليه بالإعدام فالسبب هو أنه رجل وحدوي، رفض الانفصال، وهاجم رموزه.

وبدأت وسائل الإعلام المختلفة تتحدث عن محمد إبراهيم العلي، المحكمة، المحامون، والصحف نشرت أطول قرار في تاريخ القضاء السوري، استغرقت تلاوته خمس ساعات اشتمل على نتائج الحكم بالإعدام على محمد إبراهيم العلي، والسجن لرفاقه. الحقيقة لقد وقف أغلب الرفاق في وجه الانفصال من أجل عدم تنفيذ هذا الحكم.. لقد قضى مضجعي هذا الأمر لأن محبتي لمحمد إبراهيم العلي ليس لها حدود، لقد كان همي بالكامل أن لا يعدم

محمد إبراهيم العلي، لم أزره في السجن أبداً، وإنما كنت على علاقة مع ابن عمه الملازم أول موسى العلي، ولا أريد أن أذكر بعض الأسماء الذين عندما طلب منهم مد يد العون لأسرة محمد إبراهيم العلي رفضوا.. رغم أنهم فيما بعد تبوؤوا مناصب كبيرة. أستطيع أن أقول إنه هنا يمتحن الرجال وخاصة في المواقف الصعبة، لقد ضحى محمد إبراهيم العلي بنفسه من أجل الوطن ألا يكفيننا هذا فخراً. في تلك الفترة أرسلني العقيد زياد الحريري لأتبع دورة استطلاع في دمشق وهي دورة تعليمية أكاديمية. كنت وقتذاك أسكن في الديوانية قرب شارع بغداد. وأذكر أن والدته محمد إبراهيم العلي امرأة تاريخية قوية متماسكة، لم يهزها هذا الأمر، ولم تزره حتى في السجن. كانت تشجعنا، كنت أجتمع كثيراً مع الرفيقين صلاح جديد وحافظ الأسد وأتدارس معهما الموقف، بالإضافة إلى رفاق آخرين، نتفق أحياناً ونختلف أحياناً أخرى، نختلف على آلية العمل هل نعمل مع زياد الحريري مثلاً؟ كان رأيي أن نتعاون مع زياد الحريري، الرفاق كانوا على عكس هذا الرأي، وأذكر أنني اختلفت حصراً مع الرفيق صلاح جديد، وكان يسكن وقتذاك في المزة - الشيخ سعد، وقال أتريد أن تعمل مع زياد الحريري، فقلت نعم، الصورة التي نريد القيام بها لا يمكن أن تتم إلا بمباركة القوات التي ترابض في الجبهة، والقائد هناك هو العقيد زياد الحريري، أنا شخصياً كنت أثق بزياد الحريري قد يكون السبب أنه بادلني المحبة، بصراحة كنت في تلك الفترة على استعداد أن أتعاون مع الشيطان من أجل إنقاذ محمد إبراهيم العلي، وعاهدت نفسي لو أن الحزب بالكامل تلكأ أو تأخر في إقامة الثورة سأقوم بها بنفسي وبالقوات البسيطة التي هي في أمرتي، المهم اعتمدت على القوى الموجودة في الجبهة برئاسة زياد الحريري. في إزرع توجد مجموعة من رفاقنا في السويداء في شهباء. قطننا كانت ضدنا، فيها نور الدين كنج يساند الانفصال كنا نحترم بعضنا بشكل جيد لا فرق بين ضابط مسرح أو ضابط على رأس الخدمة وكل واحد في موقعه. كما قلت سابقاً.

حين جاءني الرقيب... العميل!

كنت في دورة الاستطلاع وفي أثناءها في مدرسة المخابرات، ومدير المدرسة آنذاك الرائد نجدة اليوسفي وهو ناصري، أخبروني يوجد شخص يريد مقابلتك خرجت فوجدت رجلاً قلت له: نعم ماذا تريد.

قال: أولاً أريد أن أتأكد أنك حقيقة الملازم الأول سليمان حداد، قلت نعم أنا الملازم أول سليمان حداد من أنت؟ قال أنا الرقيب علاء الدين يونس الذي يشرف على السجن محمد إبراهيم العلي قلت: ماذا تريد؟ قال: توجد لك رسالة من محمد إبراهيم العلي، أخذت الرسالة وقرأتها كانت بخط محمد إبراهيم العلي وأنا أعرف خطه جيداً وعرفت ما تتضمنه هذه الرسالة باختصار شديد كانت الرسالة تطلب مني أن أتعاون مع هذا الرقيب، وأن أعطيه مبلغاً من النقود وقدره عشرة آلاف ليرة سورية حتى يؤمن تهريب محمد إبراهيم العلي من السجن، واتفقنا أن نلتقي في اليوم الثاني الساعة العاشرة والنصف صباحاً في مكان محدد، وحضرت الدرس ولم أفهم منه شيئاً. ذهبت إلى البيت ولم أستطع تناول طعام الغداء، وشاورت أخي جميل حداد في الأمر فأشار علي بمشاورة صلاح جديد، فذهبت لأتشاور مع صلاح جديد، وأعطيته الرسالة قال لي: انتظر قليلاً سوف يأتي حافظ الأسد وندارس الموضوع ثم حضر عبد الكريم الجندي، وقالوا نحن لسنا مطمئنين لهذا الرقيب، يمتلكنا شعور بأنه عميل للمخابرات، علينا الانتباه والحذر، وأشاروا علي أن أشاور ضابطاً بعثياً من دورتنا، قيل إنه يعرف هذا الرقيب بشكل جيد، حقيقة لم أذهب إلى هذا الضابط لأنه لم يكن في دمشق ولم أتصل بموسى العلي، لكنهم كانوا جميعاً خائفين من هذا الرقيب فهم لا يعرفون ماذا يضمّر من شر لمحمد إبراهيم العلي، وفي اليوم الثاني ذهبت لمواجهة هذا الرقيب فور مقابلتي له وقع نظري على ساعة كبيرة الحجم كانت في يده، وعرفت أنها آلة تسجيل إذن هو كاذب ومحتال جاء ليوقعني في

الشرك، وقلت في نفسي لقد صدقت نبوة رفاقي فصرخت به وأشبعته سباباً وشتماً وقلت له هيا اذهب من هنا. وبعد انصرافه أخبرت الرائد نجدت اليوسفي مدير المدرسة بهذه الحادثة وأبدى نجدت مصداقية ومحبة، وكان همه أن يبعد عني هذه الورطة وفعلاً قام بذلك، وكنت وقتئذٍ سحبت من البنك تسعة آلاف ليرة من أجل إعطائها لهذا الرقيب فيما لو صحت الرواية، وفي الحقيقة كاد هذا الفخ أن ينجح لكنني أخبرت الرقيقين حافظ الأسد وصلاح جديد فقالا لي برافو على حسن هذا التصرف. طبعاً فيما بعد تكشف الأمور بشكل جلي وواضح أن هناك مؤامرات تحاك بشكل دقيق تعتمد هذه الحيلة بأن يهرب محمد إبراهيم العلي من السجن بواسطة هذا الرقيب، وعندما يحاول الهرب، وعند المسلك الحاجز، يلتقي هنالك مع رفاقه فيطلق النار عليهم جميعاً فيكون إطلاق النار مبرراً فيقتل محمد إبراهيم العلي مع من يقتل، عندئذٍ يقول الانفصاليون حاول الهروب فهذا مصيره، وينتهي محمد إبراهيم العلي. وعندما انتهت الدورة عدت إلى معسكري، وأخبرت العقيد زياد الحريري بما جرى، وتحدثت مع العقيد زياد الحريري وقلت له يجب أن نقف جميعاً، ولن نسمح بإعدام محمد إبراهيم العلي مهما بلغ الثمن.

في 8 شباط قامت ثورة في العراق أعطتنا دفعةً جديدةً، الشعب كان معنا. وحين قابلت زياد الحريري قال لي: عندي خبر سيء! قلت: ما هو؟ قال: نقلوني إلى بغداد كملحق عسكري! قلت: يريدون إبعادك عن الساحة! قال: نعم! قلت: يجب أن نسبقهم ونقوم بالثورة! كانوا مطمئنين إلى أن زياد الحريري لا يمكن أن يقيم وحدة مع عبد الناصر، وأيضاً يحسبون له حساباً ونحن استثمارناه بشكل جيد وهو ليس ناصرياً وليس بعثياً.

لقد عجز النظام عن إعدام محمد إبراهيم العلي، وكان هناك خلاف بين ناظم القدسي والجيش حيث إن ناظم القدسي استقبل كبار وجهاء الساحل وطلبوا منه عدم إعدام محمد إبراهيم العلي ووعدهم خيراً، غير أن الجيش والقوات الانفصالية رفضت هذا الطلب وفرزت أجهزة الأمن فبركة عملية

التهريب وقتل محمد إبراهيم العلي ومن معه عند الباب ويضعون الشعب في صورة أن محمد إبراهيم العلي حاول الهروب فقتل عند الباب. وتخلصوا منه أيضاً.

إفناء زياد الحريري.. بالثورة!

عدت إلى تشجيع اللواء زياد الحريري وأقنعتة أن جميع قطعات الجيش معنا فأرجوك عدم التراجع لأن في تراجعكم هذا قد يعدم رفاقنا في السجن لاسيما أنهم قرروا إعدام محمد إبراهيم العلي كما تعلمون، أرجوكم يا سيدي. وبالفعل كانت ثورة 8 شباط في العراق عاملاً هاماً ومشجعاً لقيام ثورة الثامن من آذار. وكنت أنا على اتصال وثيق بالقيادة الحزبية مع ميشيل عفلق، صلاح جديد، صلاح البيطار، حافظ الأسد، عبد الكريم الجندي.

في هذه الفترة، زياد الحريري أصبح نائباً لقائد الجبهة بدلاً من قيادة اللواء.. وهذا لم يكن لصالح الثورة. وافق زياد الحريري على القيام بالثورة في 5 آذار، في 4 آذار نزلت مع الحريري إلى دمشق وذهبنا لمنزل المقدم محمود حاج محمود في حي التجارة، وحاج محمود كان قائداً لكتيبتي سابقاً، وهو الآن في المخابرات العسكرية في دمشق، كان لزياد الحريري مجموعة مرتبطة به منهم، محمود الحاج محمود، وقد أصبح محمود الحاج محمود مركزاً للمعلومات التي تهمنا، كنت قد أشرت على زياد الحريري أن نضع السيارة المارسيدس 190 التي جئنا بها بعيداً عن بيت محمود الحاج محمود درءاً للشبه، وفعلاً هذا ما حصل وبينما نحن في منزل حاج محمود داهمتنا الشرطة العسكرية، واعتقلت محمود الحاج محمود، واختبأت مع زياد الحريري في المطبخ، ولم يكن المقصود سوى حاج محمود وبسرعة البرق ركبت مع زياد الحريري وانطلقنا، وشعرت في حينها أنني قائد السيارة وقائد الموقف خاصة بعدما لاحظت تبديلاً في موقف زياد الحريري عندما قال لي يجب أن أذهب

ملحقاً عسكرياً إلى بغداد، هذا يعني أن زياد الحريري أصبح في حالة تردد وحيرة، واعتبر أن موقفنا انكشف لاسيما بعد إلقاء القبض على محمود الحاج محمود. انطلقت بنا السيارة وبسرعة فائقة باتجاه القنيطرة حيث تناولت البندقية الموجودة بالسيارة وجلست في المقعد اليميني الخلفي وطلبت من السائق ومازلت أذكر اسمه 'فؤاد' طلبت منه عدم التوقف إطلاقاً، كانت سرعة السيارة فوق 100 كم في الساعة رغم سوء الطريق كان يجب أن نصل إلى خان أرنبه قبل معرفة أي شيء من حاج محمود وكشف العملية، وعندما وصلنا إلى خان أرنبه، أي وصلنا إلى مكان الأمان هناك تنفسنا الصعداء ووصلنا إلى قيادة الجبهة في القنيطرة، زياد كان عازباً فذهبت وإياه إلى بيته فقال لي: سليمان يجب أن ألتحق بعملتي الجديد في بغداد! هنا أدركت تماماً أن زياد الحريري قد غير موقفه. والحقيقة أنا أحب زياد الحريري وأحترمه جيداً، وأصبح بيني وبينه تاريخ كبير ومشترك. أمسكت بالبارودة وبكيت، بكيت من الألم ومن الانهيار والضعف الذي لازمنا. وقلت لزياد الحريري سوف أقتل نفسي وأقتلك خير من أن يقتلنا الانفصاليون، أنا أخاف عليك أكثر مما أخاف على نفسي! قال لي ماذا حل بك؟! هل أصابك مس من الجنون؟! قال لي مهدئاً: (يخرب ديارك قعود قعود لنشوف) ما هو برنامج العمل؟ قلت الآن إزرع، شهباء، السويداء معنا، الجبهة معنا، حمص نحيدها، اللواء سبعون لا يجروا على الحركة، قطننا لا يحسب لها حساب، العالم كله معنا سيدي دخيلك إذا لم نقم بالثورة اليوم فلن نقوم بها في أي وقت آخر. قال ماذا نعمل؟! قلت اليوم، الآن أذهب إلى دمشق وألتقي بالرفاق حافظ الأسد، صلاح جديد، محمد عمران، صلاح البيطار وأقول لهم يا رفاق الموضوع لا يستوجب التأخير أبداً، وأشرح لهم موقفنا في الجبهة بدقة من الشمال إلى الجنوب.

قال هكذا رأيك؟! قلت: نعم! سوف أرتدي لباساً مدنياً، وأذهب إلى دمشق بأية طريقة، المهم أن أقابل الرفاق، استعرت لباساً مدنياً.. من رفيقي نصر فاضل فرج وهو من سلمية، وتوجهت إلى دمشق. وصلت إلى دمشق

وبحثت عن الرفاق. ولم أجد لهم أثراً، ثم ذهبت إلى بيت شقيقي جميل حداد، قال اذهب إلى بيت صلاح البيطار. لقد تواروا عن الأنظار جميعاً بعد اعتقال الرائد محمود الحاج محمود. وكنت أحمل في جيبى مسودة للبيان رقم (1) وفعلاً عرضت هذه المسودة على الأستاذ صلاح البيطار في منزله الذي عدل فيه بعض النقاط وبخط يده، وأعدنا صياغته بشكل أفضل. وخرجت باتجاه العودة وصادفتني في الطريق أمام الجامعة الرفيق الملازم أول موسى العلي، وأطلعته على الموقف، وماذا جرى بالتفصيل، وأيضاً التقيت بالرفيق سليمان العلي، وأعلمتهما بأنه تقرر أن تكون الثورة يوم غد الثامن من آذار، وسوف نتحرك صباحاً وسنكون حوالي الساعة الخامسة صباحاً في دمشق، وأن النقيب فائز موسى من سلاح الإشارة والذي يعمل في الأركان سيسبقنا إلى مقر الإذاعة. ثم استأجرت سيارة وانطلقت بي باتجاه القنيطرة وكان معي أحد اقاربي لكي يوصلني إلى خان أرنية ثم يعود بالسيارة لكني وبعد أن وصلت إلى المعضمية غيرت رأبي وطلبت من قريبي العودة بالسيارة المستأجرة وركبت أنا سيارة عابرة وهذا قد يكون أفضل وأكثر أماناً.

البعد بالثورة..!!

وصلت إلى مركز عملي وواجهت العميد زياد الحريري، قال ماذا حصل معك؟ قلت: كل شيء على ما يرام، قابلت الجميع وكلهم جاهزون، والحقيقة كما ذكرت سابقاً بأنني لم أر أحداً مهم سوى موسى العلي وسليمان العلي، لكنني استطعت أن أضع وأهيئ له مناخاً مرصوداً ومنظماً وما عليه إلا الحركة والتنفيذ. قال (برافو) عليك وعلى الله الاتكال، هيا باتجاه منطقة العليقة التي تتمركز فيها القوة الضاربة وهي كتبية دبابات بقيادة النقيب بسام عبد النور وهو ناصري ومن خيرة الشباب المتحمسين للوطن والوحدة وأيضاً باتجاه كتبية المغاوير التي تقع في تقاطع طرق تجعلها مهيمنة على قطاعات الجبهة وكان

قائد الكتيبة النقيب نجاتي السباعي وهو انفصالي وقد تم إبعاد هذا النقيب بـ خطة مدبرة من قبل النقيب كمال غريب والنقيب أكرم دندشي، ومن ثم اعتقال النقيب نجاتي السباعي في موقع القلع وتمت السيطرة على الكتيبة المغاوير من قبل المقدّم علي حماد علماً أن سليم حاطوم جاء من القطاع الجنوبي في الساعة 17.00 من يوم 1963/3/7 عقدنا مؤتمر للضباط قادة الوحدات الذين سيتوجهون إلى دمشق، أخبروني بالهاتف أن الرائد عبد الكريم الجندي هو أمام الباب ويريد الدخول. فقلت لهم دعوه يتفضل إلينا بالدخول أنه رفيقنا في الحزب والسلاح، جاء يشاركنا في الثورة، دخل الرفيق عبد الكريم الجندي وهو في اللباس المدني، وكان مسرحاً من الجيش، فأعطيته لباساً عسكرياً يحمل رتبة نقيب، فقال لي إن رفاقي وأبناء دورتي الآن في رتبة رائد قلت له ليس مهماً (رائد، نقيب) المهم الثورة الآن. وتقاعس آخرون عن المهام، وقلت للعقيد زياد الحريري أنت تبقى هنا حتى نحتل الإذاعة والأركان من أجل ضبط الأمور والمحافظة على نظام العمل، ومن ثم تنزل إلى دمشق، ولم يعترض، وكانت أكبر رتبة معنا هي رتبة المرحوم المقدّم أسعد الحكيم.

النفد.. نكرو دمشق!

تقدمت القوات باتجاه دمشق كوني ضابط استطلاع، ويرافقني الرائد عارف الجاجة ومن ثم باقي القوات المؤلفة من كتيبة دبابات 273 بقيادة النقيب بسام عبد النور، كتيبة م/ط بقيادة المقدّم عبد الوهاب قطيع، كتيبة مشاة بقيادة النقيب محمود الحاج محمود، كتيبة مشاة بقيادة النقيب عبد الرحمن حاج عبيد، كتيبة مغاوير بقيادة المقدّم علي حماد، كتيبة هاون 120 مم بقيادة الرائد بهجت الخاير حتى وصلنا إلى منطقة (أم الشرايط)، هناك التقينا برقيب يقف جانب عمود هاتف ويقوم بإخبار معسكرات قطننا التي تقف ضدنا كما هو معروف عن وصول قوات باتجاه دمشق وبسرعة مذهلة تسلمت عمود

الهاتف وصعدت وقطعت جميع خطوط الهواتف المؤدية إلى قطنا وغيرها بعد أن كُتبت صفعات عدة ولكمات وشتائم لهذا الرقيب، وتابعنا الطريق باتجاه دمشق بعد أن أخذت السلاح الموجود بحوزة رئيس المخفر. وصلنا دمشق في الساعة الخامسة والنصف كنا في دوار الجمارك ظهرت أمامنا سيارة بسرعة الجنون يقودها الطيار المعروف فايز منصور، وبدأ يكيل لنا السياب والشتائم، وراح يصيح أنتم ناصريون أبوكم وأبو الذين أرسلوكم ماذا تريدون أن تفعلوا: لقد وقف فايز منصور مع الانفصاليين فقلت لعارف الجاجة تعامل معه أنت تستطيع امتصاصه، لأنك تعرفه، هدى من روعه كي لا يفسد مخططنا قال له عارف الجاجة. أولاً: نحن لسنا بناصرين نحن قدمنا من أجل الوحدة وعليك أن تقف، إلى جانبنا فهذا خير لك ولنا فلم يقتنع فايز منصور بهذا الكلام، بل ذهب بسرعة، وعاد محلقاً بطائرته /ميغ 17/، وأغرقنا بوابل من النيران، كانت القوات تصل تباعاً جاءت الناقلات والدبابات وباقي القوى، وصلنا الإذاعة فوجدت فائز موسى الذي يعمل في سلاح الإشارة قد وصل وقام بالواجبات المترتبة عليه. والتقيت بالأستاذ منير الأحمد وقد بلغ الرعب منه حد الموت لكنني لم أنس فضل والده المرحوم الشاعر بدوي الجبل إذ كان كرمي في مرحلة سابقة، فأوعزت إلى أحد السائقين بأن ينقله إلى منزله آمناً مطمئناً.

بيان الثورة الأول.. بصوتني!

في الإذاعة حصل جدال بيني وبين أسعد الحكيم، قال أنا سوف أذيع البيان رقم 1/ وأنا أقدم رتبة قلت: لا، أنا من يذيع البيان رقم 1/ فأنا الذي أشرفت على صياغته، وقد كتبته بخط يدي. وهذا هو نص البيان:

لقد انطلق صوت الحق يعلن كلمة الحق في صبيحة هذا اليوم الأغمر فانهمز الباطل وتساقط دعائه على درب أمتنا الطويل، وانتصرت إرادة الجيش والشعب، وانهمز عملاء الرجعية وأجراؤها واندحر دعاة الانفصالية الذين

حرفوا سورية عن طريق الوحدة الصحيح، وكرّسوا الانفصال بكل مظاهره وأشخاصه، وحاولوا أن يحلوا الديمقراطية محل الوحدة، فكانت ديمقراطية أعداء الشعب ودعاة الشعبوية والانتهازية.

لقد ظنّ حكم العمالة، الذي انتهى بنهاية يوم أمس إلى غير رجعة، إن إرادة الشعب ستقهر، وإن الغلبة للباطل المسلح فراح يُسرح ضباط الجيش الأشاوس ويقيم المحاكم السورية ليسوق إليها هؤلاء الضباط زرافات ووحداناً، ولبس ثوب الشرعية، شرعية أبي رمانة، مهزلة التاريخ والديمقراطية، فنكل بالطلبة الأحرار وأفتعل الحوادث معهم، واستهان بكرامة المواطنين، فسرح من سرح من المعلمين والموظفين ونقل من نقل، وحلّ النقابات العمالية ليقوم على أنقاضها نقابات تأتمر بأمره، وشرّد العمال وهجر الفلاحين. وأفسد محاسن قانون الإصلاح الزراعي، وانقضّ على كل مكسب عمالي أو فلاحي وسخر أجهزة إعلامه لخدمة مأربه، وأطلق للصحف الصفراء المأجورة أسنتها خدمة لمأربه، فأفسد على الصحافة مهمتها، وأغلق كل صحيفة حرة لا تأتمر بأمره، وأقفل المدارس والجامعات ليفسح له مجال التآمر بعيداً عن عيون شبابنا وطلّاع زحفنا، وأخرج إخواننا العرب من بلدنا، بل بلدهم، خلافاً لكل عرف ولكل مبدأ قومي وعقيدة عربية وخلق رفيع، فمسّ بهذا كبرياء الشعب وكرامته. واستهان بكل تقليد عربي، وتنكر للعروبة بالقول وال فعل. وبدأ انطلاقته الشعبوية لتجميد النضال الوجدوي، ولضرب فكرة الوحدة الصحيحة وفكرة القومية العربية الصادقة.

واستنفرت حكومة الانفصال الصحافة والانتهازية السياسية ورأس المال الاحتكاري في سبيل الاعتداء والكسب والتسلط، ولجأت إلى التلويح بشبح الناصرية، في كل مناسبة جاعلة منه قميص عثمان لتدعيم حكمها وسلطانها، وتعزيز فرديتها وديكتاتوريتها، وإلهاء الشعب عن إدراك حقيقتها وحقيقة أهدافها، وعن متابعة الأزمة السياسية العميقة التي تعيشها. ولكن أسطورة الحكومة القومية المنحلة لم تستطع أن تخفي حقيقتها، فكانت كالنعامة التي تخفي وجهها في التراب هرباً من الصياد.

ولكن الصياد، وهو الشعب، أدركها فقامت انتفاضة جيشه الباسل لتصحيح الأوضاع ولتقوم الانحراف وتضع سورية العربية في طريقها الصحيح، طريق الوحدة والحرية والاشتراكية.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

لقد عانينا طويلاً، وأفسحنا المجال أمام كل الحكومات التي تعاقبت بعد الانفصال لتعمل من أجل الشعب، فكانت المآسي التي عشناها، وكان الغلاء الذي اكتوى الشعب بناره، فقامت ثورتنا المضطرة، ثورة الجيش، ثورة العامل والصلاح، ثورة الطفل والشاب، ثورة المناضلين المكافحين، ثورة الثأر من حكم العملاء والمرتدين المرتزة.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

بنفاد الصبر انتهى حكم الغرياء عن الشعب، الغرياء عن أهدافه ومبادئه عن مرارة كفاحه وحلاوة انتصاراته.

لقد انهاروا منذ أن جردهم الشعب من ثقته ولكنهم ظلوا يحاولون ويكابرون حتى كانت ساعة صفهم وكانت نهايتهم المفجعة.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

ندعوكم للوقوف وراء حكم وحدوي عربي شعبي اشتراكي يضع سورية في طريق الوحدة ويعيدها إلى الحضيرة العربية المتحررة ويمكنها من أن تكون في طليعة الدول العربية المتحررة إيماناً بالله والعروبة وخدمة للحرية والأحرار والاشتراكية والاشتراكيين.

ندعوكم للوقوف صفاً واحداً وراء ثورتكم المضطرة على مختلف فئاتكم في وجه القوى الرجعية والانفصالية والشيوعية والانتهازية التي أقامت العد الانفصالي لحمايتها وجماعيتها مصالحها فاطمئنوا إلى مستقبلكم فلن تسلم الأمانة إلا للمؤمنين الذين عرفهم الشعب ووثق بهم وكانوا في كل معارك نضاله وكفاحه وعاشوا حلاوة نعمائه ومرارة فاقته وشدة بلواه.

اطمئنوا إلى رفاق السلاح، رفاق المصير الواحد، رفاق النضال على درب
النضال.

أيها المواطنون.. إن ينصركم الله فلا غالب لكم.

عاشت وحدة الجيش والشعب.. وعاشت انتفاضة الثامن من آذار المباركة.

في 1963/3/8

وبعد إذاعة هذا البيان، وإذاعة بيان عودة الضباط المسرحين، تركتُ مبنى
الإذاعة وذهبت مباشرة إلى سجن المزة العسكري لكي ألتقي محمد إبراهيم
العلي، وأفتح باب زنزانه الإعدام، ليخرج أخي (أبو الندى) ويسهم قى بناء
الوطن، هذا الوطن العربي الكبير من محيطه إلى خليجه، فلقد كانت فرحة لا
يضاهيها فرح.



شهادة موسى العلي (*)

(*) موسى العلي: ضابط من دورة محمد إبراهيم العلي في الكلية الحربية. تسلّم مهمات عديدة في القوات المسلحة. كان قائد لواء عسكري شارك في إيقاف حمامات الدم التي جرت في أحداث أيلول 1970. شارك في أحداث ثورة 8 آذار 1963. سرح من الخدمة العسكرية في أواخر عام 1970 وهو برتبة مقدم. يعمل إجازة في الحقوق. ويعمل الآن محامياً. له اهتمامات في الكتابة الروائية حيث أصدر رواية (أرض السهل) عام 2001. وهو من مواليد عام 1937.

طفولتنا.. والمدرسة الابتدائية!

حين أتحدث عن ذكرياتي لنضالنا في الحزب لابد أن أتحدث قبل كل شيء عن محمد إبراهيم العلي، ابن عمي. ذلك لأننا عشنا معاً مرارة العيش وقسوته أطفالاً قبل دخول المدرسة، وقبل أن ندخل إلى الكتاب. كان يكبرني، عانينا معاً رحلة المنايا في العديدة التي عاشتها أسرنا، تقاسمنا لقمة الخبز، وسطوة الإقطاع، والأحلام المشتركة، إذ كانت أحلامنا منذ كنا أطفالاً تدور حول التخلص من الإقطاعي وظلمه. تقاسمتُ ومحمد ظروف الدراسة في القرى البعيدة عن قريتنا بسبب عدم توفر المدرسة فيها. استقر بنا المقام أخيراً في المدرسة المحمدية بحماة، ولحق فيها فيما بعد أخي صالح وأولاد عمي الآخرين. كان والدي محمد شديدي الحرص على تعليمه، وكانت والدته مستعدة لبيع الغالي والرخيص لكي يصبح ذا شأن، وقد حرصت هي قبل المدرسة أن تدخله الكتاب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم. وحين دخلنا المدرسة الابتدائية الرسمية اختارت له والدته مدرسة في قرية تبعد عن قريتنا (100) كم في منطقة جبلة، لدى أسرة تمت إلى أسرنا بقرابة، بينما أرسلتُ أنا إلى مدرسة أخرى مماثلة في البعد ذاته تقع في ناحية (الدريكيش). مدرسة المعمورة. وقُبِل كل منا في مدرسته في الصف الرابع الابتدائي، ولم تنقطع أخبار بعضنا عن بعض طوال تلك السنة الدراسية. في السنة الثانية جئنا إلى حماة لندرس معاً في الصف الخامس الابتدائي، فكان أن استأجر لنا عمي إبراهيم - أبو محمد - غرفة صغيرة لدى أسرة في حماة. كانت أمي وأم محمد تعدان لنا الطعام ليكفي أسبوعاً كاملاً في أيام الشتاء، إذ كنا لا نستطيع العودة إلى القرية فنظل في المدينة مما يضطر إحدى الوالدين لتأتي إلى المدينة كي ترعى شؤوننا قبل أن تضطر للعودة إلى القرية من أجل العمل. كانت علاقاتنا مع زملائنا في المدرسة جيدة ولنا فيها كثير من الأصدقاء، وكنا نكنّ لمعلمينا في تلك المدرسة كل الحب والاحترام،

وكانوا أهلاً لذلك برعايتهم لنا، وجلّهم كانوا من عائلة الشقفة من مدينة حماة. استمرّ دراستنا واجتازنا الشهادة الابتدائية والإعدادية ونحن في علاقات وهموم وتطلعات مشتركة، وفي فترة الدراسة الإعدادية تعرفنا على المجتمع الثقافي والسياسي في مدينة حماة، وقبل ذلك وخلال سنتنا الدراسية في الصف الخامس الابتدائي، تعرّف محمد إلى حزب الشباب «العربي الاشتراكي»، ودعاني لكي أذهب معه إلى مقرّ الحزب، كنا في مرحلة عمرية لا تسمح لنا بالحديث المطوّل عن الفكر، لكن أستطيع القول إن سبب حماسنا لذلك الحزب كان عائداً إلى أن هدفه هو القضاء على الإقطاع وإنصاف الفلاحين، ودعم الطبقة المثقفة. وقد أصبح محمد عضواً فعالاً في الحزب، بينما لم يقبل طلب انتسابي الشفهي لأكرم الحوراني بسبب صغر سني، ولكنني كنت أذهب مع محمد إلى مكتب الحزب، وكنا نرى الأستاذ أكرم الحوراني، نجلس معه مصغيين إلى آرائه وأقواله وتوجيهاته، وعندئذ، كنا نقوم بالمهام التي يكلفنا بها، خصوصاً تلك التي كلفنا بها وشرح لنا كيفية القيام بتلك المهمة لخوض انتخابات المجلس النيابي ضدّ الإقطاع. أعتقد أن أدوارنا كانت مهمة قياساً لأعمارنا الصغيرة وتجربتنا القليلة.

بعد حصولنا على الشهادة الابتدائية حصل انفصال في المرحلة الإعدادية بيني وبين محمد، حين قبل كطالب داخلي في مدرسة ابن رشد لتفوّقه بالدراسة، بينما تابعت دراستي الإعدادية في المدرسة المحمدية الشرعية. وفي ثانوية ابن رشد، شكل محمد صداقات جديدة من خلال اختلاطه بالمجتمع المدرسي، واطلع على مكتبتها، إذ كان كثير القراءة يرغب في أن يحصل على غزارة في المعارف، وكان يحضر لي بعض الكتب والروايات ويشجعني على قراءتها. لكن محمد ولضيق اليد، وبسبب اضطهاد الإقطاع لأسرتنا وتهجيرنا من القرية، والاستيلاء على مواسمنا بسبب نتائج الانتخابات، حين اكتشفوا ميولنا الحزبية، انقطع عن الدراسة النظامية بعد حصوله على الشهادة الإعدادية، فتقدم بأوراقه إلى مديرية التربية ليصبح معلماً ابتدائياً، وعيّن في

محافظة دير الزور، ناحية الصور، ومن ثم معلماً وحيداً في إحدى المناطق التي يسكنها البدو، حيث كان المعلم والمدير في آن واحد لمدرسة (الحريجية). في تلك الفترة كان محمد يدرس ويحضر من أجل امتحان الشهادة الثانوية (دراسة حرة) على الرغم من أنه طلب إلى خدمة العلم. وكان أن خدم الخدمة الإلزامية في منطقة الجولان، قرب نهر الأردن مباشرة. عرفت منه أنه اكتسب خبرة كبيرة من خلال مخالطته للآخرين الذين كان يعيش معهم في الثكنات والمعسكرات.

الانتساب إلى الكلية الحربية..!!

في نهاية هذه الخدمة، والخدمة الاحتياطية، اجتاز امتحان الشهادة الثانوية بنجاح عام 1956، فتقدم بطلب انتساب إلى الكلية الحربية وقُبل فيها دون أن نعرف. نحن أبناء عمه. أنه تقدم لامتحانات الشهادة الثانوية، أو أنه تقدم للكلية العسكرية. وقد عرفت ذلك حين تفاجأت به في الكلية الحربية بعد أن سبقته إليها بفترة. كنت أرغب بدراسة الطب لأنني حصلت على الشهادة الثانوية. الفرع العلمي. طبيعيات. لكننا التحقنا بالكلية الحربية بناءً على توجيهات الدكتور فيصل الركبي، الذي أكنّ له حتى اليوم كل التقدير والاحترام. وحتى اليوم لا أدري كيف تمّ قبولنا كطلاب في الكلية الحربية، وكان معنا عدد من الرفاق البعثيين لا بأس به، أذكر منهم محمود حمرا، وليد حمدون، خالد اصلان، اسكندر سلامة، أحمد صقر، محمد دباس، مصطفى العيسى، سليمان حداد، صادق حموي، أحمد خديجة.. وآخرين. وكنا نعرف بعضنا جميعاً بهذه الصفة. وكان الحماس القومي في أوجه بسبب العدوان الثلاثي على مصر. كان نظام الكلية سنتين، سنة كمستجد وسنة كطالب متقدم. وقد كان المقدم أمين الحافظ مديراً للكلية الحربية، واختارني لسلاح المدرعات بعد إنهاء السنة الأولى، وكان طلبي لسلاح المدرعات بناءً على

إعلامي من قبل وليد حمدون الذي تلقى توجيهات حزبية بذلك، على ما أعتقد . وبقي محمد إبراهيم العلي في الكلية الحربية، اختصاص مشاة. في هذه الفترة وقبل أن نتخرج بقليل، قامت الوحدة بين مصر وسورية، تخرجت ضابطاً وعينت في اللواء الخامس . الجميهره المدرعة الأولى . التي كانت تتمركز في الجبهة. أما محمد فقد حدث له مشكلة مع مدير دورته الرائد عبد الكريم النحلاوي، مع عدد من رفاقه تتعلق حول انتسابهم لحزب البعث العربي الاشتراكي، كان منهم سليمان حداد، وأحمد نديم خديجة، فاضطروا أن يعيدوا السنة الثانية من الدراسة في القاهرة، بعد أن أخفقت جهودهم في تجاوز تلك المشكلة. رغم بعد المسافة بيننا ظلت الاتصالات مستمرة نناقش من خلالها الأوضاع والمواقف إلى أن اجتاز محمد امتحانات الكلية الحربية في القاهرة، وتخرج ضابطاً، واتبع دورة مظلات اجتازها بنجاح باهر بعد قفزة حرة خطيرة من طائرات عمودية إلى مياه قناة السويس بحضور الرئيس عبد الناصر. وزرته في القاهرة فوجدته محور نشاط بين العديد من الضباط السوريين هناك، من بينهم كان النقيب الطيار الليلي حافظ الأسد، والرائد صلاح جديد، وعبد الكريم الجندي، وأحمد الأمير. وكاسر محمود، ومحمود حمرا، ونزار الجندي، وعدنان دباغ، وسعيد دباح، ومحمد الحاج رحمون.. الخ. ومنذ تلك الفترة انعقدت أواصر الصداقة المتينة فيما بين هذه المجموعة الكبيرة من الضباط.

الانفصال .. وحركة الضباط الأحرار!

بعد الانفصال عاد محمد إلى سورية مع رفاقه ليكون أحد ضباط كتيبة المظلات في مدينة حلب، وفي أثناء الانفصال حدثت أمور أبرزها تسريح عدد من الضباط المعروفين بميولهم الوجدوية، وكان من بينهم المقدم محمد عمران، الرائد صلاح جديد، النقيب حافظ الأسد، النقيب عبد الكريم الجندي، الرائد

أحمد الأمير. ولأن ظروف الانفصاليين لم تكن مستقرة من جهة ولأن الجماهير شديدة الحماسة لإعادة الوحدة مع مصر من جهة ثانية، فإن الجيش كان يتأثر بما يحدث داخل المجتمع فتعددت التيارات داخل المؤسسة العسكرية، منها المؤيد للانفصال ومنها الداعي إلى الوحدة ومنها من يدعو إلى إعادة الوحدة بشروط، وسط هذا التناظر بين التيارات داخل الجيش وقعت أحداث 28 آذار 1962 في حمص و31 آذار 1962 في حلب، والتي تزعمتها حركة الضباط الأحرار في سورية التي كان نواتها ضباط بعثيون والتي هدفت للخلاص من حكم الانفصال وإعادة الوحدة مع مصر بشروط مدروسة. كان المخطط العسكري لهذه الحركة والمسؤول الأول فيها المقدم محمد عمران، وقد زرت حلباً بعد الانفصال وكان محمد إبراهيم العلي وحمد عبيد محوري التحرك هناك، وطلب مني حمد عبيد أن أتصل بأحمد الأمير في دمشق وأن أعتد عليه، وكنت آنذاك ما أزال في اللواء الخامس المدرع الذي انتقل من المنطقة الجنوبية إلى ثكنة خالد بن الوليد في حمص. كنت في تلك الفترة على اتصال مع محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد وأحمد خضور وعلي مصطفى وأحمد درويش وعلي الضماد وعبد الكريم الجندي وعزت جديد وأسعد غوثاني وعلي عمران وفؤاد هدبا ومفيد العلي وآخرين. وكوني كنت في حمص كلفت بمهمة الاتصال برفاقنا في حلب واللاذقية ودمشق، كان المحور الأساسي لاتصالاتي هو ربط التنظيم الحزبي من أجل تجاوز أزمة الانفصال فالتقيت بعدد كبير من الضباط المستقلين والبعثيين والناصريين، وخاصة منهم العاملين في الجيش. كان يقود التنظيم العسكري آنذاك المقدم محمد عمران، الذي قام بالتحضير لحركة الضباط الأحرار بالاتفاق مع الناصريين، والمستقلين ذوي الاتجاه القومي، وهذا ما حدث في 28 آذار 1962. في تلك الفترة لم ينقطع اتصالي بمحمد إبراهيم العلي لمعرفة ما يحدث في حلب، كما كنت على اتصال بكافة رفاقنا الآخرين من أجل الإعداد والتهيئة وتحديد موعد للبدء بحركة شاملة تطيح بالحكومة الانفصالية، وعشية تحركنا شعر بعض الضباط

الانفصاليين بتحركاتنا لذلك تم نقلي من الكتيبة المدرعة (105) إلى الكتيبة (272) داخل اللواء المدرع. وشعرت أنني وضعتُ تحت المراقبة، ولكي تقيد حركتي عمد قائد الكتيبة الرائد عمر الأبرش بحجة التوجيه إلى أمور الانضباط والتدريب إلى منعي من مغادرة مكتبه كلما رغبت بذلك. هنا أود أن أذكر بأن علاقتي بالكتيبة (105) كانت قوية جداً ولم تتأثر هذه العلاقة بنقلي منها ومنذ اللحظات الأولى لانتقالي بدأت أحضر الكتيبة الجديدة (272) للعمل. وقد كانت علاقتي بضباطها وأفرادها علاقة جيدة. وبذلك قدرت أنني أستطيع السيطرة على الكتيبتين معاً وقد نقلت هذا الاطمئنان إلى المرحوم الملازم الأول أدهم كنيفاتي الذي كان قلقاً من مكوثي الطويل في مكتب قائد الكتيبة، وكان أدهم قد تلقى إشارة البدء بالعمل من الضابط محمد رباح الطويل، الذي لم أراه آنذاك، وكان من رفاقنا في القطيفة يخدم بسلاح المدفعية.

حول تطورات ما حدث في حمص، في 28 آذار 1962 قمتُ بالسيطرة على اللواء الخامس بالتعاون مع الملازم أول أدهم كنيفاتي والملازم محمد مزاحم والملازم أول ماجد البسطي، وضابطين من سرיתי الجديدة في الكتيبة (272) هما الملازم محمد الزعبي، والملازم مارديني، وحين اجتماع هؤلاء الضباط للبدء بالعمل كُشف الأمر، فأمرتُ بالتحرك الفوري إذ ذهبت باتجاه قيادة الكتيبة لاعتقال الرائد عمر الأبرش، فوجئنا بالطريق بالرائد هشام رئيس قسم العمليات في اللواء، يتجه باتجاه قائد الكتيبة المستتفرة الرائد عمر الأبرش لتبنيه، فأطلق عليه طلقة إرهاب الملازم أول مزاحم، وقد أمرته بأن يمتنع عن الإطلاق قبل السيطرة على اللواء، وفعلاً قمتُ باعتقال الرائد عمر الأبرش، ورئيس عملياته النقيب عبد الرزاق مارديني، واقتيدا مع غيرهما من الضباط الانفصاليين إلى مقر عمليات اللواء حيث تم حجزهم وحراستهم من قبل الملازم الأول المرحوم سعيد يونس، أمرت بعد ذلك باجتماع الكتيبة، وأرسلت العناصر مع الملازم محمد مزاحم للسيطرة على مرآب اللواء. وذهبت

بناء على طلب أدهم إلى قائد الكتيبة المضادة للطائرات الرائد حمدان، الذي كان من رفاقنا البعثيين والذي امتنع عن مشاركتنا في العمل وقد خسرنا وقتاً ثميناً في محاولة إقناعه الأمر الذي أدى حين ذهابنا من عنده لاستشهاد الملازم أول أدهم كنيقاتي برصاص ملازم انفصالي لم ننتبه إلى وجوده يدعى بديع فلاحة، وقد أصبتُ أنا بشظية من خلال الإطلاق الكثيف للنيران، وفي هذه الأثناء حضر رئيس أركان اللواء المقدم مصطفى الحايك، والذي كان ينتظر في منزله ليعلم بنجاح الحركة أو فشلها. ووضعت بالصورة وعن استشهاد أدهم، وطلبت منه أن يحضر المسؤول عن كتيبة المشاة وعندما حضر بديع فلاحة، لم أستطع التعرف عليه وحاول قتل المقدم الحايك الذي استطاع أن يمسك بيد الملازم فلاحة ولكن الطلقة أصابت فخذ المقدم مصطفى فاندفع أحد عناصر الشرطة وأوقع بديع فلاحة أرضاً، عندئذ صوبت بندقيتي إليه دون أن أدرك أن قاتل أدهم هو بديع فلاحة وبشكل عفوي لم أرغب بقتله فعمدت إلى ضربه بأخمص البندقية على رأسه أكثر من ضربة فوق أرضاً وصرخ بإيعاز لكتيبته بإطلاق النيران، وانطلقت زخات الرصاص عشوائية من قبل الكتيبة فأصبت بطلق في خاصرتي، لم يكن مؤذياً، وهرب بديع فلاحة بعد أن زحف خلال الإطلاق مسافة طويلة، عند ذلك خارت قوى المقدم الحايك، وأراد أن يترك اللواء لتقديره بأن الحركة قد فشلت، فطمأنته بأن الدبابات قادمة، وفعلاً أرسلت بعض عناصر الشرطة لتسرع بقدم الدبابات بأمر الضابط محمد مزاحم الذي قدم بدباباته وتمت السيطرة على اللواء بحدود الساعة الثالثة تقريباً من صباح ذلك اليوم. وكنت قد اتفقت مع محمد عمران سابقاً أن يرسل لي عدداً من الضباط البعثيين المسرحين في حال نجاح الحركة وكنا قد اتفقنا على قائمة تحدد وظائفهم ولكنني فوجئت بقدم العقيد الناصري جاسم علوان الذي عقد الأمور، ولم يحضر من رفاقي الذين طلبتهم من محمد عمران أحد حتى الساعة التاسعة صباحاً، وأخيراً حضر منهم فقط، الضباط المسرحون طلال أبو عسلي ومصطفى عمران ومصطفى طلاس ورثيف

علواني، فكلفت طلال أبو عسلي بقيادة الكتيبة (272) ومصطفى عمران رئيساً لأركان كتيبة المشاة، ومصطفى طلاس قائداً لسرية مدرعات لحماية الثكنة بشكل عام، والملازم رثيف علواني أرسلته إلى حماة لكي يسيطر على سرية مشاة محمولة تابعة للواء تعسكر في حماة، وليعتقل هناك الضابط الانفصالي المدعو عبد الملك، ولكن حدث أن عبد الملك هذا قد اعتقل رثيف علواني. ومن الأمور المؤسفة أن الضباط الثلاثة الآخرين ذهبوا إلى قيادة المنطقة بناءً على طلب من قائدها وتركوا مهماتهم في اللواء دون أن يعلمني أحد منهم بذهابه. وفيما بعد علمت أن طلال ذهب إلى دمشق وعمران إلى اللاذقية ومصطفى إلى حلب. بعد ذلك بدأت الأمور تتعقد في اللواء وانقطع اتصالي بالرفاق بما فيهم محمد عمران، ولم أعذ أعرف ما عليّ أن أفعله خاصة وأن رفاقي الفاعلين معي في اللواء خالد بدوي وعلي زيود وسليمان طراف كانوا يتبعون دورة فنية في دمشق ولم يحضروا هذه الأحداث ولذلك كنتُ وحيداً بين تيارات متضاربة. فذهبتُ إلى مدينة حماة متكرراً علني أرى الأستاذ أكرم الحوراني لأنني لم أكن مطلعاً على الخلاف بين قيادات الحزب، وبوساطة الأستاذ أحمد قره بولاد الذي صادفته موجوداً داخل السيارة التي سافرت بها إلى حماة، استطعت أن أرى في حماة الرائد علوش ولم أستطع رؤية الأستاذ أكرم الحوراني، وقد أعلمني الرائد علوش بوجود محمد عمران وصلاح جديد في حمص. عدتُ فوراً إلى حمص حيث أعلمتني والدتي بأن محمد عمران وصلاح جديد ينتظرانني في بيت الشيخ محمد عمران، وكان مؤتمر حمص ما يزال منعقداً وقد أطلعت محمد وصلاح على ترددي الموقف. وكان رأي صلاح جديد أن نبدأ بالسيطرة على اللواء من جديد ولو أدى ذلك إلى قتلنا لأن رقاب رفاقنا أصبحت مهددة بأعواد المشانق. لكن محمد عمران رأى تأجيل السيطرة على اللواء من جديد على ضوء نتائج مؤتمر حمص، وفي حال نجاح المؤتمر لا حاجة للسيطرة على اللواء من جديد. وفعلاً عدت إلى اللواء وأعلمني بعض صف الضباط بوجود حركة مريبة لبعض الضباط لصالح الانفصاليين

فاستنفرت عناصر الكتيبة (105) وعمدت إلى احتلال كامل مرآب دبابات اللواء التي أضحت تحت سيطرتي، وأعلنت الرائد محمد عيد الذي اتصل بضباط من مؤتمر حمص، وحصل سوء فهم بالموضوع. حيث اعتبر المؤتمر أن التحرك موجه ضده فانقرط المؤتمر وغادر محمد إبراهيم العلي المؤتمر متوجهاً إلى حلب.. وأخذت حركة حلب في اليوم التالي منحى آخر يختلف عن توجهات حركة حمص وما توصل إليه مؤتمرها. وكنت قد تراجعت عن احتلال مرآب الدبابات لأن المقدم مصطفى الحايك رئيس أركان اللواء وشريكنا بالحركة وأحد ضباط مؤتمر حمص جاء إلى اللواء بعد سيطرتي على المرآب ومضت بيني وبينه مفاوضات قضت بعدم ضرورة أي عمل جديد لأن ما نبغي إليه قد تحقق في مؤتمر حمص فصدقته واعتبرت أن ما يريده محمد عمران وبالتالي كافة رفاقنا قد تحقق. وفي اليوم الثاني عندما انفردت إذاعة حلب في نهجها سلبتنا الحجة ومالت السيطرة للقوى التي بدت معتدلة وضد الضباط الانفصاليين وعلى رأسهم عبد الكريم النحلاوي والذين أبعدوا خارج سورية بواسطة هذه القوى التي أظهرت اعتدالها واستغلت مؤتمر حمص. وأمرت هذه القيادة بتحريك اللواء المدرع إلى حلب، وقد وافقت على ذلك بهدف التعاون مع رفاقنا هناك، ولكن عدم القدرة على الاتصال وسوء التنظيم أضعف من موقفنا وسارت القضية نحو الفشل كما هو معروف.

في 28 آذار 1962 لم يتحرك من قوى الجيش العربي السوري سوى اللواء الخامس المدرع في حمص، وكان يجب أن يتحرك معه في هذا اليوم القطعات الأخرى في السويداء واللاذقية وحلب ومن ثم يمكن أن يشجع ذلك إلى التحرك في دمشق. لكن عدم إعطاء التوقيت الدقيق لكافة القطعات جعل حلب تتحرك بعد يومين وكان قائد التحرك هناك والعنصر الأهم هو الملازم محمد إبراهيم العلي، الذي استطاع أن يسيطر على كافة القطعات الموجودة بحلب وخاصة على الكتيبة الخاصة هناك التي كانت تدعم الانفصال. وكان الضابط الأصغر رتبة الذي حضر مؤتمر حمص، وكان فاعلاً فيه وبسبب الحركة الثانية للواء

المدرع في حمص دعماً لهذا المؤتمر والذي فهم من المؤتمرين أن التحرك كان لصالح الانفصال غادر محمد المؤتمر بشكل مفاجئ لأن محمد رباح الطويل أخبره بأن بعض الضباط يعدّون لاعتقاله. وبعد ذلك أصبحت إذاعة حلب تذيع باسم الجمهورية العربية المتحدة، وقد صدرت عدة بيانات عسكرية تتحدث عن حركة الضباط الأحرار، وكان من نتائج مؤتمر حمص عودة الضباط المسرحين، وقيام الوحدة، والتخلص من الضباط الانفصاليين. وتمّ إيصال هذه النتائج إلى رئيس الجمهورية ناظم القدسي، فأصدر بياناً بـ 14 نيسان 1962 حول قرارات مؤتمر حمص، وحول تحرك الضباط في حمص وحلب واللاذقية، وخصوصاً العفو عن مرتكبي الأحداث التي جرت في مدينة حلب تحديداً، واعتبارها من الأحداث العادية. وبعد ذلك اعتبر هذا العفو غير شامل لضباط حلب، لأن القطاعات العسكرية في حلب تمردت على مؤتمر حمص. وتشكّلت في تلك الفترة حكومة بشير العظمة، وهنا تمّ نقلي إلى إدارة الحرب الكيميائية، وتم اعتقال بعض الضباط وعلى رأسهم محمد إبراهيم العلي، وجرى تحقيق طويل معي قام به عز الدين الحفار، مركزاً على علاقتي بحركة الضباط الأحرار بحلب، وخصوصاً علاقتي مع محمد إبراهيم العلي، ومحمد أوس، كما كان يسألني حول الأوضاع السياسية، وعن التيارات الحزبية داخل الجيش وخارجه، وعن الناصريين والبعثيين والانفصاليين.. الخ.

وعرفتُ أن الكثير من الضباط اقتيدوا إلى السجن لأنهم شاركوا في أحداث حمص وحلب ضد الانفصاليين، وقد كانوا بالعشرات، ودارت المحاكمات الطويلة معهم، فكان أن حُكم محمد إبراهيم العلي بالإعدام، وأُفرج عن بعض الضباط، وحُكم بالسجن على بعض الضباط الآخرين. هنا أصبح سجن محمد إبراهيم العلي والحكم عليه بالإعدام هاجسي في الحياة، وموضوع نشاطي اليومي بين رفاقنا من الضباط البعثيين الذين لم يدخلوا السجن، ومن بين هؤلاء أحمد خضور، وعلي مصطفى، ويوسف عرابي، ومحمود عزام، وعلي الضماد، ومحمود حمرا، وكاسر محمود، وأحمد درويش، وسليمان حداد،

وسليمان العلي، وعلي غانم، وعلي زيود، وخالد بدوي، وسليمان طراف، وخالد رسلان، وأحمد نديم خديجة، وخالد الخالد، ومصطفى الجندي، وشقيقه نزار الجندي، وصادق الحموي، ومصطفى الحاج علي، ويوسف عرابي، وغيرهم، وكثير من الضباط الناصريين والقوميين. وكان أول من خرج من السجن وبعد فترة بسيطة الرفيقان حافظ الأسد وصالح جديد. وأذكر هنا أمرين أساسيين، هو أنني وبينما كنت أمشي ومنير العبد الله قرب مقهى الهافانا في دمشق، جاء شاب وسيم يلبس لباساً أنيقاً وتقدم من منير العبد الله، وسأله إن كان يعرف موسى العلي، ففوجئ منير العبد الله بالسؤال وقال له: هذا هو موسى العلي. كان الشاب هو الدكتور إبراهيم ماخوس، فتعرفت إليه. فقال لي: كنت أظن أنك عملاق وضخم، لاسيما وأن أخبار أحداث حمص التي كنت أساسياً فيها قد تحدثت عنك طويلاً. أذكر أننا جلسنا مدة طويلة في مقهى الهافانا وتحدثنا عن حركة حمص وتواعدنا أن تستمر لقاءاتنا وتتجدد، هذا هو الأمر الأول. أما الأمر الثاني، فهو لقاءاتي المتكررة مع الأستاذ زكي الأرسوزي، كنت أستمع إليه وأتعلم منه حين نجلس مع مريديه في مقهى الهافانا. كانت أحاديث الأستاذ زكي الأرسوزي تدور حول الوحدة والقومية، والانفصال أيضاً. وبيشرنا بانهيائه، وكان يدين تصرفات أكرم الحوراني، وكنا كتنظيم عسكري نجد أن أكرم الحوراني سيجد نفسه دون قوة، وأن الانفصاليين سيهملونه ولن يقدرُوا مواقفه معهم، وعليه أن يعي ذلك ويعود إلى رفاقه في الحزب، فما من أحد يقدره غيرهم. كما أن عليه أن يستفيد من قوته ومركزه وأن يعمل للإفراج عن رفاقه الضباط السجناء البعثيين، وإذا لم يتصرف مستفيداً من الفرصة سيخسر ثقة كل رفاقه بالحزب، وقد أرسلت له رسالة شفوية بهذا الموضوع مع رفيقنا كنعان حديد، وعلمت أن الرسالة وصلت إلى أكرم الحوراني. وقد كنت أثق بكنعان حديد ومعجباً بفكره وهدوئه وطيبته.

الذهاب إلى بيت أكرم الحوراني..!!

كانت تدور في أوساط عائلتي فكرة أن نذهب إلى أكرم الحوراني لكي يعمل من أجل تخفيف حكم الإعدام الصادر بحق محمد إبراهيم العلي، لذلك ذهب ابن عمي علي (شقيق محمد إبراهيم العلي) ومعه أخي صالح، إلى بيت أكرم الحوراني ليطلبا منه ذلك، وحين عادا من عنده كانا متشائمين لأنه لم يعدهما بشيء. وقد نُقل إلينا فيما بعد عن لسانه بأنه قال: إذا اكتفى الانفصاليون بإعدام محمد إبراهيم العلي فقط فهذا أمر جيد! أنا شخصياً لم أذهب إلى أكرم الحوراني من أجل هذا الموضوع، وكنت أخشى فجيعتي به، وخاصة بعد أن تداولت الأوساط السياسية دوره في إفشال تحرك حمص وحلب بهدف، تدعيم الانفصال. وعلى ما يبدو أنه كان للأستاذ أكرم استراتيجية وتكتيك خاص لم يستطع إقناع رفاقه به فعمل منفرداً ولم ينجح.

الانصال بأعضاء اللجنة العسكرية..!!

حين خرج الرفيقان حافظ الأسد وصلاح جديد من السجن اتصلتُ بهما، وما كانت علاقتي السابقة بهما متينة، لأنني كنت على اتصال فقط بمحمد عمران كقائد لحركة الضباط الأحرار. وقد عرفتُ فيما بعد أن رفاقنا البعثيين، ومنهم حافظ الأسد، وصلاح جديد، حملوا محمد عمران ومن معه من الضباط مسؤولية فشل حركة الضباط الأحرار. طبعاً كنتُ أحد هؤلاء الضباط، لذلك ومنذ لقائي الأولى بهما تناقشنا حول هذا الموضوع، وإن كانا يجمّلانني مسؤولية ما في فشل الحركة. واستعرضنا الأحداث بالتفصيل، وبيّنتُ على من تقع المسؤولية، وكان رأي صلاح جديد بأن الموضوع قد انتهى، ولا حاجة للعودة إلى الماضي. وإنما علينا البدء بالعمل.

أضحت علاقتي مباشرة مع صلاح جديد، كان يومذاك لا يزال مسرّحاً

هو وحافظ الأسد . يوماً كنت أرى صلاح وحافظ . إذ كان بيت حافظ بجوار بيتي في منطقة المهاجرين، يفصلني عنه خمسون متراً فقط . وكان يشاركني في سكني المرحوم سعيد يونس ، وقد تركتُ له البيت حين تزوج، حيث استأجرت سكناً في المزة، قريباً من بيت صلاح جديد . حين كنت أسكن في منطقة المهاجرين كنتُ ألتقي بحافظ الأسد يوماً، وكان يأتي لزيارته أيضاً يوسف عرابي . كنا نجلس في شرفة البيت، نتحاور ونتناقش حول الأوضاع والحلول . كان حافظ الأسد وصلاح جديد دائماً معاً، إذ كانا صديقين حميمين، نادراً نرى أحدهما دون الآخر .

كانت لجنة القيادة المشكلة للعمل الجديد والتي تتألف من محمد عمران، صلاح جديد، حافظ الأسد، عبد الكريم الجندي، أحمد الأمير، موسى الزعبي، وهم الحلقة الأولى من التنظيم العسكري، وكنتُ أنا وعلي مصطفى وعلي الضماد ومحمود عزام ويوسف عرابي ومحمود حمرا وكاسر محمود وسليمان حداد، وأحمد خضور، وأحمد درويش، وغيرهم .. تشكل الحلقة الثانية من التنظيم التي كانت الأهم في التنفيذ .

محمد فاضل .. مدامي الدفاع!

رغم خطورة التحضير لعمل عسكري جديد كنتُ مشغولاً بمحاكمة محمد وذلك على صعيد العائلة أولاً، ومن ثم على الصعيد الوطني ثانياً . لذلك اتفقت مع رفاقنا على أن نعين المحامي محمد الفاضل وكيلاً للدفاع عنه . وقد ساعدنا في إقناعه شقيق زوجته محمود أيوبية الذي تربطه صداقة متينة بشقيق كاسر، معين محمود، وقد تحمست للموضوع زوجة الدكتور محمد الفاضل «أم إبراهيم»، التي عملت على إقناعه بوجوب الدفاع في قضية محمد لأنها قضية وطنية أولاً وأخيراً . عند ذلك طلب الدكتور الفاضل مبلغاً قدره خمسة وعشرون ألفاً كأتعاب أولية، وهذا مبلغ كبير يومذاك، طلبه الدكتور الفاضل

ليتهرب من الموضوع. فقلتُ له: سأعود إليك في المساء وأعطيك الجواب. وبدلاً من أن أذهب إلى أفراد أسرتنا لأطلعهم على الأمر، ذهبت إلى صلاح جديد، وأخبرته بطلب محمد الفاضل فوافق، وحين أعلمتُ حافظ الأسد أيضاً قال لي: إن المال ليس مهماً والمهم هو حياة محمد وإخراجه من السجن.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى الدكتور محمد الفاضل ودفعت له خمسة آلاف ليرة سورية، كنت قد وفرتها من رواتبي، فقبل المبلغ كدفعة أولى وقبل التوكيل. لكن للأسف تراجع محمد الفاضل فيما بعد عن الدفاع في قضية محمد، كانت حجته في ذلك أن القضية هي قضية سياسية، والقرار فيها متخذ سابقاً، وأنه لا يستطيع عمل أي شيء من أجله، وأننا ندفع نقودنا خسارة، كما أنه مضطر للسفر إلى القرية، مغادراً دمشق. وقد وقّع لي شيكاً موجهاً إلى البنك الأهلي لكي أستعيد المبلغ الذي كنت قد دفعته له. ورغم إلحاحي بضرورة متابعة القضية دون أن نطلب منه نتيجة محددة، وبالرغم من إصرار زوجته على متابعة القضية إلا أنه كان عصبي المزاج، ولم يقبل بالاستمرار مطلقاً. يبدو أن محمد الفاضل درس القضية جيداً، فوجد أن لا مخرج لها، كما أنه هُدد من قبل مخابرات الانفصال إذا استمر في مرافعاته. لذلك امتنع عن الاستمرار في الدفاع عن محمد إبراهيم العلي. وكان قد تقدم بمرافعات أثار فيها دفوعاً قانونية ممتازة تسببت بجدل قانوني أدى إلى تأجيل إصدار الحكم ومنح التنظيم وقتاً ثميناً أدى إلى إنقاذ محمد إبراهيم العلي من الإعدام. ولولا هذا التأجيل لكان محمد إبراهيم العلي على ما أعتقد في عداد المرحومين. كنت على قناعة لو أن المحامي محمد الفاضل استمر في الدفاع لخرج بنتيجة أطيبت تسجل في أدبيات القضاء، وهنا أودّ أن أقول كي لا أظلم محمد الفاضل بأن هذا الرجل قد تعرّض لتهديدات شخصية كبيرة، وحملة إعلامية شرسة من قبل مخابرات الانفصال وذلك لأن صورته كانت تُنشر في الصحف اليومية بطريقة فيها الكثير من التهديد والوعيد، خصوصاً تلك الصور الكاريكاتيرية التي كانت تظهر وجهه بخدين منفوخين وقد غُرس في أحدهما مسمارٌ لكي

(يتمّ تنفيسه)، كما أن سيارته تعرضت للاعتداء والتخريب والتشويه أكثر من مرة وهي واقفة أمام قاعة المحكمة، وتترك له عليها قصاصة من الورق تخبره بأنهم سيفعلون به كما فعلوا بسيارته. أعتقد أن الرجل تأثر بهذا الإرهاب، فكفّ عن المرافعة والدفاع عن محمد إنقاذاً لنفسه.

في تلك الفترة، كنتُ أنا وابن عمي علي (شقيق محمد) نطبع منشير الحزب ومرافعات الدفاع للمحامين في القضية ونقوم بتوزيعها على المحافظات. وقد لاقينا خلال هذه التجربة الكثير من المصاعب والخلل في التنظيم.

الرقيب... عمل للمخابرات!

وفي أحد الأيام، وبينما كنت موجوداً في إدارة الحرب الكيميائية، جاءني رقيب من الشرطة العسكرية، لم أكن أعرفه من قبل، وقف في الباب وأشار إليّ بيده لأخرج إليه، فخرجتُ. قال لي: أنا الرقيب علاء الدين يونس، أنا حارس ابن عمك محمد إبراهيم العلي في السجن، أرسلني إليك، وهذه رسالة منه، اقرأها وافهمها على مهل، وطلب مني أن أشتري لابن عمي فاكهة لكي يأخذها إليه في السجن. طبعاً لم أشتري الفاكهة لأن وقتي لم يسمح لي بذلك، لهذا أعطيته عشر ليرات، وطلبتُ منه أن يشتري الفاكهة التي يريد. بصراحة لم أذهب لأشتري الفاكهة لأن ذهني كان مشغولاً بالرسالة التي جاءتني من محمد إبراهيم العلي، لذلك ما أن دخلت إلى مكتبي حتى أخرجتُ الرسالة وقرأتها. كانت بخطّه، فأنا أعرف خطه جيداً. قرأت الرسالة، وقلقت كثيراً فقد كان يطلب مني أن أتفق مع هذا الرقيب على تهريبه من السجن، فوجئت فعلاً ورحت أتصيّب عرقاً. تخوّفت من أن يكون هذا الرقيب مدسوساً من قبل شعبة المخابرات للإيقاع بمحمد إبراهيم العلي. تبادر إلى ذهني هذا منذ اللحظة الأولى. لذلك رحت أقلب الأمر على وجوهه كافة، وضعت كل الاحتمالات، أي

أن يكون هذا الرقيب مدسوساً أو غير مدسوس، أن يكون متآمراً أو جزءاً من مؤامرة، ولم أصل إلى نتيجة. كان الصراع في داخلي شديداً. وعند الظهيرة ذهبت إلى نادي الضباط، تناولت طعام الغداء، لم أستطع أن أكل كعادتي، كنت في حالة قلق وحيرة بانتظار حلول الساعة الرابعة التي تواعدتُ فيها مع الرقيب علاء الدين يونس على اللقاء لكي أعطيه الجواب. تواعدت أن ألتقيه في المقهى الذي كان موجوداً عند نهاية خط المهاجرين، ولنتحدث عن ما جاء في الرسالة. تركت نادي الضباط وذهبت إلى المنزل، استبدلت ثيابي، وذهبت إلى بيت حافظ الأسد مباشرة. حين دخلت إليه وجدته يتناول طعام الغداء، أذكر أنه كان يأكل الرز والفاصولياء. قال لي: اجلس وكل معي. فشاركته في بعض الطعام. وفي أثناء ذلك شرحت له موضوع الرسالة، بدا عليه التماسك رغم استغرابه للموضوع وكعادته بين البسمة والضحكة اعتبر الموضوع بسيطاً وسهلاً، رغم خطورته. لقد أراحني تصرف حافظ الأسد آنذاك كثيراً وذلك لأنني أحسست بأنه يقاسمني الهم. قلت له: مع ذلك أنا متخوف أن يكون هذا الرقيب عنصراً في المخابرات. قال: وأنا أظن ذلك. سألني عن المكان الذي واعدته فيه، فأعلمته عن المقهى الواقع عند آخر خط المهاجرين. قال: هذا الاختيار مخيف، وأنا أخاف عليك من هذا الرجل، أخاف أن يكون مكلفاً بمهمة لتصفيتك أنت. وسألني إن كان بحوزتي مسدس واطمأن لوجود سلاحي. فطلب مني أن أذهب إلى الرجل وأنه سيكون قريباً مني مراقباً كل حركة أو أي محاولة اعتداء عليّ. كان يرتدي قميصاً أبيض ينسدل فوق بنطاله ليخفي مسدسه، وكان كعادته عندما يتكلم لا تفارق الابتسامة فمه، كان طيباً وقريباً إلى قلوب رفاقه، لديه القدرة أن يرفع الحواجز بينه وبين الآخر مباشرة. آنذاك كان مسرّحاً بالطبع، وقد كان طبعه (وهنا معترضة) يختلف عن طبع صلاح جديد، فصلاح جديد كان هادئاً جداً، وجاداً دائماً، قليل الكلام، ويصغي بشكل جيد، لا يستطيع المرء رفع الكلفة معه رغم وسامته، قليل الضحك والابتسام، فلا يريحك الحديث معه كما لو تحدثت مع حافظ الأسد.

ذهبت إلى المقهى، وبدلاً من أن أقف في الباب، دخلت، فوجدت اثنين يجلسان في زاوية المقهى، فتحتيت عنهما خوفاً من الغدر، وجلست في الزاوية البعيدة عنهما تماماً تحسباً لما قد يفعلانه تجاهي، وجلست قليلاً أنتظر علاء الدين يونس الذي لم يتأخر عن مواعده. لقد جاء في سيارة تكسي، رأيته ينزل منها ويدخل، فتهضت وقابلته عند الباب مباشرة، وقلت له: لا داعي أن نجلس في المقهى تعال لنمشي، وفعلأً خرجنا من المقهى. شرعنا في السير باتجاه القصر الجمهوري، كنا نمشي على يمين الطريق، كنت متحسباً لكل حركة، ولكل تصرف منه، لقد لاحظت منذ البداية أنه يريدني أن أمشي إلى يساره، أي أن أكون مباشرة قريباً من السيارات، لذلك كنت أتحايل عليه بين جملة وأخرى وأضعه بيني وبين السيارات، لقد أدركت، وهو يصراً على أن يجعلني أمشي على يساره دائماً، أنه اتفق مع آخرين ليتمكنهم من الاعتداء علي. في هذا الصراع الذي عشته بيني وبين نفسي نسيت أن أحافظ الأسد يتعقبنا ويراقبنا بدقة، كنت مأخوذاً بالتفكير بأمر تهريب محمد إبراهيم العلي، وهنا سألت الرقيب علاء الدين ما الذي يريده مقابل تهريب محمد إبراهيم العلي، فقال: أريد عشرين ألفاً. وراح يشرح لي ظروف أسرته الاجتماعية الصعبة. ولكي يقنعني بأن محاولة الهرب ستكون ناجحة حدثني عن قصة هرب عبد الحميد السراج، وأن الشخص الذي هربه أخذ مثل هذا المبلغ. فأعلمته إذا ما هرب محمد إبراهيم العلي سيذهب هو وإياه إلى القاهرة، وهناك سيدفعون له أكثر من هذا المبلغ بكثير. وكان هذا الرقيب يسكن في منطقة قطنا، وأخيراً أخبرته أنني موافق على هذا المبلغ، في حال موافقتي على الخطة. واستفسرت منه إن كان موضوع الهرب سيمر دون مشكلات، فطمأنني بأن الموضوع مخطط له وسيكون سهلاً وشرح لي الخطة. عند ذلك تركته لنتلقي بعد ساعتين في ساحة المرجة. وذهبت إلى الرفيق حافظ الأسد، وتناقشنا بالموضوع ثانية، أخبرته بطلبات الرقيب، فقال بأنه متأكد من أن هذا الرقيب عنصر في المخابرات. وطلب مني أن أعامله على هذا الأساس حتى يتبين أمره بدقة. وعندما تركت

الرفيق حافظ وأنا ذاهب إلى بيتي تذكرت أن هناك رفيقاً من مدرسة صف الضباط أفضى بالملازم علي الشيخ علي ورفاقه وأدى بـ (25) ضابطاً إلى السجن. وهذا الرقيب قال لي أثناء حديثنا أنه كان يخدم في مدرسة صف الضباط فلعله هو الرقيب ذاته، عندما وصلت إلى البيت سألت الملازم سعيد يونس عنه كونه يخدم في مدرسة صف الضباط وأعطيته أوصافه فأكد لي هذه الأوصاف. واتفقت معه إلى أن يذهب إلى ساحة المرجة، موعد لقاءنا، ليتعرف إليه. وليؤكد لي بالإشارة أثناء مروره بجانبنا فيما إذا كان هو الرقيب المقصود أم لا. في أثناء اجتماعي مع الرقيب علاء يونس مرّ النقيب عبد الحميد الجمل ومعه الملازم إبراهيم نور الدين مصادفة، وكلاهما كانا يخدمان في مدرسة صف الضباط. فأعطيني إشارة تحذير، عندئذ نسيت سعيد يونس وأخذت أتصرف مع الرقيب على دراية مني أنه من المخاطر كما أكد لي الرفيق حافظ الأسد. وأخيراً انتبهُتُ إلى مرور سعيد يونس الذي كان يدور حول المرجة عدة مرات ليريني نفسه وأخيراً شاهدته يلطم على فمه إشارة تعني عدم إجراء أي حديث خطر مع الرقيب. وكنتُ آنذاك أخاطب الرقيب ناصحاً له قائلاً بأنه شاب ناصري متحمس ووطني ممتاز، ولكننا نحن لسنا بناصرين ولكن نحب الوحدة العربية، وإيماننا كبير بالقضاء السوري. فبدلاً من أن نتحدث عن دفع ما طلبه من مال من أجل تهريب محمد إبراهيم العلي، رحت أحدثه عن الوطن والوحدة العربية وعدم ضرورة هرب محمد.. الخ. فقال لي أنت لا تريد مساعدة ابن عمك ولست وحدويّاً، وسوف أهربه بنفسه ولا أريد منك شيئاً.

زيارة محمد إبراهيم العلي في السجن!

بعد أن عرفت أن الرقيب علي ارتباط بالمخابرات، كان لابد لي من أن أرى محمد إبراهيم العلي في السجن لكي أخبره بأن هذا الرقيب يعد مؤامرة

لكي يقتلوه. لذلك ذهبْتُ إلى صديق لي اسمه مصطفى العاصي، وهو ملازم في الشرطة العسكرية، ومن أبناء دورتي في الكلية. شرحت لمصطفى العاصي الموضوع بحذافيره، وطلبت منه أن يوفّر لي الفرصة لكي أرى محمد إبراهيم العلي في سجن المزة بأسرع وقت ممكن. وفعلاً قام مصطفى العاصي وعلى مسؤوليته الشخصية بكتابة مهمة لي فيها موافقة على زيارة السجن وملاقة محمد إبراهيم العلي. بعد أن اقنع الضابط المناوب بالذهاب لتناول العشاء في نادي الضباط. بعد ذلك ذهبْتُ مع مصطفى العاصي إلى السجن بسيارته، وكانت من نوع (الجيب) دخلنا إلى السجن، وحين رأني الرقيب علاء الدين يونس، دهّش، وتغيّر لونه. قدّمتُ الموافقة إلى ضابط السجن من أجل أن يسمح لي برؤية محمد إبراهيم العلي، وقد قام الملازم أول مصطفى العاصي بالواجب، فعرفّني إلى الضابط المناوب في السجن، وقال له إن محمد إبراهيم العلي يكون ابن عم الملازم أول موسى العلي، فما كان منه إلا أن طلب محمد إبراهيم العلي، فجاء والتقينا، وبينما أنا أقبله همستُ في أذنه أن الرقيب علاء الدين يونس جاسوس، ومرتبّط مع المخابرات، وأن الانفصاليين يرتّبون موضوع اغتياله إن حاول الهرب. وقلتُ له أيضاً حين أصبحنا وحيدين (بعيداً عن المراقبة) بأننا لسنا ناصريين وأي دعاية في هذا المجال ليس وقتها الآن، وعلينا أن نرضى بقضاء الله، فتحنّ مؤمنون، ورفاقنا يفعلون الكثير من أجل عمل كل شيء يسلمعد على إلغاء حكم الإعدام بحقه. ونحن أيضاً على ثقة بالقضاء السوري وسوف تنال براءتك. وودّعت محمد إبراهيم العلي وخرجتُ من السجن بعد أن أوصيته بأن ينتبه وأن يقطع علاقته بالرقيب علاء الدين يونس. ولكي أجنب محمد الخطر وبعد نقاش مع مصطفى العاصي، اتصل لي بمعاون شعبة المخابرات العسكرية شوقي كيلاني حيث قابلته وأعلمته بنوايا الرقيب علاء بعد أن أخذت عهداً من المقدم بأنه لن يعمد إلى إيذائه كونه ناصرياً ونحن مؤمنون بالقضاء السوري، وأن محمداً ليس ناصرياً. وقد فهم الكيلاني أنني اكتشفت المؤامرة، وعندئذٍ قلتُ له بشكل فيه نوع من التهديد

إنني أعلمتكم. وإذا حصل أي مكروه لمحمد بعد إعلامكم فذلك أمر غير مقبول. وبعد ذلك ذهبت فوراً إلى بيت الرفيق حافظ الأسد وأخبرته بما حدث، فضحك طويلاً وفرح كثيراً، وقال لي: الآن نستطيع أن نطمئن بأن محمد إبراهيم العلي بخير. طبعاً، وبعد ذلك أعلمنا كل رفاقنا الضباط بوجود رقيب اسمه علاء الدين يونس يدعي أنه حارس محمد في السجن، ويريد أن يورط محمد إبراهيم العلي بالهروب، بمساعدة ضباط حزيين آخرين بحجة حضورهم لوداعه في مكان ما في المزة قبل الهرب، وهناك سيقتلون الجميع، بتهمة محاولتهم تهريب محمد العلي. وبذلك يتخلصون منه، ومن مجموعة من رفاقه الآخرين. فاستتفر الرفاق جميعاً. وكان أن جاء الرقيب علاء يونس إلى الملازم أول سليمان حداد الذي تربطه صداقة عميقة ومتينة مع محمد إبراهيم العلي، وكان قد تم تبليغه ككل رفاقنا الآخرين. وأبلغني سليمان حداد أن محمد إبراهيم العلي كتب رسالة له من أجل أن يعمل شيئاً يساعده على الهرب من السجن، وأن الرسالة وصلت إليه عن طريق علاء يونس، وقد أشبعه سليمان حداد ضرباً ورفساً على أساس أنه عنصر ناصري. ومع ذلك أحسنا جميعاً بأننا أمام مؤامرة مستمرة يدبرها الانفصاليون من أجل اغتيال محمد إبراهيم العلي في السجن، والمنفذ سيكون الرقيب علاء الدين يونس، أو حراس السجن. وكنا نسابق الزمن وأكثرنا استعجالاً للتنفيذ كان سليمان حداد، وكانت التحضيرات جارية للانطلاق بالعمل وانتظار اليوم الذي ستقوم به الثورة. كنا على صلة يومية فيما بيننا، وكان سليمان حداد موجوداً في الجبهة.

الاستعداد.. للقيام بالثورة!

وأخيراً أخبرتنا قيادة التنظيم بأن نكون جاهزين ليكون التنفيذ في الثامن من آذار ولدى الجدال بين القوى السياسية أعلمنا بتأجيل التنفيذ إلى موعد آخر، فأتى إلي سليمان حداد محتجاً على الجميع وعلى الحزب وبأنه سيكون

مع زياد الحريري الذي سيقوم بالحركة، من الجبهة وعلي أن أذهب إلى حمص للسيطرة على اللواء الخامس، وأن أشاركهم التحرك بغض النظر عن رأي قيادة التنظيم العسكري لحزب البعث. ولم أوافق سليمان حداد على طلبه، وقلت له إنني لست على استعداد لأضحي بالحزب في سبيل ابن عمي محمد الذي ضحى بنفسه من أجل الحزب، ولن يقبل محمد نفسه هذا التصرف. فثار سليمان حداد غاضباً وقال لي إنه مصمم مع زياد الحريري على العمل. فذهبت إلى صلاح جديد، وكان يعاني من أنفلونزا شديدة، وأعلمته عن عزم سليمان حداد وزياد الحريري.

أجابني صلاح جديد: جيد أنك أعلمتني، وطلب مني أن أمكث في البيت وأن أخبر كل الرفاق الذين يأتون لزيارتي، وأن أخبرهم بأن يكونوا جاهزين لتنفيذ الحركة في موعدها المحدد دون تأخير. وعلي ألا أذهب إلى اللواء الخامس، لأنه قد يكون لدي مهمة أخرى سأنفذها في معسكرات قطنا وكلفت علي العلي شقيق محمد بإعلام رفاقنا بموعد الحركة. وكان من رفاقنا هناك خالد بدوي وعلي زيود وبعض الضباط. ورغم أنني لم أجر أي اتصال بقطنا سابقاً، كما قلت لصلاح جديد إلا أنه اعتبر ذلك ليس مهماً وأن الرفيق خالد الخالد سيسهل مهمتي وعلي أن أحتل مرآب الدبابات في المعسكر رقم (8) بالوصول إليه من نوافذه الخلفية مع العناصر المجهزة من قبل خالد الخالد. ولكن علي ألا أذهب إلى قطنا حتى يتم تكليفي بهذه المهمة إذا اقتضى الأمر من قبله. مضيت عائداً إلى البيت، وجاءني الكثير من الرفاق والزائرين. من بينهم، عبد الكريم الجندي الذي أعلمته بالموضوع فذهب لمقابلة صلاح، وعلمت أنه ذهب مباشرة إلى الجبهة، وقام صلاح جديد بتنسيق الاتصالات وإعطاء الأوامر بين جميع الرفاق بعد أن تم البحث عنهم حيث كانوا قد أعلموا بتأجيل الحركة، ومن أطرف المفارقات أننا وجدنا كاسر محمود في إحدى دور السينما الذي كان قد أمر عناصره بالتفرق، فاستطاع أن يجمع بعضهم ويذهب إلى المنطقة الجنوبية من أجل السيطرة على الوضع هناك، مع رفيقه محمود

حمرا وآخرين..

طبعاً عمي أبو محمد لم يكن يعرف شيئاً عن هذه التحركات، ومع تقدم ساعات الليل رحت أقلق كثيراً، فصلاح جديد لم يعد إلي كما أن أحداً من رفاقنا القياديين لم يتصل بي، وعند ساعة متأخرة من الليل جاءني علي الضماد والرائد جميل الجندي، وهو ليس من رفاقنا البعثيين، ورحنا نقدر الموقف مع معرفتنا بأن التحرك بدأ من الجبهة، وأيضاً تحركت بعض القطاعات في دمشق، ومنها كتيبة الإشارة بقيادة النقيب فايز موسى، كل من في كان نائماً لذلك لم نستطع الصبر فخرجت أنا وعلي الضماد وجميل الجندي ورحنا نمشي باتجاه الطريق القادم من الجبهة ننتظر قدوم القوات حتى كاد الفجر يبيغ، ولم تمض مدة طويلة حتى رأينا طلائع القوات تتقدم. لا أستطيع الآن أن أصف مشاعري في تلك اللحظة، كنت فرحاً بالطبع، كما كنت قلقاً، فنحن في ساعة الحسم، وساعة الإفراج عن محمد إبراهيم العلي قد حانت. ومباشرة التحقنا بالقوات القادمة من الجبهة، نحو الأركان، كانت توجد دبابات تحرس الأركان، وكان قائدها الملازم أنيس خطاب مؤيداً للتحرك فاتخذ إجراءاته لتسهيل مهمة قوات الجبهة دون أن تقاوم من قبله.

دخلنا بناء الأركان من دون أن تحدث مناوشات كبيرة، وكانت سرية الإشارة قد احتلت الإذاعة بقيادة فايز موسى، الذي أبدى تماسكاً ورباطة جأش من خلال عمله وفعل الكثير من أجل تعطيل الاتصالات فيما بين الانفصاليين. كما كنت في تلك الفترة موثقاً من القوى الناصرية ذلك لأنني ابن عم لمحمد إبراهيم العلي سجين الانفصال بسبب تحركه من أجل الوحدة بحلب، وقد كانت إذاعات القاهرة وخاصة صوت العرب تركز الحديث عنه، باختصار شديد، كانت كافة التنظيمات الناصرية تعتبرني ناصرياً، وكانت علاقتي بهم جيدة جداً يثقون بي كثيراً. وكان حافظ الأسد وصلاح جديد يضعان باعتبارهما هذه العلاقة من أجل تمتين العمل بالقوى الوحودية وسبر نوايا وأهداف بعض الناصريين وقدراتهم الحقيقية. وكان الناصريون بمعظمهم

عفويين ليس لهم إيديولوجية واضحة بل كانت تغلب عليهم الحماسة لشخص عبد الناصر. وكنت أحبهم جميعاً، وأرى أنه لا بد من اللقاء معهم لوحدة الأهداف القومية. داخل الأركان التقينا بمحمد عمران وصلاح جديد وزياد الحريري، وهنا قال لنا صلاح جديد: ماذا تفعلون هنا، اذهبوا فوراً إلى اللواء (70). وجه الكلام لي ولعي الضماد وجميل الجندي، كان لدى جميل الجندي سيارة خاصة فذهبنا مباشرة نحن الثلاثة إلى اللواء السبعين، وبالقرب من اللواء وجدنا دبابة تقف على يسار الطريق، وعرفنا أنها دبابة معطلة من الدبابات العائدة لمحمود حمرا والتي قدمت من المنطقة الجنوبية بقيادته، فطلبنا من قائدها أن يوجه مدفعه باتجاه اللواء، إذا خرجت قوات منه دون أن نعلمه عنها فعليه أن يقصفها. وعلى مدخل اللواء أوقف جميل الجندي سيارته طالباً رئيس الحرس، سمعناه يقول له: أنت هنا؟ فقال له: نعم سيدي. فطلب منه جميل الجندي أن لا يسمح بدخول أو خروج أحد من اللواء إلا إذا أخبره هو بالذات. كان جميل الجندي جريئاً جداً وشجاعاً، كما أنه كان قائد الكتيبة السادسة في هذا اللواء. وفوراً دخلنا إلى اللواء، إلى كتيبة جميل الجندي، كان لديه أحد المرشحين، حين رأنا وعرف بقيام الثورة راح يطلق النار من بندقيته فرحاً، فنبهه جميل الجندي بأنه سيوقظ النيام بذلك، وطلب منه أن يأمر الحرس بمنع خروج الضباط الانفصاليين من غرف نومهم وأن يجمع عناصر الكتيبة فوراً، فخرج العناصر مباشرة إلى ساحة الكتيبة، وبشكل سريع قال لهم جميل الجندي: يا أبنائي، لقد قامت الثورة. قام بها الضباط الأحرار ضد هؤلاء الانفصاليين الذين هم ضد الوطن، ضد الوحدة. فاشتعلت الحماسة في صدور العناصر، وقال لهم: تعرفون قضية الملازم أول محمد إبراهيم العلي المحكوم بالإعدام، هذا هو ابن عمه، الملازم أول موسى العلي، هو من هذه اللحظة قائد كتيبتكم. وتقدمت قائلاً: الكتيبة بأمرتي، وبدأت بالإيعاز لهم مقدماً له الكتيبة معلناً عن استعدادنا لتنفيذ أوامره وشرعت أوزع المهام. واستدرت نحو الرائد جميل الجندي وحييته وقلت له إن الكتيبة جاهزة سيدي

الرائد. وشرعتُ أوزع المهام على الجميع لكي نسيطر على اللواء بأسرع وقت ممكن. المهم أننا سيطرنا على اللواء السبعين، وتم اعتقال الضباط المعارضين وبدأنا نستقبل التحاق الضباط المسرحين، وبقينا في حالة استنفار مدة طويلة ربما قاربت ثلاثين يوماً. خلال هذه الفترة لم أغادر اللواء لذلك لم أرَ محمد إبراهيم العلي، بعد خروجه من السجن في اليوم الثاني من الحركة وفرحت بذلك فرحاً كبيراً. وكان أن جاء هو عدة مرات إلى اللواء (70) كان خروج محمد إبراهيم العلي من السجن فرحاً يضاف إلى فرحنا بنجاح الثورة آنذاك.



شهادة عبد الكريم الناعم(*)

(*) عبد الكريم الناعم من مدينة حمص. شاعر مميز. له دواوين شعرية عديدة. تسلّم إدارة إذاعة حلب. وله نشاط حزبي مهم في أوائل الستينات.

عبد الناصر.. والبعثيون!

ذكرياتي عن مرحلة التهيئة للثامن من آذار عام 1963

. لا أعتقد أن بداية منطقية موضوعية تستطيع إغفال حدث فصل الوحدة بين دمشق والقاهرة التي قامت بزخم جماهيري رائع ومدهش عام 1958، وكان للحزب - حزب البعث العربي الاشتراكي، دور بارز، ونوعي، وهام، هذا إن لم نقل الأبرز، والأهم.

لقد ضربت الوحدة بأيدي الذين قرَّبَتْهم الجهات المسؤولة في دولة الوحدة، فقد كان لعبد الناصر موقف معروف من الأحزاب، وكان من شروطه حلّ الأحزاب، ولتخوِّف عبد الناصر من الأثر الحزبي على العسكريين الذين كانوا بعثيين قبل الوحدة، فقد نقلهم إلى (الإقليم الجنوبي) فشغرت مواقع حساسة، وذات صبغة مصيرية كان من نتائجها أن فصم عرى الوحدة قامت به عناصر ذات مسؤوليات قيادية اختيرت من قبل مسؤولين في تلك الدولة.

لست بصدد التقييم، وإنما هي فتح نافذة على مقدمات كان لها نتائجها فيما بعد.

. لقد فاجأتنا ضربة الانفصال، فلم تكن متوقعة، ولم تكن لتخطر على بال، فشخصية عبد الناصر من جهة، وأجهزة الأمن بحضورها الطاغوي المخيف من جهة أخرى، غير أن المثل العربي القائل: «من مأمنه يؤتى الحذر» قد انطبق على تلك المجريات.

صباح الانفصال، كنت كمن أصيب بضربة على رأسه، فقد كان التمييز صعباً بين المشاعر، غير أنني كنت مهزوماً، حزيناً لضياح مشروع أول وحدة بين قطرين في تاريخ العرب الحديث، وأي قطرين: سورية ومصر المتاخمين للأرض الفلسطينية المحتلة من قبل الصهاينة.

. لقد كنا كبعثيين، أو كأناس كانوا في حزب البعث نجدُّ على عبد الناصر،

فبعد أشهر من قيام الوحدة لم تطل استقال الوزراء البعثيون من مناصبهم لأنهم كانوا في القاهرة موظفين بلا فاعلية، ونُقل الضباط البعثيون إلى مصر، وبدأت بعض المضايقات للذين كانوا بعثيين، وقدم إلى الصفوف الأولى المنتفعون، وركبوا الموجات، وكان معروفاً أنهم ليسوا من المتحمسين لمبدأ الوحدة، والتقدم، والاشتراكية، وحلّ تنظيم (الاتحاد القومي) محل كل الأحزاب، فكان خليطاً عجيباً لم نكن قد عرفناه في سورية التي نشأت منذ فجر الاستقلال على تمايز الأحزاب حتى حين تكون في خانة واحدة، يمين أو يسار.

آثار حكم الوحدة على البعثيين تركت انطباعات فردية متضاربة، وهذا ليس عذراً للقيادة القومية التي كانت تقود الحزب في أقطار عربية أخرى، وعلى رأسها كل من ميشيل عفلق، وأكرم الحوراني، وصلاح الدين البيطار، وهو ما عرف بالحزب باسم «القيادة التاريخية».

في خضمّ المشاعر الفردية المتضاربة القائمة على العفوية، وعلى ردود الفعل البعيدة عن أي توجيه منظم وقّع على بيان تأييد الانفصال اثنان من القيادة التاريخية هما أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار، وكان الشارع في سورية، بعواطفه العفوية مع عبد الناصر كرمز للوحدة، وللتأجج، ولتوزيع أراضي الإقطاعيين على الفلاحين.

جبهتان.. لقيادة البعث!

لم يطل الوقت حتى تكشف موقف قيادة البعث التاريخية عن جبهتين:

جبهة يقودها ميشيل عفلق والقيادة القومية للحزب، وهي تدين الانفصال، وتدعو لإعادة بناء الوحدة مع مصر على أسس مشروطة تجنب الوحدة تلك الآثار السلبية التي لعبت دوراً مساعداً على ضربها، وشاب هذه الجبهة أن ميشيل عفلق أصر على اعتبار توقيع صلاح البيطار مع الانفصاليين

أنه هفوة ليس أكثر، وضمة إليه، وقد ترك هذا الموقف الرخو شيئاً من آثار
ظهرت فيما بعد، في صراعات أجنحة الحزب.

الجبهة الثانية كان على رأسها أكرم الحوراني الذي كان هو ومن وقف في
صفه شديد الهجوم على (دولة الوحدة) وعلى عبد الناصر الذي كان في نظره
عميلاً، ينفذ مخطط أمريكا في المنطقة.

ولقد نجم عن هذا التشدد فيما بعد وجود مجموعة بعثية ثالثة سموا
(القطريين)، وقد كان فيهم أسماء بارزة، ومناضلة، وبأعداد لافتة من مدينة
دير الزور، و(القطريون) كانوا في البداية قريبين من كتلة أكرم الحوراني وقد
افترقوا عنه فيما بعد. هكذا كان ثمة ثلاث كتل على الساحة ذات أصول بعثية:
- كتلة القوميون (القيادة القومية للبعث).

- كتلة أكرم الحوراني.

- كتلة القطريين.

كان لابد من ذكر هذا بإيجاز لما كان له من آثار على البدايات، بما
استتبعها فيما بعد.

- في مواجهة الطروح المتعددة، لجهات كانت كلها ذات يوم في الحزب،
التحقت بعض العناصر البعثية القديمة بجهة من هذه الجهات، وتوقفت لا
أستطيع حسم موقفني بسهولة، فلكل جهة أفكار، وآراء، ورؤى لا تخلو من
الصحة، أو من بعضها.

في هذه الفترة لم أعد أذكر كيف التقيت بالنقيب المسرح أحمد خضور،
أبو جهاد (من المخرم الفوقاني) وكنت قد تعرّفت إليه في حلب، وكان برتبة
ملازم، وكان هو وصديقه الملازم محمد نبهان (من صبورة السلمية)، والذي
صار فيما بعد واحداً من أبرز ضباط الأمن في عهد الوحدة (المكتب الخاص).
في حوارات متكررة جرت بيني وبين أحمد خضور، والذي سُرح من

الجيش في جملة من سرحهم حكم الانفصال، أو أحالهم على وظائف مدنية تحسباً لانتماءاتهم البعثية.. في حوارات متكررة معه طرحت اعتراضاتي التي أراها، ومخاوفي، وتساؤلاتي، ولم يعترض عليها بيد أنه قال التنظيم القومي هو الأقرب في التعبير عن روح الحزب، والخيارات ليست كثيرة.

بعد أيام قليلة كنت قد تقدمت بطلب العودة للتنظيم القومي، وكنت من الناشطين والذين لعبوا دورهم، ولست بصدد هذا الأمر الآن.

- بعد فترة من الزمن تعرّفت إلى الملازم موسى العلي وهو ضابط مدرعات في اللواء الخامس بجمص، وكان واحداً من الأولوية المعدودة في الجيش العربي السوري.

قرابة مغرب يوم من أيام آذار ذهبت لزيارة الملازم موسى العلي في بيته الذي كان قريباً من بيتنا، وهناك وجدته في الفراش، وبدا عليه أنه يشكو من تعب ما، وكان عنده أخوه صالح العلي، وأثناء زيارتي له قرع باب الشقة ففتح الباب صالح العلي، وعاد وأشار إلى موسى أن يذهب باتجاه الباب، وبعد دقائق عاد موسى العلي وفي وجهه شيء من تجهم. بعد صمت قليل قال: هل أستطيع الذهاب إلى بيتك؟ دون تردد قلت: كيف لا؟ قال قم، سأشرح لك فيما بعد، وقال لأخيه: لا أريد لأحد أن يعرف أين أنا، ولا تتصل بي إلا إذا جاء من يخبرك أنهم قرروا تحريك اللواء.

في بيتي علمت منه أن ثمة حركة عسكرية ضد الانفصال، وأنه أي موسى العلي قد سيطر على مرآب الدبابات، وقد حدث إطلاق نار، وجرح جرحاً بسيطاً في أسفل البطن، وتردد على لسانه اسم العقيد مصطفى الحايك، وأن هذا العقيد طمأنه إلى أن اللواء سوف يكون كما يريد - أي موسى - وأنهم - أي العقيد ومن معه ليسوا أقل وطنية من الآخرين. وأن على موسى أن يضمّد جرحه ويذهب مطمئناً للبيت، وأثناء وجودنا في بيته جاء ضابط صف لزيارة موسى العلي في بيته تحت غطاء الاطمئنان عليه، وبمجرد التمكن يطلق ضابط الصف النار على موسى العلي فيقتله، وكان هذا سبب طلبه أن يغادر شقته

ويجيء إلى بيتي.

كنا قد قررنا النوم أنا وموسى، فأطفأت الضوء، وكنا في غرفة واحدة، وقبل الدخول في النوم، وقراءة الساعة الواحدة ليلاً، على ما أذكر، سمعت نقرأ على شبك الغرفة من الخارج. نظرت من النافذة فشاهدت صالح العلي، قلت لموسى إنه صالح، فجلس، وأدخلت صالح فأبلغ موسى أن اللواء سيتحرك باتجاه حلب، وأن السرية، أو الفصيلة التي يقودها موسى ترفض التحرك إن لم يكن موجوداً، هذا ما قاله ضابط صف في السرية لموسى العلي.

بدا على وجه موسى العلي شيء من القلق والهم، وقال «معنى هذا الكلام إنو محمد راح. يعني قتل - هوّي والشباب».

قلت له: مين محمد؟

قال: محمد إبراهيم العلي، ابن عمي.

ولم أكن أعرفه، وذهب هو ليلاً، وفهمت أن ثمة حركة عسكرية منشقة بين حلب وحمص كانت قد أعدت.

من ثم بعد أيام علمنا من الصحف والإذاعات بحركة حلب التي برز فيها اسم الملازم الأول محمد إبراهيم العلي، وسعيد دباح. ولم يطل الوقت حتى نقل الملازم موسى العلي من ضابط مدرعات في حمص إلى دمشق إلى (الحرب الكيميائية) إبعاداً له عن اللواء، وبعد انتقاله بفترة جاء لزيارتي وقال لي إنه يريد أن يعلم أحد بهذه الزيارة حتى أبي وأمي الذين كانا في غرفة مجاورة. أما زوجتي فلا مناص من معرفتها بزيارته، فهي تعرفه، وليس لديّ إلا هذه الغرفة لي ولزوجتي ولابنتي وابني.

حين بدأ العمل في التنظيم العسكري..!!

جلسنا منفردين فكاشفني بأنه وقع عليّ الاختيار للعمل في التنظيم

العسكري، ودون تردد، وربما كنت مدفوعاً بروح الحماس النضالي، وبفرادة المهمة، دون تردد أعطيت موافقتي، وفي زيارة ثانية أرسل وراء اثنين من ضباط الصف في اللواء الخامس المدرع الذي نقل منه، وجاء إلى بيتي، واجتمعنا، أذكر اسم أحدهما: علي معلا، وقد بدا على أحدهما التحفظ مما يريد قوله وقد نظر نحوي، فابتسم موسى العلي وقال له: لا تخف. هو الذي سوف ينقل لكم التعليمات.

وبعد ذهابهما، وكان الليل قد مدّ جناحه قال: قم لدينا مشوار. قلت: إلى أين؟ قال سأعرفك على الملازم الأول خالد بدوي.

في بستان الديوان حيث كان يسكن خالد بدوي (من حوران) كانت استجابة هذا الرفيق على درجة عالية من الحماسة، والنقاء، والشفافية، والصدق، وأعلمه موسى أنني سأكون صلة الوصل، ولما سأله موسى عن الملازم الأول علي زيود قال له بعد ابتسامة حملت معانيها: يفضل أن تراه.

شيء من القلق وعدم الارتياح بدأ يقض مضجعي وهو إحساسي بازدواجية التنظيم، وعدد من الأسئلة المعلقة في مقدمتها ماذا لو أن تنظيم الحزب لم يكن على علم بالتنظيم العسكري؟

هذا الإحساس بالازدواجية خلق لي حالة من الاضطراب الداخلي. وعدم الانسجام مع نفسي. وبدا لي أن العمل في التنظيم المدني صغير قياساً إلى ما نحن بصددّه. وبدا لي نقل حقائب المنشورات الحزبية من مدينة لمدينة، وتوزيعها عملاً ليس بالحجم الذي كنت أراه.

ذات يوم ذهبت لبيت الرفيق شعيب شعبان وأبلغته أنني أريد رؤية مسؤول ما في القيادة. قيادة الحزب. من دمشق، أعني القيادة القطرية أو القومية لأمر لا أتكلم به إلا مع القيادة، وقد حاول أن أعطيه ولو طرف خيط من ذلك الأمر فاعتذرت. بعد أيام اتصل بي الرفيق شعيب شعبان وأبلغني أنني أستطيع الذهاب إلى عنوان مدرسة، أرجح الآن أنها مدرسة إعدادية، في (الحلبوني)

بدمشق، وحدد لي ساعة حيث يخرج منها الرفيق شبلي العيسمي. وكنت على معرفة به، وهو سيذهب بي،

لغائي، شبلي العيسمي..!!

سافرت إلى دمشق، والتقيت بالرفيق شبلي العيسمي، وذهب باتجاه السبع بحرات، ودخلنا في بناية كانت تقع إلى الشرق منها، وفي الطابق الثاني، أو الثالث، لم أعد اذكر دخلنا شقة استقبلنا فيها شاب أسمر، طويل، لهجته عراقية، عرفت أثناء الجلسة أنه الرفيق حمدي عبد المجيد. وكان الرفاق الذين كلّفوا بإعادة التنظيم الحزبي في سورية، من العراقيين، قد تركوا انطباعاً رائعاً في صفوف التنظيم المعاد في سورية، فقد كانت لديهم خبرة عالية في التحرك، وفي التأثير، وفي شحن الجهاز الحزبي بمعنويات عالية بحكم العمل السري المديد، والمتقن الذي عاشه الحزب في القطر العراقي.

حين ظلّ معنا الرفيق شبلي العيسمي علمت أنه واحد من أعضاء القيادة، ففاتحهم بأمر التنظيم العسكري، فتكلم الرفيق حمدي عبد المجيد وقال «نحن لدينا بعض المعلومات عن تنظيم لرفاقنا العسكريين، وأنا على موعد خلال مدة قريبة مع الرائد صلاح جديد. فلتكن على اتصال، ولم أخبر موسى العلي بهذا الأمر فقد كان يعنيني وحدي بما أثاره لديّ من قلق. ولقد ترددت أكثر من مرة على هذا المكان الذي كانوا يسمونه بحسب المصطلح التنظيمي لرفاقنا العراقيين (الوكر).

- بعد فترة لم تطل جاء موسى العلي من دمشق وقال إننا سنزور الملازم الأول علي زيود من ضباط اللواء المدرع الخامس، ولا اذكر جيداً ما إذا كان قد حضر اللقاء به الملازم الأول خالد بدوي، وإن كنت أرجح ذلك مع علي زيود كانت الجلسة شبه عاصفة فهو يتبنى ما يقوله أكرم الحوراني. وبكثير من الصرامة، لم ييأس منه. ربما لأنه ليس في مراتب ضباط اللواء المدرع

الخامس من الضباط الذين كانوا بعثيين سوى خالد بدوي . وكان ضابط شؤون إدارية، وعلي زيود، وقد ترك نقل موسى العلي من اللواء فراغاً كبيراً لا يسدّه أن لا تخلو دبابة من ضباط الصف فيها، السائق، أو القائد، أو الرامي، من الذين تم الاتصال بهم، وهم جاهزون، لذا كان في لحظة نهار التنفيذ أن يأتي من دمشق الملازم موسى العلي فيتسلل إلى اللواء، ويقود السيطرة عليه، ولقد استجاب علي زيود فيما بعد .

. لم يكن النقيب المسرح أحمد خضور لينقطع عني إلا لأيام قليلة. فقد كان مشغولاً (بعض) الشيء بإعدادية خاصة افتتحت في المخرم فوقاني تعود ملكيتها للضباط المسرحين: محمد عمران، وقريبه مصطفى عمران، وأحمد خضور، وثلاثتهم من (المخرم فوقاني)، ويغلب على جهاز هذه المدرسة التدريسي والإداري أنه (بعثي).

يجيء ويذهب أحمد خضور، ونتحدث في كل الهموم الوطنية والقومية وعلم الحزب، ولم نكن نتحدث عن العمل العسكري، وكان أحمد خضور على درجة عالية من النشاط، وتعدد الاتصالات مع بعض القوى السياسية، ومنهم الناصريون.

. ذات يوم وكنت وإياه في دمشق، وفي مقهى الهافانا حيث كان يلتقي فيه العديد من الرفاق العسكريين، المسرحين والعاملين، في هذا المقهى عرفني إلى النقيب علي إبراهيم مصطفى، ودعانا هذا إلى بيته في جادة الخطيب بدمشق، وكان من السهل قراءة أن الشباب يتحركون بسرعة، وكفاءة.

. في زيارة ثانية لدمشق ذهبنا لبيت الضابط المسرح مصطفى عمران، وهناك التقى أحمد خضور بصلاح جديد، دخلا إلى غرفة، وبقيت أنا ومصطفى عمران في الصالون، وكانت المرة الأولى التي رأيت فيها صلاح جديد،

حين خرجنا لم يكن أحمد خضور مرتاحاً، فسألته عن السبب فقال:

«سوف نكون أمام أزمة حقيقية، فصلاحي جديد لا يريد أن يحدث أي تقاطع، أو أي علاقة مع تنظيم الحزب المدني لأنه لا يثق بالقيادة التاريخية، وهذا سيوقعنا في إشكال» سألته: وماذا كان موقفك؟!

فقال: «لقد أبلغته أننا ننتهي لحزب، وإذا تمّ تغليب هذا التوجه فسنكون حكماً أمام انشقاق في التنظيم العسكري. وسوف يذهب للحزب من يذهب، وينشق من ينشق».

لقد فاتني أن أذكر أن صلاح جديد بعد أن خرج من الغرفة هو وأحمد خضور قد تعامل معي تعامل من يعرف الآخر، و(أظن) أنه تعرّض لمساءلة اختفاء المقدم المسرح محمد عمران، وملاحقة حكم الانفصال له، وتحميله مسؤولية الكثيرة من المجريات، وكان من رأيه أن يسلم محمد عمران نفسه، فلا يتحمل كل ما يقوله الانفصاليون عنه، وغيباه، أو سجنه، لن يؤثر على طبيعة العمل.

. في تلك الفترة التقيت بالملازم عدنان الصالح (من القريتين)، وكنت أعرفه مذ كنا طلاباً في إعدادية خالد بجمص في أواسط 1950م، وكان من رفاقنا البعثيين، وبعد عدد من الجلسات، والمناقشات، العامة وجدته جاهزاً للعمل، وكان في فوج مدفعية، فيه مدفعية م/ط على ما أظن، وشكا من أن قائد الفوج مصطفى عبود، لعله كان برتبة نقيب، هو من جماعة الانفصال، وتحديداً من جماعة أكرم الحوراني، وقال الملازم عدنان الصالح أنه قد يستطيع فعل شيء حين تحين ساعة التنفيذ.

تحرّكات واسعة لإلغاء حكم الإعدام..!!

. في تلك الفترة كان الرفيق محمد إبراهيم العلي، الملازم الأول في المظلات قد صار اسمه على كل شفة ولسان، فهو الذي قاد أحداث حلب، ووحدته، من الضباط، حكم عليه بالإعدام، وجرت تحرّكات واسعة من أجله،

واهتمت بهذه القضية كل القوى الوجودية التقدمية المناوئة للانفصال، حتى أننا كنا في التنظيم المدني نداول مذكرات الدفاع لنقرأها.

وفي تلك الفترة حدثني الملازم موسى العلي أن لا بد من التعاون مع (الناصرين) لإنجاز أي عمل عسكري، ولم أرتح للفكرة، فقد كانت غالبية تلك القوى غوغائية، تفتقر للكثير من الوعي الذي استعاضت عنه بالانفصال، بيد أن للضرورة أحكاماً كما يقولون، فأنا، على سبيل المثال، أعرف وضع اللواء المدرع الخامس في حمص، فالضباط فيه، حين نستثني الملازم أول خالد بدوي والملازم أول علي زيود، هم موزعون بين انفصاليين وناصرين، ومن هنا كان اعتمادنا على ضباط الصف، هؤلاء الذين تحدثت معه بشأن بعضهم من الذين لعبوا أو سيلعبون دوراً مميزاً، كيف سيكون إحساسهم بالضباط الذين سوف يقودونهم مستقبلاً، وهم يشعرون أنهم قدّموا ما لم يقدمه قادتهم، وكان المخرج أن يرفعوا لرتبة ضابط، غير أن هذا الحلم كان كغيره من الأحلام التي تبخرت.

. ذات يوم، وكنا كمجموعة من البعثيين، مع بعض الأصدقاء، نتردد على مقهى الهلال، في ذلك المقهى عرفني أحمد خضور على النقيب المسرح جمال جبر من قرية (المنقّر - سلمية)، وخلال فترة قريبة من أول لقاء التقيته مصادفة، أو هكذا بدا لي الأمر، وجلسنا جلسة طويلة، وودعني وهو يقول ستكون لنا لقاءات.

. حين أعلن عن قيام حركة عسكرية في بغداد، في رمضان عام 1963، وخلال سويغات قليلة عرفنا هوية الحركة / الثورة، وأن البعثيين رفاقنا في العراق هم قادة تلك الثورة.. حين أعلن عن ذلك شعرنا بقوة رافعة، ولم تعد قوة الناصريين وحدها الماثلة على الساحة.

. قليلاً ما تحتفظ ذاكرتي بتواريخ الأيام أو السنوات عدا القليل منها، غير أن لبعض التواريخ خصوصية لا تنسى،

بعد ظهر يوم 1963/3/6، وكنت داخل الصف في مدرسة القادسية الكائنة على طريق الشام - وفي دوام بعد الظهر، .. دخل الأذن عليّ وقال «كلم المدير»، ذهبت للإدارة فوجدت فيها النقيب المسرّح جمال جبر، وفور دخولي أشار المدير بيده إليه، فسلمت عليه، وخرجت وإياه، وبسرعة أخرج من جيبه ورقة مفتوحة وقال لي «هذه هي التعليمات، أوصلها للملازم أول خالد بدوي، وبلغ أحمد خضور أن يكون في حمص لا في القرية، الشباب سوف يتحركون اليوم، وأنا ذاهب لتبليغ جماعة حماة، وجماعة اللاذقية»، وغادر مبتسماً.

كان لا بدّ من مغادرة المدرسة، لذا أرسلت أحد الطلاب الذين يعرفون بيتي وقلت له أن يبلغ أخي (خضر) أن يجيء إليّ، وهو رفيق حزبي، وهو شديد الشبه بي، ولما جاء طلبتُ منه أن يدخل الصف بدلاً مني وأن لا يغادره أثناء الفرصة ودوام بعد الظهر كان ساعتين فقط، وقد مضى شطر منهما.

غادرت المدرسة بعد أن تسلمت حائطها الشمالي، وذهبت باتجاه الحميدية إلى بيت الملازم أول خالد بدوي. قرعت الجرس ففتحت الباب زوجته، وبعد السؤال أعلمتني أنه مستنفر منذ يومين في اللواء وغير مسموح لهم بمغادرة اللواء، ودّعتها وأنا مدرك ماذا يعنيه هذا الاستنفر من مخاطر.

كان لا بد من إيصال التعليمات التي لا أذكر الآن شيئاً منها، ربما لتقادم الزمن فبينني وبينها الآن ثمانية وثلاثون عاماً، وربما لأن مجريات الأحداث قد طفت عليها، المهم فيها أن الشباب سيتحركون خلال هذا الليل.

ذهبت إلى موظف مدني كان يعمل في اللواء المدرع الخامس، وأظهرت أمامه من ضيق المأزق الذي أنا فيه ما يحمله للاستجابة، قلت له أن أحد أصدقائي أعطاني ثمن ثلاثة كروزات سجائر (خصوصي للجيش)، والذي أخذ ثمن الكروزات لم يحضرها، والرجل يضغط عليّ وسوف يعود مساء لأخذ الجواب، وقلت لذلك الموظف أن صديقه العريف رسلان يعرف ذلك الرجل. والعريف رسلان مستنفر في الثكنة،

قال الرجل باطمئنان وتطمين: «تكرم يمكنك، غداً أبلغه».

قلت بانفعال: «يرحم أهلك لا أستطيع، أريد أن أراه اليوم قبل عودتي للبيت»، قام الرجل متثاقلاً واتجهنا نحو ثكنة خالد، الباب الشمالي، وجلست أنتظر في واحد من تلك المطاعم التي تقام حول ثكنات الجيش.

بعد زمن طويل في الانتظار عاد الرجل ومعه العريف رسلان، ولكي أنفرد بالعريف رسلان، تقدمت من الموظف المدني الذي مسح الأيام اسمه من ذاكرتي وشكرته بحرارة، واعتذرت منه، ولم يكن أمامه سوى أن يغادر، وكنت قد وضعت ورقة التعليمات في مغلف، قلت للعريف رسلان، وكان واحداً من الذين اتصلنا بهم من قبل، وهو من الذين كانوا في صفوف الحزب قبل تطوعه في الجيش، قلت له: أوصل هذه الرسالة للملازم خالد بدوي.

لمعت عيناه ببريق، وكمن يطمئن إلى تخمينه قال: هل هناك شيء؟

قلت مهوَّناً من الأمر، وطارداً لما فهمته من تلويح: لا. المسألة وما فيها أن أقرباء خالد بدوي حدثت بينهم مشاجرة في القرية، وقد جاء أبناء عمومته يريدون رؤيته، ولما كانت زوجته لا تعرف أحداً هنا فقد أرسلت خلفي ورجعتي أن أوصل إليه هذه الورقة، فالرجاء إيصالها، لم يبدُ عليه أنه اقتنع بما سمع، فودَّعته.

اتصلت بالملازم عدنان الصالح، وكنت قد اتفقت معه على شيفرة يفهمها، اتصلت به وكان في الفوج، وحاولت تقليد لهجة أهل (القريتين)، وقلت له: أبوك يسلم عليك، وهو متوَعك، وسوف يكون عندك يوم غد.

قال: هل أنت متأكد من أنه سيكون في حمص يوم غد؟

قلت: هذا ما قاله لي.

كان عليّ أن أذهب لقرية (المخرم فوققاني)، وقد صار الوقت مساءً، والسير ينقطع. آنذاك مع تلك المناطق بعد الثانية ظهراً، وليس في جيبي ما

يكفي لتسديد أجرة سيارة ذهاباً وإياباً، ولم أجد حلاً أفضل من أن أستأجر سيارة جارنا في الحي، وهي خصوصية، ومن نوع قديم جداً، وتلبي مثل هذه الطلبات، وأستطيع أن أرجئ دفع الأجرة حتى أول الشهر القادم. وهذا ما كان. انطلقت بنا السيارة في ليل شديد الظلام، وفي جوٍّ ماطر.

حين دخلت البيت وجدت فيه عدداً من الزوّار. وفيهم صديق ورفيق قديم هو ممدوح جمعة، وكان قد اختار صف أكرم الحوراني فشاب علاقتنا بعض الفتور النفسي، ولكيلا أثير الشبهة بادرت فور جلوسي، موجهاً الكلام بصوت عال لأحمد خضور:

ما الذي فعلته يا رجل؟

اثنا عشر طلباً قدمتها إعداديتكم لطلاب الشهادة الإعدادية، منها سبعة عشر طلباً تنقصها بعض الأوراق، أنت مدير مدرسة؟ لقد (يسّنا) مئة يد حتى أقنعناهم بعدم اعتبارهم راسبين، ووعدنا باستكمال الأوراق.

ردّ أحمد خضور بتبرّم: وهل مدير مدرسة هي شغلي؟ حين قمت لأغادر خرج معي يودّعني فأبلغته بوجود أن يسافر معي، صمت قليلاً ثم قال: لا. سافر وحدك.

قلت: لماذا؟

قال: أخشى أن يحدث أيّ طارئ فننكشف نحن الاثنان. لم أرتح للفكرة، ولم أناقشه، بل قلت: كما تريد، وعدت. - كان الليل طويلاً، ثقيلاً، ولم أستطع النوم. مع بزوغ الفجر قمت من الفراش، فتحت المذياع على «صوت العرب»: فلم تدع شيئاً عمّا أنتظر. انتقلت إلى إذاعة «لندن» فلم تدع شيئاً عمّا أنتظر.

في السادسة والنصف كانت إذاعة دمشق، أو في السادسة لم أعد أذكر.
كانت تبث برامجها العادية.

لم أعد أستطيع الانتظار، وأرجح، إن لم تخني الذاكرة أنه كان يوم
خميس.

لبست ثيابي، وقررت أن أغيب عن دوام المدرسة، وسافرت إلى دمشق،
بعد أن تركت رسالة مع زوجتي تسلمها لأحمد خضور. سافرت لدمشق لأعرف
حقيقة ما جرى، وأنا لا أعرف بيت الملازم أول موسى العلي، وكل ما أعرفه أنه
كان يسكن شرقي مشفى (المزة)، إلى الجهة اليسرى منه، وبدأت رحلة السؤال
لدى أصحاب دكاكين السمانة دون طائل، إلى أن أرشدني أحدهم إلى بيت فيه
ضباط.. فقد يعرفونه.

في الطابق الأول فني ضغطت زر الجرس ففتحت لي امرأة وقورة،
ومتقدمة في السن، وحين سألتها عن بيت موسى العلي ردت بشيء من الخوف
أنها تعرفه، ولكنها لا تعرف أين يسكن. أثناء هذا الحوار خرج شاب من
الداخل سمع الحوار وجذبنني من يدي لأدخل فدخلت، فكرر ما قالت أمه.
طمأنته قائلاً: أخي لا تخف، أنا قريبه، ومعني قريب مريض وأريده من أجل
مساعدي، فكرر أنه لا يعرف مكان سكنه.

ذهبت يائساً، مضطرباً، متوتراً باتجاه مقهى الهافانا لأستريح قليلاً، وكان
الوقت قد جاوز بعد الظهر، وقررت العودة إلى حمص.

حين دخلت المقهى وقعت عيني على موسى العلي، وعلى ضابط آخر
أعرفه هو رثيف العلواني من حماة، ومعهما الشاب الذي أدخلني إلى بيته قبل
أقل من ربع ساعة.

أذكر هنا أنني قرأت على جرس البيت الذي دخلته كنية الجهني، وعرفت
فيما بعد أنه ضابط اسمه توفيق الجهني.

لغائري ؛ موسى العلي..!!

دخلت مقهى الهافانا فالتقت عيناى بعيني موسى العلي فتجاهلته، وذهبت إلى إحدى الطاولات وجلست، بعد زمن لم يطل خرج موسى العلي من المقهى فتبعته، ودخل في أحد الشوارع فاقتربت منه وسألته عن أسباب ما حدث فقال إن ضباطاً ناصريين قد وشوا بأحد الاجتماعات لمخابرات الانفصال، وسنتحرك اليوم ولو كان في ذلك قطع رقابنا، وأعلمني موسى العلي أن الذي فتح لي الباب، وشاهدته، جاء ليحذره من أن المخابرات تسأل عنه، عدت من دمشق فوصلت حمص مساءً، وعلمت أن أحمد خضور لم يستلم رسالتي لأنه جاء إلى البيت حين كانت زوجتي تشتري بعض الحاجيات، فتضايقت، وقصدت بيته استأجره في وادي السايح، وحين شاهدت المصباح الكهربائي الموجود على الباب مضاء قدّرت أنه في الداخل، غير أنني ضغطت على زر الجرس أكثر من مرة فلم يردّ أحد، وخشيت أن تكون مخابرات الانفصال قد اعتقلته، فعدت إلى البيت لا أستطيع النوم لليوم الثاني، وكنت في حالة من توتر الانتظار والترقب، ومع صباح الثامن من آذار بدأت باكراً بملاحقة الأخبار فلم أسمع ما أنتظر جواباً عنه، وزاد في توتري أن إذاعة دمشق والتي كانت تبدأ ببثّ برامجها في السادسة والنصف، كما أذكر، هذه الإذاعة كانت صامتة، وهذا يعني أن ثمة حدثاً ما، ولكن هل هو لنا أم علينا، ذلك هو المجهول المقلق.

طال زمن الترقب، وأصبح أكثر ضغطاً. في الساعة السابعة ودقيقتين، بحسب ساعة يدي، لست متذكراً، هل كانت البداية بمارش عسكري أم بما معناه: أيها الأخوة المواطنون، بعد قليل تستمعون إلى بيان هام.

حين أذيع البيان تيقنت أن الشباب قد استولوا على مبنى الإذاعة، وبدأنا نستمع إلى برقيات التأييد.

أثناء ذلك وصل أحمد خضور، وكان هادئاً في مظهره الخارجي على الأقل، وحين سألته عن سبب غيابه البارحة مساءً قال إنه اضطر للذهاب لشراء حاجة، وقد ترك لي المصباح الخارجي مضاء لأفهم منه أنه عائد بعد قليل، قلت له ولماذا لا أفهم منه أن الجماعة قد (عفظوك)؟!

أثناء استماعنا لبرقيات التأييد العسكرية كان أحمد خضور كمسكري يحدّد مواقع معظمها، ولقد لفت انتباهنا أن اللواء المدرع الخامس في حمص لم يرسل برقية تأييد، وهذا يعني أن ثمة مشكلة ليست في صالح الحركة.

قراءة الساعة الحادية عشرة ظهراً، إن لم تخني الذاكرة، أذيعت برقية تأييد من اللواء المذكور، وكان قائده العميد محمد الصوفي، وهو ناصري، وقد صار وزيراً للدفاع فيما بعد.

وبعد هذه البرقية، أذاعت الإذاعة دعوة لعدد من الضباط المسرحين، دعوا كضباط احتياط، ومنهم اسم أحمد خضور الذي ذهب إلى قيادة موقع حمص، كما نصّت التعليمات لتأمين سفره لدمشق، بسبب منع التجوّل.

ليس الوقت وفن حرد..!!

لقد ظلّت علاقتي بالناشطين من ضباط الصف في اللواء المدرع الخامس علاقة طيبة، وقامت صداقة شخصية بيني وبينهم واستمرت حتى بعد أن أصبحت خارج التنظيم الحزبي، وكان آخر اتصال لي ببعضهم بخصوص عمل عسكري قبيل حركة 23 شباط 1966، فقد جاء لزيارتي محمد إبراهيم العلي، والذي منذ أن تعرّفت إليه شخصياً بعد خروجه من السجن، يوم قيام ثورة الثامن من آذار، ربطتني به صداقة حميمة مازال قائمة حتى الآن، جاء إليّ ذات مساء وأخبرني أن الأمور غير مريحة، وأن هناك من يريد جرّ البلد إلى مزلق خطيرة، وأن ثمة دوافع يخجل المرء من ذكرها، وكنت قريب عهد بالجرح الناغر الذي حملته بسبب فصلي من الحزب، - وعسى أن أكتب حول هذا الأمر

قلت له: ما علاقتي بالمجريات؟ أنا لست في الحزب.

قال: ليس الوقت وقت حرد. والوطن أهم منا جميعاً.

قلت: ما المطلوب مني؟

قال: أن تتصل بضباط الصف الذين عرفتهم أيام التحضير للثورة، وأن توجههم للعمل بعيداً عن تكتل أمين الحافظ، - وكان رئيس مجلس قيادة الثورة فيما أذكر - وقد فعلت ذلك..



شهادة محمود حمرا (*)

(*) محمود حمرا من مدينة حماة. مواليد 1936. ضابط في الجيش والقوات المسلحة. أحد الضباط الذين شاركوا في أحداث ثورة 8 آذار 1963.

الدخول إلى الكلية العربية..!!

ولدت في حماة عام 1936 من أسرة فقيرة في حي شعبي هو حي الشيخ عنبر، درست في مدارس حماة حتى حصلت على شهادة الدراسة الثانوية عام 1956. ونظراً لوضع أسرتي المتواضع من الناحية المادية كنت أعمل في الصيف لتأمين متطلبات الدراسة ومساعدة أسرتي وأدرس في الشتاء. انتسبت إلى حزب العربي الاشتراكي عام 1952 لأن هذا الحزب كان يناضل ضد الإقطاع والرجعية وينادي بالاشتراكية وإصلاح أوضاع العمال والفلاحين المضطهدين، وكان يحكم سورية آنذاك الدكتاتور أديب الشيشكلي. ساهمت مع رفاقي الطلاب بالنضال ضد نظام الشيشكلي حتى سقط هذا النظام عام 1954 بانقلاب مصطفى حمدون بحلب، وعادت الحياة البرلمانية. وفي أثناء النضال ضد أديب الشيشكلي انضم حزب العربي الاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني إلى حزب البعث العربي بقيادة ميشيل عفلق وباندماج الحزبين شكلا حزب البعث العربي الاشتراكي.

حدثت انتخابات في عام 1954، وفاز البعثيون في محافظة حماة بكامل القائمة 6 نواب، وفاز عدد من البعثيين في عدة محافظات أخرى، وأصبح لحزب البعث العربي الاشتراكي 17 نائباً في البرلمان، وأصبح الحزب يحرك الشارع في سائر المحافظات. وأصبح له رصيد قوي في الجيش العربي السوري، ولعب الحزب دوراً قوياً في مقاومة الاستعمار والأحلاف الاستعمارية مثل حلف بغداد، والدفاع المشترك.. الخ. وكان التيار القومي قوياً جداً، وكانت الثورة في مصر تنادي بالقومية العربية ومقاومة الاستعمار وفي عام 1956 قام عبد الناصر بتأميم قناة السويس، وكان البعثيون وكل الوطنيين في سورية يلتهبون حماساً وقد أصبحت فكرة الوحدة العربية قوية بين الجماهير في سورية والوطن العربي.

الاستعمار لم يرق له تأميم قناة السويس، وضرب مصالحه في الوطن العربي فقامت بريطانيا وفرنسا و«إسرائيل» بالعدوان الثلاثي على مصر، وكانت الجماهير تلهب حماسةً وحقدًا على الدول الاستعمارية. وقفت سورية وكل فصائل الشعب العربي ضد هذا العدوان إلى أن اندحر في هذه المعركة عام 56 دخلت الكلية العسكرية مع عدد لا بأس به من رفاقي البعثيين من محافظة حماة مثل وليد حمدون وموسى العلي، وإبراهيم قنوت، ومحمد إبراهيم العلي وهدفنا أن نتخرج ضباطاً ونعمل من داخل الجيش على تحقيق أهداف أمتنا في الوحدة والحرية والاشتراكية، وكان معنا رفاق أيضاً من المحافظات الأخرى.

الوحدة.. والممدّ القومي!

تخرجت دورتي عام 1958، وفي هذا العام ازداد المدّ القومي كثيراً في سورية والأقطار العربية. وتمت الوحدة بين مصر وسورية وكان ذلك بفعل الضباط البعثيين في الجيش والنواب البعثيين في البرلمان.

وكم كان سرورنا كبيراً بقيام هذه الوحدة لتكون نواة للوحدة العربية الكبرى وسقوط النظام الملكي في العراق وأصبح أكرم الحوراني نائباً للرئيس عبد الناصر، وكان في الوزارة الاتحادية عدد من الوزراء البعثيين، ولكن عبد الناصر استمع إلى بعض المغرضين الذين حذروه من البعثيين فبدأ تنكيلاً بالبعثيين، وبدأ بنقل الضباط البعثيين إلى مصر وكنت ممن انتقلوا إلى مصر ويحيل الرتب الكبيرة منهم إلى الخارجية والوظائف المدنية. وهنا تشكلت اللجنة العسكرية في مصر لتنظيم الضباط البعثيين، ولم يبق في سورية داخل الجيش إلا عدد قليل من الضباط البعثيين، وخلت الساحة للضباط الرجعيين، وكان الحزب قد حلّ فقاموا بالانفصال في صبيحة 28 أيلول 1961، ونجح الانفصال لعدم وجود من يدافع عن الوحدة في الجيش، وعدت بعد الانفصال،

كنت مع القادمين من الضباط إلى سورية ولكن الحكم الانفصالي الرجعي سارع إلى إصدار نشرة عسكرية بتسريح 63 ضابطاً بعثياً، منهم الرئيس حافظ الأسد ومصطفى طلاس ومحمد عمران وصلاح جديد ووليد حمدون ورئيس علواني إلى آخر القائمة، وأحالهم إلى وظائف مدنية أو التقاعد، وهنا كان لابد من الإسراع لقيام حركة ضد الانفصال.

وبدأ الضباط البعثيون ينشطون بقيادة اللجنة العسكرية داخل الجيش مع الضباط الناصريين. كنت قائد سرية في كتيبة دبابات إزرع، وكان قائدها النقيب مطاع خلقي من الضباط البعثيين. وكان أكثر ضباط الكتيبة بعثيين مثل الملازم أول كاسر محمود جديد، الملازم أول حسين الأعرج، أو كانوا من المؤيدين للحزب مثل مصطفى أنطاكي.

وكان إلى جانب كتيبتنا كتيبة مشاة بقيادة النقيب موسى عساف، فيها عدد من الضباط البعثيين مثل الملازم أول يوسف نعيسة، الملازم أول إبراهيم ملكي، الملازم أول منير صقر. وكان قائد كتيبة المشاة مؤيداً للحزب.

وهاتان الكتيبتان في منطقة إزرع تتبع لواء المشاة في السويداء، وكان في هذا اللواء عدد من الضباط البعثيين مثل الملازم أول محمد صبحي الشوفي، الملازم أول كمال أسود، الملازم أول أزرق الياس، الملازم أول أسعد ميني، الملازم عبد الرزاق الكنت، الملازم عبد الكريم عمار، الملازم أول علي غانم، وعدد من الضباط الوندويين الناصريين أذكر منهم عبد الحليم الخطيب.

أي أن لواء المنطقة الجنوبية في السويداء وإزرع يسيطر عليه البعثيون والوندويون سيطرة تامة، كنت أنا أقدم ضابط من الضباط البعثيين في هذا اللواء، وكنت على صلة في دمشق بصلاح جديد ومحمد عمران وفي الجبهة على صلة بالنقيب مصطفى الحاج علي.

ليلة الإحصاد.. للثورة!

وجاءت الأوامر بأن الثورة يوم 7 آذار وقد كان سائقي الدبابات في دمشق يتبعون دورة تدريبية، ومعهم ضابط المركبات الملازم أول كاسر محمود، فاتصلت بالملازم كاسر لكي يعود بالسائقين إلى إزرع يوم 6 آذار ليلاً. ومن ثم أجلت الحركة لأن الناصريين في حمص لم يوافقوا على هذا التاريخ لأنهم كانوا يخططون من أجل قيام الثورة بمفردهم وذلك وفق تاريخ هم يحددونه وبذلك يضعون البعثيين وجماعة زياد الحريري تحت الأمر الواقع لأنه من غير المعقول أن نخذلهم. ولكن اللجنة العسكرية اتفقت مع زياد الحريري للإسراع بالتنفيذ يوم 8 آذار لوضع الناصريين تحت الأمر الواقع (أي انقلب السحر على الساحر).

اتصلت مرة ثانية بكاسر محمود لكي يعود بالسائقين مساء 7 آذار، ليلة التنفيذ وكان ذلك. عاد كاسر محمود بعدد من السائقين وكانت دبابات الكتبية مخزنة فجندنا دبابات على عدد السائقين الموجودين، واتصلت بكمال أسود بالسويداء على أن يعد ما يستطيع من قوة للنزول إلى دمشق. جندنا 4 سرايا مشاة وسرية مضاد دبابات.

وبينما أنا موجود في إزرع جندت سرية دبابات وسرية مشاة بقيادة يوسف نعيصة والتوجه إلى دمشق على المحور الأول: السويداء - شهباء - دمشق، أما المحور الثاني فهو إزرع، الصنمين - الكسوة - دمشق، وكان خوفنا من اللواء السبعين في الكسوة حيث كان الانفصاليون يحشدون فيه ضباطاً موالين للانفصال. ولكن لم نجد أي مقاومة لهذا اللواء، وكان الضباط متوجهين من دمشق إلى الكسوة لذلك، اعتقلناهم في الطريق قبل وصولهم إلى الكسوة. أما قوات الجبهة بقيادة العقيد زياد الحريري فقد وصلت إلى الأركان قبلنا بقليل ومن الضباط الذين جاؤوا من الجبهة، العقيد زياد الحريري والمقدم محمود الحاج محمود، والنقيب محمد الحاج محمود، وسليم حاطوم، والملازم أول عبد

الرزاق العلي، والرائد بسام عبد النور، الرائد الجاجة، ولا أذكر بقية الأسماء. عندما وصلت إلى ساحة الأمويين قابلت العقيد زياد الحريري في اللحظة التي كان فيها الطيران يقلع من مطار المزة العسكري ويحوم فوق القطعات من دون أن يقصف. أمرني العقيد زياد الحريري بالتوجه إلى مطار المزة واحتلاله. فتوجهت إلى مطار المزة وعندما وصلت إليه كانت جميع الطائرات الحربية في السماء، ولم يبق في المطار إلا طائرات النقل والحوامات.

سيطرت على المطار، ووضعت دباباتي على المدرج وقد ذهب جميع الطائرات إلى مطار السين، وقد توجه الرائد حافظ الأسد على رأس كتيبة دبابات يقودها أسعد طباع من القابون واحتل بها مطار الضمير وبذلك تمت الثورة من دون إراقة دماء ومن دون أي اصطدام بين القطعات.

وبعد أن استقر الوضع للثورة كلفت أن أكون في حراسة قيادة أركان الجيش.

الناصريون وافقوا على الثورة، ولكن كانوا يضمرون الشر ويعدون للتخلص من البعثيين بينما كانت قيادة البعث تتفاوض مع عبد الناصر لإعادة الوحدة.



شهادة يوسف نعيمة(*)

(*) يوسف نعيمة من مدينة اللاذقية. ضابط في الجيش والقوات المسلحة. أحد الضباط الذين شاركوا في أحداث ثورة 8 آذار 1963.

مؤتمر حمص.. والنفاط الانفاس!

لقد علمت في أوائل نيسان 1962 أن محمد إبراهيم العلي قد ذهب إلى مؤتمر حمص مع لؤي الأتاسي، وحدد مطالب حلب الوندوية وخرج المؤتمر بمقررات، كان منها إبعاد الضباط الانفصاليين إلى خارج سورية وهم، المقدم عبد الكريم النحلاوي، والمقدم وهيب الهندي، والعميد عبد الفنى دهمان، والرائد بسام عسلي، والرائد ممدوح حناوي، والمقدم هشام عبد ربه، والنقيب عادل الحاج علي، إعادة تشكيل هيئة القيادة ودراسة موضوع الوحدة وإعادتها على أسس مدروسة وتشكيل حكومة انتقالية، ودراسة إمكانية إعادة الضباط المسرحين والمحالين إلى وظائف مدنية بعد 28 أيلول 1961م إلى الخدمة في الجيش أي بعيد وقوع الانفصال، والعفو عن العسكريين الذين اشتركوا في حوادث حلب في 1962/2/31 وصباح 1 نيسان 1962م، والتعويض عن العسكريين الذين قتلوا أو أصيبوا على ضوء أفضل الشروط القانونية.

في هذه الأثناء استمرت إذاعة القاهرة، خصوصاً إذاعة صوت العرب في توجيه نيران تعليقاتها الملتهية واللاذعة ضد الانفصال، وضد رموزه وهاجمت الوزراء وخاصة خالد العظم، وبدأت تتحدث عن المعتقلين من رفاقنا البعثيين والناصرين فتصفهم بأنهم شهداء الأمة العربية، وخاصة محمد إبراهيم العلي الذي كان حكم بالإعدام. وكان تعاطفنا مع رفاقنا الذين مازالوا في قبضتهم في سجن المزة وخاصة الرفيق محمد إبراهيم العلي الذي حكم بالإعدام كبير جداً. كنا نتوقع تنفيذ حكم الإعدام بين لحظة وأخرى بعد أن صادق عليه رئيس الجمهورية ناظم القدسي، وكان لابد من تجاوز أخطاء الماضي التي وقعت في 28 آذار 1962م كي تكون حركتنا هذه المرة ناجحة وحاسمة. كان الضباط في إزرع مقسومين شطرين، الشطر الأكبر انفصالي ويتبعون عبد الكريم النحلاوي، ومعظمهم قادة لسرايا كتيبة المدرعات (104)، والشطر الآخر هو الأقل بعثي وناصرى أو صديق للطرفين، فمن البعثيين كاسر محمود ومحمود

حمرا ويوسف نعيصة ومنير صقر ومصطفى أنطاكي وإبراهيم ملكي وبعض الملازمين، وكنا نأخذ المعلومات عن الأوضاع في البلد من جهتين عن طريق الملازم أول كاسر محمود، ومحمود حمرا، كنت أذهب إلى دمشق فألتقي الرفاق حافظ الأسد، وصلاح جديد، وصلاح الضلي، بعد خروجهم من السجن حيث كنت انتظرتهم في منزل شقيقي في بستان بختيار أو في مقهى الهافانا أو في منزل ابن عمي صلاح نعيصة، والمصدر الآخر للمعلومات كان يأتيها المرحوم محمد الخطيب الذي كان مدرسا للغة العربية في السويداء فيعطينا المعلومات.

كنا نعاني من الانفصال بلاشك، ونتحسّر على رفاقنا الذين سرحوا من الجيش وأصبحوا في الوظائف المدنية، وكان أكثر ما يؤلنا وضع رفيقنا محمد إبراهيم العلي، فهو قارب قوسين من الإعدام، قد يعدم بين عشية وضحاها إضافة إلى الأحكام الجائرة التي صدرت بحق رفاقنا، ناهيك عن وضع البلد المتري وما آلت إليه الأمور من فوضى، وما قام به الانفصاليون من تراجع عن القرارات الاشتراكية لتأمين مصالحهم الطبقية واستمرار ابتزازهم لخيرات الشعب كعهد الإقطاع والرجعية، أما الوحدة أمل العرب في الإنصاف والحرية ورحنا نتساءل هل ما سنقوم به انقلاب! أم ثورة؟

لابد من الثورة.. لإنقاذ العلي!

وخسم الأمر، فنحن نريد أن نقوم بثورة، فالثورة لا يقوم بها إلا الثوار وهي تغيير كامل للواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في قطرنا والاشتراكية لا يفعلها إلا الاشتراكيون، وإذا استلم الناصريون فلن يفعلوا إلا إعادة الوحدة على ما كانت عليه، وبالتالي سيصاب الجميع بخيبة أمل وسيجهز هؤلاء على ما تبقى من البعثيين، وقد تجربتنا معهم قاسية قبل ذلك سواء إبان الوحدة أو في أحداث حلب.

وقد أخرجنا الناصريون كما أخرجنا الانفصاليون بإصدارهم حكم الإعدام على رفيقنا محمد إبراهيم العلي ناهيك عن ما قاموا به من تبديلات هامة اجتماعياً واقتصادياً، قال محمود حمرا صبح ما تقول ولكن لم يكن لدينا الوقت للنقاش لأن زياد الحريري في الجبهة سيقود حركة التمرد بعد رفضه الذهاب إلى بغداد كملحق عسكري فاتفقنا على النقاش، وبدأنا ننتظر حتى رن جرس الهاتف من السويداء وكان النقيب عبد الغني وكمال الأسود حيث قال الأخير ابدؤوا. فذهبت إلى مهجع سرיתי وقمت بإيقاظ الجنود من نومهم، وقلت لهم الحقوني إلى مخزن الأسلحة، وكنت قبل ذلك قد وضعت مخازن البنادق مليئة بالذخيرة في صناديق خشبية بمثل هذه الساعة لسرعة السيطرة على الموقف قبل أن يسبقني إلى ذلك قادة السرايا الآخرون الذين لا نضمن ولائهم وتعاونهم معنا، فكان كل جندي يتناول سلاحه فيقوم المجند أحمد حمام وهو في حي الكلاسة من حلب بإعطاء الجندي مخزناً مليئاً بالذخيرة وكل ذلك تحت إشرافي، فوضعت حرساً من قواتي على مخازن الأسلحة التابعة للكتيبة لمنع أي إنسان من الاقتراب منها إلا بأمرى فقط، ثم أرسلت فصيلة بسلاحها وذخيرتها مع الملازم أول محمود حمرا لحراسة الدبابات لكي يمنع الاقتراب منها لأي كان دون رغبته وذلك للسيطرة على دبابات الكتيبة (104) فالدبابات هي القوة الضاربة في إزرع ثم أرسلت المساعد أول عبد الكريم سخيطة إلى مقسم الهاتف المدني في إزرع ليكون تحت سيطرتي، ثم ذهب الملازم أول منير صقر للإشراف على المقسم العسكري، وذهبنا إلى الضباط الانفصاليين في مهاجعهم، وقلنا لهم حفاظاً على أرواحكم وكرامتكم لا تخرجوا من المهاجع ووضعتنا بعض العسكر المسلحين على باب المهجع لمنعهم من الخروج. شارك في الثورة كل من الملازم أول عبد الكريم عمار بسرية الاستطلاع، والملازم أول علي غانم بسرية المشاة، وعبد الحليم الخطيب بسرية مشاة، ذهبوا جميعاً إلى دمشق عن طريق شها، ثم أرسلت المجندين تركي حيدر وأحمد كلثوم مسلحين إلى منزل قائد الكتيبة (104) دبابات النقيب مطاع خلقي وقلنا له ابقَ في

منزلك ولا تغادره حفاظاً على حياتك، فالثورة قامت، وقطعنا عنهم خط الهاتف، وطلبت من العاملين في المقسمين العسكري والمدني أن تمر كل المكالمات عن طريقني ولا تُعطى أية مكالمة لأي كان مهما كانت رتبته وصفته إلا عن طريقني، ثم أرسلنا وراء عامل محرك الماء والكهرباء في الثكنة (أبو علي) وهو كبير في السن وفلسطيني من أجل تشغيل محرك الكهرباء وتم ذلك لأن الكهرباء كانت تتقطع بحدود التاسعة مساءً في ثكنة إزرع، وبالفعل لم يجر أي اصطدام بيننا وبين الأطراف الأخرى حيث لم تحدث مقاومة، وكان الهدوء مسيطراً. أما قائد الكتيبة الجديد المرحوم موسى عاصي عساف فقال أنا أؤيدكم ومضى وقت ليس بالقليل كنا ننتظر فيه قدوم السيارات من السويداء لتقلنا إلى دمشق. وفي الوقت نفسه كان الملازم أول محمود حمرا والملازم أول مصطفى أنطاكي، والعناصر المتوفرة يقومون جميعهم بفك تخزين الدبابات تباعاً، وكلما جهزت دبابة كنا نزودها بالوقود وتركيب البطاريات وإعداد الذخيرة. في هذا الوقت وصل الملازم أول كاسر محمود من دمشق وقد مر على سائقي دباباته في دمشق ذهب إلى منازلهم وأحضر معه عدداً منهم ليقوموا بقيادتها إلى دمشق، وكان يرتدي بدلة مدنية وفوق البنطال المدني (جاكيت) عسكرية عليها رتبة ملازم أول، وقام بالمشاركة في إعداد بقية الدبابات، وعندما أصبحت مجموعة من الدبابات جاهزة انطلقت بقيادة الملازم أول محمود حمرا إلى دمشق على الجنازير وهي من طراز (ت34) وفي الوقت نفسه كان قد وصل إلينا من الجبهة بسيارة صغيرة صنع هولندا الملازم نصر فاضل فرج، ومعه الملازم أول مصطفى الحاج علي، والملازم أول مفتخر الشرع ليقوموا بالتنسيق معنا فنحن نعدّ الدبابات وننتظر مجيء السيارات الشاحنة من السويداء وإذ بقائد اللواء العميد عبد الوهاب عبد الرحيم السباعي في سيارته المرسيدس قد جاء من دمشق باتجاه السويداء، وكان الطريق العام يخترق عشرات المساكن في إزرع فأوقفه (جنديان من سريتي) وهما أحمد كلثوم وتركبي حيدر فقال معه أمر أن يدخل فقال له قائدنا الملازم أول يوسف

نعيسة . ولم أكن بعيداً عن مكان وقوفهم . فاتجهت سيارته نحوي وحين وصل إليّ العميد سألتني ماذا تفعلون؟ فقلت له: ثورة.. فقال تريدون أن نقتل بعضنا بعضاً ونخرب البلد! سوف تقدم يا يوسف إلى المحكمة وهذا أمر عسكري. وفي الوقت نفسه رن جرس الهاتف وكان الاتصال من الجبهة أما المتكلم العقيد فهو زياد الحريري يستفسر عن وصول المجموعة المرسلّة من قبله وهم النقيب مصطفى الحاج علي، والملازم أول نصر فاضل، وملازم أول مفتخر الشرع، ولما كانت الاتصالات مقيدة من قبلي وبني شخصياً كما ذكرت رددت على الهاتف فقال: من أنت؟ فقلت له: أنا الملازم أول يوسف نعيسة سيدي. فقال: أين الشباب؟ فقلت: هنا، وصلوا. فقال: لماذا لم تنزلوا بعد (يقصد إلى دمشق) فقلت له: نزلت أول دفعة، ونحن بانتظار فك بقية الدبابات ووصول الآليات من السويداء، ونحن الآن تناقش قائد اللواء العميد عبد الوهاب السباعي، فقال أعطني إياه فطلبت قائد اللواء السباعي وقلت له سيدي يريد العقيد زياد الحريري فقال زياد الحريري: يا أبا عبد الرحيم (يقصد السباعي) انزل واشترك مع الشباب وأعدك بمنصب جيد، فقال له: يا زياد ما معقول كيف سينزل هؤلاء إلى دمشق؟! يعني ذلك أنهم سيقتلون، وتدمر الجيش والبلد، وبعد نقاش بينهما لم يقتنع العميد السباعي بالاشتراك معنا فقال زياد الحريري أعطيني يوسف، فأخذت السماعة منه، فقال لي: لا تسمعوا كلامه فهو لا يريد أن يشترك في الثورة. انزلوا فوراً. وما إن أصبحت دفعة ثانية من الدبابات جاهزة للتحرك حتى قادها الملازم أول محمود حمرا وسار بها باتجاه دمشق (أيضاً على الجنازير) وبعد هنيهة وصلت سيارة بيك جاز من السويداء وتجهزت سبع دبابات (ت34) فقدتها كدفعة ثالثة عن طريق الشيخ مسكين - الصنمين - غباغب - الكسوة - القدم - دمشق إلى شارع خالد بن الوليد، إلى الإذاعة في شارع النصر تاركين منطقة إزرع للملازم أول كاسر محمود والملازم أول مصطفى أنطاكي والملازم أول منير حيدر ليكملوا السيطرة على درعا. وكان رتلي الذي أقوده من قوات سرיתי المشاة والدبابات، فركب الجنود على

سيارتي، وعلى سطح الدبابات وركبت في سيارة (بيك آب جاز) وكان زجاجها
الجانبى مكسوراً ودرجة الحرارة منخفضة جداً وركب إلى جانبى الرقيب أول
محمد قاسم الشعبى. وبذلك نجحت الثورة، وأذكر أنني دخلت إلى الإذاعة
فوجدت مازن النقيب وسمير رفعت. ومذيعين آخرين يقرؤون القصائد
والكلمات الحماسية.





نص ميثاق الوحدة.. الناريخي

في جلسة تاريخية عقدت في قصر القبة في القاهرة في 12 من رجب سنة 1377 هجرية الموافق أول فبراير سنة 1958 اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية العربية السورية، وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر بممثلي جمهوريتي سورية ومصر السادة صبري العسلي، عبد اللطيف البغدادي، خالد العظم، زكريا محيي الدين، حامد الخوجة، أنور السادات، فاخر الكيالي، مأمون الكزبري، حسين الشافعي، أسعد هارون، الفريق عبد الحكيم عامر، صلاح الدين البيطار، كمال الدين حسين، خليل الكلاس، نور الدين طراف، صالح عقيل، فتحي رضوان، اللواء عفيف البزري، محمود فوزي، كمال رمزي استينو، علي صبري، عبد الرحمن العظم، محمود رياض..

وكانت غاية هذا الاجتماع أن يتداولوا في الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي، ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية لذلك تذكروا ما قرره كل من مجلس الأمة المصري ومجلس النواب السوري من الموافقة الإجماعية على قيام الوحدة بين البلدين كخطوة أولى

نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة، كما تذكروا ما توالى في السنين الأخيرة من الدلائل القاطعة على أن القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل ساد العرب في مختلف أقطارهم، ولحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم. وانتهوا إلى أن هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية هي طريق العرب إلى الحرية والسيادة وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام، ولذلك فإن واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى إلى حيز التنفيذ في عزم ثابت وإصرار قوي، ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية، وأسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً، وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة تعاون وسلام.

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام وإيمانهم الكامل وثقتهم العميقة في وجوب توحيد سورية ومصر دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة.

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعي على أن يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية ديمقراطياً رياسياً يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسؤولين أمامه، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد، ويكون لهذه الجمهورية علم واحد، يظل شعباً واحداً، وجيشاً واحداً، في وحدة يتساوى فيها أبنائها في الحقوق والواجبات، ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها.

وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقي أمام مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري في يوم الأربعاء 16 من رجب سنة 1377 الموافق 5 فبراير سنة 1958 يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب الفتية.

كما سيدعي الشعب في مصر وسورية إلى استفتاء خلال 30 يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية.

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجمل الوان

الفخر إذ شاركوا في الخطوة الإيجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلاً بعد جيل، والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها، والله نسأل أن يكلل هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة، ويفضل عنايته السابغة، وأن يكتب للعرب في ظل الوحدة، العزة والسلام.

القاهرة في 12 رجب سنة 1377 الموافق أول فبراير سنة 1958.



وثيقة التوقيع على الانفصال

عقد في دمشق اجتماع ضم عدداً من العاملين في الشؤون العربية، واستعرض المجتمعون الوضع العربي العام، والوضع السوري الخاص، والحالة الدولية بعد قيام الجيش العربي الأبي في سورية بعمله المجيد، فأجمع الرأي على تأييد القوات المسلحة السورية في ثورتها المباركة، وعلى توجيه الشكر إليهم ضباطاً، وضباط صف، وجنوداً.

كما أجمع الرأي على أن حكم الطغيان والتسلط والانحراف الذي أقامه الرئيس جمال عبد الناصر، في كل من سورية ومصر، هو الذي أفقد الوحدة بينهما معانيها السامية، فأبعدها عن أن تكون نواة للوحدة العربية الشاملة الصحيحة، التي آمن بها ويتوق إليها كل عربي، والتي لا تقوم إلا على المساواة والتكافؤ بين البلاد العربية.

كذلك أجمع الرأي على أن هذا الحكم الذي استهدف تشويه فكرة القومية العربية والوحدة العربية، وخفق الحياة السياسية الديمقراطية، ووأد الحريات

العامة، بالرغم منا بذل من نصح وتنبه وتحذير، هو الذي دفع إلى ثورة الجيش العربي في سورية، تلبية لإنقمة الشعب، واستجابة لإرادته بإقامة حياة ديمقراطية دستورية حرة، يمارس فيها سيادته ويتمتع بحرياته العامة في التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي.

ويرى المجتمعون، تحقيقاً لذلك، ضرورة الإسراع بإجراء انتخابات حيادية حرة، وأن يقتصر التشريع خلال الفترة الانتقالية على ما تقتضيه هذه الفترة لتسيير الأمور.

وإن الشعب العربي في سورية الذي دفعت عنه ثورة الجيش القومية التسلط والطغيان، يمد يده إلى الشعب العربي الشقيق في مصر، الراسف في الأغلال ليتخلص من الحكم الديكتاتوري الذي أوجد التفرقة بين مصر وسورية، حتى يلتقي الشعب العربي في القطرين، وفي كل قطر عربي على صعيد العمل الجدي لبلوغ الوحدة العربية المنشودة.

ويدعو الشعب العربي في سورية، الأمة العربية في جميع أقطارها إلى أن تتبين موقفه، وأن تدرك أهدافه القومية السامية، بإقامة حكم دستوري ديمقراطي صحيح، يكفل للشعب سيادته وممارسة حرياته، ويحقق الديمقراطية السياسية والاجتماعية والاشتراكية الصحيحة، والوحدة العربية الشاملة.



البيان الأول لثورة الثامن من آذار^(١)

لقد انطلق صوت الحق يعلن كلمة الحق في صبيحة هذا اليوم الأغر فانهزم الباطل وتساقط دعاته على درب أمتنا الطويل، وانتصرت إرادة الجيش والشعب، وانهزم عملاء الرجعية وأجراؤها واندحر دعاة الانفصالية الذين حرفوا سورية عن طريق الوحدة الصحيح، وكرسوا الانفصال بكل مظاهره وأشخاصه، وحاولوا أن يحلوا الديمقراطية محل الوحدة، فكانت ديمقراطية أعداء الشعب ودعاة الشعبوية والانتهازية.

لقد ظن حكم العمالة، الذي انتهى بنهاية يوم أمس إلى غير رجعة، إن إرادة الشعب ستقهر، وإن الغلبة للباطل المسلح فراح يسرح ضباط الجيش الأشاوس ويقيم المحاكم الصورية ليسوق إليها هؤلاء الضباط زرافات ووحدانا، وليس ثوب الشرعية، شرعية أبي رمانة، مهزلة التاريخ والديمقراطية، فنكل بالطلبة الأحرار وافتعل الحوادث معهم، واستهان بكرامة المواطنين، فسرح من سرح من المعلمين والموظفين ونقل من نقل، وحل النقابات العمالية ليقم على أنقاضها نقابات تأتمر بأمره، وشرد العمال وهجر الفلاحين. وأفسد محاسن قانون الإصلاح الزراعي، وانقض على كل

^(١) كتب هذا البيان الملازم أول سليمان حداد كتابة أولية، وأجرى بعض التعديلات عليه الأستاذ صلاح البيطار، وقد أذاعه من إذاعة دمشق الملازم أول سليمان حداد صباح يوم 8 آذار 1936.

مكسب عمالي أو فلاحى وسخّر أجهزة إعلامه لخدمة مآربه، وأطلق للصحف الصفراء المأجورة أسنتها خدمة لمآربه، فأفسد على الصحافة مهمتها، وأغلق كل صحيفة حرة لا تأتمر بأمره، وأقفل المدارس والجامعات ليفسح له مجال التآمر بعيداً عن عيون شبابنا وطلّاع زحفنا، وأخرج إخواننا العرب من بلدنا، بل بلدهم، خلافاً لكل عرف ولكل مبدأ قومي وعقيدة عربية وخلق رفيع، فمسّ بهذا كبرياء الشعب وكرامته. واستهان بكل تقليد عربي، وتكرّر للعروبة بالقول والفعل. وبدأ انطلاقته الشعوبية لتجميد النضال الوحدوي، ولضرب فكرة الوحدة الصحيحة وفكرة القومية العربية الصادقة.

واستتفرت حكومة الانفصال الصحافة والانتهازية السياسية ورأس المال الاحتكاري في سبيل الاعتداء والكسب والتسلط، ولجأت إلى التلويح بشبح الناصرية، في كل مناسبة جاعلة منه قميص عثمان لتدعيم حكمها وسلطانها، وتعزيز فرديتها وديكتاتوريتها، وإلهاء الشعب عن إدراك حقيقتها وحقيقة أهدافها، وعن متابعة الأزمة السياسية العميقة التي تعيشها. ولكن أسطورة الحكومة القومية المنحلة لم تستطع أن تخفي حقيقتها، فكانت كالنعامة التي تخفي وجهها في التراب هرباً من الصياد.

ولكن الصياد، وهو الشعب، أدركها فقامت انتفاضة جيشه الباسل لتصحيح الأوضاع ولتقوم الانحراف وتضع سورية العربية في طريقها الصحيح، طريق الوحدة والحرية والاشتراكية.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

لقد عانينا طويلاً، وأفسحنا المجال أمام كل الحكومات التي تعاقبت بعد الانفصال لتعمل من أجل الشعب، فكانت المآسي التي عشناها، وكان الغلاء الذي اكتوى الشعب بناره، فقامت ثورتنا المضفرة، ثورة الجيش، ثورة العامل والفلاح، ثورة الطفل والشاب، ثورة المناضلين المكافحين، ثورة الثأر من حكم العملاء والمتردين المرتزقة.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

بنفاد الصبر انتهى حكم الغرياء عن الشعب، الغرياء عن أهدافه ومبادئه عن
مرارة كفاحه وحلاوة انتصاراته.

لقد انهاروا منذ أن جردهم الشعب من ثقته ولكنهم ظلوا يحاولون ويكابرون
حتى كانت ساعة صفرهم وكانت نهايتهم المفجعة.

أيها المواطنون.. أيها العرب في كل مكان:

ندعوكم للوقوف وراء حكم وحدوي عربي شعبي اشتراكي يضع سورية في
طريق الوحدة ويعيدها إلى الحضيرة العربية المتحررة ويمكنها من أن تكون في طليعة
الدول العربية المتحررة إيماناً بالله والعروبة وخدمة للحرية والأحرار والاشتراكية
والاشتراكيين.

ندعوكم للوقوف صفاً واحداً وراء ثورتكم المظفرة على مختلف فئاتكم في وجه
القوى الرجعية والانفصالية والشيوعية والانتهازية التي أقامت العد الانفصالي
لحمايتها وحمايته مصالحها فاطمئنوا إلى مستقبلكم فلن تسلم الأمانة إلا للمؤمنين
الذين عرفهم الشعب ووثق بهم وكانوا في كل معارك نضاله وكفاحه وعاشوا حلاوة
نعمائه ومرارة فاقته وشدة بلواه.

اطمئنوا إلى رفاق السلاح، رفاق المصير الواحد، رفاق النضال على درب
النضال.

أيها المواطنون.. إن ينصركم الله فلا غالب لكم..

عاشت وحدة الجيش والشعب.. وعاشت انتفاضة الثامن من آذار المباركة.

في 1963/3/8



ميثاق 17 نيسان

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله العلي القدير

وباسم الشعب العربي

التقت في القاهرة الوفود الممثلة للجمهورية العربية المتحدة وسورية والعراق. وامتثالاً لإرادة الشعب العربي في الأقطار الثلاثة وفي الوطن العربي الكبير، بدأت المباحثات الأخوية بين الوفود الثلاثة يوم السبت السادس من شهر أبريل (نيسان) وانتهت يوم الأربعاء السابع عشر من شهر أبريل (نيسان) سنة 1963.

لقد استلهمت الوفود في كل مباحثاتها الإيمان بأن الوحدة العربية هدف حتمي، استمد مقوماته من وحدة اللغة التي تحمل الثقافة والفكر، ووحدة التاريخ التي تصنع الوجدان والضمير ووحدة الكفاح الشعبي التي تقرر وتحدد المصير، ووحدة القيم الروحية والإنسانية النابعة من رسالات السماء، ووحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية القائمة على الحرية والاشتراكية.

واسترشدت بإرادة الجماهير الشعبية العربية التي تطلب الوحدة وتناضل لإدراكها وتضحي حماية لها وحفاظاً عليها. وهي تعلم أن نواة الوحدة الصلبة تتكون من توحيد أجزاء الوطن التي امتلكت حريتها واستقلالها وقامت فيها حكومات قومية تقدمية عقدت عزمها على القضاء على تحالف الإقطاع ورأس المال والرجعية والاستعمار وتحرير القوى العاملة من أبناء الشعب لتقيم تحالفها وتعبر عن إرادتها الحقيقية.

لقد كانت ثورة الثالث والعشرين من يوليو (تموز) نقطة تحول تاريخي اكتشف فيها الشعب العربي في مصر ذاته، واستعاد إرادته، فسلك طريق الحرية والعروبة والوحدة. وجلت ثورة الرابع عشر من رمضان وجه العراق العربي الصريح، وأنارت سبيله إلى آفاق الوحدة التي استهدفها المخلصون في ثورة الرابع عشر من تموز. ووضعت ثورة الثامن من آذار سورية في رحاب الوحدة التي اغتالتها ردة الانفصال الرجعي بعد أن حطمت هذه

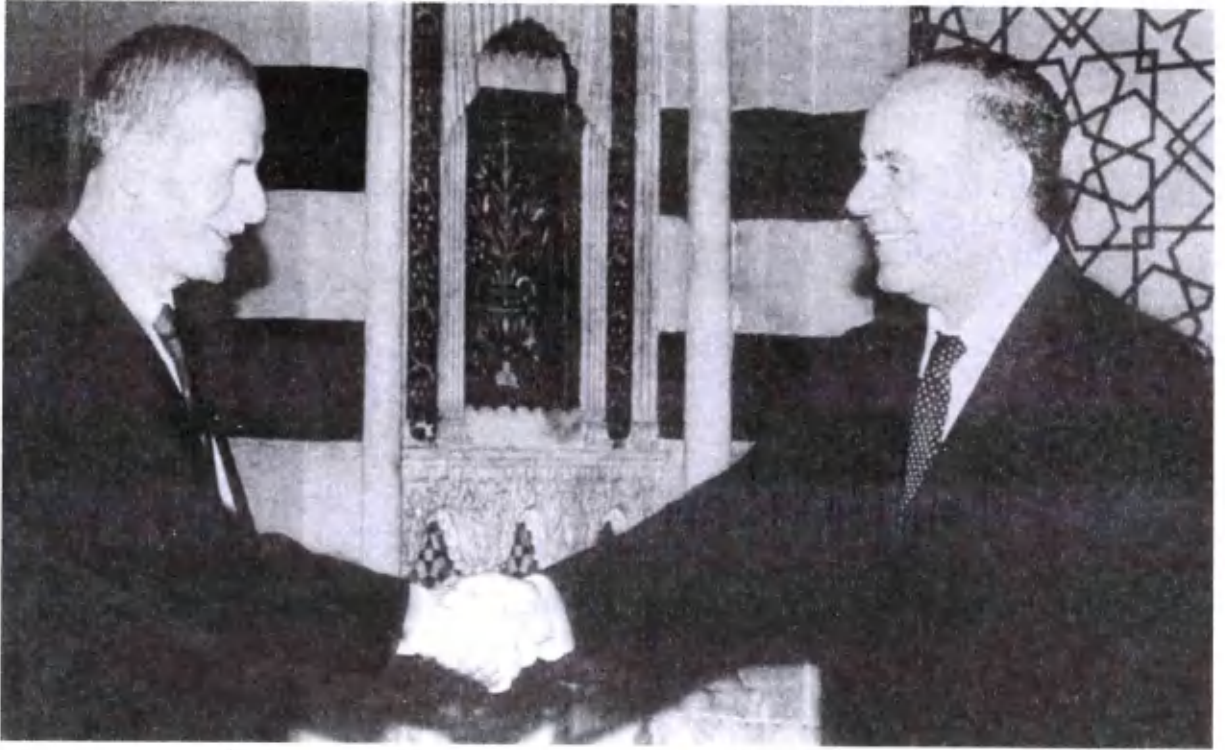
الثورة كل العقبات التي ركزها الانفصاليون والاستعمار بتصميم في طريق الوحدة. والتقت الثورات الثلاث لقاءها هذا الذي أكد من جديد أن الوحدة عمل ثوري يستمد مفاهيمه من إيمان الجماهير وقوته من إرادتها وأهدافه من أمانها في الحرية والاشتراكية. إن الوحدة ثورة، لأنها شعبية، وثورة لأنها تقدمية، وثورة لأنها اندفاع قوي في تيار الحضارة.

والوحدة خاصة ثورة لأنها مرتبطة ارتباطاً عميقاً بقضية فلسطين والواجب القومي بتحريرها فتكبة فلسطين هي التي كشفت تآمر الطبقات الرجعية، وفضحت خيانات الأحزاب الشعبوية العميلة وتكرها لأهداف الشعب وأمانه، وهي التي أظهرت ما في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في البلاد من ضعف وتخلّف، وهي التي فجرت طاقات جماهير شعبنا الثورية، وأيقظت روح التمرد على الاستعمار والظلم والتخلّف، وهي التي دلّت بوضوح إلى طريق الخلاص، طريق الوحدة والحرية والاشتراكية. لقد كان ذلك.. مثلاً أمام الوفود في مباحثاتها، فلئن كانت الوحدة هدفاً مقدساً، فهي أيضاً عدة النضال الشعبي ووسيلته لتحقيق أهدافه الكبرى في الحرية والأمن، وفي تحرير جميع أجزاء الوطن العربي، وفي إرساء مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع الاشتراكية، وفي استمرار التيار الثوري في اندفاعه دون انحراف أو انتكاس، وامتداده ليشمل الوطن العربي الكبير، وفي الإسهام في تقدم الحضارة الإنسانية، ودعم السلام العالمي.

فاجتمع الرأي على أن تقوم الوحدة بين الأقطار الثلاثة كما يريد الشعب العربي على أسس الديمقراطية والاشتراكية، وأن تكون وحدة حقيقية متينة تراعي الظروف القطرية لتحكم عرى الوحدة على أساس من الفهم الواقع لا لتكرّس أسباب التجزئة والانفصال. وتجعل من قوة كل قطر قوة للدولة الاتحادية للوطن العربي، ومن الدولة الاتحادية قوى لكل قطر فيها، وللأمة العربية كلها.

فالوفود الثلاثة تعلن باسم الشعب العربي في مصر وسورية والعراق إرادة هذا الشعب في قيام الوحدة الاتحادية(*) .

(*) هذا الاتفاق.. تسمية تتضمن تفصيلات حول العمل القومي، وبناء الدولة الاتحادية، وخطط عملها، والأسس التي ستقوم عليها، وصلاحيات مجلس الأمة، ورئيس الجمهورية، والوزارات، والسلطات الدستورية، والمجالس التشريعية، وقضايا الأمن القومي، والسياسات الداخلية والخارجية.



السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية
يستقبل محمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي في إحدى المناسبات الوطنية



اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع قائد القوى الجوية و الدفاع الجوي في أثناء زيارته إلى مركز الراموسة قيادة الكتيبة (١٠٢) في مدينة حلب (صيف ١٩٦٦) وإلى يساره الرائد محمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي .. وقائد الكتيبة (١٠٢) استطلاع .



محمد إبراهيم العلي وأسرته
(من اليمين: منى، أم ندى، أبو ندى، ندى، صبا، ربي، أحمد، ريم، وحفيدة محمد ابن ندى بين يديه)



والنقيب محمد إبراهيم العلي قائد الحرس القومي في أحد الاحتفالات الوطنية
الفريق أمين الحافظ رئيس مجلس قيادة الثورة



أبو الندى، وأم الندى

(في القاهرة — صيف ١٩٦٠ ، أمام فندق هلتون المطل على نهر النيل)



النقيب محمد إبراهيم الملي قائد الحرس القومي

(بوزع شهادات المعاصفة على خريجي الدورات القتالية، ويظهر إلى يمينه ياسر عرفات، وإلى يساره خليل الوزير — أبو جهاد)



محمد إبراهيم العلي
(طالب ضابط في الكلية الحربية — القاهرة ١٩٥٨)



النقيب محمد إبراهيم العلي
(في أحد مشاريع الهبوط المظلي)



النقيب موسى العلي
(أحد ضباط ثورة الثامن من آذار)



الرفيق محمد إبراهيم العلي
(ومعه العريف نويصر - قرب نهر الشريعة، عند بحيرة طبرية)



الرفيق محمد إبراهيم العلي
(في الحدود الأمامية - الجولان)

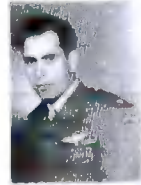


الملازم محمد إبراهيم العلي
(في أحد المشاريع العسكرية - في مطار غرب القاهرة)



النقيب محمد إبراهيم العلي
(ومعه الملازم الأول خالد عمار قائد الحرس القومي في حمص)

مدرسة جنود المظلات



شهادة

تشهد مدرسة جنود المظلات أن اللازم محمد علي بن إبراهيم

قد أتم بنجاح

فئة القفز الاولى بالمظلات

١٩٦١/٣١/٢٠

بتاريخ

وذلك في مدينة بغداد بوزارة الدفاع العراقية



الجمهورية السورية



لواء القائد العام للجيش والقوى المسلحة
يستمهد بأمر الطالب الضابط محمد العلي بن البراءة
قد استحق وسام ذكرى قيام الجمهورية العربية المتحدة
عملاً بأحكام المرسوم رقم ٦٥٧ تاريخ ١٦ / ٢ / ١٩٥٨ .

وتم في ٢٠ / ٢ / ١٩٥٨

القائد العام للجيش والقوى المسلحة

— ر —

صدر للمؤلف

1977	رواية	المراي. 'الجزء الأول'	❖
1978	رواية	الطفغان. 'الجزء الأول'	❖
1978	رواية	التحول الكبير	❖
1979	رواية	الطفغان. 'الجزء الثاني'	❖
1980	رواية	القناديل. 'الجزء الأول'	❖
1981	رواية	نجمة الصبح	❖
1982	رواية	المطاردون. 'القناديل الجزء الثاني'	❖
1983	رواية	الطفغان. 'الجزء الثالث'	❖
1984	رواية	المخاتير. 'المراي الجزء الثاني'	❖
1987	مجموعة قصصية	شوك الدردار	❖
1988	رواية	الذئاب	❖
1991	رواية	الخان. 'المراي. الجزء الثالث'	❖
1994	رواية	المحطة. 'المراي. الجزء الرابع'	❖
1994	رواية	العجربة. 'المراي. الجزء الخامس'	❖
2001	دراسة	حياتي والإعدام. 'الجزء الأول'	❖

المحتوى

6	الإهداء
13	هذه المذكرات...!!
	الفصل الأول:
19	من الطفولة إلى ثانوية ابن رشد
	الفصل الثاني:
83	وجهاً لوجه مع أكرم الحوراني...!!
	الفصل الثالث:
101	الانقلابات ودوامة الفوضى...!!
	الفصل الرابع:
151	خدمة العلم.. وجسر بنات يعقوب!
	الفصل الخامس:
185	من الوحدة إلى الانفصال
	الفصل السادس:
197	من السجن إلى قيادة الحرس القومي
	الفصل السابع:
241	قصتي مع المرشدين
	الفصل الثامن:
275	العمل مع المنظمات النسائية
	الفصل التاسع:
283	لؤي الأتاسي.. وبرنامج (سورية في الظلام)!
	الفصل العاشر:
291	أحداث 18 تموز 1963...!!
	الفصل الحادي عشر:
301	أمين الحافظ.. رئيساً لمجلس قيادة الثورة!

	الفصل الثاني عشر:
311	وفود عربية.. في دمشق!
	الفصل الثالث عشر:
319	أحداث كبرى.. تواجه الحزب!
	الفصل الرابع عشر:
327	فلسطين.. في بيتي!
	الفصل الخامس عشر:
347	فرق وجماعات.. داخل الحزب!
367	شهادات
369	شهادة لؤي الأتاسي
381	شهادة مصطفى طلاس
405	شهادة سليمان حداد
433	شهادة موسى العلي
459	شهادة عبد الكريم الناعم
479	شهادة محمود حمرا
487	شهادة يوسف نعيسة
495	وثائق وصور
509	صدر للمؤلف
511	المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

* فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون *

صدق الله العظيم

